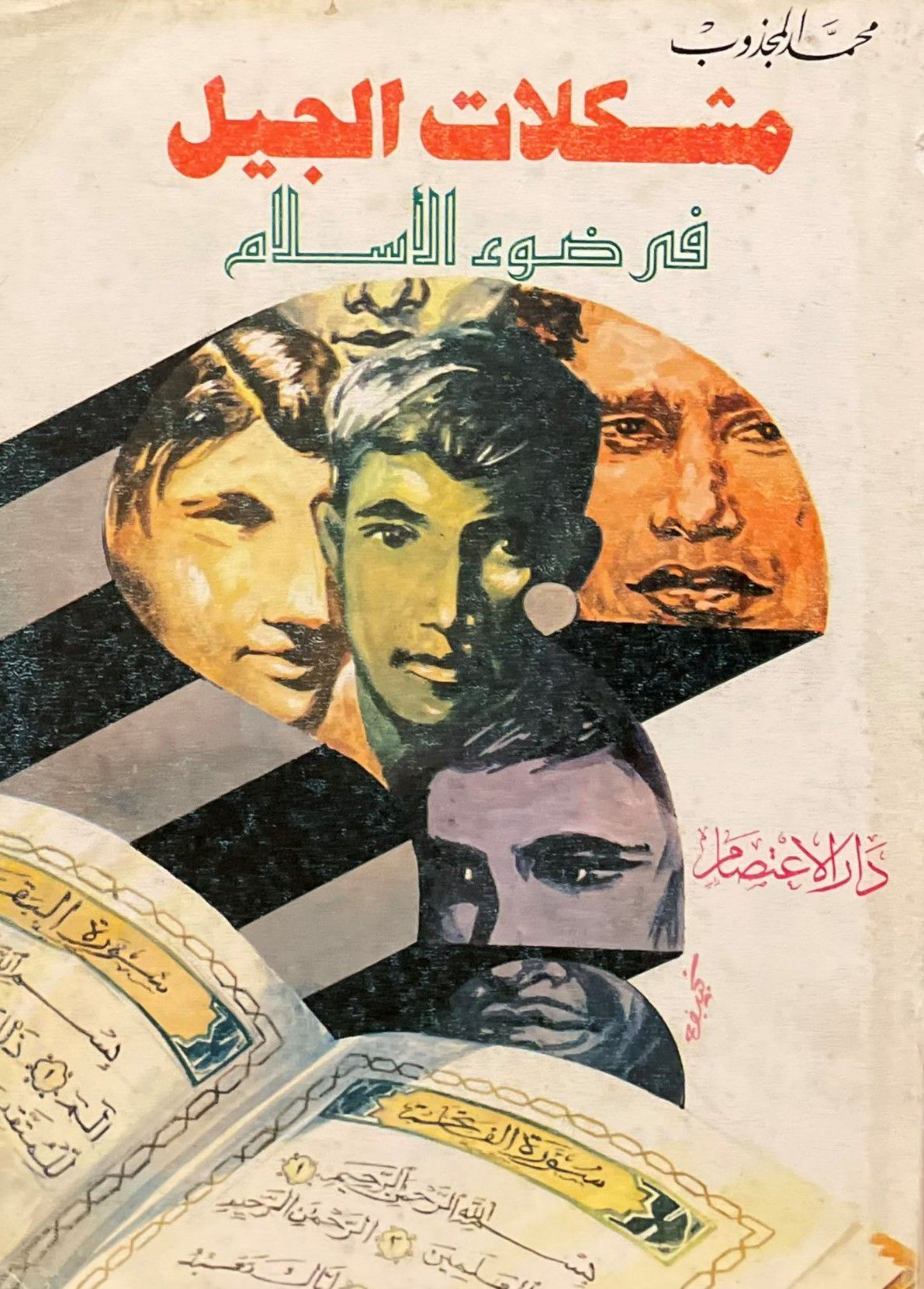


محمد المجذوب
مشكلات الجيل
في ضوء الإسلام
دار الاعتصام
سورة البقرة
سورة الفاتحة

محمد المجذوب



مشكلات الجيل في ضوء الإسلام

الطبعة الثانية

١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م

دار الاعتصام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى الرجل الذى أحب الحق بكل قوته ، فوقف نفسه على نشره ونصرته ، فكان بذلك بقية السلف وقدوة الخلف ، يتعلم منه جلساؤه ومقتفو فضله ، العلم الصحيح ، والعمل الخالص ، والخلق الكريم ، وإيثار رضوان الله على كل ما عداه ، الذى عشقت فضائله حتى قلت له :

روى عنك أهل الفضل كل فضيلة فقلنا حديث الحب ضرب من الوهم
ولما تلاقينا وجدناك فوق ما سمعناه فى الأخلاق والفضل والعلم
ولا غرو أن تهفو إليك قلوبنا فتأسرها بالمكرمات وبالحلم
فلم نر بازا قط من قبل شيخنا يصيد فلا يؤذى المصيد ولا يدمى

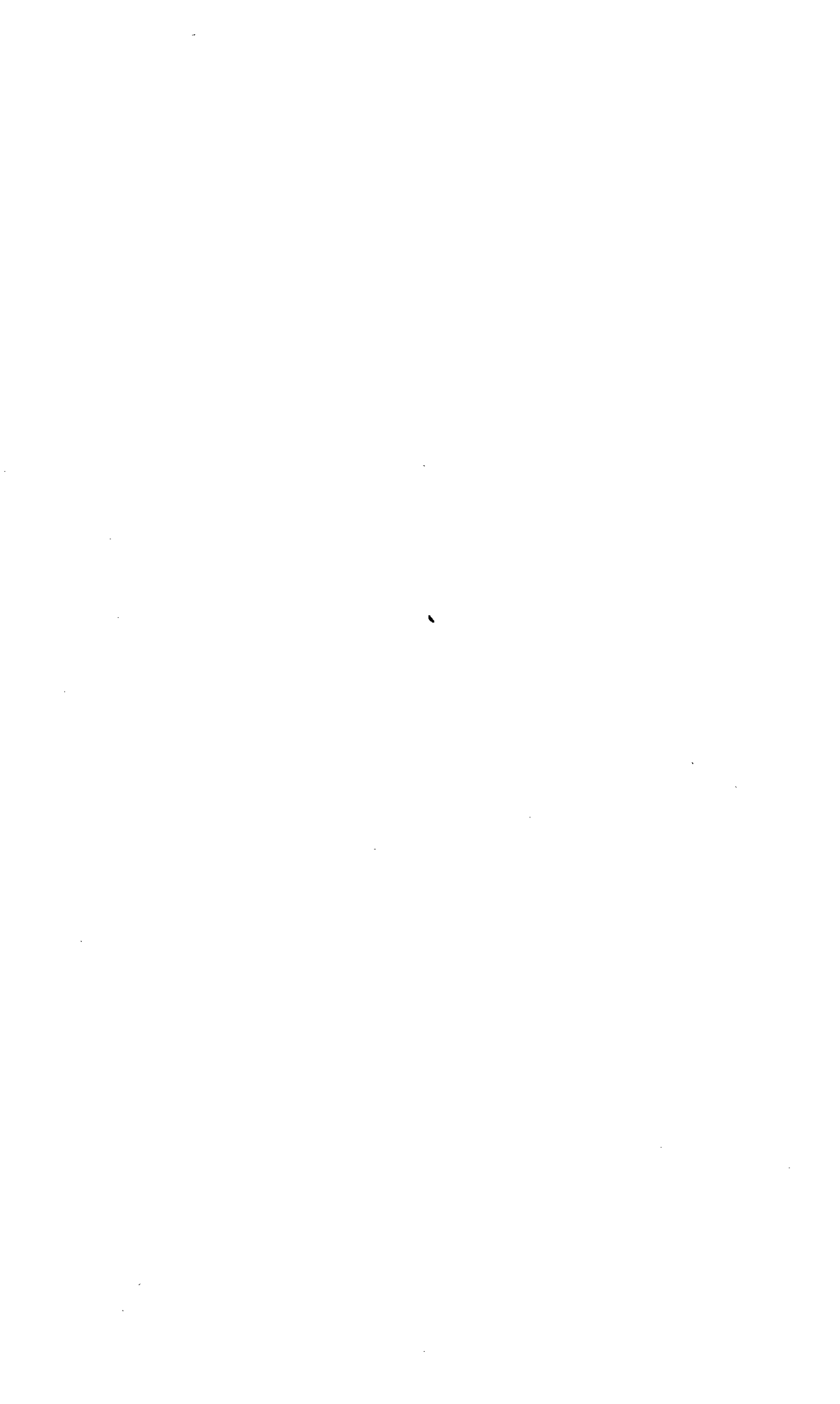
إلى أستاذنا الأجل العلامة :

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الذى كان لصحبته فى عقلى ونفسى خلال عشر من السنين أثرها العميق المبين . .

أقدم هذا الكتاب . . . هدية متواضعة .

المدينة المنورة   المؤلف



مقدمة الطبعة الثانية

شملت كوارث لبنان حتى مجال الكلمة . . فقد أتى حين من الدهر كان الملاذ الذى تأوى إليه الأقلام الهاربة من الإرهاب . . فلما انطلقت شياطين المجزرة التاريخية تقلص ذلك المجال ، ثم توارى وراء ضباب القذائف . . وكان حظ هذا الكتاب غير قليل من شرها إذ شحن منه ، ومن أخوات له سبعة عشر صندوقاً إلى الرياض فمنعت الأحداث وصولها ، ثم حالت الفوضى دون التعرف إلى مصيرها منذ عامين حتى اليوم وكان الأمل كبيرا فى أن تتعدد طبعاته مرة بعد أخرى ، وبخاصة بعد الذى لقيه من الإقبال ، وبعد أن أصدر سماحة العلامة الجليل الشيخ عبد العزيز ابن باز تذكيره للجهات المهتمة بالشئون الإسلامية بضرورة العناية به وبأخوات له ثلاث ، هن : «دروس من الوحى» و «أفكار إسلامية» و « نظرات تحليلية فى القصة القرآنية » عناية تشمل الإسهام فى توزيعها وترجمتها إلى مختلف اللغات الحية تحقيقا لتوصيات اللجنة التى كلفت دراسة هذه الكتب أيامئذ .

ولا حاجة إلى التذكير بأن هذا الأمل كان أحد ضحايا الحرب الأهلية فى لبنان ، إذ حيل بيننا وبين المطبوع ، فضلا عن فقدان المشحونات التى أشرنا إليها .

والآن يهاجر هذا الكتاب ، مع غيره من لبنان إلى القاهرة، ليبدأ منطلقا جديداً برعاية أسرة دار الاعتصام ، وهى تجربة كنا نتطلع إليها من قبل وصدنا عنها ما كانت تعانيه الكلمة المؤمنة هناك من محن ، زالت مع خط بارليف إلى غير رجعة إن شاء الله .

وبهذا يتجدد الأمـــل فى مستقبل لهذا الكتاب أفضـــل برعاية الله .

المدينة المنورة　　　　　　　　محمد المجذوب

١ ــ فى أكثر من مؤلف نشر لى مؤخراً أعلن عن هذا الكتاب باسم (أشعة فى الظلام) وقبل تسليمه للطبع نشرت منه طائفة من الأبحاث فى بعض المجلات الإسلامية تحت عنوان عام هو : (مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام) وعلى هذا استقر الرأى أخيراً ، وقد رأيت ذكر ذلك ليكون القارئ على علم بأن العنوانين لكتاب واحد . وإنما آثرت له الثانى لأننى وجدته ألصق بمضمونه ، إذ هو يعالج عدداً من كبريات المشكلات التى تعترض الجيل الإسلامى بعامة والعربى بخاصة ، فاذا نجحت هذه المعالجة فى تقديم بعض الحلول الصالحة لتلك المشكلات ، كانت فى الوقت نفسه أشعة يرجى أن تسهم فى تبديد بعض الظلمات . .

٢ ــ ثم إن هذه الفصول كانت تؤلف ــ فى أصل فكرتها ــ جزءاً من كتاب جامع ، جريت فى إنشائه على أساس أن ينشر مجموعة موحدة ، ولكن شاء الله غير ما قدرت له ، فاذا الفصول تتسع وتتعدد حتى ليستحيل ضمها فى مجلد مفرد ، فعمدت إلى تصنيفها كل فصل وما يناسبه ، وبذلك صار الكتاب كتباً ، وها هو ذا أحدها يحمل إلى القارئ زبدة تفكير عشر سنوات ، وخبرات عشرات السنين . . ولست بهذا أدعى له ما لا يستحق ، ولكنى واثق من أن القارئ المتبصر واجد فيه ما يعينه ــ إن شاء الله ــ على كثير من الخير الذى يفتقده هذا الجيل دون أن يعرف السبيل إليه .

٣ ــ على أن مشكلات الجيل من الكثرة والتجدد بحيث يتعذر إحصاؤها وملاحقتها . . وهى إلى ذلك تتطلب من الاختصاصات ما يتجاوز جهد القلم الواحد كائناً ما كان . . وفى الإمكان القول بأنها ــ المشكلات ــ جميعاً

تنصب من مصدر واحد هو هذه المفاهيم الغريبة التى تريد فرض نفسها على حياة الناس فى كل مكان ، وعلى كل مكان ، وعلى كل جانب من تفكيرهم وتصوراتهم ، وقد ساعدها على ذلك إقبال هؤلاء على مواطنها ومواطنيها للاستفادة من تجاربهم العملية فى تصنيع المادة وتنمية الموارد ، ولكنها تأبى أن تعطيهم ما يعوزهم من تلك التجارب إلا بأن يتخلوا عن مقوماتهم الذاتية فى الأخلاق والسلوك والاعتقاد ، ثم تردهم إلى شعوبهم مجردين من كل آثار الحصانة فى كل ما هو ضرورى لسلامة الفطرة ، مزودين بكل ما يجعلهم صالحين لتدمير الطمأنينة الروحية ، والانسجام مع قيم أمتهم وتصورها السليم لحقيقة الإنسان والحياة .

٤ ـ ولعل أخطر حصائد هذه المعركة أنها أفسدت على المسلمين نظام حياتهم دون أن تعوضهم شيئاً سوى الشكوك والريب والغرور والادعاء الفارغ ، وإعداد جيل من « المثقفين » لم يتعلم من كهنة تلك الحضارة إلا الوسائل التى تهدم الثقة بمقوماتنا الأساسية ، وتشجع التهجم على معتقداتنا المقدسة التى بها كنا خير أمة أخرجت للناس ، حتى لتجرؤ على الزعم بأننا لم نخسر معاركنا مع الصليبية واليهودية العالمية إلا بسبب ارتباطنا بموحيات هذا « الفكر الدينى » . . فهم لذلك يحاربونه بكل ما أعطوا من سلاح ، ولقنوا من نباح ! . .

٥ ـ ومن هنا كان غرض الكتاب الرئيسى هو الإسهام ببعض الجهد فى إيضاح هذه المؤامرة المبيتة على الضمير الإسلامى لتجريده من كل طاقاته التى تمكنه من الصمود فى تلك المعركة . .

وقد تخيرت من أبعاد الواقع هذه الجوانب الخمسة « دفاع عن الإيمان ـ حرية الإنسان ـ رسالة المسجد ـ مناهجنا بين التقليد والإبداع ـ إلى كلمة سواء » . . وفى اعتقادى أنها تعالج أسس الحياة الإسلامية بل الإنسانية كلها ، فعلى صلاحها يتوقف صلاح الحياة ، وبفسادها تفسد الحياة .

ولا غرو فالإيمان الصحيح هو مركز الانطلاق الذى منه يتعين مصير الفرد والمجتمع ، وبتقرير حرية الإنسان تتقرر مكانته وتتحدد مسؤوليته نحو خالقه ومجتمعه ، وبمقدار قربه أو بعده من خالقه يتبين اتجاهه ، ويتضح نوع صلته بالحياة والأحياء ، وعلى مدى استقامته فى تصور الكون والحياة ينتظم كيانه الفكرى . ثم إن فى دراسة أسس الوحي ومقارنتها وتعرف واقعها فى تجرد واع تصحيحاً لأوضاع من شأنه أن يكشف جوانب الحق ، ويحرر الفكر من أغلال التقليد الضرير ، فتنفسح السبيل للتلاقى على الأخوة الإنسانية الصحيحة . . . وأخيراً وبانتظام هذه الأسس يتحقق للإنسان المسلم والعربى انسجامه مع نفسه ثم مع مجتمعه ، ثم مع الحقائق الكونية التى تحيط به . . وبذلك كله تتضح سبيله إلى النصر ، ومن ثم إلى استعادة مكانته فى قيادة الحياة ، وفى هداية القطعان الضالة .

٦ — ولا عجب فى ذلك ولا شذوذ فلقد (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . . ٢٤ — ٥٥) ، (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . ٦٥ — ٢) ، (والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ١٢—٢١) .

وأخيراً هذا هو (مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام) فإن تحقق به الخير الذى نرجو فمن توفيق الله ، ووجهه هو المبتغى ، ورضوانه هو المنشود ، وهو المسئول أن يجعله عملا مقبولا .

والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الهادى بإذنه إلى سبيل الرشاد ، وعلى آله وصحبه محررى العباد والبلاد ، ومن تولاهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين .

محمد المجذوب

المدرس فى الجامعة الاسلامية

المدينة المنورة — رجب ١٣٩٠ هـ

كفر وإيمـــان :

لـكى نعرف مواقع الأمم والجماعات لابد من الاستعانة بالحدود الإقليمية والسياسية ، وهكذا نطل من كوة الجغرافية على أجناس وألوان لا نهاية لهـا ، ثم تطالعنا من هنا وهناك حدود المصالح وما تستتبعه من أشكال الحقوق ، التى لا ضابط لهـا سوى وحى الأنانية فردية أو جماعية . . تتصادم وتتلاطم وتتحاك ثم تنفجر فتكون الفواجع والحروب التى لا تنتهى حتى تبدأ من جديد .

على أن هذه التعريفات المتباينة لا تلبث أن تتقلص حين نطل من زاوية الحق المطلق ، فلا نرى سوى صفين أو مجموعتين : فئة الإيمـان وفئة الـكفران .

لا شك أن هذا تعريف رجعى لا يليق بعصر الـذرة والصواريخ والمراكب الصناعية . . ولـكنه تعريف لابد منه عندما نريد تركيز المفاهيم على أساس الحقيقة الخالدة ، التى عينت مهمة النوع الإنسانى فى هذا العالم منذ أن وجد هذا النوع . .

ولـكى ندرك حدود هذين الاصطلاحين « الـكفر والإيمان » لابد لنا من العودة بهما إلى الجوهر الأصيل الذى حجبته الأباطيل . . وهناك سنرى عظم الجريمة التى ارتكبتها انحرافات الإنسان عندما شوهت مفاهيم الدين ، فجعلت منه فكرة حزبية لا عمل لهـا سوى بذر روح الحقد والشحناء فى صـــدور الغوغاء . .

الـكفر والإيمان سبيلان متباينان ، بل نظامان متدابران ، لـكل منهما غايته ووسائله .. ولكى نبسط كلا الموضوعين إلى أصغر تحديد ، يمكن أن نكتفى بالقول : إن مهمة الإيمان هى تعيين هدف للحياة يرفعها عن الضرورات الحيوانية ، إذ يجعل غاية الوجود الإنسانى مرضاة الله ، الذى سيحاسب

كلا بمفرده على ما أسلف من عمل كبيراً أو صغيراً ، ظاهراً أو خفياً ..
وبذلك يكون الإيمان أشبه بالإبرة المغناطيسية ، يعين للفرد المؤمن ، كما يعين للجماعة ، طريقهم السليم ، مهما تعصف الأحداث وتضطرب النذر ، فيهب لهم بذلك المقياس الثابت الذى لا يتقلب مع المكاسب العابرة .

أما الكفر فهو إنكار غائية الحياة ، ثم إخضاع كل شيء إلى معيار المنفعة ، فردية أو قومية أو أسرية . . دون أى اعتبار للقيم الأخلاقية ، وهو بذلك يجعل الفرد أو الجماعة نهباً لتقلبات عارضة ، تستحيل معها الحياة ميدان صراع لا غاية له سوى إرواء الشهوات . .

هكذا يتبين بوضوح أثر كل من الطرفين فى سلوك البشرية ، ففيما يحاسب المؤمن نفسه على كل حركة وسكنة يعرض كل ذلك على قوانين مقدسة ثابتة ، مخضعا نفسه ومصالحه لموازين العدل الذى لا يعرف محاباة لصديق أو قريب ، نرى الكافر مقابل ذلك سادراً فى عبادة نفسه لا يبالى شيئاً ، ولا يرى بأساً ، فى سبيل تحقيق هذه الشهوة ، أن يحطم كل القيم ، لأنه لا يؤمن بأخلاقية العمل . . فالسرقة . . سرقة الفرد أو الشعوب ، عمل مشروع ما دام اللص بمعزل عن مسؤولية القانون ، والقتل . . قتل الفرد أو الجماعات ، تدبير حكيم ، إذا كان فى ذلك تأمين للمنفعة . وتغيير الحقائق لون من الدعاية الحاذقة إذا كان فى هذا تثبيت لسلطان ، أو تنفيذ لخطة مقررة . . !

هذه الأزمات التى تأخذ بخناق البشر فى الشرق والغرب . . وهذه الحمى ، حمى الخوف من الغد ، والإعداد المجنون للقتال فى كل مكان ..
إن هى فى الواقع إلا حاصل لا مندوحة عنه لهذا الانحراف الخطير عن جادة الإيمان . . ولم ينس الجيل الحاضر بعد حركة القنبلتين الذريتين فى (هيروشيما وناجاساكى) حيث ذهب مئات من ألوف البشر غير المحاربين ضحية هذه « العقيدة » التى تسوغ كل الوسائل فى سبيل تدمير نشاط العدو ولو كان ذلك بهدم المشافى ، ومحو المدن ، واستئصال الشعوب ! ؟
وطبيعى أن السباق الهائل فى البحوث والتجارب التى أعقبت الحرب الثانية

قد هيأت للبشرية « ألغاما علمية » يكاد يجمع مخترعوها على أنها كافية لنسف الكوكب الأرضي كله ! . هذه الكارثة التي نسير إليها بخطى واسعة ، وتندلع نذرها في عدد من الأقطار . .

* * *

حاميها حراميها :

ومما يمزق أحشاء العدالة أن كلا من هؤلاء المتسابقين إلى تدمير العالم يزعم في وقاحة أنه ساع لإنقاذ العالم ! . بيد أن أسوأ هذه الأكاذيب ما يزعمه الغرب من أنه يمثل دور الحامي لفكرة الإيمان ، ضد هجوم الإلحاد المندفع من حصون المادية ! . إي والله إنه يزعم دون استحياء أنه ممثل المسيحية أمام زحوف الكفر . . ولو صدق الناس هذا الزعم لكان عليهم أن يؤمنوا أن المسيحية هي التي دمرت ناجاساكي وهيروشيما ، وهي التي تحصد مسلمي الحبشة والأريترية ،وهي التي شردت مليون عربي من فلسطين ، لتحشد في بيوتهم شذاذ الآفاق من لصوص الدنيا وتجار الحروب ! . . ويا لها من تهمة يلصقها بالمسيحية هؤلاء المسيحيون !

الحق أن المسيحية هي أولى ضحايا هذه المعركة ، التي تتصارع فيها طاقات البشر جميعاً . . وقد استطاعت قوى الكفر في الغرب نفسه أن تشل حتى اليوم كل تعاليم المسيحية ، وتزيل كل أثر لها من البيت والمدرسة والشارع ، وبالتالي من المجتمع كله ، ثم تحول ما بقي من تعاليم الإنجيل إلى طقوس رمزية جامدة لا تتجاوز أبواب الكنيسة نفسها . . كما حدث في انجلترا حيث اضطرت أن تجاري الحياة العامة ، فتنشئ حولها شباكا تصطاد بها الشبان والفتيات ، فهي توفر لهم كل المغريات المادية ، حتى أندية الرقص ، لتظفر بالتفافهم ، لئلا تتقطع الخيوط الباقية بينهم وبين المسيحية ! . ولا شك أن تعاليم المسيح لا يمكن بحال أن تسمح بهذا التطور ، أو تقبل تلك الفحشاء التي تطغى على المجتمع الغربي كله . . حتى لتعترف التقارير الرسمية والعلمية ، في السويد والولايات المتحدة ، بتحول مدارس البنات فيها إلى بيوت كبيرة للبغاء ،لا تكاد تجد فيها عذراء فوق الثانية عشرة ! . .

وهذا كله إنما يجرى فى أمم تدعى المسيحية ، وفى حماية حكومات وبرلمانات تزعم أنها حامية الإيمان والحرية [1] .

فى هذه الظلمات الطاغية يتساءل المخلصون : هل فقد الإيمان قدرته على إضاءة الحياة ! . . ومن ثم هل انتهت رسالة السماء فى هذه الأرض ! !

أما الجواب عند هؤلاء الفاقهين لحقيقة الوضع البشرى ، فهو أن حاجة الإنسانية إلى هذه الرسالة لم تكن قط أشد منها فى هذه الأيام . . وإنما يفتقد البدر فى الليلة الظلماء . . وذلك أنهم يحللون أسباب هذا الشقاء الغامر فيجدونها مقصورة على فقدان الإنسان لضياء الإيمان . . ومتى كان ممكنا أن تستقيم حال الفرد أو الجماعة إذا هم حبسوا بصائرهم وأبصارهم فى نطاق المنفعة المحدودة أو اللذة العابرة ! !

لقد تقدم عقل الإنسان فى مضمار الكشف العلمى لقوانين الطبيعة بالقدر نفسه الذى تأخرت فيه روحه فى مضمار القيم ، وبذلك وضعت كل معارف الإنسان فى خدمة الشر ، واتجهت كل طاقاته لتدمير نفسه ! .

كل الناس متفقون على القول بأن المستقبل مخيف ومظلم . . وأن الدمار هو المصير المحتوم لكل شئ ، حتى الدين نفسه . . فالطائرة ، التى يفقد السائق قيادها ، على ركابها جميعاً أن يعدوا أنفسهم للكارثة ، دونما حاجة إلى كبير ذكاء أو طويل تفكير . .

ولكن . . أليس ثمة من أمل بإصلاح هذا الخلل ! ! . هل هلاك خبراء الطائرة . . أم فاتهم الوقت ! ! هؤلاء المؤمنون بتعاليم السماء ، المدركون

---

(١) جاء فى أحد التقارير المقدمة إلى حكومة الولايات المتحدة فى هذا الشأن : (أن مدرسة « جونسون الثانوية » اجتاحتها موجة عارمة من الانحلال الخلق نتيجة الاختلاط المطلق . . وانتهى الأمر بتكوين عصابات إجرامية من الطلبة والطالبات . .) وفى عدد ٦-٥-١٩٥٩ من جريدة الأيام الدمشقية أن « جون جورتاج كبير قضاة نيويورك صرح أن ما يقرب من ٥٠٠٠ أميركى يعتقلون سنويا بجرائم الشذوذ الجنسى ، غالبهم من البالغين وبعضهم أطفال » . .

لحقائقها الكلية – على قلتهم وغربتهم – لا يزالون هم المسئولين عن إنارة الطريق للقوافل الضالة . . ولا بأس . . فقد يكون الضوء ضعيفاً أول الأمر ، غير أن من أسرار النور أنه أقوى من الظلام دائماً ، فشعلة صغيرة منه كفيلة بهداية المدلجين ، وبتبديد الكثير من جيوش الظلمة ! .

* * *

انطباعـــات :

كنا عدداً ضخماً من المدرسين الثانويين ، حشدوا لتدقيق أوراق الفحوص الرسمية فى إحدى المدارس ، وعن الأيام العشرة التى قضيناها هناك حملت بعض الانطباعات عن الحوادث التى لم تثر فضول سواى . . وربما لم تلفت نظر أى من الزملاء . . .

أما أحد هذه الانطباعات فقد تكون على أثر كلمة سمعتها من زميل مسيحى دمث ، وجهها إلى آخر بجانبه . . فقد سأل المسيحى هذا الفتى عما إذا كان قد رزق مولوداً ما ليكنيه باسمه ، فأجاب بأنه ينتظر ولود أول بنيه خلال أسبوع ، فإن جاء ذكرا فسيدعوه عليـــا . ولم يستحسن الزميل هذا الاسم فقال : مالك ولهذه الرموز . . علينا أن نزيل هذه الشعائر الطائفية فى الأسماء ، لنحل مكانها أسماء لا تميز صاحبها إلا بعروبته . . . !

وأما ثانى هذه المؤثرات فقد ولد عصر أحد الأيام ، إذ انطلق من مكبر قريب صوت حنون يحمل إلى آذاننا آيات من كتاب الله كان منها : **« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . . ٣٣–٤٥ و ٤٦ »** .

ولقد استمر الأثير يموج بهذا الصوت ساعة ، لم ألمح خلالها قط واحداً من هذا الحشد الضخم أصغى بسمعه إلى تلك الآيات ، وبينهم جماعة من المؤمنين الذين قرؤوا قول الله : **« وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ٧–٢٠٤ »** .

هاتان حادثتان كثيراً ما أستقبل مثلهما فى مشاهداتى اليومية ، فلا أتمالك أن أسأل نفسى : هل تعطلت أجهزة القلوب إلى هذا الحد ، ففقدت القدرة على الاتصال بإشارات الوحى ، حتى لدى « الطبقة المثقفة » ! ! !

إن زميلى المسيحى الدمث المثقف لا يفهم من العروبة إلا أنها تعفية على آثار الدين الذى يسميه طائفية . . دون أن يكلف نفسه السؤال عن صلة الدين بهذه العروبة . . ودون أن يعرف أية كارثة ستنزل بهذه العروبة حين تتجرد من رسالة السماء ، فتكون كنبتة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ! .

وكذلك القول فى زملائى الآخرين حين أغلقوا سمعهم دون آيات الله . . فلم يأبهوا بمعانى هذا النبأ العظيم الذى يحمله إليهم الأثير ! . فليت شعرى . . ألم يكن جديراً بمثلهم أن يفكروا بهذه القضية التى يثيرها هذا النبأ ! .

إن هناك متكلما يقول : إنه هو خالق هذا الكون كله . . وقد تخير محمداً ليحمل إلى عباده رسالته التى تجعل منه شاهداً ومبشراً ونذيراً . . ثم داعيا لأهل الأرض جميعا إلى الله ، فيكون بذلك كله سراج السماء ينير لهم طريق الحياة .

إنها لدعوى رهيبة لا يجوز فى حكم المنطق السليم أن يتجاهلها المثقفون . . بل إن المنطق ليفرض عليهم أن يفكروا طويلا بها ، ثم يتقدموا لفحص أدلتها ، كما يفعل الحر الواعى الذى يؤمن أن الحق هو هدف الإنسان الأسمى . .

. . وشاء الله أن يمر على مقربة من المدرسة صف من السيارات ، يرسل زعيقه بشكل متواصل ، فإذا الجميع جميع المدرسين يتحركون لاستطلاع النبأ ، الذى لم يكن قط يستحق الاهتمام ! . وهنا تساءلت فى غصة محرقة : زعيق عشر سيارات أثار نفوس القوم فهبوا يسألون عن النبأ . . . وهذا صوت السماء ينطلق بكل هذه البشريات والنذر . . ثم لا يستدعى أى استطلاع أو مبالاة ! ! ! . . **« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ١٨ــ٥٧ »** .

تعصب :

لا أعلم شيئاً أضر على الحضارة والأخلاق والحقيقة من التعصب . . فتعصب الفرد لأفكاره ، دون نظر إلى ما عند غيره ، مدعاة للحرمان من سعادة المعرفة . . وتعصب المرء لأسرته أو قبيلته ، دون إنصاف لحقوق الآخرين مزلقة إلى فقدان روح العدالة التي هي قوام المجتمع . . وتعصب الإنسان لتقاليد موروثة ، دون فحصها بين الحين والحين ، على ضوء العلم الصحيح والحقائق الأزلية الخالدة ، ذريعة إلى التخبط في ظلمات الجهل الذي لا يقيم وزنا للحق ، الذي لا يكون الإنسان إنسانا إلا إذا كان أحب إليه من نفسه وأهله وكل شيء . . !

ونحن لو خبرنا ما حولنا من أسباب الشقاء لما شككنا لحظة فى أنها عائدة إلى التعصب فى مختلف أشكاله . . . ولعل ذروة هذا التعصب أن ترى إنسانا يحمل إلى غيره خبرا عن الله ثم لا يعبأ هذا به . . بل ربما يندفع بحماسة إلى تكذيبه . . . دون أي تفكير !

وهذا الإنسان نفسه قد يبلغه وصف لشريط سينمائي ، فيقطع إليه المساوف ، وقد يقرأ إعلانا كاذبا عن كتاب تافه فيعجل لشرائه والانكباب على مطالعته . . ثم هو لا يطيق الاستماع إلى آية من كتاب يشهد مئات الملايين ومعهم الملائكة وأولو العلم أنه تنزيل من حكيم حميد . . !

رآني أحد المسلمين أقرأ كتاب أشعيا — من العهد القديم — فقال : وماذا أنت واجد فى هذا الكتاب لتبذل له من وقتك ! ! ! قلت : اسمع ماذا أجد . . وقرأت له بعض الفقرات فكاد يجن لما سمع من الحق . . . ولكنه ما لبث أن عاد إلى ومعه قس من أصحابي ثم قال : أرجو أن تطلعه على ما قرأت لى . . وألح القس فقرأت له نبوءة أشعيا التى تقول :[1] « تفرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس . . حينئذ تتفتح

---

(١) أشعياء صح ٣٥ و ٤٢ و ٥٤.

عيون العمي وآذان الصم . . . . » . . لأنه قد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى القفر . . فى مسكن الذئاب فى مربضها دار للقصب والبردى . . وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة ، لا يعبر فيها نجس بل هى لهم ، ومن سلك فى الطريق حتى الجهال لا يضل ... يسلك المفديون[1] فيها . . ومفديو الرب يرجعون . . إلى صهيون بترنم ، وفرح أبدى على رؤوسهم . . ابتهاج وفرح يدركانهم ويهرب الحزن والتنهد . . »

وأطرق قليلا ثم قال : هذه أخبار عن السيد المسيح ، وهذه السكة إنما هى الطريق التى سلكها بين مصر وبيت لحم . . قلت : ولكن هذه الطريق عامة مفتوحة لكل سالك كافرا ومؤمنا ، والطريق التى يصفها أشعياء مقفلة خاصة لقوم بعينهم لا يسلكها سواهم لأنها مقدسة ، ثم يفسر هذه القداسة بأن المؤمنين يفدون إليها من أورشليم وما حولها ليتطهروا من آثامهم ، ثم يعودوا فرحين سعداء بما حققوا من هذه الوفادة . . . فمن هؤلاء ؟ . . وأى بلد هذا ؟

وهنا لم يسع القس إلا أن يذعن للواقع فيقول : بلى . . إنها لمكة . . وإنه لمحمد . . وإنهم لأتباعه . . ولكن . . لماذا يخالفنا محمد فى ألوهية المسيح !!! » .

أى والله . . . هذا الذى قاله صديقى القس على مسمع من شهود . . . إنه لا يستجيب للحق إلا أن يأتى الحق وفق هواه : « **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ! — ٢٣ — ٧١** » .

وما أحسب أحدا يرتاب فى أن مثل هذا التعصب للعقد الموروثة هو الذى يضع الحواجز دون انتشار الحق . . . ومن ثم دون وحدة الإنسانية ! .

* * *

الكتب المقدسة :

فى دور المراهقة تنشط الطاقات الحية فى النفس ، ويكون الاندفاع الجرىء ضد كل شىء هو الطابع المميز ، وسرعان ما تفقد المعارف البديهية

(١) المفديون اسم مفعول من الفداء ولعل الحجاج سموا كذلك بسبب ما يقدمونه من الهدى وسائر الكفارات .

حرمتها ، فإذا الشك يتسرب إلى نفس المراهق . الشك فى كل موروث وفى كل ما يعتبر حقيقة مسلمة . . وقد يتحول هذا الشك إلى مروق تام جارف ، إذا فقدت نفس المراهق الظروف الصالحة التى تساعد على التوجيه إلى الحق . . .

وهكذا يكون ذلك الدور خيراً كبيراً ، إذا لقيت النفس المدد النظيف من وسائل المعرفة الصحيحة . . . ويكون شرا كبيرا إذا سيطر عليها الوسط الفاسد . . ثقافيا أو اجتماعيا أو دينيا . .

وقد شاء الله أن أخوض هذه الغمرة محروما من كل الظروف الصالحة ، فإذا أنا سادر فى غمرات الظلمات . وأقبلت على الكتب ألتهمها التهاما . . بيد أنى كنت كثيراً ما أشعر بفراغ فى القلب لا يعوضه شىء مما أنا فيه . . وكان الفراغ حافزا قويا دفعنى لإعادة النظر فى معانى الدين . . فقرأت الكثير من الكتب المقدسة قراءة تدبر ما وسعتنى الطاقة ، مستعينا بكل ما وصلت إليه يدى من شروح لها ، وقرأت كذلك كتب النحل والفرق المختلفة ، ثم رجعت إلى القرآن أنظر فيه ، ومن ثم وعلى ضوء ذلك كله عرفت طريقى . .

أولى الحقائق التى آمنت بها منذ ذلك اليوم أن فى هذه الكتب ثروة كبيرة إليها يرجع كل ما عرفه الإنسان خلال التاريخ من نفحات الاستقرار ومفاهيم الحق والخير . . ثم ثانية هذه الحقائق هى أن هناك قدرا مشتركا بين هذه الكتب المقدسة ، هو الأصل الذى يقوم عليه بناء المجتمع البشرى . . فإذا ما استوعب الدارس أسرار هذا كله ، تيسر له أن يلمح وحدة الأصل والهدف بارزة جلية ، وسيرى حينئذ أن القرآن من بين هذه الكتب السماوية هو النسخة الأخيرة أو الطبعة الأخيرة من رسالة السماء . . فيها خلاصة الحقائق السالفة ، مضافا إليها ما شاء الله أن يزود به الإنسانية من نظم جديدة فى الأخلاق والاجتماع والسياسة ، علاوة عما حمله إليها من تصحيح لمـــا اعتور تلك الكتب السابقة من اضطراب وتشويش . .

وعلى ضوء هذا المفهوم تدرك مدلول هذا الخبر الإلهى الذى يحدد به القرآن رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنها صفوة رسالات النبيين جميعاً، ثم يحدد هدفها بأنه وحدة الإنسانية كلها، فى نظام من التشريع المحكم لا مكان فيه لجور ولا شقاق «**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ٤٢–١٣**» «**وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ٢١ – ٩٢**» وبهذا الروح الأسمى من الوحدة الشاملة فى الإله وفى الدين وفى التشريع، تعلم لماذا سمى الله دين الأنبياء جميعاً بالإسلام، ولم يطلق عليه فى القرآن اسم «الإبراهيمية أو الموسوية أو المسيحية أو المحمدية . . » الخ فقال عن إبراهيم: (**ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ٣ – ٦٧**) وقال حاكيا وصية يعقوب لبنيه: (**إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ٢ – ١٣٢**) وقال واصفا معنى الإسلام على لسان أمة محمد (**لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ٢–١٣٦**)

وهكذا نتحقق أن الإيمان بالإسلام إيمان برسالات النبيين جميعاً، وأن المسلم الحق مؤمن بكل نبى دون تفريق . . وكفى بهذا المفهوم الربانى رباطا بين الأفراد والأنواع، يحطم حواجز الأهواء والشهوات والعصبيات، ويجعل من دستور (وعلى الأرض السلام) هدفاً مقدساً عمليا، وفرض عين على كل مؤمن . .

هذه الحقيقة الإلهية أدركها النجاشى (أصحمة) بفطرته التى لم يشوهها التعصب، حين جمع بين وفد المشركين، ووفد مهاجرى المؤمنين، يستمع إلى تهم أولئك ودفاع هؤلاء .

وقد رغب يومئذ داهية قريش عمرو بن العاص أن يضرب المؤمنين بالنجاشى ضربة قاضية، فزعم أنهم يطعنون بالمسيح وأمه ! . . ورد جعفر ابن أبى طالب ملخصا حكم الإسلام فى الموضوع فقال: «هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . . » فإذا النجاشى

يضرب بيده إلى الأرض فيأخذ عوداً ثم يقول (والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود . .)[1].

ويغضب البطاركة لما سمعوا من النجاشي ، ولكنه لا يأبه لغضبهم . . ويكرم إخوانه المؤمنين ، ويرد وفد المشركين بهديتهم خائبين ! . .

وكذلك أدرك هذه الحقيقة وفد النجاشي من النصارى . . إذ سمعوا القرآن من رسول الله ، فسالت دموعهم لما عرفوا من الحق ، حتى استحقوا أن ينزل الله فيهم : « **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا . الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** » **٥–٨٢ و ٨٣** .

* * *

امتحـــان الرجولة :

لا جرم أن مثل هذا الاعتراف بالحق ، كما تمثل فى صراحة النجاشى ووفد الحبشة ، لم يكن ليحدث لولا شجاعة خارقة ، استطاعت أن ترتفع بأصحابها فوق العصبيات والأهواء . . ولا جرم أن أسمى ضروب البطولات جميعاً إنما هى بطولة الاعتراف بالحق ، حين تتنازعه عوامل العصبيات الموروثة والتقاليد المتحدرة من القرون . . ولعلى لا أعدو الواقع حين أقول « إن الجمود على التقاليد أبشع صور الجبن . . وإن هذا الضرب من الجبن هو الذى أفسد فطرة الإنسان فشل عملها فى إدراك الحق وطلبه ، حتى أصبحت كجهاز الهاتف المختل لا يصلح للتخاطب . وهذا الاختلال فى الفطرة هو الذى يجعلك تيأس من إيصال الحق إلى بعض النفوس ، لأنها فقدت الإرادة التى تصلح لالتقاط إشارات السماء . . . ونحن نقرأ فى القرآن الكريم قوله تعالى : « **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** » **٢٦ – ٨٨ ، ٨٩** فنعلم أن سلامة القلب من الفساد ، فساد العقائد ، وفساد الانقياد للتقاليد دون فحص واطمئنان ، هى الشرط

---

(١) سيرة ابن هشام .

الأول فى استحقاق الرضوان الربانى . . . ولا سبيل إلى سلامة القلب ، وهو أمانة الله فى أيدينا ، إلا بأن نتفقده وأن نتعهده بالإنقاء والجلاء والسلوك النظيف ، حتى يبقى أبداً صافياً شفافاً ، لا تصرفه الأباطيل عن رؤية الحقائق . وطبيعى أن هذا يقتضينا أن نبذل لهذا القلب من الجهد والرعاية والاعتناء ، بالأقل مثل الذى نبذله لثيابنا وأطعمتنا والنفيس من أمتعتنا ! .

قبل أيام كان خمسة من المعلمين والمعلمات فى سيارة ، اثنان منهم من حملة الشهادات الجامعية ، وأثناء الطريق أدار السائق مفتاح المذياع على القرآن الكريم ، فإذا بالمدرسين يغضبان ، ويطلبان إليه البحث عن أغنية ! . وأبى السائق ثم قال ، أليس القرآن أفضل من الغناء ؟! ويسمع الجواب : لا . . بل الغناء أفضل ! .

وعندما اشتد الخلاف وتمسك السائق والمعلمات بإيثار القرآن ، طلب المدرسان وقف السيارة ، وهناك هبطا منها مفضلين ركوب الأقدام على الاستماع إلى القرآن[1] .

واتهم مرة أحد مدرسى التاريخ بالطعن على القرآن ، فدعى لمواجهة موظف إدارى كبير ، وهناك سأله هذا : « أصحيح أنك وصفت حادثة كذا بأنها أسطورة لا صحة لها ؟ . » أجاب المدرس : « أنا نقلت فى ذلك كلام المستشرقين ! . . » وسئل : « ألم تقرأ الحادثة فى القرآن ؟! . . أو كان المستشرقون أصدق من الله وأعلم !! . وكان جواب الأستاذ : إنه لم يتصل بالقرآن منذ الدراسة الابتدائية ! . . . »

وأنت قد تسمى هؤلاء مستهترين أو ما شئت من الأسماء . . أما أنا فلا أراهم أكثر من جبناء ، أسارى لتعصب مخز . . إنهم يؤثرون الغناء ، ويفرون من الاطلاع على القرآن خوفا من شىء واحد ، هو أن يقعوا فى القرآن على حقيقة تبرز ما هم عليه من الضلال ، أو يسمعوا منه موعظة تفضح عجزهم عن النهوض بأعباء الرجال !

---

(١) عرضت قضية هذين المعلمين فى إحدى محاكم اللاذقية بسورية .

وقديما عمد المشركون من مكة إلى أحط الوسائل لسد منافذ النور ، فأخذوا يقصون الناس عن الاستماع إلى هذا الكتاب ، خشية تحريره إياهم من عبوديتهم « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ٤١ – ٢٦** » .

ألم أقل لك : إن الخضوع للحق يقتضى بطولة . . لن تتوفر أبداً لهؤلاء الساقطين فى امتحان الرجولة ! . إن المعلم الذى يبلغ هذا الحد من الاستخفاف بمقدساتنا الإلهية . . لن يكون أكثر من وباء فى كياننا التعليمى ، من شأنه أن يهدم كل ما يبنيه البيت المؤمن ، والمنهج الصالح . . . ولقد بات واضحاً أن فى جهازنا التعليمى مدرسين لا هم لهم إلا استئصال البقية الباقية من بذور الخير فى ضمير هذه الأمة ، فهم يجعلون من الحبة قبة ، ومن ثقوب المنهاج فجاجا واسعة أمام السموم الوافدة من الغرب أو الشرق ! .

تصور أن طالبة استطاعت الاحتفاظ بعقيدتها الإسلامية حتى نهاية الدراسة المتوسطة ، وإلى هذا العهد كانت هى الوحيدة تقريبا بين أهل البيت تقوم بأداء واجباتها الدينية على وجه مرض ، إلا أنها ما أن دخلت مضمار القسم الثانوى حتى أخذت هذه الواجبات سبيلها إلى التلاشى ! . . وبطريق الاتفاق لاحظت الأم ابنتها معرضة عن الصلاة هازئة بها . . فعجبت ثم سألتها ، وإذا هى تسمع الجواب الذى كان مفاجأة غير سارة : لمن أصلى ! . وأين هو الله الذى أصلى له ! . وإذا كان موجودا فأين الدليل على أنه قد أرسل محمداً بهذا الدين الذى يأمر بالصلاة ؟ ! . إن الناس كلهم لعاجزون عن إعطائى الجواب على واحد من هذه الأسئلة .. فكيف بها جميعاً ! .

وهى قصة سمعتها من مدير معارف سابق ، ثم قصصتها على صديق لى من المدرسين كنت على مائدته ، فضحك ثم قال « إنها بنت أختى » ! . . لا تعجب إن معظم الصف على طريقتها ، والفضل فى ذلك إلى زميلنا الأستاذ (مسعود) الذى ما زال بهن حتى أفلح فى « تحريرهن » . . . !

ولقد حدثنى صديق آخر عن فتاة لهم أحرزت الثانوية صيف هذا العام . . بعد أن أحرزت شهادة الإلحاد كاملة على يد أستاذها الفاضل . . .

فهى اليوم لا تكاد تطيق ذكر الله أو رسوله ، بل أنها لتصرخ فى وجه أبيها المسكين : أن يغلق فاه عند تذكيرها بحقائق الإسلام . . لأن هذا ضرب من الرجعية التى لم يعد لها مكان فى نفسها ! . .

ولست فى سبيل الاستقصاء لهذه الأمثلة ، فالقارئ ، أيا كان ، لابد أنه يعرف الكثير من تلك الوقائع اليومية ، ولكن نريد القول بأن هؤلاء المدرسين هم المسئولون إلى حد بعيد عما نعانيه من الكوارث العقلية فى محيط التعليم . . .

* * *

تحرير أم تغرير :

والحرية يا قارئى هى المطية التى يركبها أولئك المدرسون إلى قلوب هؤلاء المغفلين من بناتنا وأبنائنا . . إنها الباب الذى تطل منه تفاحة الشيطان . . والأستاذ المولع بتهديم العقيدة إنما يقذف ألغامه من هذا المدخل المزوق . . ذلك أن لاسم الحرية وقعاً سحرياً فى غرور المراهق ، الذى تتركز كل قوته فى غرائزه الثائرة ، وفى ذاته التى لا يكاد يحس غيرها ! . . والمدرس الماكر يعرف من أين تؤكل الكتف ، وليس أيسر عليه من أن يأكل الكتف وصاحبها فى هذه المعركة التى لا تكافؤ فيها بين الخصمين ! . .

* * *

استمع إلى هذه المحاورة المألوفة . . .

« نحن هنا فى الصف مكلفون فحص كل ما يعترضنا ، فلا تقبل أية فكرة إلا بعد أن يسمح لها العقل بالمرور . . . وإلا فأى فرق بين طالب ثانوى وابن الشارع ! . . . » .

ثم تأتى الخطوة التالية . . .

« . . أنت أيها الطالب إنسان ممتاز . . لأنك تهب نفسك للعلم ، ولكن العلم نتيجة للحرية ، فما لم تتحرر من كل فكرة سابقة لم يسعنا الحصول على المعرفة ... »

ثم تأتى نتيجة المعادلة . .

. . . تقرر لدينا أن كل شيء ينبغى أن يخضع للبحث المجرد . . وكل شيء يعنى كل شيء . . حتى عقائدنا الموروثة ، وتقاليدنا وكل ما سمعنا أو علمنا حتى الساعة . . بهذا فقط نحقق امتيازنا الإنسانى ، وبه وحده نبرهن على الفرق بين العلم والجهل ، وبين الطالب المثقف وابن الشارع . . . فأيكم يرضى أن يكون دون مستواه الإنسانى ، فيخضع عقله لموروثات فيها الحق والبـــاطل ! . » .

. . . وهذه كلمات إن لم يقلها أستاذ ما فهى ترجمة لمـــا يقوله الـكثيرون[1] . . ولا شك أن فيها من البروق الخادعة ما يكفى لإلقاء جراثيم الريب فى كل شيء . . .

ومن أين للطالب الغض تلك العين السحرية التى تريه ما وراء هاتيك الكلمات ! . . بل أنى لهذا المسكين أن يفطن إلى أنه تلقاء مناورة بارعة ، كستار الدخان يطلقه المحاربون لتغطية الزحف . . . !

وبديهى أن النفس التى استأسرت لهذه المقدمات لا تلبث أن تخر صريعة تحت مطارق « العلم » حتى تصير أخيراً إلى التفلت التام من كل آثار العقيدة ! . .

وهكذا تتبلور الحرية على أيدى هؤلاء المربين الفضلاء ! ! فى معان طريفة من الفوضى المنظمة . . ! وما أيسر — بعد هذا النجاح — أن يجر الطالب ذلولا مطواعا إلى الاستهانة بكل ما كان مقدسا فى نفسه قبل اليوم ! .

لقد كان حتى أمس القريب يعيش على أملين أحدهما مجد الدنيا ، والثانى سعادة الآخرة ، فإذا عرض له الشيء الذى لا يرضاه الدين أمسك عنه على كونه حراما . . وإذا أتيحت له شهوة غابت عنها الأعين ، تماسك استحياء من العين التى لا يعزب عنها مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء

---

(١) يقول الدكتور كامل عياد « إن طريقة البحث العلمى جعلتنا لا نتقيد إلا بالواقع الذى تدركه الحواس . . وأن نتحرر من العقائد الغيبية » انظر كتاب « العالم العربى » ص ١٦٤ .

. . أما اليوم وقد انهارت سدود الحلال والحرام ، فأية قوة بقيت للنفس تحصنها من طغيان السيل ! . . لقد باتت كل معانى الفضيلة والشرف والكرامة والعفة أخيلة تافهة ، كالقلعة المهدمة يدخلها العدو من حيث شاء ومتى شـــاء ! . . .

* * *

حق وباطــل :

تلك هى ثمرات « الحرية العلمية » التى ينهض بغرسها فى أبنائنا هؤلاء (العباقرة) من زملائنا ! . . . وهذا (التوجيه) العجيب لمفهوم الحرية هو الذى ننعم اليوم بحصاده من التحلل والزيغ والاندفاع المجنون وراء الشهوات . . وإذا كانت المناهج الرسمية تلح دائماً على أن يكون هدف المدرسة هو تكوين الجيل المؤمن ، فمن الطبيعى أن نتساءل : أبهذا الجهاز الحرب من المدرسين يراد تكوين المؤمنين الصالحين ! ! . .

لا أزال أذكر حديثا عابرا جرى ذات يوم بينى وبين أحد مدرسى العلوم فى الصفوف الثانوية ، إذ سمعنى أستشهد بآية من القرآن الكريم ، فلم يستطع الصبر على هذا الشذوذ وقال : وما شأن القرآن فى موضوعنا ! . أليس من الأفضل أن تعطى رأيك خالصا من التأثر بالقرآن وغيره ! ! ..

قلت : وهل تظن كلامك هذا قد خرج من صميم نفسك خالصا من التقليد ! . . الإنسان يا صديقى ابن بيئته وثقافته ، وإنما تتمثل حريته الحقة فى أنه يملك من قوة الفكر واستقلال النظر ما يفرق به بين الحق والباطل ، فلا يقبل حكما إلا وهو مطمئن إلى صحته ! . .

قال : إذن فقل لى هل أنت مصدق بكل ما جاء فى القرآن ! !

قلت : إن القرآن حقيقة كاملة ، وإيمانى به طبعاً أشد من إيمانى بوجود دماغ فى رأسك مثلا . .

قال : إن القرآن يناقض نظرية دارون . . فكيف توفق بينهما ! !

قلت : ومتى كان قول المخلوق حكما على قول الخالق ! . . أيها الزميل

ان نظرية دارون فيها الحق وفيها الباطل ، فهى كالكثير من النظريات التى طغت على الناس زمنا ، ثم تكشفت الوقائع عن زيف معظمها . . وطبيعى أنها تلتقى مع القرآن فى حقائقها الثابتة فقط . .

قال : وهل فى نظرية دارون غير الحقائق الثابتة ؟! . لقد ثبت لدى دارون أن الإنسان تطور عن القرد فهل يقر القرآن هذا ؟ .

قلت : مسكين دارون ! . . انك تقوله ما لم يقل . . . ولو درست نظريته لرأيت أن كل ما يراه هو أن ثمة تقاربا تشريحيا بين النوعين يرجح انبثاقهما من أصل واحد . . وليس فى هذا ، إذا ثبت علميا ، أى تناقض مع حقائق القرآن الذى يقول : « **وجعلنا من الماء كل شىء حى (٢١ — ٣٠)** وقد وصف القرآن عملية الخلق فى آيات كثيرة من ذلك قوله : « **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين (٢٣ — ١٢) . .**
فلو أنعمت النظر قليلا من هذا الوصف فقط فى ذكر السلالة ، ثم فى صيرورة هذا الكائن خلقاً آخر بعد هذه السلسلة من الانتقالات العجيبة ، لأدركت أن منزل هذا القرآن (أعلم) من دارون بحقيقة الإنسان !!! ولكن المؤسف أنكم لا تعرفون شيئاً عن هذا القرآن ، ثم تحكمون عليه غيابيا بكل ما يسوغ بعدكم عنه ! .

أما الزعم بتطور الإنسان عن القرد . . فهو لا يعدو خيال أفاق ، شاء أن يشغل الناس بطريف غريب ، فألقى إليهم بهذه الأكذوبة . . ولكنها ما لبثت أن تسللت إلى مؤلفات بعض مدرسينا الجامعيين كحقيقة لا تقبل النقض ! . مستندين بذلك إلى ما كشفه بحاث التاريخ الطبيعى من آثار ، زعموا أنها بقايا ناس عاشوا قبل مئات الآلاف من السنين فى (تندرثال) و (بكين) ثم فى (بلتدون) . . . وفيها كلها مشابه من القرد ، إلى جانب الصفات الإنسانية ، فحكموا أن الثالث منها بخاصة وهو إنسان (بلتدون) يمثل الحلقة المفقودة التى تسجل مرحلة الانتقال من (القردية) إلى (البشرية) وليس عليك إلا أن تأخذ عدد أكتوبر ١٩٥٦ من مجلة المختار فتقرأ هناك

قصة « الأكذوبة الكبرى عن الإنسان الأول » . . تلك الأكذوبة التى غمرت أوساط العلماء أربعين سنة كاملة . . ثم لم تفضح إلا عام ١٩٥٣ . . حتى تدرك إلى أى حد يمكن التعويل على مثل هذه الأقاويل ! . .

* * *

ضجة فى حصة البـــلاغة :

دخلت ذات مرة إلى صف ثانوى فى حصة البلاغة فألفيت على السبورة بالخط الكبير « ما الدليل على وجود الله !!! » .

وآلمنى أن أفاجأ بمثل هذا السؤال فقلت : يؤسفنى أن أجد بينكم من لا يزال فى حاجة إلى مثل هذا الدليل ! .

فوقف أحد الطلاب ليقول : « عفوا أيها الأستاذ . . إننا نطلب هذا الدليل لنقدمه إلى أستاذ الرياضيات ، الذى استنفد الحصة قبلك فى حشد البراهين العلمية على نفى وجود الله . . لأنه يستحيل على رأيه الإيمان بوجود شىء لا يخضع للرؤية والتحليل ! . » .

قلت : وهل تسمون القول بإنكار وجود الله كلاما علميا ! . . أرجح أن هذا تعريف المنكر لا تعريفكم أنتم . . ومع هذا فلا بأس أن أقول لكم كلمة موجزة فى هذا الشأن : إذا أنكرت علم هذا الأستاذ بالرياضيات فبم يرد على !! بإجراء العمل الرياضى طبعاً ! . . . حسناً فقد استدللنا إذن على علم الرجل بهذه المادة من خلال عمله دون أن نرى العلم ذاته ! . .

وهنا يطيب لى أن أقص عليكم حادثة شهدتها منذ زمن طويل . . كنا فى رحلة جبلية ، وفى عيادة طبيب صديق لنا فى صافيتا[1] التقينا بشيخ قروى ، ذكر لنا الطبيب أنه مجنون يحسن الضحك عليه . وضحك رفاقى من الشيخ . . وانتظرت حتى فرغوا فدنوت منه وقلت : عجبت من أمرك أيها الشيخ كلما أحوجك الجواب عدت إلى القرآن . فلنفرض أن هؤلاء لا يؤمنون بالله ، أفلا يكون من العبث استشهادك بالقرآن !! فلم يكتم

---

(١) صافيتا مدينة جبلية فى محافظة اللاذقية بسورية .

الشيخ عجبه من كلامى ثم قال : وهل هناك من لا يؤمن بالله ! ! قلت : أفرض أننى هو فكيف تبرهن لى على وجوده ؟ . . ولـكن مهلا يجب أن تعلم أننى لا أثق إلا بما أثبتته الحواس . .

وحسبت أنى أطبقت على الشيخ فلا يستطيع حراكا ! . . . ولـكن سرعان ما سألني فى هدوء عميق : بأى حواسك أنت أشد إيمانا ؟ . قلت : بنظرى . قال : ولم ؟ . قلت : لأننى به أرى ثم أدرك ما أرى . . . قال : حسنا : . أفترى عينك التى بها ترى ؟ . قلت : طبعا لا . . . قال : فكذلك الله . . به نرى وندرك ونعلم . . ولـكنا لا نراه ! .

وهكذا يا أبنائى ترون أن ليس كل ما لا يرى غير موجود ، وأنتم لو فكرتم لذكرتم أن الأشياء التى نؤمن بها ولا نراها أكثر آلاف المرات من الأشياء التى نراها . .

وكتبت على السبورة أحد الابيات من الشواهد التى أعددتها لدرس البلاغة ، وسألت الطلاب أن يذكروا اسم صاحبه فقالوا : إنه من بائية أبى تمام فى فتح عمورية . . فأنكرت عليهم ذلك وأنكرت وجود شاعر بهذا الاسم . . ولكنهم ضحكوا ثم قال أحدهم : لقد علمنا وجوده بشهادة الثقات من علماء الأدب ومؤلفيه ، ثم بما يميز آثاره من كل آثار الشعراء الآخرين . . فقلت : وكيف إذن يمكن إنكار وجود الله وقد أخبرت السماوات والأرض بوجوده ، وشهد له أولو العلم . . ولا يقع حسنا على شىء إلا وفيه آية تنطق بهذه الحقيقة ! . .

* * *

الإنســان والطبيعة :

وهنا نهض أحد الطلاب ليقول : إن أستاذ الرياضيات يصر على أن الإنسان ابن الطبيعة ، بها وجد ولا يد لغيرها فى إيجاده . . . وكذلك يرى أن العلماء مجمعون على التحرر من الإيمان بالله الذى لا يصدق بوجوده إلا الغوغاء ! .

ولم أر بتر البحث دون استيفائه فقلت : افرض أنك أنت ذلك الأستاذ فقل لى : أموجود أنت . . أم غير موجود ؟

- موجـــود . .

- أخالق أم مخلوق ؟

- بل مخـــلوق .

- أخلقت من غير شيء أم أنت الخالق لنفسك ؟! .

- بل خلقتنى - فى رأى الأستاذ - الطبيعة .

- حسنا . . لنحدد الطبيعة ما هى ؟! . . إنها هذا الهواء ، وهذا التراب ، وهذا الماء،وما هنا وهناك من نبات ومعادن وأشباه معادن . . . ثم لنقارن بين موجودات الطبيعة ، ولننظر إلى مركز الإنسان بالنسبة إليها جميعاً ، فسنجد أن لـكل خصائصه وطبائعه ، وما أحسبنا نختلف فى القول بأن الإنسان أسمى هذه الموجودات كافة ، إذ يمتاز منها جميعاً بقدرة التصرف وحرية العمل ، فهو الوحيد الذى يصنع الحضارة ، ويطور المدنية ، ويسخر لمصلحته كل ما فيها من نبات وجماد وحيوان . .

هذه أمور مسلمة نخلص منها إلى هذا السؤال :

هل للطبيعة التى لا تعقل أن (تخلق) الكائن الذى يعقل !! ولنضع السؤال بصيغة أخرى : هل لفقير لا يملك فلسا أن يهب لنا مليونا من الجنيهات !!

إن هذا البيت من شعر حبيب لجميل قوى ، ولـكنه صورة مصغرة من قوة الإبداع القائمة فى نفس الشاعر . . .

وهذا المصباح الـكهربائى . . إنه لرائع مدهش ، ولـكنه بما فيه من دقة الصنع إنما ينطق بعبقرية صانعه وإدراكه الـكبير لقوانين الطبيعة . .

ولا شك أنكم سترمون بالجنون أى مخلوق يجرؤ على القول بأن هذا المصباح الـكهربائى قد تألفت أجزاؤه على هذا النحو من الإحكام دون أن تمتد إليه يد ! . . فما بالنا إذن بمخلوق يزعم أن صانع المصباح نفسه ،

بما فيه من دقة التركيب وفيوض المواهب قد وجد اتفاقا دون أن تمتد إليه يد خالق أكبر منه قدرة وحكمة ! .

واليوم قبل ساعة فقط كنت أستمع إلى حديث طبي من إحدى المحطات العالمية . . وكان الموضوع حول الفيروس والبكتيرية والفطريات وعجيب خصائصها . . ولعلكم تدهشون مثلي حين تعلمون أن الفيروس – مثلا – وهو لا يتجاوز الواحد من المليون من السنتيمتر ، يملك القدرة على تأليف الخطط ، واتخاذ الأشكال والأوضاع اللازمة لتنفيذها ، مما لا يتصور أدق منه فى أكبر الحيوانات الأرضية ! . ومع ذلك فإن بعض المتحذلقين يريد منكم يا أبنائى أن تؤمنوا بأن كل هذه العجائب إنما وجدت من غير موجد ! .

الحق . . . أن هذا كله إنما يوضح للعقلاء ذلك الدستور الكونى الأعظم وهو أن كل ما فى هذه العوالم إنما هو الشاهد الحى على وجود المبدع الذي هو وحده مصدر الوجود ، إذ ليس ثمة شىء مادى يستطيع أن يخلق نفسه .

* * *

الواحد هو الأصل . .

ورأيت بعض الأيدى ترتفع رغبة فى الكلام . . فأذنت لأحدهم فقال : إذا كان كل شىء دليلا على وجود الله أفلا يحق لنا أن نسأل ، لماذا لا يكون مجرد وجود الله دليلا على وجود مبدع وراءه ؟ . .

قلت : إن سؤالك هذا أشبه بسؤال تلميذ رأى بعينه أستاذه يحلل ثمانية عشر جراما من الماء ، فيفصل منها ستة عشر أوكسجينا واثنين هيدروجينا . . ومع ذلك يقف هذا التلميذ ليسأل أستاذه : ألا يجوز أن يكون هنالك عنصر آخر فى الماء ! . .

ولكم تردد هذا السؤال على الألسنة من قبل ، فلنأخذ جوابه من الرياضيات نفسها ، ما دام حديثنا إنما كان بفضل من أستاذ الرياضيات . .

أنتم تدركون أن كل عمليات الحساب قائمة على أرقام لا تتجاوز ما بين الواحد والتسعة . . ونحن من هذه الأرقام مضافا إليها الصفر نؤلف أى

مجموعة حسابية . قلت أو جلت ، وذلك بنقل الأعداد يمينا وشمالا ووسطا . فالواحد على يمين الاثنين مثلا يساوى واحداً وعشرين ، كما أن الاثنين على يمين الواحد يساوى اثنى عشر ، وهكذا يتباين مدلول الأرقام باختلاف أوضاعها . . إلى آخر الخط . .

فلنأخذ الآن رقم ٩ ولنحلله إلى أجزائه ، فسنجده يتألف من الرقم ١ زائداً عليه ثمانية أمثاله ، وبهذا ندرك أن الواحد هو أصل الأعداد الصحيحة جميعاً ، فاذا انتقلنا إلى أجزاء الواحد $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٤}$ ، $\frac{١}{٨}$ ، $\frac{١}{١٠}$ إلى آخر ما يتصور من خط الكسر ، ثم نظرنا إلى مدلوله ، فسنرى أن الكسر بالغاً ما بلغ إنما هو جزء فرضى ، أوجدناه للاستعانة به على تحديد المطلوب ، فلا مفهوم له إلا بالقياس إلى العدد الصحيح الذى هو الواحد إذ يستحيل تصور الجزء إلا مقترنا به ، فنقول : واحد على اثنين ، كما نقول واحد على مليون . . . وهكذا . . ومن هنا ندرك أن أصل الكسر إنما هو الواحد ، حتى الصفر إنما هو حد رمزى يستعمل بين عددين أو حالين ، كما تستعمل الخطوط الوهمية لتقسيم مناطق الأرض .

بقليل من التفكير فى هذا المثل أيها الأعزاء تقبضون على الجواب المطلوب . . فكما أن الواحد هو أصل الأعداد جميعاً، هكذا الخالق الواحد لا شريك له ولا مثيل ، بأمره حدث الوجود ، وليس وراء وجوده موجود ، إذ لا يتصور لوجوده بداية ، كما لا يتصور لوجوده نهاية : (**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ٥٧ ـــ ٣**) .

* * *

العـــلم طريق الإيمان :

بقى شىء واحد لم أجبكم عليه هو موقف العلماء من الإيمان بالله . . . فالحق أن العلم الصحيح هو طريق الإيمان بالله ، ويمكن القطع بأن البشر مجمعون ، منذ كانوا حتى تزول الأرض ، على ذلك ، لا يشذ منهم إلا القليل النادر . . ولـكن العين التى تمتد إلى أبعاد الآفاق فتبصر ملايين الأشياء ، هى نفسها التى يملؤها المنظور الواحد مهما يكن صغيرا ، عندما

تقبل عليه وحده حتى يحجب عنها كل شىء آخر . . هكذا ترون الملحد مثلا يحسب العلماء كلهم ملحدين لأنه محبوس فى مستنقعات الإلحاد ! . .

ثم لنتذكر أنه يستحيل إقبال المجموعات البشرية على الإلحـــاد ما دامت مالـكة لحرية الاختيار . . . أما عندما يحجر عليها حتى لا ترى إلا من ثقب الإلحاد ، فطبيعى أن تجهل كل شىء عن الله . . . ولذلك يقول رسول الله : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . . .)[1] .

والحق أن انتشار الإلحـــاد بين بعض الذين يحملون الشهادات الجامعية هذه الأيام ، إنما يعود إلى أسباب كثيرة أهمها اثنان :

الأول : إقبالهم على أفكار الملحدين دون غيرهم . . .

الثانى : وقوفهم من العلم عند الشاطىء ، فان نصف العلم هو أخطر الجهل . . . وقديما قال سبنسر : إن العلم الصحيح ، الذى فات المعلومات السطحية إلى أعماق الحقائق براء من الإلحـــاد . . . وهو يرينا بكيفية لا تعادل صغر العقل الإنسانى بازاء الخـــالق ! .

ولعـــل بعضكم قرأ كلمة هرشل الفلـكى الإنجليزى الشهير : كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته .. فالجيولوجيون والرياضيون والفلـكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم الذى هو صرح عظمة الله . . . »

* * *

روادنا الروحيـــون .

وتمر الأيام فالشهور فالسنون على ذلك اليوم . . وتأتى مناسبة أخرى أجدنى فيها تلقاء وضع مشابه مع طلاب آخرين . . وكان الباعث هذه المرة آيات من القرآن ندرسها من مقررات المنهاج ، وفيها الحشر والحساب والثواب والعقاب . . ويتساءل بعض الحائرين من هؤلاء : كيف يكون هـــذا ؟! . .

---

(١) من حديث شريف رواه الشيخان عن أبى هريرة .

ـ قلت : ولم لا يكون هــذا ؟! . .

غير أن طالبا أعرف إقباله على مؤلفات المضللين لم يتمالك أن يجيب : لأن العقل لا يؤمن بهذه الأخبار ! .

قلت : مهلا . . . وأى عقل تعنى ! . إن العقل يا بنى اثنان : مادى ، وهو الذى يقول فيه ديكارت : « إنه الهبة الوحيدة التى يتساوى فيها الناس » ويتمثل بالقوة التى تعقل المعلومات الخارجية ، فتتولى تنظيمها ، وتحسن بها محاكمة الأفكار الموضوعية . . ثم عقل إيمانى زائد على المواهب المشتركة . ينبثق من أعماق الضمير ، ولا يعرفه إلا الحر الذى يفتح قلبه لنور الله ويروض نفسه على العيش فى جوه ، حتى يدرك من الأنس به ما لا يدركه أى كائن سواه . . . ونحن بهذا العقل الممتاز نتعرف حقائق العــالم المحجوب ، الذى يحدثنا عنه علام الغيوب . .

اسمع يا بنى . . . إن هناك عالم الشهادة وعالم الغيب ، ولـكل من العالمين خصائصه وقوانينه . . أما الأول فهو ما تحسه من هذه الطبيعة مكشوفا لـكل ذى بصر وفكر . . . كل امرئ يستطيع سبر غورها بنفسه ، أو بتجارب الآخرين ، التى ليست فى الحقيقة إلا وسائل للـكشف الشخصى ، تسدد الخطى إلى المعرفة من أقرب السبل .

أما العــالم الآخر فهو غيب لا سبيل إليه بالحواس ، وإنما يستطيع العقل المــادى الاستدلال عليه بصورة مجملة ، فهو من دراسته لهذه الطبيعة ، واطلاعه على نظمها ووقائعها ، وإيمانه بخالقها ، يدرك بالإجمال أن ثمـة حياة أخرى وراء هذه الطبيعة ، ولـكنه عاجز عن معرفة محتوياتها تفصيلا . . وإنما يدرك هذه التفصيلات بوساطة الرائدين الذين أتيح لهم الإطلاع على أسرار ذلك العــالم ، وليس هؤلاء سوى النبيين ! .

كثيرون لا يصدقون بهذه الحقيقة ، لا لشىء إلا لأنهم لم يروا بأعينهم عالم الغيب . . وهم بذلك ينكرون قاعدة طبيعية أساسية فى حياتهم . . وهى أنهم لا يعرفون إلا القليل بطريقة الـكشف الشخصى ، وأن معظم معلوماتهم إنما جاءتهم بطريق الخبر عن الثقات أو غير الثقات ! . فأنا هنا أعرف جغرافية

ألمانيا وروسيا واليابان و . و . . وربما استطعت تحديد موقع ما منها وبعده عن مجلسي بصورة لا تنقصها الدقة كثيراً . . كل ذلك دون أن أكون رأيت أو لمست شيئاً من هذا عن غير طريق المصورات . وهذه الأقمار الصناعية لم أرها قط ، ولكني موقن بانطلاقها عن طريق التواتر . . فكيف يصح لهؤلاء أن يؤمنوا بكل ذلك عن طريق الخبر ، ثم يكفروا بما وراءه ، مما جاءهم عن طريق الأنبياء ! . . « **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ! ـ ١٠ ـ ٣٩** » .

الحق يا بني أن عالم الغيب ليس أكثر غموضا وخفاء من القطب الجنوبي بالنسبة إلينا نحن الذين لم نرافق رواد القطب ، ولم نر بأعيننا تلك المجاهل . . ومع ذلك نتلقى بكل إيمان واطمئنان كل ما يقوله هؤلاء الرواد . . لا لشيء إلا ثقتنا بصدقهم ! . .

والأنبياء ليسوا سوى رواد كشفوا لنا عالم الغيب عن طريق الوحي ، ثم جاؤوا ينبئوننا بتفاصيله . . وإذا كان ثمة من فرق بين روادنا الروحيين وروادنا الطبيعيين ، ففي شيء واحد ، هو أنه قد يكون بين جماعة الدكتور فوست[1] مثلا من يستهويه التزيد رغبة في الشهرة والمجد ، فيضم إلى الحقيقة الواحدة عشر أباطيل ، أو قد يخطئ حسه في إدراك الشيء وتصوره فيخطئ في وصفه ، على حين أن روادنا الروحيين معصومون عن كل هذا أو ذاك ، لا ينطقون إلا بما رأوا وسمعوا .. « **ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ٦٩ ـ ٤٤** » . .

بقي أن نتأكد من صدق هؤلاء الرواد ونفحص أدلتهم ، وهذا أمر ميسور نلمسه في الحقائق الخالدة ، التي حملوها إلينا منذ آلاف السنين ، فكانت أكبر من الكون نفسه . . وفي القرآن وأخباره عن الطبيعة والإنسان ، وما انطوى عليه من نظم شهد بكمالها أفذاذ القانون في العالم قديماً وحديثاً ، وأيدتها الكشوف الحديثة ، أكبر دليل على أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم . . وأنه من رب العالمين . . نزل به الروح الأمين على قلب محمد ليكون من المرسلين . . .

---

(١) قائد البعثة النيوزيلاندية إلى القطب الجنوبي عام ١٩٥٨ .

معنى النبـــوة :

قبل أعوام وفى أحد المصايف السورية جرى هذا الحديث الذى رأيت أن أسوقه هنا فى معرض الكلام . . بل الدفاع عن الإيمان .

لقد ضم هذا المجلس يوم ذاك نفرا من شيوخ وشباب تعددت مساقط رؤوسهم ، واختلفت مسالك حياتهم ، ولـكنهم اتفقوا على حب المعرفة ، واستهوتهم الرغبة المشتركة فى بحث بعض قضايا الفكر ، التى أثارتها دفعة التطلع إلى المجهول فى صدور الـكثرة من الشباب المتعلم . . وكنت واحداً من هؤلاء إلا أنهم لأمر ما جعلونى مركز الدائرة فى موضوع المناقشة .

ولقد بدأت هذه الاجتماعات صغيرة على مقاعد المقهى ، ثم نقلت إلى الدور ، حيث أخذت تتسع حتى ضاقت بها الأفنية فى بعض الليالى ، فانتشرنا على السطوح المتقاربة . .

وفى هذه السهرات الأدبية طرحت قضايا الإيمان والأديان والـكتب المقدسة . .

وكان موضوع النبوة إحدى المشكلات الكبرى ، التى طرحت على بساط البحث . . وقد طرحت بلسان شاب أحاطت بقلبه الشكوك ، منصبة عليه من منافذ العقائد المنحرفة ، التى تريد أن تفرض نفسها كحل نهائى لـكل عقد المجتمع ! . .

قال الفتى : لقد استراحت قلوبنا إلى الإيمان بوجود واجب الوجود ، بعد أن انهارت كل الريب التى تحجزنا عن هذه الحقيقة ، ولـكن إيماننا بالله لا يفرض علينا الإيمان بالنبوة والنبيين ! . ودعنى أعرض لك أفكارى بصراحة فى هذا الموضوع فأنا أوقن بأن من حق الإنسان أن يكون حراً فى اختيار ما يراه صالحا من الأفكار والأعمال ، دون أى تدخل من خارج ذاته ومصلحة مجتمعه . . والنبوة إنما هى فى أوامرها ونواهيها نوع من الوصاية السرمدية على الإنسان ، لا تعترف له ببلوغ رشد أبداً ! . هذا فضلا عن أنها متضاربة حتى لا تكاد تتفق ، فلـكل نبى دينه وشريعته ،

ومن ثم كان لـكل دين أتباعه المخاصمون لأتباع غيره ! . وهكذا تكون النبوة مصدرا لمتاعب البشرية ، والسبب الرئيسى لانقسامها وتفسخها . . كما أكد ذلك المعرى فى بعض لزومياته » . .

وسرت هزة الاضطراب فى أعصاب المستمعين ، كرد فعل لهذه الصراحة العنيفة . . ووجدت أنا فيها ما يستحق الاهتمام والتقدير ، لأنها فى الواقع جاءت تلخيصا لـكل شبهات المشككين فى موضوع النبوة . . ولذلك عمدت إلى تحليل المقالة إلى عناصرها الرئيسية أولا ، ثم التعقيب عليها واحدا فواحدا . .

قلت : فى كلامك نقاط ثلاث . . أولاها موضوع حرية الإنسان ومدى قدرته على الاكتفاء الذاتى . . وثانيها : موضوع النبوة وما تنطوى عليه من انسجام أو تناقض . . . وثالثها : نظرة المعرى بخاصة إلى هذه المشكلة . . .

وأبدأ بثالثة هذه النقاط فأقول : إن رأى المعرى فى النبوة لا يؤثر على حقيقتها بشىء ، فهو حينا يصدقها وآنا يشك فيها ، وتارة يهجم عليها بمثل هذا السباب الأحمق ، وفى جميع حالاته هذه لا يعتبر فى الموضوع حجة لا سلبية ولا إيجابية . . على أن موقفه التصديقى من النبوة هو على أى حال أحق بالتقدير والقبول ، لأنه يتخذه وهو واع مطمئن يملك المعايير المنطقية ، التى تفرق بين الحق والباطل ، بخلاف موقفه السلبى ، فهو فيه مضطرب الفكر ، هائج العاطفة ، ناقم ثائر بمفاسد المجتمع ، أشبه شىء بذلك المخلوق الذى تسمعه فى الأزقة يقذف بأرذل الألفاظ . وهو إنما يفعل ذلك فى غياب العقل ، إذ يكون فى غمرة من الانفعال العصبى تسلبه كل أثر للوعى . . وليس المعرى فى هذا إلا واحداً من الناس ، بل ربما كان أشدهم إسرافاً فى الانفعال ، تصفو نفسه فيرسل نظر عقله صافيا فى أطباق الـكون . . ليعود بمثل هذه النفحات المحييات :

دعاكم إلى خـــير الأمور محمد وليس الأعالى فى القنا كالأسافل
فصلى عليه الله ماذر شـــارق وما فت مسكا ذكره فى المحافل

ثم تضطرب أعصابه فيزيغ بصره عن الحقائق ، حتى لا يستطيع النفاذ إلى ما وراء الأسوار ، فاذا هو يرمى الناس بما تحفظه من تلك النفثات المهلكات — إذا صح أنه ناطق هذه النفثات — ! . . .

ونعود إلى أولى النقاط لنفحص حجة المنكرين للنبوة . .

* * *

حريتـــان :

وهنا لابد من تحديد مدلول الحرية بالنسبة للإنسان أولا . . فنقول : أن ثمة نوعين من الحرية ، أحدهما حرية التفكير بكل ما فى الحياة من أسرار ، وهى مظهر السمو الذى به يعرف الإنسان وظيفته من الوجود ، وبه يسيطر على أزمة القوى الكونية التى سخرها الله للعمل بأمره . . وكل تحديد لهذا الجانب من الحرية جريمة فى حق الحضارة وبالتالى جناية على البشر جميعاً . . فالإنسان فى هذا المجال إذن بالغ الرشد لا وصاية عليه ، ولا حجر ، بل كل شىء حوله مسخر لخدمته . .

ثم تأتى الصورة الأخرى لحرية الإنسان ، وتتمثل فى حق التصرف بنفسه . . وبالآخرين من أبناء جنسه . . ويمكن عرض موضوع هذه الحرية فى العبارة التالية : هل الإنسان — فرداً أو مجتمعا — أمين على مصلحة نفسه ، وعلى مصلحة الحضارة ، وعلى مصلحة الكيان الإنسانى ؟!.

وما أظن الجواب على ذلك متوقفا على الكثير من الذكاء . . فنحن لا نكاد نجد فرداً من كل عشرة آلاف يعى نفسه ، ثم يحسن ضبطها ضمن حدود الواجب . . فاذا التفتنا إلى المجتمعات الدولية واجهتنا أطباق الظلمات بعضها فوق بعض . . فليس ثمة جماعة لا تحكمها أنانية الأفراد أو الأحزاب وهذه هيئة الأمم ، وهى الصورة العظمى لأكبر حكومة عالمية ، تنوء تحت كلاكل أصحاب « الفيتو » ممن لا يقيمون وزنا للإنسانية إلا بمقدار ما تؤمن لهم من المنافع ! . .

وما أحسب عاقلا يخالف برنارد شو فيما ذهب إليه حين قال : « إن الإنسان الحاضر لم يرتق كثيراً من حيث المدنية والعلم ، فبناء البيوت لا يتغير

فى ألف قرن بمقدار ما يتغير شكل قبعة المرأة فى عشرين أسبوعاً ! . على أن آلات الحرب التى لا تبقى ولا تذر لا يمكن أن تقاس بالقسى والسهام التى كان يستعملها القدماء » . .

ولو تأخر الزمن بتلك الجلسة إلى يومنا هذا لبادرنا فتانا بهذه الأسئلة :

هؤلاء الفوضويون الذين ذبحوا المئات من الأبرياء فى الموصل . . ودفنوا العشرات من الأحياء فى كركوك . . وجروا جثث الشهداء فى شوارع المدن العديدة من العراق الشقيق . . أتراهم أمناء على مصلحة أنفسهم ووطنهم وإنسانيتهم ؟! . .

ولعل صاحبنا كان يجيب : بأن هذا العمل فردى لا يعطى صورة صحيحة عن حقيقة الإنسانية المتمدنة . . فنقول له إذن : وهذا الشعب المجرى الذى ثار لكرامته وحقه فى الحرية والخبز . . ألم تر إلى الآلاف من الآليات الروسية تقتحم عليه الدور والمدارس والأزقة لتخمد فى صدره أنفاس الكرامة ! . ثم لم تكف عن الفتك والتدمير حتى أحالت مدنه قبوراً لعشرات الألوف من الثائرين وغير الثائرين ! ! . . واليوم وقد اقتحم نصف مليون شيوعى حرمة تشيكوسلوفاكية ، حتى ملأت آلياتهم شوارع المدن والقرى ، تريد أن تخنق فى صدور الملايين من أبنائها انتفاضة الحرية والشعور بالسيادة فى أرضهم . . أترى أصحاب هذه الدبابات ، وقد وصلوا بأجهزتهم العلمية إلى دارة الشمس . . لا يصلحون أن يعطوا صورة صحيحة للإنسانية التى تريدها ! . .

وما رأيك فى مجازر الثورة الثقافية فى الصين الحمراء ، حيث انطلقت الغوغاء تفجر الدماء وتنشر الشقاء ، وتبث الرعب فى كل شبر من تلك القارة البائسة ؟! .. أليس وراء ذلك كله تدبير مفكرين بلغوا من قوة العلم ما ذلل لهم مستعصيات الذرة والهيدروجين ، حتى أصبحوا مصدر الرعب للعالمين ، ومنطلق الأفكار الثورية لكثير من (المثقفين) ! . .

ولو شئت لحشدت لك المئات من أمثال هذه الشواهد ، من زنجبار وكينية وأميركة اللاتينية وعشرات الأقطار العالمية . . فضلا عن الأقطار

الثورية القريبة . . وكلها ألسنة نواطق بأن الإنسان أخطر على جنسه من أن يعهد إليه بتقرير مصيره[1] .

* * *

الوحي والعقـل :

أجل يا صاح . . إن الإنسان هو الإنسان على مدى الأزمان . . قد يتقدم فى مضمار السبق العلمى حتى يقتحم حرم الأفلاك ، ولـكنه فى الوقت نفسه يتأخر فى مجال الخير حتى لتستجير من جرائمه الوحوش فى الغابات . . ولا عجب فى ذلك فالذى خلق هذا الإنسان زوده للحياة بالعقل والوحى ، فهو بالأول يكتشف مخبآت الأرض ، ويكتشف مجاهل السماء ، فينشئ المدنيات والحضارات ، وهو بالثانى ينظم هذه الطاقات لخير الحياة والإنسانية ، فيقود نفسه وحضاراته وقواه جميعاً فى طريق الكمال . . الذى يحقق للإنسان فى هذا الـكون ملـكوت الله . . وهكذا يكون العقل مع الوحى هما الجناحين اللذين بهما تحلق الإنسانية فى الملأ الأعلى ، وأنت لا تجهل هول الـكارثة التى يصير إليها النسر عندما يعترى الخلل أحد جناحيه . .

ولو قد أنعمت النظر جيداً فيما تقرأ وتسمع وترى من حياة الناس فى مسالـكهم المختلفة ، لأيقنت أن هذا الإنسان غير أمين على نفسه ، ولا على جنسه ، إلا أن يكون موصول القلب بأسلاك الوحى ، ملتزما فى سلوكه الخاص والعام أوامر الله الذى لم يخلقه عبثاً ، ولم يزوده بطاقاته الجبارة لعباً :

« فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ! . . إن الله لا يهدى القوم الظالمين ٢٨–٥٠ » .

ويبدو أن هذه الآية قد فاجأت الفتى بما لا يحتمل الصبر عليه ، فلم يدعنى أمضى فى عرضى قبل أن يعقب عليها بما خطر له ، فقال : اسمح لى أقاطعك قليلا . . لماذا يتهم بالظلم من لا يتبع محمدا ؟ . . أليس هذا منتهى

---

(١) وشاء الله أن أكتب هذه الكلمات بعد اطلاعى على أفكار صاحب (هذه هى الاغلال) فوجدت فى هذه الحقائق خير تعقيب على اندفاعه المتهور فى إيمانه بالعقل البشرى المجرد من ضابط الوحى . . . ولـكن . . . من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . . .

الحجر على حرية الفكر ! . . ألا يكفى أن يكون الإنسان خيراً حتى ينجو ؟!
قلت : وسؤالك هذا ليس غريبا عن البحث ، فليكن جوابى متابعة له . .

إن الإيمان بمحمد ليس مجرد كلمة تقال . . ولكنه طريقة فى الحياة يهاجر بها الإنسان من عالم إلى عالم آخر ، فى الخلق والمعاملة والسياسة والعلم والاقتصاد و . . و . . وطبيعى أن الذين كفروا بمحمد إنما كفروا بطريقته فى الحياة . . وبما أن الله عز وجل أراد للإنسان الخير ، لذلك تعهده بالرسل صونا له من مزالق الغى ، فشق له الطريق الصحيح الذى يعصمه من الشقاء . . والإنسان بطبعه أعجز من أن يحيط علما بكل شيء . . لهذا كان عاجزا عن تعيين الخير المطلق دون مقياس صحيح ثابت . . والإيمان بمحمد — مع الأنبياء جميعا — هو مقياس السماء . . هو الموصلة التى تعين اتجاه السفينة دون أيما زيغ . . يضاف إلى ذلك أن الفرد ليس حراً أن يختار ما يشاء له هواه من طرق الحياة ، إذ هو فرد من جماعة ، فالطريقة المختارة يجب أن يلحظ فيها مصلحة الجماعة على أوسع مدى ، وهى بهذا التحديد شيء لا يمكن دراسته منفصلا عن الأسباب الكونية جميعاً ، وهذا بدوره مستحيل بالنسبة إلى الإنسان الذى لا يرى سوى الجانب القريب من سلسلة الأسباب ، ومن ثم كان من الحكمة كل الحكمة أن توضع الطريقة من قبل الله الذى لا يعزب عن علمه شيء . . وهذا ما نتبينه جلياً فى قوله تعالى لنبيه :« **قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى ٣٤–٥٠** ». فنفهم من ذلك أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه ، وهو أهدى خلق الله ، لا يستطيع الأطمئنان إلى مواهبه وحدها فى الاستدلال على الطريق الحق . . ولا سبيل له إلى الهدى إلا باتباع ما يوحى إليه من ربه . ولو هو قطع عن هذا النور لكان لزاما عليه أن يخبط فى الظلمات . . لا يعرف منها مخرجا . ولا يهتدى سبيلا . .

* * *

وحـــدة الوحى :

وقلت للفتى الحـــائر :

والآن ننتقل يا صديقى إلى بقية البحث . . لنتبين معاً أمر الانسجام

أو التناقض في موضوع النبوة . . وقبل الخوض فى هذه النقطة خاصة ، أحب أن أذكرك بأن قضية النبوة إنما تمثل فى الحقيقة مظهر الامتياز الاسمى الذى أكرم به الله نوع الإنسان . . ذلك أن الله تبارك وتعالى يصطفى لرسالته إلى الناس عباداً منهم ، لا يمتازون عليهم إلا بشيء واحد هو أن الطاقات التى أودعها كل نفس إنسانية ، قد وصلت فيهم إلى المرتبة العليـــا من النضج ، فكانوا بذلك صالحين للتفاعل مع العالمين ، عالم السماء الذى منه يستمدون مبادئ الهدى ، وعالم الأرض الذى إليه ينقلون هذه المبادئ . . فهم كالدارة الكهربائية الكاملة ، تأخذ المدد من المولد لتمد به المصابيح والمحركات . . وبمقدار ما يتوقف نجاح العملية الكهربائية على صلاح المصابيح وتلك المحركات وقابليتها للانفعال ، هكذا يتوقف نجاح الأثر النبوى على سلامة القلوب الإنسانية من الفساد المخرب . . فيكون فيها القلب الذى لا يكاد يمس هذا المدد حتى يضاء ويضيء ، كما يكون بينها القلب المنطفئ الخرب ، الذى ماتت فيه كل قابليات الحياة والانفعال . . ومن أجل ذلك حدثنا الله بمثل هذا الخبر العجيب : « **ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ١٧ ــ ٨٢** » .

وإذا علمت هذا يا صديقى كان طبيعيا أن ترد بنفسك تلك الأوهام ، التى تريك النبوة مصدرا للخلاف والتضارب ، فما دام مصدرها هو الله الواحد ، كان طبيعيا أن تكون واحدة فى مبادئها وأهدافها جميعا ، ثم تكون بذلك موحدة للإنسانية مؤلفة لقلوب البشر على الحق الواحد . . فاذا رأيت تدابر الناس من أصحاب الأديان ، وإذا رأيت تنازعهم على الدنيا ، فاحكم أن ذلك حصيلة بعد عن مفهوم النبوة . . هذا البعد الذى أحال النعيم عذاباً . . والقلوب قفراً يبابا . .

ثم لقد رأيتك تخلط بين العقيدة والشريعة ، فمن الخير أن تعلم أن العقيدة ، تعنى مجموعة المبادئ الأساسية التى تصحح نظرة الإنسان إلى الكون ، فتجعله على بينة من أمر خالقه ، ومسئوليته التامة عن أعماله بإزائه . . وهى من هذه الناحية واحدة فى جميع رسالات الأنبيـــاء . لا يجوز أن تختلف

فى شيء من أصولها ولا من فروعها ، وكل اختلاف جزئى ،بينها فى رسالة نبى وبينها فى رسالة نبى آخر ، دليل قاطع على الخلل الطارئ على إحداهما .

أما الشريعة فهى بعد ذلك . . مجموعة الأحكام التى ينزلها الله لتنظيم علاقات البشر ، من الناحية الحقوقية والجزائية والشخصية ، وهى لهذا صالحة للتطور بين كل رسالة وأخرى ، تبعاً لاختلاف أحوال البشر . فالحكم الذى يكون صالحاً فى زمن نبى ، قد يبيت متخلفا عن تطور الحاجة البشرية فى زمان نبى آخر ، وذلك لأن الله إنما أنزله لظروف معينة ، فأعطاه بذلك صفة التوقيت الذى ينتهى بنزول الشريعة الجديدة بعـــده . .

ومن هنا كان الإسـلام هو دين النبيين كافة . . وكانت شريعتـه هى الشريعة النهائية التى جاءت منسجمة مع الرشد العقلى ، الذى صار إليـه الانسان بعد مراحل التجارب التاريخية . . ومن عجيب أمر هـــذه الشريعة الإسلامية أنها تنبثق من أصول قليلة تؤلف كليات الأحكام ، وبتعبير آخر تحدد مجارى العدالة الثابتة ، فتعين للدولة الطريق الذى يريده الله ، ثم تدع لها ترتيب الفروع وفق الحاجة ، بشرط واحد هو ألا تنحرف فى سيرها شرقاً ولا غرباً ، بل تظل متدفقة فى خط الأصول التى تعين معالم الطريق . . وهذا ما دعا العلامة ابن قيم الجوزية إلى القول بأنه « حيث تتحقق العدالة فثم شرع الله . . » وطبيعى أن العدالة التى يعنيها ليست هى العدالة النسبية ، التى يتوهمها الإنسان باجتهاده الخاص وقد تجر وراءها عشرات المظالم . . كالعقار الذى لا يعالج نوعا من الأمراض حتى يشحن الجسم بأنواع ما كان ليعرفها من قبل ، وإنما هى العدالة المطلقة ، التى تلحظ فى أحكامها ما دق وما جل من الملابسات والعلائق الفردية والاجتماعية والإنسانية معاً ، مما لا يمكن توفره فى عالم الإنسان ، إلا إذا قام على أسس من المدد الربانى . . ذلك لأن الله جل شأنه هو المصدر الحيادى الوحيد الذى فيه صلاحية إعطاء الشريعة الكاملة التى لا تحابى فرداً على فرد ، ولا حزبا على حزب ، ولا دولة على دولة ، بل تهيب بالمؤمنين جميعاً أن « **كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . . إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ٤ ــ ١٣٥** » . .

وهكذا يتبين لنا يا صديقى أن الإيمان بالنبوات جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله ، لأن النبوة هى النور الذى يضىء أبداً ظلمات الحياة ، فيق الإنسانية عثار الطريق الطويل . . وأن النبوة أخيراً توحيد وتجميع وتوكيد للأخوة العميقة الناظمة لأجزاء الإنسانية . . فلا سبيل إلى التعارف والتلاقى والعدالة الصحيحة إلا فى ظلها وعلى أساسها . .

ولا شك أن الإنسان الذى يؤمن بالله ، ثم ينكر سلطانه عليه ، وحقه فى توجيهه ، لا يقدره أدنى تقدير ، بل يستخف به ويعتبره من الهوان فى المكان الذى لا يقبل أن يوصف به أضعف مخلوقاته . . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا . .

* * *

هداية وقيـــادة :

على أن النبوة علاوة على كونها هداية ، هى فى الوقت نفسه قيادة ، بل هى فى نظر العقل المجرد أصل القيادات الإنسانية جميعاً ، وكل قيادة يجب أن تكون ممثلة لها فى سياسة الخلق ، لأن هؤلاء عيال الله ، فلا حق لأحد منهم فى السيطرة عليهم ، إلا لغرض واحد هو السهر على رعاية شئونهم ، وتأمين نصيبهم من العدالة ، وجمعهم على الحق الذى هو قوام السموات والأرض . وأيما انحراف بالقيادة عن هذه السبيل يسلبها كل مسوغ شرعى للبقاء ، ولو حشدت لتأييدها أسلحة الأرض ، ومن ورائها جماهير المهرجين جميعاً . ولا يرد على هذه الحقيقة ما اصطلح عليه الناس من شرعية حكم الأكثرية ، سواء كانت ظالمة أو راحمة ، فالشعوب فى نظر الدين الإلهى ليست ملك الأقليات الطاغية والأكثريات الباغية ، حتى ولا ملك نفسها ، وإنما هى ملك لله وحده ، فلا سلطان عليها إلا بإذنه ولتنفيذ أحكامه . .

ولقد اعتاد الكثيرون أن يفرقوا عن عمد وعن غير عمد ، بين الإيمان بالنبى وبين الطاعة له . . فترى الواحد مطمئن القلب إلى صحة رسالته ،

ولكنه منصرف عن روح هذه الرسالة فى ميدان التطبيق ، حتى ليقطع كل صلة عملية له بها ! . . وقد نسى أن الإيمان الصحيح إنما هو تعبير القلب عن الثقة المطلقة بصاحب الرسالة ، وفى هذه الحالة تأتى الطاعة للرسول تعبيرا كاملا عن وجود هذه الثقة ، فلا إيمان بغير ثقة ، ولا ثقة بغير طاعة ، ولذلك يقول الله تعالى : **«وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله ٤–٦٤».**

ومن هنا يتضح ما نقصد إليه من أن النبوة هداية وقيادة ، فهى من ناحية تبليغ لوحى السماء ، ومن ناحية أخرى تطبيق عملى لهذا الوحى . . يكون فيه الرسول القائد المطاع ، والأسوة المتبعة ، فيتخذ المؤمنون من حياته مثلهم الأعلى ، الذى به يقتدون ، وعلى غراره ينهجون .

والإنسان – على شدة نزوعه إلى التمرد – أبرز مثل تضربه الفطرة على حاجتها إلى القدوة ، فالأسرة يقودها أحد الوالدين ، والمدرسة تقودها الإدارة ، والصف يقوده المدرس ، والجيش يرأسه قائده الأعلى ، والدولة يقوم على رأسها أصحاب الحل والعقد ، الذين يخضعون بدورهم لنظام الجماعة ، ولضغط الأحداث الخارج عن ظروف إرادتهم . .

وليس هذا فحسب بل إن للناس جميعاً وراء ذلك ضروبا من القيادات التى تتحكم فى أخلاقهم ، وتتمثل فى الأشخاص والجماعات ، الذين نتخذ منهم أسوتنا المحكية فى سلوكنا اليومى . . فالمراهق الذى يزين جدران غرفته أو حانوته برسوم الخلعاء من صعاليك السينما أو الغناء ، إنما يعبر عن إيمانه بمثالية هذا الصنف من المخلوقات ، فهو يتخذ منهم القدوة فى جميع مظاهره ومسالكه . . والأنثى التى تتبع صحف الأزياء الوافدة من الغرب ، إنما تعبر عن إيمانها بمثالية هؤلاء المأجورات الموزورات من عارضات الأزياء ، اللاتى تحاول جهدها التقرب من مستواهن فى الثوب والكعب وما إليهما ! .

وهكذا القول فى (التابع) الفكرى الذى يتعقب خطوات (زعيمه) حتى فى طريقة الكلام وعلك الأوهام . . ونقل الأقدام ! . .

وإذا كانت الأسوة أمراً لابد منه بالنسبة إلى الإنسان ، فردا أو جماعة ، فخير الأسى أكملها وأجلها وأعلاها فى مقاييس الخير المطلق ، ولذلك كان النبى أسوة المؤمنين وقائدهم الذى لا يجدون السعادة إلا فى طاعته . . لأنها فى الحقيقة طاعة لله ، الذى اصطفاه للقيادة ، وتعهده بالتربية ، حتى كان مثال الرائد الذى لا يكذب أهله ، والقائد الذى يسلك بجنوده طريق النصر . **« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ٣ ــ ٣١ »** .

ولو أوتى الناس رشدهم ، وأحسنوا التفكير فى ماضيهم ، لأيقنوا أن الإنسان لم يعرف الانتصار على الشر إلا بقيادة هؤلاء المصطفين ، وإن كان ما تعانيه البشرية اليوم من ضروب الشقاء والبلاء إنما كان نتيجة انصرافها عن طاعة النبيين إلى قيادة الطواغيت من الظالمين : **« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . . جهنم يصلونها وبئس القرار . وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله . . قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ١٤ــ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ »** .

* * *

الشخصية الثـــابتة :

وألتفت إلى القارئ لأقول له :

لقد لخصت لك فى الصفحات الماضية ألوانا من البحوث جرت إليها أسمار ما أحسبنى قادرا على نسيانها ولعلى كنت أقل حضورها يومئذ ذكرا لهـا بعد هذه السنوات . .

على أن من غريب الاتفاق أن أكتب اليوم هذا الكلام وبين يدى رسالة من طالب جامعى عزيز ، يثير فيها من مشاكله النفسية ، ويعرض خلالهـا من واقعه القلق ، ما يوشك أن يمحو الفاصل الزمنى : بين ذلك الأمس وهذا اليوم ، حتى لكأنى أستمع من خلال رسالته إلى حديث ذلك الفتى الذى فجر بحيرته أيامئذ كل هذه الخواطر . .

فهى إذن ضرب من تداعى الأفكار توقظه المناسبات المتماثلة ، فتكون أشبه بالشرارة الصغيرة تسبب الحريق الكبير . .

ولذلك أرانى مدفوعا بحرارة المناسبة إلى أن أجعل من جوابى لهذه الرسالة خاتمة لهذا الفصل . . ولعلها أن تكون خاتمة صالحة لبحث يستهدف الدفاع عن الإيمان .

قلت لذلك الطالب العزيز :

. . والآن إلى صميم الفكرة التى عرضت لهـا فى رسالتك . . إن هناك عدداً من النقاط ، ولـكنها تنتهى جميعاً إلى مصب واحد هو تلك اللجة من الصراع ، الذى شاء الله أن يدرب عليه كل نفس بشرية فى مرحلة المراهقة ، التى قد تمتد إلى عدة سنين . وطبيعى أن هذا الصراع إنما يتفاوت قوة وضعفا تبعاً للتفاوت فى حيوية النفس ، وفى نوع تحصينها . ولذلك أعتبر هذا النوع من الصراع دائماً وأبداً نتيجة طبيعية لدفقة الحيوية فى نفس الفتى ، وإنمـا يقترب هذا الصراع من الهدوء بعد الغليان كلما اقترب الإنسان من النضج العقلى والروحى ، إذ يكون فى عهد الشباب اضطراباً يخض قوى النفس فتتفاعل بالشك واليقين ، والألم والأمل ، فإذا انتهت إلى مرحلة النضج استحالت طاقة جديدة ، مهمتها فحص الفكر المختلفة للوصول إلى أبعاد الحقائق فى روية واطمئنان . وقد تتشعب الطرق أمام النفوس فى ذلك العهد القلق ، ويحتدم الصراع فى بعضها إلى حد تضيع معه كل القوى الهـادية ، لذلك كان لابد من إقامة السدود ، وحفر المجارى ، لتنتظم هذه الطاقات الإنسانية ، وعلى جودة هذه السدود والمجارى ودقة بنائها ، يتوقف الانتفاع بهذه الطاقة ، التى لا شىء أنفع لهـا من التنظيم ، ولا أضر لهـا من الفوضى . . وهنا يأتى أيها الأخ دور الإسلام الذى يقدم بتعاليمه الكاملة السليمة أفضل العون للنفوس ، إذ يشق لهـا المسالك المـأمونة ، ويجنبها كل مضيق مضل . يقول الله تعالى فى بيان حكمة الصوم : « **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ... لعلكم تتقون** » ويقول تعالى فى بيـــان وظيفة الصلاة : « **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . .** » ويقول سبحانه : « **واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لـكبيرة إلا على الخاشعين . .** » ومن هنا . . من هذه الإرشادات الإلهية نرى أن العبادات فى الإسلام إنما هى وسائل ربانية لتربية النفس وتنظيم طاقاتها ، حتى

تكون فى اتجاه تصاعدى دائماً وأبداً ،وهو إذ يحصنها بهذه العبادات لا يقتل حيويتها ولا يضعف منها أبدا ، حتى تلك الغرائز الجنسية والشهوية، لا يقف منها موقف العداء ، وإنما يعمل على تنظيمها ، فتتحول بذلك إلى طاقة بناءة للحياة ، تماما كما يفعل العلم بطاقة الذرة ، فهو حين يفك تماسكها لا يدع لها سبيل الانطلاق الفوضوى ، الذى من شأنه أن يخرب الحياة ، وإنما يفتح لها سبيلا تتدفق فيها قوى مخصبة وشافية ومحركة . .

قدمت بهذه الكلمة لأذكر لك أنك قد أخطأت نحو نفسك كثيراً فيما مضى أيام هجرتنا أيها العزيز ، لتنعم بصحبة أشخاص لم يفهموا هذه الحقائق ، فإذا أنت تنجذب إلى مجالاتهم الفارغة الخربة ، فتخسر أول ما تخسر لذة العبادة ، ونعمة الانتفاع بهذه التربية المحصنة من الآفات ، وتربح تلك البطالة الروحية ، التى لم تجد ما يملأ فراغها سوى طقطقة النرد ، وذلك اللغو الذى كنتم تسمونه أحيانا « الأدب » . . ! وهكذا استمرأت نفسك ذلك الإنحدار ، ثم فقدت القدرة على الانتظام فى صفوف الربانيين ، الذين فتحوا قلوبهم لنفحات الإسلام :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

والسر من ذلك لا يجهله المخبتون ، يقول ربنا جل وعلا : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ١٨ــ٢٨** » .

لعلك تتهمنى بالقسوة فى عتابك ، ولا قسوة هناك . . وإنما هى حقائق لا سبيل للتعبير عنها إلا بهذا الأسلوب ، فأنت إلى حبيب وعلى عزيز ، ولا أبيح لنفسى أن أضن عليك بثمرة تجاربى ، وبخاصة فى هذه الغمرة الحائرة التى تكتنفك من كل جانب .

لقد وصفت لى حياتك فى ذلك الصراع الذى يجعلك أبداً مترددا بين توبة باكية وفسوق جارف . . وقد أحسنت عندما وصفت هذه الحيـــاة

بأنها « زائفة » . . ثم أحسنت أكثر إذ وصفت لى ذلك الجو المسموم الذى يعيش – أو ينتحر – الناس فى ظله ، فهم يصلون ويفجرون ، تشد بهم حبائل خفية من إيمان الفطرة أو العادة ، فتسوقهم إلى الصلاة والصيام ولكنهم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم فى مخالب الموبقات ، تعتصر بقية قلوبهم الجوفاء . . ! وكان من حقك أن تتساءل قائلا : من ذا الذى يستطيع المحافظة على إيمانه فى هذا الجو المسموم ؟! . . ثم تحكم على نفسك عجلان بأنك قد انتهيت فلا رجاء فى خير لك بعد .

أجل لقد كنت بليغا فى عرض هذه المشكلات ، وهذه الموبقات ، بيد أنك قسوت على نفسك كثيراً إذ يئست من استنقاذها ، وإذ حكمت أن الإيمان هرب من قلبك فلا رجعة له . . ! ولعمر الله ، إن كنت صادقاً فى حكمك على نفسك ، فبم تفسر هذه الدموع المقدسة التى تذرفها ، كلما أصغيت إلى صوت الماضى ينطلق مجلجلا من أعماق فطرتك . . ! لا يا عزيزى إننى لأرى فى هذه الدموع وحدها سبيل النجاة ، إذا استطعت أن تضم إليها بعض نفحات القرآن .

بالتأكيد لست قادرا على تصور هاتيك الأهواء التى تحيط بك بمثل ما صورتها أنت ، وليس فى وسعى أن أجد حكما عليها أصح من حكمك ، إذ أعطيتها صفة الزيف الذى لا معنى له . . ولكن حسبى أن أقول لك هنا : هل تعتقد أن إنسانا يهتدى إلى مثل هذه الحقيقة فيكون ممن هرب الإيمان من قلبه . . ؟!

أجل يا عزيزى أنت فى مرحلة صراع ، بين حقائق آمن بها روحك ، وأباطيل نسجتها حولك سخافات هذه الأشباح التى يسمونها (الناس) وما هم إلا (زى الناس) . . وإنما يعوزك شىء واحد ليكون صراعك مجديا صائراً إلى الاستقرار الكريم الحكيم . . ذلك الشىء هو أن تعيد النظر فى حقائق الإسلام لتصحح نفسك على ضوئها ، ويومئذ ستتعلم شيئاً جديداً هو أن المؤمن الواعى لهذه الحقائق هو وحده (الشخصية الثابتة) التى لاتفسدها الأباطيل ، ولا تخدعها الأضاليل .. وطبيعى أن العبادات الإسلامية

هى الباب الذى يجب أن تلجه للاطلاع على هذا العالم الربانى الرحيب ولكن عليك أن تعلم يا عزيزى أن هذه العبادات لن تقدم إليك الرى الذى يطفئ ظمأك ، إذا أنت أقبلت عليها كما يقبل الناس ، فارغة قلوبهم من معانيها ، يقومون بها بدافع من العادة وحدها . . ولعلك تعلم أن المسلمين لم يفقدوا جمال هذا الدين إلا يوم حولوا العبادات إلى عادات ! . .

إنك تستنصحنى وتستشيرنى ، وبذلك تحسن بى الظن ، فعلى أن أخلص لك النصيحة وأصدقك المشورة ، فأول ما عليك أيها الأخ العزيز أن تغادر سكنك ومن يساكنك ، إلى مكان تسمع فيه ذكر الله صباح مساء ، وتجد فيه من يذكرك إذا غفلت ، وينبهك إذا سهوت ، ويقيلك إذا عثرت ، يحبك لله ، ويشدك إلى الله ، فان الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . . ثم عليك بعد هذا أن تتخذ من القرآن غذاء لروحك ، فتكثر من تلاوته وتدبر آياته ، والفطنة إلى إشاراته ، فإنه مائدة الله أتاحها لعباده ، وحبب بها من أراد له الخير ، فضلا عن أنه الجديد الذى لا يبلى ، والمعجز الذى لا تنفد عجائبه ، فلئن فعلت هذا لتجدن فى القرآن ما يمدك بعون جديد يجدد حياتك ، ويضاعف نشاطك ، ويكشف عن عينيك ظلمات الأوهام فتنظر بنور الله ، ويومئذ سترى أن للحياة معنى ، وأن لها جمالا وأى جمال ، وستفقه حينئذ دعوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إذ كان يقول : « أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى[1] . . » ويومئذ فقط ستهتدى إلى الطريق القويم الذى يحسن بك أن تسلكه ، فلا تقول ما قلته لى فى رسالتك : من أنك ستهجر حياة الدراسة إذ لا فائدة منها سوى التعب والإرهاق . . ! لأنك ستحس بهذا الروح الجديد أنك تتعلم لشئ أسمى من المادة ، وأكبر من حطام الدنيا كلها . . تتعلم لأن العلم من النور الذى حض الله عليه الإنسان ، وبهذا يتحول العلم نفسه وسيلة ذات هدف

(١) من حديث شريف أخرجه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه . .

أسمى ، هو معرفة الله والتأمل فى ملكوت الله ، ثم الانتفاع به فى إصلاح عباد الله . . .

وحسبى أخيراً أن أقول لك : إن الحياة نور وظلام ، وصراع لا ينتهى بين الحق والباطل ، ويستحيل أن يؤثر ذو عقل سليم الظلام على النور والباطل على الحق . . ولكن الطريق الوحيد لمعرفة الحقيقة المطلقة والتحقق بها ، لا يمكن أن يتوافر لكائن بشرى إلا فى ظل هذا القرآن الذى **(يهدى للتى هى أقوم)** ، **(ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)** . .

وختاماً أود أن تفتح قلبك لهذا النداء الإلهى الذى طالما غير القلوب ، وكشف للحائرين الدروب ، فزالت ببركته عنهم الكروب والخطوب :
(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله . . !)
والسلام عليك ، أولا وآخراً ، ورحمة الله وبركاته . .

حُرّيةِ الإنسان
بين الجبر والاختيار



البـــدع والخرافات :

كنت مع أحد المعلمين المتقاعدين فى شرفة أحد الفنادق بدمشق ، عندما أخذ يقص على هذه الحكاية الشعبية :

قال : كانت الحملة التتارية بقيادة تيمورلنك تعيث فى أطراف البلاد ، وقد فتكت بحلب ، وزحفت كالجراد المنتشر على مدن الشام ، تهدم وتحطم وتقتل وتيتم . . فتصل أخبار الفجائع إلى دمشق موجعة مذهلة . .

ولمـــا رأى الناس أن لا عمل للسلاح فى هؤلاء الغزاة لجأوا إلى الأولياء يستمدونهم الدعاء وكان هنا (اسكاف) من كبار (الأقطاب) لا يزالون يترددون عليه بأخبار تلك الفجائع ، فيطمئنهم قائلا : لن يدخل العدو دمشق . . وإذا حاول . فسأقضى عليه بهذا . . (. . ويهز بوجوههم سكينه الحدباء ! . فيعودون وقد امتلأت صدورهم ثقة بالمستقبل ، ولم يجدوا حاجة لأى إعداد ! . ثم لم تلبث جيوش تيمور طويلا حتى كانت محيطة بدمشق . .

وتهافت الناس على الولى الإسكاف يقتضونه الوعد ، ولـكن الولى سرعان ما فاجأهم بالنبأ الرهيب : إن الله قد بدا له[1] . . وأبى إلا أن ينزل غضبه على دمشق . . ! !

وقبل ذلك طالما سمعت فى طفولتى من يتحدث بهذه القصة على وجه آخر ، إذ تقول : (كان فى دمشق ولى كبير يلوذ به الناس فى الشدائد . . ولمـــا أغار التتار على الشام وعد الناس بالقضاء عليهم ، وخرج بمريديه ينتظر وصولهم تحت الأسوار . .)

ولـكن ما أن بدت له طلائع تيمور ، حتى أمر أصحابه بالانسحاب ، وفتح الأبواب أمام الغزاة . . لأنه أبصر على مقدمة التتار ولى الله الخضر

---

(١) غير رأيه . . ومذهب البداء من النحل الضالة التى ذرقرنها منذ العهد الأموى . . .

وهو فى عدة الحرب ! . . فدهش من ذلك وقال له : (وأنت معهم ؟!
قال الخضر : والله معهم وملائكته وكل شىء . .) !!!

وأنا على الرغم من أنى كفرت منذ عهد بعيد بهذه الأساطير ، لا أزال أجد فيها وفى أخواتها تفسيرا لمعظم أسرار الإنحطاط ، الذى قاسته هذه الأمة منذ قرون . . فأول هذه الأسرار إنحراف جمهور المسلمين عن طريق الإسلام ، الذى أنزله الله ، إلى إسلام آخر صنعته أهواء الدساسين من الدجالين والجاهلين من دراويش التكايا ، الذين حولوا بخرافاتهم هذه الجماهير إلى أكداس من الغثاء ، لا تستطيع الدفاع عن نفسها بوجه أى اعتداء ! . .

وثانى هذه الأسرار تزييف عقيدة الفطرة ، التى جاء بها الإسلام ، تحريراً للإنسان من أشراك البدع والخرافات والأوهام ، ليرد إليه اعتباره المسلوب ، وليطلق مواهبه للعمل فى ملكوت السماء والأرض ، طليقا من كل عبودية لغير ربه . .

أجل . . إن هذه الأساطير لتعطى صورة صادقة عن عقلية هذه الجماهير أثناء الغزو التتارى ، تتلاقى إلى حد بعيد مع الأخبار التاريخية الصحيحة ، التى نقلها إلينا ابن الأثير فى كامله ، عن تلك المدينة الإسلامية شمال العراق ، إذ دخلها التتار دون مقاومة ، ثم مضى الغزاة المتوحشون يحصدون أهلها ، لا يدفع أحدهم عن نفسه ، حتى بلغ الأمر أن الواحد من التتار كان يدخل الشارع الآهل ، فلا يزال يفتك بالناس إلى أن ينكسر سيفه ، فيعمد إلى الحجارة يحطم بها رؤوسهم ! . وربما دعا الواحد من ضحاياه ، فيشير إليه بالاستلقاء ، ثم يذهب فى طلب الحجر المناسب ، فلا يرفع هذا رأسه حتى يعود التتارى إليه فيقضى عليه ...

وما كان العرب والمسلمون قلة بالنسبة إلى عدد الغزاة يومئذ . . وما كانوا لينقصهم السلاح بالقياس إلى عتاد العدو . . . ولكنهم كانوا يمثلون النفوس التى أفسدها الترف وحطمتها الميوعة ، وفقدت الدوافع الروحية التى تزود أصحابها بالمدد الذى لا يغلب ، من الطاقات الحية والمفاهيم

المسددة . . أمام طراز من النفوس لا يزال سليما من كل هذه المهدمات ، فهو وليد الصحراء فيه صلابتها وفيه خشونتها ، وفيه ألفة الشظف الذى بات جزءاً لا يتجزأ من وجوده . . فكان بذلك أقرب شيء إلى خصائص العربى يوم خرج من جزيرته يفتح العالم المريض بالعزيمة السليمة الجديدة . . اللهم إلا بفرق واحد هو أن التتارى كان هداما لا يصلح لبناء ، لأنه لا يملك المفهوم الصحيح لحقائق الحياة ووظيفة الإنسان ، فلم يترك وراءه إلا حطام المدن وأشلاء الحضارة ، وأرضا صفصفا قد حولها إلى مقبرة كبيرة للشعوب . . بينما العربى لم يغادر جزيرته إلا لينشر فى الدنيا نور الله الذى ابتعث العرب ليخرجوا عباده من عبادة العباد إلى عبادته وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[١] . . وبذلك كان هذا العربى بناء يرفع قواعد الأخوة والحرية والسلام ، ويهدم ركائز البغى والعصبية والطغيان .

* * *

سلطان العقيــدة . . .

ومن القوانين الأساسية (أن يكون للعقائد القلبية سلطان على الأعمال البدنية ، فما يكون من الأعمال من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها . .) [٢] . . وهكذا ترجم العرب الأولون ، من تلاميذ محمد صلى الله عليه وسلم ، معانى عقيدتهم بأعمالهم ، التى كانت مثلا لكل خير . . حتى استطاعوا أن يرفعوا القواعد لأنبل حضارة عرفها تاريخ الإنسان . . وطبيعى أن تنعكس الآية إذا ما تسرب الفساد إلى هذه العقيدة ، كما يحدث عندما نبدأ حل المعادلة الجبرية من نقطة الخطأ . .

وقد رأيت فيما قدمنا مبلغ الانحراف الذى طرأ على عقيدة القضاء والقدر لدى عامة المسلمين ، حتى كانت سببا لانهيار قوتهم ، وانشلال طاقاتهم إذ أصبحوا يعطلون القوانين الكونية فى الإعداد والاستعداد ، اعتمادا على

---

(١) من كلام ربعى بن عامر مع رستم قائد الفرس . .

(٢) من كلام السيد جمال الدين الأفغانى . .

سكاكين الإسكافيين . . ويستسلمون إلى جلاديهم يقينا بأن ذلك قدر الله الذى لا مرد له ! . . فكأنهم لم يســـمعوا قط بقول القرآن العظيم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . ٨ – ٦٠ » .

وقد يكون هناك بعض التطور قد بدأ ينظف عقيدة الإسلام فى القضاء والقــدر من شوائب الدجالين ، فيردها إلى طريقهــا الصحيح ، كما هو فى الكتاب والسنة ، وأعمال الجيل الأول من تلاميذ المدرسة النبوية . . ولكن الواقع أننا لا نبرح نصطدم بالـكثير من رواسبها فى أقوال العامة وأفعالهم . . وإذا شئت أن تتعرف هذه الحقيقة فاسأل أيا شئت من منحرفى العامة عن سبب انحرافه ، تسمع لفورك هذا الجواب التقليدى : (قضاء الله وقدره ؟ وأنا بدورى سألت قاتلين لم قتلتم ؟ . . وسارقين لم سرقتم ؟ . . وفاجرين لم فجرتم ؟ ومقامرين : لم قامرتم ؟ . . فكان رد الجميع واحدا : (إنه قضاء الله وقدره ! .) وهى : (كاسات مقدرة . .) و (إذا وقع القدر عمى البصر . .) ! . .

وأنا أعتقد أن ترك هذا الفساد العقدى يتركز فى قلوب العامة ، من شأنه أن يشل كل إمكاناتهم أخيراً فى العمل لاستنقاذ فلسطين ، وتطهير أقطار الوطن الإسلامى من أرجاس الغاصبين . . وحين أقول « العامة » لا أقصد السوقة والأميين فقط ، وإنما أقصد الجماعات التى تعيش بمثل هذه العقلية الخرافية فى مختلف الأوساط والطبقات . . وأنا بمعالجتى الآن لهذا الوضع إنما أرد فى الواقع على مئات الأسئلة التى طالمـا سمعتها من معلمين وطلاب ومثقفين . . .

* * *

نعــم . . .

فى الجيل الحديث نزعة إلى التمرد على كل قديم ، ولو كان هذا القديم عين اليقين . . ومن ذلك موقفهم من عقيدة القضاء والقدر ، فأنت لا تكاد

تجد منهم معتدلا فى الحكم على هذه القضية ، وأقل ما يصفونها به : إنها خرافة معطلة لحرية الإنسان[1] . . . !

ولا شك أن كل عقيدة تؤدى إلى تعطيل حرية المرء هي خرافة باطلة ، يجب تحرير الجنس البشرى من ويلاتها . . على أن هذا يقتضى أن نكون على أتم الوعي فى التقدير ، حتى لا يذهب البرىء بجريرة المسىء ، وأول ما يجب أن نفعله هنا هو محاولة الحصول على الإجابة الصحيحة لهذا السؤال : هل نحن أحرار فى هذا الكون ؟!! . .

وسؤالنا هذا ليس بدعا فى تاريخ الفكر . . لقد طرحه من قبلنا عدد لا يحصى من فلاسفة الأمم وحكمائها وجهلائها . . وانتهوا به إلى خلاف كبير . فكثير منهم أجاب عليه بالنفى المطلق ، وقليلون كان جوابهم الإيجاب المطلق . . وآخرون لا يقلون عن الفريقين قالوا فى ردهم : نعم ولا . . .

ولا مجال هنا لعرض حجج كل من هؤلاء الفرقاء . . فلنكتف باستشراف الموضوع من زاوية الواقع ، الذى يحسه كل منا ، فلعله أصدق حكما من كل ما قاله النظريون فى هذا الأمر . .

---

(١) ومن غرائب هذا الانحراف فى مفهوم « القدر » انه اجتذب إليه بعض (الخرفين) ممن كانوا إلى عهد قريب من كبار دعاة التوحيد ، فراح يشهر بها ويسخر من أهلها ، معتبرا الإيمان بها أحد (الأغلال) المقيدة لعقول المسلمين عن الانطلاق والمشاركة فى النشاط الحضارى . وقد جره هذا التحامق إلى تزيين الإلحاد والإشادة بأهله ، حتى ليزعم أن ليس فى الإبداعات البشرية مكان لذى دين أيا كان ، بل هى كلها من نتاج الملاحدة ، الذين عولوا على جهدهم ، ولم يعبأوا بما وراءه من قوى إلهية ! . .

والعجيب فى أمر هذا المضلل أنه لا يخجل من استعمال المغالطات لتثبيت سمومه القاتلة فى نفوس الأغرار ، فهو يمهد للبحث بمقدمة معقولة ، ثم لا يلبث أن يغفلها نهائيا ليقرر ما يشاء دون ما حجة أو برهان . وكل همه أن يوهم أولئك المغفلين أنهم سيكونون ضحية التخلف الذليل إذا هم سمحوا لأنفسهم بالالتفات إلى الدين . . ولا سيما الإسلام . . وأن ذريعتهم الوحيدة إلى كل مجد وعزة وقوة هى الانسلاخ التام عن كل مواريث النبوة ! . . . ثم لا يستحى مع ذلك أن يختم تلك الصفحات الخمس عشر بادعاء الإيمان ، وتقديس الدين ، ولا غرض له من ذلك الا التمكين لسمومه الخبيثة أن تأخذ سبيلها فى السريان إلى كل جنان . .

هذه الأديان السماوية كلها متفقة على دعوة الإنسان إلى تحقيق رسالته فى الأرض ، باعتباره المخلوق الوحيد المسئول عن أعماله بين أهلها . . وهى لذلك تلزمه تكاليف معينة من العبادات ، وحدودا معينة فى المعاملات . .

ثم هذه القوانين التى تمثل عمل المدنية فى تنظيم علائق الناس بعضهم ببعض ، والتى لا تخرج فى واقعها المنطقى عن كونها تسجيلا لأعراف تواطئوا عليها من قبل ، أو استمدوها من الأديان نفسها ، هذه القوانين بما فيها من تحديد لحقوق الافراد والجماعات ، وبما تنطوى عليه من أحكام فى المصالح والعقوبات ، إنما تنظر إلى الإنسان على أنه مسئول عن تبعة أعماله ، صغيرا وكبيرا . .

وفى حياتك اليومية عشرات الملابسات تؤكد هذه الحقيقة . . حقيقة المسئولية . فقد تختلف مع صديقك على موضوع ما ، وتثور أعصابك فتسئ إليه ، ثم تهدأ ثورتك ، وتسكن أعصابك فتندم وتعتذر . . وقد يتجاوز الخلاف حدود الإساءة إلى الإيذاء فلا يمحى إلا بعقوبة فى المال أو الجسد . .

هذه الأحداث والوقائع اليومية تتضافر للتوكيد على حقيقة أولية هى : إجماع السماء والأرض على حرية هذا الإنسان . . فالحرية وضعت على عاتقه التكاليف الإلهية ، وبالحرية فرضت على أعماله الأحكام القانونية ، وبالحرية كان مسئولا عن كل صغيرة وكبيرة . . ولولا هذه الحرية لكان عبثا وجود الأديان وسفها تشريع القوانين ، وسخفا قيام الآداب الاجتماعية بين الناس . . لكن هذا يا قارئى لا يعدو أن يمثل أحد وجهى الحياة . . فلننعم النظر فى وجهها الثانى .

* * *

لا . . . . !

فى الناس ذوو المزاج النارى ، لا يتمالكون أن يشتعلوا عند أول احتكاكة فيلذعون ويحرقون . . فعل النار عندما تلتقى بالوقود القابل للالتهاب . .

ومنهم الباردون الذين لا يعدون صفة المـــاء ، فهو يطفئ النار ، ولـكنه صالح للغليان إذا ما أخذ نصيبه من الحرارة الكافية .

ومنهم المتبلد أشبه شيء بطبيعة التراب ، قلما يرتفع إلى أعلى إلا بقوة الضغط . . ولـكن فيه من مزايا الاحتمال ما يجعله صالحا للثقيل من الأعمال .

وإذا كان التفاوت بين أمزجة الناس بالغا هذا المدى من التباين ، فمعنى ذلك أن مثل هذا التفاوت كائن حتما فى مجالات السلوك ، حيث يكون لـكل فرد أو نوع عمله واتجاهه ونتائجه . .

ومن هنا تأتى التوزيعات البشرية التى تصنف الناس حسب مواهبهم ، حتى ليكون منهم الذى لايصلح إلا للقيادة العليا ، ويكون فيهم الذى لايحسن إلا رفع الأثقال . . ولا ظلم فى ذلك ولا حيف ، لأن طبيعة التعقيد القائم فى جهاز الحياة يقتضى مثل هذا التنسيق ، الذى يجعل لـكل مكانا لا يسد اختلاله مكان أخيه . . والعقل لا يستطيع تصور حياة يتساوى فيها جميع الأفراد بنوع الموهبة ، لأن حياة كهذه لا تتجاوز أن تكون حلما مزعجا . . وإلى هذه الحقيقة الرئيسية يشير القرآن الكريم إذ يقول : « . . **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ٤٣ ــ ٣٢** » فهى سخرية شاملة تريك كل فرد مسخرا ومسخرا فى الوقت الواحد . . وفى الـكلام المأثور : (الناس بخير ما اختلفوا ، فإذا تساووا هلـكوا) !

والآن بوسعك أن تخلص بنفسك إلى حصيلة هذا التفاوت فى أمزجة الأفراد وأنواع سلوكهم ، إذ يبين لك أن هناك حالات لا يد للإنسان فى تكوينها ولا تحويلها ، فالحال التى أنت عليها الآن إنما هى نتيجة سلسلة طويلة معقدة من الأسباب ، التى خرج معظمها عن حدود تفكيرك واختيارك . . بعضها يعود إلى الوراثة وبعضها إلى المجتمع ، وبعضها إلى الفطرة . . . . وهكذا ، إلى ما لا يدركه حسابك من حلقات السلسلة . . !

هل أنت راض عن كل ما أخذته عن أبيك وأمك وأجدادك من الصفات ألست ترى من يملك خيرا منها ! أو لست ترى فى الناس من هو خير من أبيك وأمك صورة وذكاء وخلقاً ؟! . . لم كان أبوك فلانا . . ؟ وأمك

لم لم تكن فلانة . . ؟ ولونك . . وشعرك . . وطولك . . وقوتك الجسمية والعقلية . . ألم يكن ثمة سبيل لتكوين خير منها ! !

وهل تعتقد أن هذا كله غير ذى بال بالنسبة إلى سلوكك وكفايتك الشخصية ! . .

ومثل هذه الأسئلة تستطيع أن تطرحها على أى كان من الناس والحيوان والطير . . وها هو ذا أبو العلاء يلتمس منك أن توجه بعض هذه الأسئلة إلى الغراب متحديا :

فقل للغراب الجون إن كنت سامعا أأنت على تغيير لونك قادر !

فماذا تتوقع من هذا الغراب لو استطاع الجواب ؟ . .

ولابد أنك قرأت يوما شيئا عن مركبات المادة ، وعن أبعاد الأفلاك ، ودورات الكواكب ، وعناصر الهواء ، فهل خطر للإنسان أن يتساءل : لم حدث ذلك . . وعلى هذا الوجه دون غيره ؟ . . وماذا كان يحدث لهذه الكرة الأرضية لو اقتربت أو ابتعدت عن الشمس أكثر قليلا مما هى الآن ؟ .

بل ماذا كان يحدث لك أنت لو كنت تقرأ كلماتى هذه فى جو آخر أشد برودة أو أكثر حرارة مما يحيط بك . . أو كنت فى حالة من الجوع أو الشبع فوق حدود الاعتدال . . !

هذه أسئلة محرجة دون شك . . من شأنها القطع بجبرية الحياة إلى حد بعيد . . إلى حد حجب وجهها الآخر عن كثير من العيون المبصرة ، فراحت تزعم أن ليس للإنسان أى جزء من الاختيار ، وأن الحياة عوج محتوم لا مجال لتقويمه ، وأن من العبث صرف أية محاولة لتغيير الواقع الذى كان أو الذى سيكون ! . .

وقد ولد هذا الزعم مذاهب تمثلت فى (جبرية) قديمة و (وجودية) حديثة و (هيبية) مشهودة . وكثيرا ما بعثت القلق فى نفس أبى العلاء ، فأخذ يتردد بينها وبين ضدها ، فهو حينا يجزم بالجبرية فيصرخ يائسا :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا مماتى . فهل لى بعد تخيير !

ثم يعود إلى الثقة بحكمة الله فيتنصل من ذلك ليؤكد مسئولية الإنسان :

تعالى الذى صاغ النجوم بحكمة   عن القول أضحى فاعل السوء مجبرا

ولكنه مع ذلك ظل أميل إلى الجبر ، فهو يشير إلى ملامحه التى تواجهه فى معظم دروب حياته دون أن يستطيع لها تأكيدا أو نفيا (أرى شواهد جبر لا أحققه . . !) .

وما رأيك لو علمت أن الجبرية قد أصبحت اليوم عقيدة الكثرة من سكان الكرة الأرضية ، الذين اتخذوا مكرهين أو مختارين ، من الفلسفة المادية دينا لا يؤمنون بغيره ! فهؤلاء يؤكدون لك أن الحياة الإنسانية خاضعة لطرائق الإنتاج ، وأن الافكار والأخلاق نتيجة لازمة لهذه الطريقة أو تلك ، حتى الدين نفسه لايعدو بنظرهم إحدى ظواهر الحياة الاقتصادية . وهم يدللون على ذلك بأن ظهور هذه الفكرة كان لازما دائماً للمراحل الأولية والبدائية من حياة الإنسان ، الذى لم يؤمن بالله إلا بدافع الرغبة أو الرهبة . . لذلك مثل لها بالمظاهر المتصلة بهذه المعانى ، حتى كانت مرحلة الزراعة ، وهى طليعة الاستقرار المدنى الذى ربط الفكر الإنسانى بما وراء الطبيعة ، وذلك بدافع من الحاجة إلى المـاء ، الذى لم يكن من سبيل لاستنزاله بأية وسيلة غير الاتجاه إلى ذلك المصدر الغيبى . . الأمر الذى أشرف على نهايته اليوم بدخول عصر الآلة . . هذه الآلة التى تحصر حاجة الإنسان فى نطاق استجابتها وحدها . . فلمسة صغيرة لزر كافية لانطلاق آلاف الأجهزة ، ومن ثم لإنتاج الأكداس من المصنوعات ، التى كان يعجز عنها قبل الآلة آلاف المخلوقات . . وفى مثل هذا الجو الآلى تتلاشى — بزعمهم — فكرة الإله غير المتطور ، ليحل محله إله الآلة ، التى أصبحت وحدها صاحبة السلطان المطلق على الحياة . . . كما يتخرص هؤلاء الجبريون . . !

ولكن بين (نعم) تلك و (لا) هذه حقائق كبيرة سأحدثك عنها يا قارئى فى ما يلى . .

نعم ولا . . !

عرضنا فيما سبق إلى ظواهر الإختيار والإجبار . . ولمحنا خلال ذلك أن أصح المذاهب هو أكثرها انسجاما مع منطق الفطرة ، وهو بالتأكيد ليس المذهب القائل بالحرية المطلقة ، ولا مذهب الجبرية الذى يسلب الإنسان كل اختيار ومسئولية . . ومن الحق أن نتعرف الآن حكم الإسلام فى الموضوع كما هو فى الكتاب والسنة . .

القضاء فى اللغة هو الحكم . . وفى الدولة هو التنظيم الذى يعطى الوقائع عقوبتها المناسبة ، أو حكمها المناسب . .

والقاضى هو الإنسان الذى يمثل هذا التنظيم ، صالحا للحكم بموجبه ، وإن لم يصدر حكما قط . . فإذا أصدر حكمه فى قضية فهناك الحكم المقضى ، إذ يكون قضاء بالفعل بعد أن كان قبل ذلك قضاء بالتقدير . .

وإذن فالقضاء — من حيث المفهوم الدولى — يمثل السلطة الحاكمة بالقانون ، وليس القانون سوى النصوص التى وضعها الشارع لأنواع الحوادث بطريقة محكمة ، عين فيها لكل مخالفة مقدرا وفق المصلحة العامة .

وإذا تدرجنا من ذلك إلى المفهوم الشرعى للموضوع ألفيناه أقرب شىء إلى هذا المدلول . . فقضاء الله حكمه الثابت الذى نستطيع تسميته بالقانون العام الذى يتناول كل شىء . .

أما القدر فهو من نفس المعدن . . إنه تفصيل الأحكام على قدر الوقائع . . وقد ورد التقدير فى لغة القرآن بمعنى الترتيب والأحكام (**والقمر قدرناه منازل**) (**وخلق كل شىء فقدره تقديرا**) (**قوارير من فضة قدروها تقديرا . . .**) وكذلك جاءت لفظة القدر ثلاثية من نفس الأسرة : (**فقدرنا فنعم القادرون . .**) (**انا كل شىء خلقناه بقدر . .**)

وإذن فلا حركة ولا سكنة إلا وهى محكومة بهذا القانون . فالإنسان الذى يلقى بنفسه من أعلى ، سيسقط إلى أسفل حتما ، إلا إذا تعلق بمقاوم يمنعه من الهبوط ، وكل ذلك وما أشبهه يجرى وفق القانون الذى يحكم

الأجسام ، ومثل ذلك الأحداث المعنوية التي لا تخضع لمقاييس المادة . . هي بدورها خاضعة لهذا التقدير القاهر ، فكل استجابة لأمر مبدع هذا الكون مؤدية إلى خير المستجيب ، وكل مخالفة عن أمره صائرة به إلى مقدارها من الشر . . وبذلك يتضح أن نتيجة كل عمل هي حكمه المقضي ، مترتبة على ما سبقها من الوقائع ، فإذا أنت لم تفكر بالمخالفة ، ثم لم تنهض بالتالي لتحقيقها ، لم يصدر عليك أي حكم ، لأنك لا تنفك بريئا من المسئولية ، فإن فكرت بالمخالفة دون أن تخرجها إلى الفعل كنت بحكم البريء . أما إذا أتيت المخالفة دون تصميم سابق فإنما تتحمل من تبعتها مقدار تهاونك في التحرز منها ، كما لو كنت تجرب مسدسا في حاجز فأصبت إنسانا وراءه ، فإن لم تحكم كمجرم لفقدان التصميم ، وجب أن تحكم كمغفل لم تحسن استعمال مواهبك ! . .

ومحصل ذلك أن قضاء الله بالتقدير غير قضائه بالفعل ، ففي الحالة الأولى هو علم محيط بتفاصيل كل شيء كان ويكون . . ولكنه علم غير ملزم ، أي غير مجبر أحدا على أي عمل من النوع الذي تترتب عليه المسئولية . .

وطبيعي أن علم الله غير علم الإنسان ، فأنت لا تعلم ماذا تكسب غداً ، ولا تدري بأي أرض تموت ، ولكنه تعالى عالم بكل ما سيحدث منك ولك وعليك ، وهو محيط علما بما تكونه في أعماق نفسك من المقدمات لعمل ما ، وهذا كله مكتوب لديه ، بمعنى أنه مكشوف لعلمه قبل أن ينكشف لبصرك . . ولا عجب فنحن أفراد نمثل أدوارنا في مسرحية كبيرة ، لا نرى منها إلا ما يتصل بنا مباشرة ، في حدود المكان والزمان . . فإذا ذكرنا أن علم الله محيط بهذه الحدود كلها ، أدركنا أن ليس ثمة بالنسبة إلى علمه أي فاصل بين حلقات الزمان الثلاث . . لذلك كان طبيعيا أن يرى أجزاء التمثيلية كلها في الوقت الواحد . ولتقريب الفكرة تصور أن أناسا بعضهم في قاعدة الجبل ، وبعضهم في السفح ، وأحدهم في القمة . . فهل يستوى الجميع في مجال الرؤية ! . . طبعا لا . . . ولا شك أن أتمهم رؤية

أعلاهم مكانا ، فإذا سجل هذا ما يبصره لم يكن بد أن يفاجىء الآخرين بجديد لا يعلمونه ، لأنهم لم يطلعوا عليه .

* * *

هذه الصـــدفة :

وواضح كذلك أن الأعمال ليست سواء ، إذ منها ما أنت مسئول عن تبعاته ، وهو الذى ينبثق من منطقة اختيارك ، فأنت مفوض بين إتيانه وتركه . . ومنها ما أنت برىء من مسئوليته ، لأنه منبثق من النظام العام الذى لست سوى جزء من آلته الكبرى . ولا بأس أن أطرفك بهذا المثل الصغير الذى كثيرا ما تواجه مثله : سيارة من طراز معين يقودها سائق واع متزن . . خرج بركبه إلى أحد المصايف ، وأثناء السير فوجئ بحشرة اندفعت من النافذة إلى إحدى عينيه فغرزت فيها إبرتها ، وكانت السيارة على رأس المرتفع ، فاذا هو يفقد وعيه ثم تكون الكارثة ! .

لابد أنك تتساءل معى : من المسئول عن هذا ؟ . . أما أنا فلا أستطيع الحكم قبل أن أعود إلى قانون السببية . . وهناك سأرى عوامل لا عداد لها تتعاون كلها فى تنفيذ الكارثة . . هناك العلة التى اجتذبت الحشرة الجانية من وكرها ، وطبيعة الجو التى هيأت لها الانطلاق من هذا المكان بخاصة . . ثم هناك سرعة السيارة التى لو زادت أو نقصت لاختلفت النتيجة . . ثم هناك موعد انطلاق السيارة ، فلو حدث فيه أى تبديل لكان جديرا أن يغير كل شىء . . ثم هناك مئات الأسباب لا تجد لواحد منها تعليلا شافيا[1] . . وأرانى مدفوعا إلى أن أحدثك بخبر فاجعة مر عليها حتى اليوم أكثر من عشرين سنة . . على أنها لا تزال عميقة الأثر فى نفسى كما لو حدثت صباح اليوم .

كان فى السيارة ستة عشر راكبا . . وقد وقفت فى بلد سورى بانتظار مسافر ترك مقعده ليأتى بحقيبته . . وضج السفر مستعجلين السائق لإنقاذهم

---

(١) أذاعت محطة بيروت قبل ساعات هذا الخبر : بينما كانت شاحنة ضخمة فى طريقها من سدنى فوجئ سائقها بعطسة أخلت توازنه فاذا هو يجتاح عمود كهرباء . . ويشب الحريق فى السيارة فيأتى على ما فيها من السجائر . . ويسقط بسبب ذلك ثلاثة جرحى ! . .

من هذا الحر . وجاء قاض يريد السفر فلم يجد سوى ذلك المقعد خاليا فاحتله برغم صياح السائق والمعاون .. ويظهر أن صاحب الحقيبة قد أبطأ قليلا ، فلم يجد السائق سبيلا إلا أن يتركه بعد أن طار مقعده ! . وهكذا جرت السيارة تدرج فى طريقها . .

وأقبل الفتى صاحب الحقيبة راكضا يلهث فى اللحظة نفسها التى تحركت فيها السيارة . . وراح يصرخ . . ويسب ، وقد امتلأ غيظا ونقمة ، واعتبر القدر هو وحده المسئول عن تأخره ! . .

وما هو إلا ربع ساعة فقط حتى جاء النبأ الهائل . . نبأ احتراق السيارة بجميع من فيها ، غير واحد استطاع أن يقفز من أحد الأبواب ، ليحمل خبرها للناس ! .

لا أريد أن أقف طويلا على مجموع الفاجعة ، وإنما ألفت النظر فقط إلى رجلين : أحدهما ذلك القاضى المسكين الذى امتطى السيارة رغم كل معارضة ، معتبرا نفسه الغانم . . وذلك الفتى الذى تأخر لحظة ، ففقد مقعده فى السيارة ، ثم فقد نصيبه من الكارثة ، وهو يظن نفسه الخاسر ! .

من المسئول عن هذا التوجيه العجيب فى حياة كل من الرجلين ؟ . .

من الذى ساق القاضى إلى حتفه ؟ . . ومن الذى رد الفتى عن هذا المصير ! . . ولعلك تقول لى : هى الصدفة ! ! حسن . . ولكن ما الصدفة ؟

لقد اعتاد البشر أن يطلقوا اسم الصدفة على كل حادث عجزت وسائلهم عن تحليله . . ومعلوم أن الأشياء كلما أوغلت فى الدقة كان تحليلها أشد عسرا . . وقد استطاع الإنسان أن يصنع الموازين التى تزن نقطة المداد . . بيد أنها لا تزال عاجزة عن إعطاء أى حساب لثقل هذه النفحة التى تملأ أنفك من عبير الزنبق مثلا . . فالغرام الواحد من العطر يتلاشى بفعل التبخر خلال زمن معين ، فتعلم من ذلك أن كل ما استنشقته من شذاه كان شيئاً له وزنه ! . ولكنه وزن لا تتمكن من تسجيله أجهزة الإنسان . . فإنكارك لحجم العبير كإنكارك لحجم البعير ! . . إنكار للواقع وإن كنت لا تملك تقديراً له . .

وهناك آلاف الحقائق ليس بوسع الإنسان أن يضع يده عليها ، ولكنه يحس أثرها . . وكثير منها كالأثير كان ركنا رئيسيا فى القواعد الرياضية ، التى بنيت عليها الكشوف الحديثة ، فلولا تقدير وجودها لاستحال تحقيق الكثير من الأعمال العلمية . .

ومع ذلك فإن أخفى القوانين هى التى يجرؤ الإنسان على تجاهلها ، ليقول : إنها المجهول الذى لا يمكن تسميته بأكثر من « الصدفة » ! . . غير أن هذه الصدفة ، على الرغم من أنف الإنسان ، لا تبرح هى المصدر الأول لأخطر الحوادث الكونية . . فالنار مثلا إنما اكتشفت بطريق الصدفة ، إذ انفجرت لأول مرة من احتكاك حجرين أو غصنين فى شجرة . . فعرف الإنسان طريق استحضار النار ، وإذا هى من أعظم موارد الطاقات ، وأشدها أثرا فى حياة الإنسان . .

والعقاقير الطبية إنما اكتشفت مفعولها بطريق الصدفة ، ولعل أول ما عرف منها كان عشبا أكلته شاة مجروحة الفم فبرئ جرحها . . فكان ذلك سببا لمعرفة الإنسان أول المبادئ فى تحضير الأدوية . .

وهذا السلك البرق . . ألم يكن صدفة فوجىء بها الإنسان دونما سعى أو انتظار ! . . والبنسلين الذى أوشك أن يقضى على الكثير من الأمراض ، إنما كان تحضيره لأول مرة بطريق الصدفة . . إذ ظهر مفعوله فى التهام الطفيليات المرضية على غير ميعاد . . .

والذرة نفسها . . ألم يكن تفجرها على غير الفروض المتوقعة ؟ . ذلك لأن التقدير العلمى كان يفترض أن يؤدى انفجار الذرة الواحدة إلى انفجار كل ذرة تتصل بها . . وإذا كان الكون كله فى علوياته وسفلياته يؤلف وحدة متماسكة ، من حيث اتصال الأجزاء ، لهذا كان طبيعيا أن يتسلسل التفجر ، حتى يأتى على أجزاء الكون كله ! . . وقد اعترف العلماء أن (شيئا ما) قد حدث فى مسير القانون الانفجاري . . فحصر مفعول التدمير فى حدود معينة من المجال . ولكنهم لم يجدوا له تفسيرا خارج منطق « الصدفة » ! . .

وقد عرف عن أوتوهان عالم الذرة الألمانى ، أنه كان يحاول إنتاج ذرة ثقيلة بإطلاق النيوترون على ذرة اليورانيوم ، فإذا الذرة نفسها تنفلق بدل أن تتضخم ، وإذا هناك شقان كل منهما يؤلف عنصرا مغايرا . ثم جاء الكشف الأعظم من هذا الانشطار ، إذ خرج به مقدار من الطاقة حدد بمئتى مليون فولط الكترونى ! . . .

وهذه الطاقة التى انبثقت يومئذ بمحض (الصدفة) هى التى تردد صداها ولا يزال ، دويا هائلا فى جنبات الأرض ، إذ كانت نقطة البدء فى مرحلة جديدة من تاريخ الدنيـــا .

ولعلك لو تتبعت جميع القوانين التى تم كشفها للإنسان ، منذ أبعد عهوده حتى الآن ، لما وجدتها تتجاوز حدود هذه « الصدفة » ! . .

بقى أن نتذكر كون الصدفة هذه هى التى يعترف المؤمنون بأنها أحد مظاهر القانون الإلهى العظيم الذى يسمونه : (القضاء والقدر) فهم وغيرهم سواء فى الشعور بوجوده ، ولكن الفرق بين الفريقين هو أن أحدهما آمن بما وراءه من الحكمة المدبرة ، فرده الى نفس المصدر الذى انبثق عنه كل الوجود ، بينما عجز الفريق الآخر عن التطلع إلى ما وراء حدود التراب فكفر بنعمة ربه . . . وأنكر كل حكمة فى هذا التدبير ! . ورحم الله القائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم !

* * *

خـــير وشر :

والحديث فى القضاء والقدر يسوق بطبيعته إلى البحث فى موضوع الخير والشر ، بل أنهما أكثر ما يذكران عند هذا الموضوع ، إذ تقع الحادثة فيختلف فى تقديرها ، فإذا كانت مسيئة وصفت بالشر ، ثم جاء التساؤل : لم حدثت ؟ . وما الحكمة فى حدوثها ؟! . . ثم يكون التسليم أو الضياع . .

وكثيرون من أصحاب النفوس الطيبة تنفر قلوبهم من نسبة خلق الشر

إلى الله فيقولون : الشر من أنفسنا والخير من الله . ثم لا يعدمون أن يجدوا من النصوص الإلهية ما يؤيد فى ظاهره وجهة نظرهم ! .

والحق أن موضوع الخير والشر من التعقيد فى الموضع الذى لا تنفع فيه النظرة العابرة . . إذ كثيرا ما نختلف على تحديد مفهوم كل من العنصرين، حتى يمس الشيء الواحد خيراً وشراً فى الوقت الواحد . .

. . من أروع ما قرأت لتوفيق الحكيم مقالة باسم « الحقيقة الكاملة » عرض فيها أفكاراً قيمة على لسان حكيم صينى ، جعله واحداً من سكان إحدى المزارع . كان لهذا الحكيم غلام وحصان ، وذات يوم فقد الرجل حصانه الذى أبعد فى الغابات ، فجاء جيرانه يعزونه بمصيبته ، ولكن الشيخ يرد عليهم قائلا : (وما أدراكم أنها مصيبة !!) ثم يعود الحصان بعد أيام ومعه عدد من الخيول البرية ، فإذا بالجيران يقبلون لتهنئته بهذه النعمة . . ويرد عليهم : (وما أدراكم أنها نعمة !!) .

وتمر الأيام . . ويسقط ابن الحكيم عن ظهر أحد الجياد ، فتكسر رجله ، ويعقبه ذلك عجزاً دائماً . . فجاء الجيران يعزون أباه الذى استقبل تعزيتهم بأولى كلماته . . ثم ما لبثوا إلا قليلا حتى نشبت حرب طاحنة بين ملكهم وعدو له ، وسيق جميع الشباب إلى الحرب ، إلا المعطلين الذين كان بينهم ابن الحكيم ! . . وهنا أقبل جيرانه يهنئونه بنعمة بقاء الولد إلى جانبه ، ولا ينسى هذا أن يرد على تهنئتهم باستفهامه الحائر : (وما أدراكم أنها نعمة) !

وتقف القصة عند هذا الحد ، إذ كان معقولا أن لا تنتهى ، لو استرسل الكاتب فى استقصاء ما يمكن حدوثه من مفارقات فى حياة ذلك الحكيم . . فالواقع أن كل أحداث وجودنا ، دون استثناء صالح لأن نقول فيه إحدى هاتين الكلمتين : (ما أدراكم أنها نعمة ! . وما أدراكم أنها نقمة ! .) ومرد ذلك إلى (أن كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان ، وأن الإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر بين يديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير

العزيز العليم . . وإرادة الإنسان إنما هى حلقة من تلك السلسلة[1] وقد مثل للحياة بنهر يجرى . . فأنت لا تبصر منه إلا ما يليك ، فتحكم عليه بما تشاهد ، مع أن الحكم الصحيح ينبغى أن يلخص حقيقة النهر من منبعه إلى مصبه ! . ولو أن حشرة أعطت رأيها فى عمود البرق وما عليه من الأسلاك لقالت : ما أجهل الإنسان الذى يترك هذا للحر والمطر ! . وما ذلك إلا لأنها قصرت عن الإحاطة بمجموع الجهـاز البرقى وأغراضه ، فجاء حكمها محدودا فى شيء هو — بالنسبة إليها — غير محدود ! .. وإذا دل هذا كله فإنما يدل على النسبية فى حقيقة الخير والشر . . فقصة الصينى تعرض لك أربعة مشاهد . . لو أخذنا كلا منها على حدة لرأينا الصواب فى كل من نظرات جيرانه . . على أنها بمجموعها أثبتت خطأهم فى كل أحكامهم على أجزاء الحادثة ، وهكذا نستطيع سحب هذا النظر على مختلف الحوادث ، التى تتعجل الحكم عليها عادة . . ثم تأتى العواقب فيختلف فيها الرأى ، وأفرد مثل لذلك حادثة السـيارة المحترقة . . أفلم يكن ركوب القاضى فى تلك السيارة خيراً فى تقديره ! .. وتخلف الشاب عن الركوب . . ألم يكن شرا محضا فى نظر هذا الأخير ! ! . ثم جاءت النتيجة بخلاف التصورين . . إذ انتهى الأول إلى الموت مشويا ، بينما انتهى الثانى إلى السلامة بتخلفه ! .

وليس لهذا وأمثاله إلا تفسير واحد هو : إننا جاهلون عاجزون . . لا نتجاوز فى إدراكنا بعض الأحيان نظر الحشرة إلى عمود البرق ! . .

وقد لاحظ الجاحظ من قبل موضوع الازدواج فى الخير والشر واللذة والألم . . فخلص من ذلك إلى اعتباره صـورة من كمال النظام الإلهى فى هذه الطبيعة (لأن المصلحة امتزاج الخير بالشر والضار بالنافع ، والمكروه بالسار ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلة . ولو كان الشر صرفا هلك الخلق ، ولو كان الخير محضا سقطت أسباب الفكرة ، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى ذهب التخير ذهب التميز . . ولو استوت الأمور بطل التمييز . . وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة .. ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ،

---

(۱) من كلام السيد جمال الدين الأفغانى فى (العروة الوثقى) .

ولتعطلت الأرواح من معانيها[1] وكذلك كان هذا الازدواج فى نظر الفيلسوف الإيطالى الحديث (كروتشى) مجال العظمة الإنسانية ، إذ تتحول به الحياة إلى سلسلة ديناميكية من النضال المستمر وراء تحصيل الخير بالقضاء على الشر . . ولا سبيل إلى هذا إلا بالتصادم مع الشرور والأشرار ، إذ هذه هى الطريقة الوحيدة للظفر بالخير ، لا الزهد والعزوف ، وتجنب مواطن العراك ، ودعوى البراءة والطهارة الملساء[2] . .

* * *

الخطيئة الأولى :

ومما يتصل بهذا ما حدث بينى وبين صديقين من مثقفى المسيحيين ذوى السلوك الدينى . فقد تعرض أحدهما لموضوع الشر فوصله بالخطيئة الأصلية – على تعبيره – خطيئة آدم الذى بمعصيته لله جر الشقاء على نسله جميعاً ! . .

قلت : قد تكون معصية آدم سببا فى إخراجنا من الجنة إلى هذه الأرض ، ولكن لا أسمى هذا الخروج بنفسه شرا مطلقا ، كما أنى لا أستطيع الإيمان بتسلسله الوراثى فى الجنس الإنسانى . ولم يرض الصديق الآخر عن هذا التفسير فقال : كيف إذن تؤول النزوع إلى الشر فى طبيعتنا ؟! . .

قلت : أما أنا فأومن بأن الإنسان يولد صفحة بيضاء . . والأحداث المختلفة ، مضافة إلى أثره ، هى التى تسيطر عليها قصته كاملة . . وأما نزعة الشر فهى بنظرى من أعظم القوى التى زود بها الإنسان لبناء الحياة ، ذلك لأنها تمثل عملية الدفع الذاتى للعمل والبحث وللهدم والبناء . . ولو تصورت الإنسان خاليا من هذه النزعة لتصورته رمادا لا حرارة فيه ! . أجل يا صديقى إنها (ديناميكية) النضال الذى به تتحول هذه النطفة المذرة (الإنسان) عالما من الطاقات الفعالة ، لا تفتر لحظة عن الحركة والسعى والدفع والجذب ! . .

---

(١) انظر كتاب الحيوان : ١ / ٢٠٤

(٢) من مقال لعبد الرحمن بدوى فى مجلة الكتاب .

ومن أجل أن نحيط علما بهذه الحقيقة نفرض أن فصول الزمن قد أصبحت ربيعاً مستمرا ، أكله دائم وظله ، أكان من المعقول أن يفكر الإنسان بشق الجداول وعمارة السدود ، وإقامة الجسور ، وتشييد المصانع لإنتاج الأقمشة ، وتحضير الوسائل الملائمة لمختلف التقلبات الجوية ! !

ثم نفرض أن الحياة قد خلت من (شرور) الأمراض كلها . . أكان ثمة داع لازدهار الطب والكيمياء وعلم الحياة والجراثيم ! . .

لا يا صديقى . . ليس فى النفس الإنسانية شر لا خير فيه . . . ولو قدرت أهمية هذه النزعة إلى الشر فى عملية الحياة لشكرت الله على أن تفضل بها عليك ، كما تفضل بنزعة الخير سواء بسواء . ولأدركت ساعتئذ لم من الله على الإنسان بهذه الموهبة ، حين يدعوه فى القرآن للانتفاع بها فى صراع الحياة فيقول : **(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) : ٩١ ــ ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠** [١].

أجل . لقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها ، بأن أودعها حوافز الخير والشر ، ليزودها بأمضى سلاح فى أروع كفاح ، الكفاح الذى يصقل مواهب النفس ليبرز قدراتها الكامنة ، وهو سر تشبثنا بهذه الحياة ، وليس شىء أدعى إلى الانتحار من أن تفقد نفس الحى رغبة التفوق فى معركة هذا الكفاح الخالد .

ولقد ورث الجنس البشرى عن أبيه الأول مجموع الصفات التى تمثل كيان الإنسان ، بما فيها من ملهمات الخير والشر . . وبهذه الصفات استطاع كثيرون من الناس أن يتسنموا ذروات البطولة ، إذ كانوا مظهر الانتصار لكلمة الله فى الأرض . وبهذه الصفات نفسها سقط الكثيرون إلى حضيض البهيمية ، فلم يكونوا أكثر من هدامين لبناء الله ! . .

وأنا بهذه اليد أستطيع أن أشن أنواع الاعتداء ، وأشق صدور الأبرياء ، وبها نفسها أستطيع أن أضمد الجراح . . وأخفف الآلام . . وهذا معناه

---

(١) زكى نفسه : طهرها ، ودساها : أهملها وأفسدها .

أننا بمواريثنا الموهوبة نستطيع أن نسمو وأن نهوى : . وإنما يتفاوت الناس بمقدار إحسانهم وإساءتهم التصرف فى هذه المواهب . . والتصرف الناجح هو الذى يقوم بتأمين التوازن بين قوى النفس ، فلا تطغى إحداها على الأخرى ، ولا تتضخم واحدة على حساب هزال الثانية . وبذلك فقط يحقق الإنسان كماله المنشود ، ويتجنب الخلل الذى يهبط به إلى مزالق الوجـــود :

رب مستور ســبته شهــوة　　قــد عرى من ستره وانهتكا
صـاحب الشهوة عبـد فــإذا　　ملك الشهوة أضحى ملكــا

وآخر ما أقوله يا صديقى أن من أعجب العجب أن يتخذ امرؤ من وراثة الصفات سبيلا إلى القول : بأن الإنسان قد ورث عن آدم نزعته إلى المعصية . . إذ لو صح ذلك لوجب أن لا يلد المقامر إلا مقامرا ، ولا الزانى إلا زانيا ، ولا القاتل إلا قاتلا . . على حين ترى الحياة مشحونة بالصالحين الذين ولدهم الفاسدون ، والعظماء الذين أنجبهم السخفاء . . وكم من ناحت أصنام (كآزر) جاء من صلبه محررون للأنام من ربقة الأوهام والآثام .

ولـكن أحد الصديقين هداه الله لم يعبأ بكل ما عرضت له ، وكأنه كان مشغولا من كل ذلك بما فى نفسه وحدها ، فإذا هو يقول : هنا نقطة الافتراق بيننا نحن المسيحيين وبينكم ، فأنتم تذهبون إلى القول بطهارة الفطرة البشرية فتؤمنون بأن كل مولود يولد نقيا، ثم يأتيه الرجس من كسبه . . فإما أن يستمر فى طهارته فيسمو إلى الملأ الأعلى ، وإما أن يسقط به عمله فيهبط إلى ما تحت منزلة الأحياء . . أما نحن فقد آمنا إيمانا باتا قاطعا أن الإنسان يولد نجسا بما يرثه من صفات الخطيئة الأولى[1] . . ولا مطهر له إلا الإيمان بالمسيح — على طريقتهم طبعا — ! .

* * *

الـكسب والخلق :

ثبت مما أسلفنا تداخل العنصرين الخير والشر إلى حد يستحيل معه القطع بأن للشر وجودا مستقلا ، ومعنى هذا أن لا موضع للقول بأن الله غير خالق

---

(١) إلى هذا الاتجاه يذهب مؤلف كتاب « هذه هى الأغلال » إذ يرى الفطرة البشرية مطبوعة على الشر المحض وإنما يأتيها الخير من الخارج فقط .

له ، لأن ذلك منته إلى الحكم بأنه غير خالق للخير أيضا ، ما دام الشيء الواحد في الوقت الواحد قد يكون خيرا من جهة وشرا من جهة . . وإذن فالكلمة الآن حول مسئولية الإنسان في شأن هذا الشر . .

ويظهر أن حكيم المعرة قد اعتراه من الموضوع مثل الذى يعترينا منه . . لذلك نقرأ له مثل هذا القول :

لا ذنب للدنيا . فكيف نلومها — واللوم يلحقنى وأهل نحاسى[1]
عنب وخمر فى الانــاء وعاصر — فمن الملوم .. أعاصر أم حاسى !

فالمعرى ينظر إلى الحياة فيجد فيها أكداس الخامات على اختلاف خصائصها وقيمها . . ثم ينظر إلى الإنسان فيراه حول بعضها إلى أدوات للتهديم ، فلا يشك أن الإنسان هو الجانى وأن الدنيا ـ وبتعبير آخر ـ القدر ، برئ من كل التبعات فى هذا المضمار ! .

فهذا العنب أحد محتويات الطبيعة ، وليس ثمة مجنون ، بله العاقل ، يزعم أن وجوده شر . . ولكن زائغا من الناس يأبى إلا أن يجعل منه شرا ، فيعصره خمرا ، ويزينه للشاربين كأن يسميه مثلا (بيرة خالية من الكحول) ! فاللوم إذن منصب على العاصر والشارب فقط . . والمعرى يوزع استفهامه لذلك بين الاثنين دون أن يذكر غارس العنب أو خالقه ، لأن براءة هذين لا يجوز أن تكون موضع شك . .

وأنت تستطيع أن تسحب هذا الحكم على كل ما يماثله من الحوادث ، فتحدد بذلك تبعتك فى كل عمل خاضع للمسئولية .

ومثلا آخر . . تصور أنك دخلت مصنعا للعقاقير الطبية ، وأجلت نظرك فى آلاف المستحضرات تقرأ على كل منها اسمه ومركباته وطريقة استعماله ، والحالة التى يستعمل فيها ، ثم رحت تلتهم من هذا أو ذاك على غير تقدير ولا مشورة طبيب ! . . ولا تنس أن بين هذه المستحضرات سموما ثقيلة وخفيفة . . فهل تسمح لنفسك أن ترمى المصنع وصاحبه بتهمة الجهل أو العدوان ، إذا لم تحسن أنت أو غيرك . . استعمالها !؟؟ . .

---

(١) نحاس الإنسان : أصله وطبيعته . . .

هكذا تماما شأنك مع (مادة الشر) **فهى** مخلوقة بحكمة من الله ، فإذا رحت تصرفها فى غير الطريق الذى عينه الشرع ، كنت كذلك المغامر الذى لم يصدق الطبيب ، فراح يجرع السموم دون مبالاة ! . وبالطبع فأنت حين تقوم بهذا الشطط فى استعمال السموم لا يصح اعتبارك خالقا لها ، ولكن يصح تسميتك مسيئا لاستعمالها . . وهذا هو تماما الحكم الذى يصدره الإسلام فى هذه القضية . إذ يعتبر المعصية (كسبا) فيقول :— **(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ٤٢—٣٠) (كل نفس بما كسبت رهينة ٧٤—٣٨)** . والكسب ليس له إلا معناه المتبادر ، وهو انتقال الشئ من يد إلى يد . . فأنت تكسب عشر ليرات يوميا فيكون معنى ذلك أنها كانت مع سواك فانتقلت إليك . . فأنت إذن لم توجدها من العدم .

أما مادة العمل فهى من خلق الله وحده **(والله خلقكم وما تعملون ٣٧—٩٦)** . وأوجهك بوجه خاص إلى ألفاظ الآية ، فهى تؤكد أن الله خلق قدرتنا على العمل كما خلقنا تماما . فاذا نحن فعلنا الخير فبالقوة التى خلقها فينا ، وإذا فعلنا الشر فبها أيضا . . وهكذا ترى أن الفاعل وقدرة الفعل ومجال الفعل . . كلها مخلوقات لله ، فليس للإنسان إذن سوى توجيه الإرادة إلى هذا أو ذاك من التصرف . . وفى حدود هذا التصرف المسبوق بالتصميم تكون مسئوليته عما كسبت يداه . . وعلى ضوء هذا الإيضاح أيضا نفهم قول القرآن العظيم : **(ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ٢١—٣٥)** .. فهو مثلما **(خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ٦٧—٢)** خلق مادة العمل الصالح للخير والشر ، لا إلزاما بهذا وذاك ، ولكن امتحانا لمدى استجابتك إلى حوافز الخير من العقل الصحيح والفطرة السليمة والوحى المنزل على أنبيائه .

وعلى ضوء هذا المنطق الإلهى يجدر بك أن تنظر إلى موضوع المشيئة ، التى كثيرا مايواجهك ذكرها فى القرآن ، وبخاصة فى مثل هذه الصيغ **(وما تشاؤون الا أن يشاء الله ٧٦ — ٣٠) (وما يذكرون إلا أن يشاء الله ٧٤ — ٥٦)**

فأنت هنا أمام ما يسميه علماء المعانى (القصر) ، وهو قصر شيء على شيء آخر على وجه مخصوص كالشرط لا يتحقق جزاؤه إلا بعد تحقيق فعله . . وإذا فمشيئتنا مقيدة بصدور الإرادة الإلهية سواء كان اتجاهنا نحو الخير أو الشر ! . ومن شأن هذا الارتباط أن يحدث مشكلة معقدة بنظر الذين لا يعلمون منطق القرآن . . والحق أن الموضوع هنا لا يعدو مدلول الآيات السابقة من حيث كون الأشياء جميعا مخلوقة لله ، محكومة بإرادته ، فالقوة التى تمثل مشيئة الإنسان ليست إلا جزءاً من كيانه الذى أبدعه الله فأحسن خلقه وتنظيمه ، فاذا ما تحرك هذا الكيان كله أو بعضه لعمل ما فإنما يتحرك بما أودعه الله من طاقة العمل والحركة . . وطبيعى أن واهب القوة هو القادر على سلبها ووقف نشاطها ، فاذا عملت فمعنى ذلك أنه قد أطلق لها حرية العمل ، ولكن هذا لا يعنى أنه راض بكل ما تعمل . .

فالمشيئة شيء والرضى بالعمل شيء آخر . . ولذلك يخبرنا سبحانه بأنه (لا يرضى لعباده الكفر) . . وقد سئل على كرم الله وجهه عن القدر فقال للسائل : (أخلقك الله تعالى كما تشاء أو كما يشاء ؟ . . أيحييك كما تشاء أو كما يشاء ؟ . . أيميتك كما يشاء أو كما تشاء ؟ . . أفيحشرك كما تشاء أو كما يشاء ؟ . . أفيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء ؟! . .) وبالطبع كان جواب الرجل على كل واحدة « بل كما يشاء . . » لذلك انتهى على بهذا الاستدراج إلى خاتمته الطبيعية إذ قال للرجل أخيراً : (قم فليس لك من الأمر شيء ! .) .

فالتصرف المطلق فى كل شيء إنما هو خاص بالله وحده ، وليس لأحد غيره كائنا من كان أن يتصرف إلا بمشيئة الله ، وفى حدود المجال المخلوق من قبله . . ونحن حين نفعل شيئا فإنما لنا فيه أثر الكسب فقط ، وما عدا ذلك فكله لصاحب الخلق مبدع الكل . . وقد وفق أعمى المعرة إلى هذه الحقيقة أحسن توفيق حين قال :

لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة   من التراب لكان الأمر مشتركا[1]

---

(١) من طرائف الشروح قول أحد مؤلفى الكتب الأدبية فى تفسير هذا البيت : إن المعرى يتحدث عن الاشتراكية . . وكان ذلك بالطبع قبل فضائح الاشتراكية !

فتنـــة وبـــلاء :

وأرجو ألا يغم عليك مدلول لفظى « البلاء » و « الفتنة » فلا تقع فى مثل تخبط العامة عندما يفهمون الأمرين على أنهما شر محض . فالبلاء والإبلاء والابتلاء تكون فى الخير والشر ، ومن ورودهما فى معرض الخير قوله تعالى مثنيا على أبي الأنبياء إبراهيم : (**إن هذا لهو البلاء المبين ٣٧-١٠٦**) فالبلاء هنا إنما هو إثارة الله لقوة الاحتمال فى إيمان نبيه ليرفع درجاته فى منازل الكرامة . . وكذلك قوله سبحانه فى المن على المؤمنين يوم بدر : (. . **وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ٨-١٧**) وبهذا المعنى جاء البلاء والإبلاء فى مديح زهير إذ يقول :

رأى الله بالاحسان ما صنعا لكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

أما الفتنة فقد استخدمها القرآن للمدلول نفسه ، فالله يخبر عبده موسى : (**قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ٢٠ ــ ٨٥**) ففتنة الله لقوم موسى امتحان ما يتظاهرون به من الإيمان ، وهى فى كلمة موسى اعتراف بحكمة هذا العمل الإلهى فى كشف بواطن النفوس ، كشفا يثبت نوع استحقاقها للمثوبة أو العقوبة . . وقد استعمل القرآن أيضا هذا اللفظ فى نطاق الإيذاء بسبب العقيدة فقال : (**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ٨٥-١٠** . .) (**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ٢ ــ ١٩٣**) (**والفتنة أشد من القتل ٢ ــ ١٩١**) وهو فى كل هذا لا يعــدو مدلول الامتحان المفهوم من سائر الآى . . لأن من نتائج هذا الإيذاء الكشف عن قوة العقيدة أو ضعفها فى الممتحنين . وأحسبك توافق على أن من الخير للإنسان تعريضه للهزات النفسية ، التى تكون أفضل تدريب له على مواجهة المحن ، والتمرس بأعباء المقاومة . .

وأنا أعتقد أن الله إذا أحب عبداً لم يدلله ، بل يقذف به إلى ساحة النضال ليستكشف بنفسه مواهب نفسه . . وبذلك يعده لرسالته التى لايطيق تحملها ذوو النفوس الخرعة ، والقلوب الهلعة ! . والجندى الذى لا يستعمل قواه فى العديد من المناورات ، لن يكون جديرا باقتحام الساحات . .

الصبر والنصر :

ومن هنا كان الصبر على البلاء – بنظر الإسلام – قرين الإيمان وهو إحدى ثمراته الناضجة . . وقد لاحظنا فيما قدمنا من الأمثلة ، أن كثيرا من مظاهر الكروب تحجب وراءها كل أمر محبوب ، وقلب المؤمن فقط هو الذى يدرك هذه الحقيقة ، لذلك كان صاحبه هو الإنسان الوحيد الذى لا تضعضعه تقلبات الأيام ، ولا يصرفه غثاء السيل عما رسب تحته ، فتراه هادئ الاعصاب رابط الجأش أبدا ، حتى فى أشد المواقف حرجا . . لأنه يقرأ فى كتاب ربه **(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ٢–٢١٦) .**

وقد وصف المتنبى وقفة سيف الدولة إبان معركة الحدث فقال :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

فهو يرينا إياه فى قلب الخطر ، تمر به الأبطال حاملة جراحها ، وهو منطلق الأسارير ، كأنما حفظ من الموت فى جفن الموت ! . وإنه لموقف لا يتأتى لإنسان عادى ، لذلك يصور رأى الناس فيه على هذا الوضع الغريب :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... إلى قول قوم : أنت بالغيب عالم

وحقاً أن موقفا كهذا لا يمكن تفسيره بألفاظ الشجاعة والعقل والحزم . . فلم يبق إلا أن يظن بصاحبه علم الغيب ! . وأنا شخصيا لا أستغرب من رجل وقف حياته على الجهاد فى سبيل الله حتى كان يجمع غبار ثيابه من المعارك فى وسادة أوصى أن توضع تحت رأسه فى القبر . . . لا أستغرب من إنسان مثل هذا أن يثبت فى وجه زلزال تفر منه آلاف الأبطال ، وأن يكون ثباته مستمدا من اليقين المطمئن بأن الله لن يخذله ، مادام يجاهد فى سبيله ، فهو يثبت كى يفكر بالعمل الذى يجب اتخاذه ، لتغيير طريق المعركة تحقيقا لوعد الله **(وكان حقا علينا نصر المؤمنين ٣٠–٤٧)**

وبذلك يتضح بجلاء كيف يصبح الإيمان بالقضاء والقدر مبعث القوة التى لا تقهر ، إذ يؤلف بين نفوس المؤمنين وقوانين الحياة فى انسجام مدهش ، يملؤها بالطمأنينة فى أحرج المناسبات ، ويشحذ نشاطها الدائب فى جميع الحالات . . ويحصنها من اليأس ، فلا تفزعها المثبطات ، لأنها تعلم أنها ليست وحدها ، وأن أزمة الأمور فى يد اللطيف الخبير . . فرب ظاهر نعمة كان طليعة نقمة ، ورب غمرة بلاء انجلت عن الفرج والضياء :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

* * *

الهـدايـة . . .

كثيرا ما تطالعك فى القرآن الحكيم مثل هذه الآيات :

(من يهد الله فهو المهتد ٧ – ١٧٨) . . (ومن يضلل الله فما لـه من هاد ٤٠ – ٣٣) (ومن يضلل الله فمـاله من سبيل ٤٢ – ٤٦) . . وما أحسبك إلا وقفت طويلا تلقاء هذه المعانى ، وقد امتلأت هما وهلعا . . إذ تتوهم أنك بإزاء أحكام قاطعة فى سلب الإنسان كل قدرة على التخير . . فالهداية من الله مباشرة ، والضلالة منه كذلك ، والناس إما شقى قضى عليه بالضلال منذ الأزل ، وإما سعيد كتبت له نعمة الهداية منذ سطر اسمه فى لوح الوجود . . فلا جدوى بعد ذلك لعمل ، ولا حصيلة لسعى . . والويل لمن يقف فى وجه الأقدار . . !

وأول ما ألفت نظرك إليه هنا هو ما سبق أن عرضناه من الكلام على الجبر والاختيار ، حيث تتبين من جديد أن القول بتعطيل حرية الإنسان مما ينافى مبادئ الإسلام البديهية ، وقد أريناك أن مجرد تكليفك دليل قاطع على حريتك ، إذ لا يجوز الجمع بين التكليف والإكراه بحال . . والا اتهمت ربك بالظلم ، وهو الذى يقول : **(وما ربك بظلام للعبيد٤١ – ٤٦) . .** و **(إن الله لا يظلم الناس شيئا ولـكن الناس أنفسهم يظلمون ١٠–٤٦) .**

ثم اقرأ معى قول القرآن : **(. .إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل،إما شاكرا وإما كفورا ٧٦–٢ و ٣)**

ثم قوله الآخر : **(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ٤١ـ ١٧)** ثم قل لى : هل تشم فى كلتا الآيتين رائحة الإلزام بالهداية ! . . إن الله فى الأولى يهدى الإنسان طريق الحق، ثم يدع له أن يختار بين الكفر والشكر . . وفى الثانية يهدى ثمود . . ولكن ثمود يؤثرون الكفران على الإيمان . . وهذا واضح الدلالة على أن الهداية هنا إنما هى مجرد الإرشاد إلى الحق باقامة معالمه **(لئلا يكون للناس على الله حجة)** فلا أثر للإكراه ، ولا مظنة للإلزام . . تماما كما تقول: هديت فلاناً الطريق ، وأنت تريد أنك عرفته إياه ودللته عليه ، ولا يفهم من ذلك أنك أكرهته على سلوكه . .

على أن الهداية قد ترد بمعنى الإلزام كما هى فى فاتحة الكتاب **(اهدنا الصراط المستقيم)** فالمؤمنون هنا يسألون ربهم أن يربط قلوبهم بالهدى فلا يزيغوا عنه ، كما ورد فى الكلام المأثور (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه . .) ولكن قلما ترد الهداية على هذا الوجه فى أسلوب القرآن بغير صيغة الطلب ، فاذا جاءت الهداية بهذا المعنى فى صيغ أخرى فلبيان أن الله لم يفعل ذلك قط ، وأن الإلزام بالهداية مخالف لسنته تعالى ، وذلك كما ترى فى قوله : **(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة١١ ـ ١١٨)** و **(. . لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ١٣ ـ ٣١)** و **(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ٣٢ ـ ١٣)** . . وأنت ترى كيف قيد لفظ الهدى بحرف الامتناع (لو) فى جميع هذه الآيات ..

فهو إذن قادر على قسر الناس على طريق واحد ، ولكنه لم يفعل رحمة وتكريما لإنسانيتهم . . إذ ترك لهم سبيل استعمال الجهد الشخصى ، ليتقاضوا مكافآتهم وفق العدالة ، ومن ثم ليسعدوا بثمرات انتصاراتهم التى حققوها فى معركة الحياة . . **(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ٩٩ ـ ٧ ، ٨)** . . .

وطبيعى أن الإنسان الكريم يفضل ألف مرة أن يترك له الخيار فى سلوك الطريق الذى يشاء على أن يقاد بخطمه إلى الجادة .. وإذا شئت فجرب

ذلك فى طفل . . حاول أن تكرهه على طعام أو لعبة . . فانك ستحس بتمرده ، حتى تدعه لنفسه ، لأنه يأبى أن يتنازل عن استقلاله الشخصى لأية إرادة خارجية .

وقد رأيت كثرة من الناس تنسب إلى القرآن مثل هذا القول : (لا تهد من أحببت . .) ثم يفهمون من ذلك أن الله يأمرنا أن ندع الناس ، فلا نهديهم ولا ننصح لهم ! . . وقد جهلوا أنهم أحدثوا فى الآية تحريفا حاد بها عن وضعها الإلهى ، إذ أن الله تعالى يقول مخاطبا نبيه : **(إنك لا تهدى من أحببت . . ولكن الله يهدى من يشاء ٢٨ – ٥٦)** فالآية – كما ترى – إخبار مصدر بالتوكيد ، يطيب الله به قلب نبيه ، إذ يراه حزينا لإخفاقه فى إقناع من يريد هدايتهم بحقائق الدعوة ، فيذكره بالقانون الإلهى الذى حدد مهمة الرسول بأنه مذكر لا مسيطر . وأن الذى يحكم قلوب البشر هو الله وحده ، فليس لأحد من خلقه سلطان عليها . . فاذا ما قرأنا الآية مصحفة على طريقة هؤلاء العوام انتقل المعنى من الخبر إلى الطلب ، وتحول التذكير إلى نهى عن الإصلاح ! .

وعلى كل ففى صدر الآية توكيد لما أريناك من نفى الإلزام بالهداية ، وأما عجزها ففيه تقدير بأن هذا الإلزام لا يملكه إلا الله ، فهو وحده الذى لو شاء لسد على عباده كل منفذ غير طريق الهداية ، فيكرههم حتى يكونوا مؤمنين . ولكن شاءت حكمته ألا يفعل ذلك تكريما للإنسان وسموا به عن مرتبة الحيوان ! . .

* * *

والضلالة :

وننظر الآن إلى موضوع الضلالة ، ولعل البحث هنا أكثر تطلبا للدقة ، لأنه يتصل بفلسفة القانون الإلهى ، الذى يستشفه المؤمن من خلال التدبير الكونى العام . فالله سبحانه يقول : **(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ١٥ – ٨٥)** ويقول أيضا : **(وما خلقنا السموات والأرض وما**

بينهما لاعبين ٢١–١٦) وأقرب ما تقرره الآيتان أن هناك نظاما إلهيا شاء الله أن يقوم به الكون علويه وسفليه وما بينهما ، نظام تمثله فى الأولى كلمة الحق ، التى تقابل نفى اللعب فى الآية الثانية . . . وبمجرد ذكر النظام نتصور ترتيبا غائيا ذا وسائل وأهداف ، تجعل لكل من أجزاء الكون عمله فى تحقيق الغاية الكلية ، وهذا من بديهيات العلم ، إذ أصبح مقررا أن كل شىء فى هذه الطبيعة مخلوق بقدر (**إنا كل شىء خلقناه بقدر ٥٤ – ٤٩**) وأن ثمة قوانين قاهرة ، محكوما بها كل شىء فى الكون ، من الجماد إلى النبات إلى الحيوان والإنسان ، وأية مخالفة لواحد من هذه القوانين ، جزئيا أو كليا تنتهى بكارثة على المخالف **(سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ٣٣–٦٢ ولن تجد لسنة الله تحويلا ٣٥ – ٤٣)** .

هذا المــاء الذى تجرى فيه الفلك غادية رائحة بما ينفع الناس . . لم يكن سبيل إلى الانتقال على سطحه لولا مراعاة السنن الإلهية فى عمل الطفو والرسوب . . بل لم يكن سبيل إلى سبحك فيه لولا ما تدربت عليه من تطبيق لهذه السنن . .

ومثل ذلك القول فى الطيران الذى كان مستحيلا لولا مراعاة قوانينه ، التى تقتضى حساب كل ما يتصل بمركبات الهواء وضغطه ، وثقله ، ومقاييس المقاومة ، وطبيعة الأجسام . . وليس فى الكون شىء يمكن الإفادة منه إلا وفق قوانينه الثابتة ، سواء فى ذلك أكبر الأجرام وأصغر الذرات . .

ومن القوانين الإلهية فى نفس الإنسان أن سعادتها موقوفة على مدى انسجامها مع حقائق الحياة ، وإذ كانت هذه الحقائق مما لا يمكن للنفس إدراكه من زاويتها الخاصة ، إذ هى مفطورة على أن لا ترى من الشىء إلا ما يقابلها . . لذلك كان من كمال التنظيم الإلهى أن يسعفها بمخطط دقيق واضح ، يعين لها السبيل التى يجب أن تسلكها من هذا الكون .

ولك أن تتصور بين يديك آلاف الأجزاء لجهاز معقد، ومعه مخططه الذى يعرض لكل منها رسمه ورقمه ومكانه ووظيفته .. فأنت هنا إما أن تجرى فى تركيبه وفق التصميم الصحيح ، فتضع كل جزء موضعه المرسوم . . وإما أن تركب رأسك فتلصق العين محل الأذن ، والأنف مكان الفم ، والرأس

موضع القدم ! . . ومثل هذا الانحراف عن تصميمات صاحب المخطط لا تستطيع أن تجد له اسما أليق من (الضلال) . . فأنت به ضللت عن سواء السبيل ، وأنت إذن مسئول عن ضلالك بمقدار ما تعمدت منه ! .

ومن هذا يتجلى لعينيك تلك الحقيقة الكبيرة ، وهى أن أحد القوانين الإلهية فى الأرض ، أن النفس الإنسانية تقرر هدفها الأخير من نقطة الابتداء — كما أسلفنا — فاذا باشرت سيرها فى اتجاه ما ، لا تلبث أن تألف جوه فتمضى إلى غاية المطاف . . إلا أن تعترضها عقبة تردها إلى أول الطريق ، لتختار اتجاهها من جديد . . وطبيعى أنه لو شاء الله لغير من هذه القوانين ، فلحصر الأهداف كلها فى واحد ، ثم لجعل جميع طرق الإنسان صائرة إليه كما يقول العامة (كل الدروب إلى الطاحون) .

وبهذا الترتيب الحكيم ، وبهذا الإلزام الجامع بين المقدمات والنتائج ، كان منطقيا القول بأنه تعالى هو خالق الضلالة ، كما أنه خالق الهداية . . وليس هذا بمسقط مسئولية الإنسان الذى اكتسب بإرادته وفعله ما شاء الله من هذه أو تلك .

أما أن يوجد فى الناس من ينسب الإضلال إلى ربه ، بمعنى الإفساد لعمل خلقه ، فذلك هو عين الكفر بمنطق القرآن ، الذى يقول : **(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ٩ — ١١٥)** لأن مثل هذا التفكير صائر بصاحبه حتما إلى نسبة كل سيئة إلى الله ، حتى ليردد ما قاله من قبله مشركو الجاهلية الذين كانوا **(إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ٧ — ٢٨ !)** فجبههم الله بهذا الرد العنيف الملجم : **(قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ٧ — ٢٨)** .

ولربما صرفك إلى التردد فى هذا الأمر ما تقرؤه من قوله تبارك وتعالى فى مطلع سورة (محمد) صلى الله عليه وسلم : **(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ٤٧ — ١)** فتذهل عن صدر الآية حتى لا ترى سوى نهايتها ! . فحاول إذن أن تتذكر أنك أمام « قضية » تامة لها مقدماتها ونتائجها الطبيعية ، فالإضلال هنا إنما هو نتيجة لازمة لتصرفات مليئة بالتصميم

على الفساد . . وماذا يستحق الكفر والصد عن سبيل الله غير الإضلال ! . بل إن الإضلال هو صورة من الجزاء العادل للسلوك الذى آثره المفسد بملء اختياره . .

. . ولعل هذا يكون لديك أكثر وضوحا عندما تنعم الفكر فى هذه الآية الأخرى : (**يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا . . وما يضل به إلا الفاسقين ٢ ـ ٢٦**) فأنت ترى هنا أن الإضلال والهداية متعلقان بمشيئة الله وحده ، فحيث شاء وضع هذا أو ذاك ، ولكن لا تنس أنها مشيئة الحكيم الذى تنزه عن العبث ، فهو يهب نعمة الهدى للراغبين فيها والعاملين لها ، ولا ينزل نقمة الإضلال إلا بالفاسقين الصادين عن طريق الله (**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض . . أولئك هم الخاسرون ٢ ـ ٢٧**) .

وإذا تذكرنا المدلول اللغوى لمادة (ضل) و (أضل) ازددنا ثقة بما ذهبنا إليه ، ففى الكتاب الحكيم (**وقالوا : أئذا ضللنا فى الأرض . . أئنا لفى خلق جديد ٣٢ ـ ١٠ ؟!**) فهم يتعجبون من خبر الوحى بأن الله يجمع ذراتهم بعد أن تفرقت بملايين الذرات الأخرى ، ليردهم إلى الحياة من جديد . فالإضلال هنا هو ذهاب الأجزاء وضياعها على غير هدى . ويصف البحترى وقع نبلته فى جسد الذئب فيقول :

وأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد

فإضلال النصل تغييبه عن الأنظار بحيث لا يرى أين ذهب . . وهو نفسه المعنى الذى نجده فى سائر استعمالات القرآن العظيم لهذه المادة فى مقابل الضلالة . . فكما أن الاهتداء هو السلوك الصحيح فى الطريق الصحيح، فى ضوء الوحى ، فالضلال هو عكس ذلك ، سلوك الخابط فى طخياء مظلمة ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . .

وعلى هذا وذاك يكون الضلال الذى يقدره الله على العصاة هو كما أسلفنا العقوبة ، التى استحقوها بتعمدهم الخلاف عن طريقه ، إذ تعرضوا بفسوقهم لغضب الله ، فسلبهم نعمة الاستقرار والسداد ، فاضطربت أعمالهم ،

والتوى تصورهم وساء تفكيرهم ، فهم لا يعرفون إلى الصواب طريقا ، ولا يهتدون إلى السلام سبيلا ! .

والآن وبعد أن اتضح لبصرك مجال الرؤية فى هذا الجانب ، ستفهم فى عمق أكبر قول العليم الحكيم : **(سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين .) ٧ – ١٤٥ . . .**

فهؤلاء المتكبرون الجاهلون للحق ، المعرضون عن الرشد ، المصرون على الغى ، المكذبون بآيات ربهم . . أى حكم فى حقهم أعدل من إغلاق الباب ، باب الهدى فى وجوههم ! . .

فنحن إذن تلقاء قانون لا محاباة فيه . . إذ ليس الإضلال فى هذا القانون سوى حصيلة الجهد الذى يبذله الضال ، فكان به موزع القوى ، مضطرب النوازع . . لا يعرف الطريق السوى إلى العمل السوى . . وبذلك صح أن يوصف الله بكونه مضل هذا الفاسق . . على اعتباره سبحانه هو واضع القانون الذى قضى عليه بتلك العقوبة . . كما نقول : أعدمت الدولة فلانا . . لأنها نفذت فيه حكم الشريعة وفق جريمته التى استحق عليها الإعدام . فالدولة بذلك لا تخرج عن كونها ممثلة للعدالة ، والمسئول عن هذه النتيجة هو المجرم ، الذى خرق بسوء تصرفه حرمة العدالة ، فاستوجب عقوبة الموت . .

* * *

حقيقة التوكل . . .

وإذا كان الله خالق الخير والشر ، والضلالة والهدى ، فمن كماله ألا يلزم أحدا بشىء من هؤلاء ، وألا يقضى بالشر أو الضلال على أحد من عباده ، إلا بعد أن يرضى هو لنفسه ذلك . . ثم يسعى لكسبه مختارا . . وهذا ما نفهمه صريحا من قوله تعالى: **(.. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ٦١ – ٥)** فهو لا يقضى بالزيغ إلا على من آثره واتبع هواه بغير هدى من الله . .

وكذلك تجد هذه الصراحة نفسها فى قوله الآخـــر : (**فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**)[1] فأنت ترى هنا تسلسلا محكما ربط كل مقدمة بنتائجها ، فالمعونة على الخير وتقوى الله وتصديق الإنسان بكلمات ربه . . كل أولئك طريق الانسجام السعيد مع حقائق الوجود . . أما البخل والاستكبار عن الحق والتكذيب لرسالات الله ، فطريق الشقاء الأبدى الذى لا قرار معه ولا اطمئنان . . وهى هى الحقائق التى فهمها المؤمنون الأولون من رجال الإسلام لموضوع القضاء والقدر ، تمثلت فى حياتهم قولا وعملا ومنهاجا . . وهذا على بن أبى طالب يعود مرة من قتال فيتقدم شيخ من جنوده يسأله : (أخبرنا عن سيرنا هذا . . أكان بقضاء وقدر ؟!) فيقول على : (ما وطئنا موطئا ، ولا هبطنا واديا ، ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر) . قال الشيخ : (أحتسب عنائى عند الله . . وما أرى لى من الأجر شيئا !) ولـكن علياً سرعان ما نقض بحكمته ذلك الحكم اليائس ، ليرد السائل إلى القانون الذى أوشك أن يضل عنه ، فعقب على كلام الشيخ بقوله البالغ : (بل لقد أعظم الله لك الأجر فى سيرك وفى رجوعك .. ولم تكن فى شىء من ذلك مكرهاً ولا مضطرا . ..ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب . . وسقط الوعد والوعيد)[2] .

وهذا كلام حكيم نشأ فى حجر النبوة ، وعاش حقائق الإسلام ، حتى بات حجة فى استنباط أحكامه ، وهو كلام واضح الدلالة فى توكيد ما ذهبنا إليه ، من حرية الإنسان ، وكونه خاليا عن كل إكراه فى أعماله المسئولة . ولا ريب أن هذا ينقض إلى حد بعيد تلك المفاهيم السوقية التى تشذ عن صميم الإسلام ، حتى لتجعل الإنسان ريشة فى مهب الأعاصير ، لا سلطان له على سلوكه ! . . وقد حدث أن سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ناقته : أيتركها ويتوكل على الله ؟ . فكان من حكمته صلى الله عليه وسلم أن يعلمه أن التوكل على الله لا يتم إلا بعد أن يستنفد المؤمن جهده فى استعمال السنن الطبيعية ، وفى مقدمتها هنا تقييد الناقة بما يمنعها من

---

(١) الاستغناء هنا بمعنى الاستكبار ، والآيتان من سورة الليل : ٥ ـ ١٠ .
(٢) نهج البلاغة . .

الفرار ، لذلك قال للرجل : (اعقلها وتوكل)[1] ويحضرنى هنا ذلك الجواب النبوى الحكيم الذى رد به صلى الله عليه وسلم على أبى خزامة إذ سأله قائلا : أرأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها . . هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ . . » .

فقال صلوات الله وسلامه عليه « هى من قدر الله ... »[2]

فنى هذا الجواب العجيب تقرير حاسم لكل جدل حول هذه الحقيقة الكبيرة ، وهى أن التوكل الحق لا يعدو استعمال القوانين الكونية على وجهها الصحيح . . فمن جهل أو تجاهل هذه القوانين ، وحاول تحقيق مراده بمعاكستها أو إغفالها صار مسعاه إلى البوار ، ولم يكن متوكلا ، وليس له فى هذه الحال من وصف إلا أنه لم يكن على ثقة تامة بالنظام الذى أقام الله عليه هذا الكون ، أو أنه – على أفضل الاحتمالات – على جهل مطبق بهذا النظام ، وهذا ما نفهمه صريحا من الحديث القدسى الذى يقول تعالى فيه : **(يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)**[3] وهذا عين الحق إذ (لو كانت المعصية حتما لكانت العقوبة ظلما . .) .

* * *

حجاج آدم وموسى (ع)

إن بحثا كالذى نحن بصدده تاهت فيه ملايين العقول ، واضطربت فيه مفاهيم المتكلمين ، منذ بدأ الإنسان يواجه تعقيدات هذا الوجود ، يقتضينا أن نقف قليلا عند قصة نبوية تداولتها صحاح المجاميع ، وحار فى كنهها الكثيرون من مختلف أصناف المفكرين . . تلك هى قصة الحجاج الذى حصل بين موسى وأبيه آدم عليهما السلام ، والذى انتهى بإفحام الابن أمام حجة الأب .

---

(١) حديث « اعقلها وتوكل » رمز الترمذى إليه بالغرابة ، وانكره بعض المحدثين ، وقد قطع ابن حبان فى صحيحه بصحة اسناده ، وفى رواية الطبرانى بلفظ (قيدها) بدل (اعقلها) وقال فيه الزين العراقى : « ان اسناده جيد . . »

(٢) عن زاد المعاد ، وقد عزاه إلى المسند والسنن . .

(٣) من حديث طويل رواه مسلم ، وهو الرابع والعشرون من الأربعين النووية . . .

وخلاصة القصة كما أخرجها مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (تحاج آدم وموسى . فقال له موسى : أنت آدم الذى أغويت الناس ، وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال آدم : أنت الذى أعطاك الله علم كل شيء ، واصطفاك برسالاته ؟؟ قال : نعم . قال : فتلومنى على أمر قدر على قبل أن أخلق ؟ . .)

وقد تعددت روايات الحديث ، واختلفت بعض ألفاظه ، ولكن الاتفاق مجمع على أصول القصة ، وكأن ذلك الاختلاف بين بعض ألفاظها وبعض ، ضرب من التفصيل لما أجمل هنا أو هناك . فنى بعض الروايات (كتب على) بدل (قدر على) وفى بعضها الآخر (فيم تلومنى ؟ . . فى شئ سبق من الله فيه القضاء قبلى ؟ . . .)

فموضع الاشكال فى الحديث محصور فى إقرار النبيين عليهما السلام أن المصيبة التى لزمت البشرية بخروج آدم من الجنة ، كانت مسبوقة بتقدير الله قبل خلق آدم . .

ولدى التأمل الدقيق فى نظم الخبر النبوى نلاحظ أن استفهام موسى (ع) كان منصبا على ناحية بعينها هى تسبب آدم فى إخراج ذريته من الجنة ، فالكلام أشبه بعتاب له على ذلك . فجاء جواب آدم على غاية من الحكمة إذ لفت نظر ابنه إلى أن بقاءه فى الجنة كان مستحيلا ، لأن الوقائع التى أدت إلى مغادرتها كانت قائمة فى علم الله ، بحيث لا يتصور حدوث شيء منها غير الوجه الذى حدث ، وكان على موسى ألا يفوته ذلك ، لأنه ضمن الأمور التى أعطاه الله علمها منذ أنزل عليه التوراة ، وكتب له فيها خبر آدم ، وما سبق فى علم الله من عصيانه وغوايته واستيجابه بذلك مفارقة دار الخلد . .

فظهور حجة آدم على عتاب موسى إذن حاصل من تذكيره ما نسيه من سبق العلم الإلهى بتسجيل الوقائع على ذلك النحو الحاسم الذى لا يقبل المحو . . وفى ذلك نقض قاطع لمذهب القدرية المنكرة لسبق العلم بالأشياء

قبل وجودها ، وزعمهم أن الله لم يقدر الأمور أزلا ، ولم يكتبها ، ولم يتقدم له علم بها ، وإنما يأتنفها علما حال وقوعها [1] . .

وما أحكم قول الخطابى فى حديث موسى وآدم (ع) : قد يحسب الكثير من الناس أن معنى القدر والقضاء من الله هو الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ، ويتوهم أن قوله صلى الله عليه وسلم : (فحج آدم موسى) من هذ الوجه ، وليس كذلك ، وإنما معناه الاخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم . . وإنما كان موضع الحجة لآدم : أنه تعالى قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وأن يبطله بعد ذلك ! . . [2]

* * *

النــور والظلمة . . .

ولعل من أخطر ما تضطرب فيه عقول الحيارى ما روى أحمد والترمذى عن عبد الله بن عمرو من قوله صلى الله عليه وسلم : (ان الله خلق خلقه فى ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله) [3].

فهاهنا مشهد المخلوقات وقد أخرجوا من العدم إلى الظلمة ، ثم أشرق عليهم نور ربهم ، فاذا هم فريقان أحدهما فى ذلك النور ، وهو الذى أخذ طريقه إلى السعادة ، والآخر من حجب عنه ، فكان نصيبه غمرات الشقاء . . أفليس هنا (جبر) لازم لكلا الفريقين أن يسلك سبيله دون ما حيلة أو قدرة على تغيير ؟! . . ذلك ما يراه قصار النظر ممن لا تتجاوز بصائرهم أحد جوانب المنظور ، فيحكمون على كله بما يبدو لهم من جزئه . . أما الموفقون إلى الخير ، فيعلمون أن الحق وحدة لا تتجزأ ، فاذا غم عليهم منها جانب عمدوا إلى استكشافه باستقصاء سائر الجوانب . . وهكذا يرجعون إلى محكم الآيات وواضح الأحاديث ، فيرون (الحقيقة الكاملة) التى لا جبر فيها

---

(١) من كلام السفارينى فى شرح منظومته (الدرة المضيئة) ص ٣٥٩ ج ١

(٢) انظر شرح الدرة ص ٣٤٥ و ٣٤٦ . .

(٣) قال فى ذيل المشكاة : حسنه الترمذى ، واسناده صحيح .

ولا انفلات ، إذ يعلمون أن حديث الظلمة والنور هذا لا يختلف عن حديث حجاج آدم وموسى ، من حيث التوكيد على سبق علم الله بالوقائع ومستلزماتها ، مما لا يقبل تحويلا ولا تبديلا . . لأن معنى ذلك أن الذين أصابهم نور ربهم هم الذين علم الله جهادهم المستقبل لتجنب معصيته ، وإصرارهم حتى النهاية على التزام طاعته . . فاستحقوا بذلك هداه ورضاه . . وأن أولئك الذين فاتهم النور إنما استحقوا ذلك بما علم من إيثارهم الغى على الرشاد ، والعمى على الهدى ، فاستوجبوا بذلك سخطه . . وهكذا كان انتشار النور على أولئك ، واستمرار الظلمة على هؤلاء ، علامتين ثابتتين على الطريق الذى سيختاره كل منهما فى مؤتنف وجوده . . فلا إلزام ولا إكراه ، ولكنه تسجيل لوقائع علمها الله ، وجهلها سواه . . ولا يستغرب ذلك ممن (**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ٢٠-١١٠**) ! . . .

ثم إن فى خاتمة الحديث الشريف (. . جف القلم على علم الله) ما يدفع كل شبهة عن هذه الحقيقة ، التى أجمع عليها السلف من أهل السنة ، والتى قطع بها أبو هريرة (رض) حين سأله أبو عثمان مولى أبى هاشم عن القدر ، فقال : اكتف منه بآخر سورة الفتح « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ٤٨ - ٣٩** » . . . فنعتهم قبل أن يخلقهم ، ثم أعلم أنهم يكونون عليه إذا خلقهم[1] . . فهو يفسر القدر بالعلم تفسيرا لا يقبل أى تردد .

* * *

الرؤيـــا الصـــادقة :

ولقد كان من الطبيعى أن لا يعتور هذه الحقيقة أى إشكال لولا جمود فى التفكير من بعض الناس — وما أكثرهم — عجزت معه عقولهم عن التفريق بين صفات الرب وصفات العبد ، فتوهموا أن كل اشتراك فى الوصف اللغوى بينهما مؤد إلى المشاركة فى نوعية الصفة أيضا ، ومن ذلك عجزهم عن تصور العلم الإلهى محيطا بجزئيات الحوادث قبل حصولها فى عالم المادة ،

---

(١) أخرجه رزين . انظر جامع الأصول رقم ٧٥٨٧ . . .

لأن مفهومهم عن محدودية العلم الإنسانى مغاير لهذا الإطلاق . . ومن هنا جاء إقدامهم على الإنحراف بمفهوم القدر إلى معنى الجبرية الملزمة ! . .

وقد سبق أن أشرنا إلى بعض خصائص العلم الإلهى حين مثلنا له بتفاوت مجالات الرؤية . . والآن نذكر القارئ بحقيقة لا يكاد يجهلها إنسان ، لأنها من مستلزمات الفطرة البشرية فى كل نفس سوية . .

إنها قضية الأحلام الصادقة ، التى تطل بك على ما وراء واقعك مما لم يكن يخطر فى تصورك ، ثم تأتى الأحداث بها على الصورة التى رأيت دون زيادة أو نقصان ! . . .

نهضت ذات صباح من نومى مذعورا . . وقصصت على أهلى ما رأيت وكأنى أراه هذه اللحظة : شاهدت والدتى داخلة على من الباب المواجه لسريرى وعلى وجهها ملامح الغضب والثورة ، وما أن وقفت بإزائى حتى جعلت تصب ثورتها على بشدة لا أستحقها . .. وكنت خلال ذلك أحاول تهدئتها وإطفاء ثائرتها بمختلف الوسائل ، ولكن عبثا فقد كانت كالقدر الغالى لا يزاد إلا فورانا . . حتى فقدت صبرى وأهويت برأسى فى شدة على الجـــدار ! . . .

ولم أكد أنتهى من قصة رؤياى حتى بصرت بالوالدة تواجهنى من المدخل نفسه ، وعلى الصورة نفسها . . حتى انتهت إلى ، وطفقت تقذف بحممها نفسها . . ورجوت منها وألححت بطلب الأناة ، وذكرتها بما رأيت . . ولكنها لم تكن لتسمع ما أقول . . حتى انتهى بى الأمر إلى استكمال الدور الذى لم أنسه بعد ، فألقيت برأسى بالشدة نفسها على الجدار ! .

وفى يوم تال رأيت أختا لى قادمة من سفر ، فسألتها عن شقيقتها التى كنت أتوقع قدومها معها ، فقالت : « ستصل عصر اليوم إن شاء الله » . وفى ضحى يوم الرؤيا هذه وصلت هذه الأخت فسألتها عن أختها فإذا هى تجيبنى بالعبارة نفسها دون أى خرم أو خزم ! . .

وفقدت ذات يوم محفظة نقودى ، وقلقت كثيرا لذلك ، حتى رأيت فى نومى أن إنسانا — أعرفه — قد أتانى وأنا جالس بباب المتجر ، وعلى

وجهه ابتسامة ، فقلت : أى فلان ! . . إنك أنت الذى أخذت المحفظة ، ولست بمستردها ولا بمطالبك بها . . ولكننى أريد أن أعلم كيف أخذتها ؟ . فاذا هو يبتسم أيضا ثم يلج المتجر حتى ينتهى إلى سترة لى معلقة فى صدره ، فأمسك بطرفها ومد يده الأخرى إلى جيبها فاستخرج منه شيئا وهو يقول : « هكذا أخذتها ! » . .

وطلع الصباح ، ومضيت إلى متجرى ، وجلست على مدخله ناسيا كل أثر للرؤيا . . وإذا أنا أفاجأ بوجه هذا الإنسان مطلا من مكان الرؤيا نفسه ، فعادت إلى بتفاصيلها ، فأعدت عليه ما قلت له فى رؤياى حرفا حرفا ، فاذا هو يرسم الابتسامة نفسها على وجهه ، ثم يتقدم ، ليقوم بكل ما رأيته ، ويقول كل ما سمعت ! . . .

وضمنى ذات يوم مجلس مع مدرس ماركسى – بلغنى أنه تاب أخيرا – وكان شديد الإنكار لعالم ما وراء الطبيعة ، فذكرته بالرؤى الصادقة ، فردد جواب فرويد الذى يقطع بأن الرؤيا ليست سوى الرغبات المحبوسة نعجز عن تحقيقها فى الواقع ، فتنطلق لتحقق نفسها فى عالم الخيال ! . . . فقلت : ولكن هذا يقتضى ألا يتعلق شىء من ذلك بغير الماضى الذى ترك رواسبه فى العقل الباطن . . فلا سبيل إلى تصوره لأمر من المستقبل على صفته التى عليها يقع . . قال : هو كذلك . قلت : ارجع إلى نفسك واسألها : ألا تذكر رؤيا عن أمر لم يكن قد حصل ثم حصل كما مثلته ؟ . . فأطرق مليا ثم قال : بلى هناك رؤيا لا أنساها . . ذلك أننى رأيت ابن عم لى يطعن رجلا بخنجر فيشقه من أدنى عنقه إلى حدود سرته . . وما هى إلا أيام حتى تحققت الرؤيا بكل أجزائها ، ورأيت الشق يبدأ وينتهى فى المحال نفسه الذى حددته الرؤيا . . والحق أننى حتى اليوم حائر فى أمر هذه التصورات ، لا أعلم كيف ولماذا وقعت هكذا تماما ! . .

قلت : ولكننا نحن نعلم . . أنها وقعت هكذا لأنها قبل حصولها فى مجال الحواس ، رسمت تفاصيلها كاملة فيما تسمونه عالم ما وراء الطبيعة . . . وهذا وحده كاف لهدم الأسوار التى تحيطون بها عقولكم ، عندما تحاولون إيهامها أن ليس فى الوجود سوى هذا المحدود .

وفى حياتنا اليومية أسرار كثيرا ما نعجز عن تفسيرها بالطرائق الرياضية، فنقف منها موقفنا من تلك الأسرار التى عرضنا لها فى باب الصدفة من هذا البحث . . وهى مثلها تماما لا سبيل إلى تبين حقيقتها إلا فى ضوء الإيمان بحكمة الله وعدالته المطلقة .

يقول الله : (**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . . ويعفو عن كثير ٤٢ ـ ٣٠**) فنحن هنا أمام قانون صريح يقضى بأن كل انحراف عن طريق الحق له من العقوبة بقدره ، إلا ما شاء الله أن يعفو عنه ، كما تعفو الدولة عن بعض المخالفات بين الحين والحين . . وهو قانون عام لا يختص بالمسلم دون غيره ، وإنما ذكر فيه المسلم لأنه بتصديقه الرسالة يكون أشد اهتماما به ، فيحاول أن يطهر نفسه من المعصية تجنبا للجزاء ، حتى إذا حلت فيه العقوبة لم يستقبلها بالجزع واليأس ، بل أنس بها ثقة بما تحمله من روح التطهير . والإنسان الذى يعنى بمراقبة نفسه وحوادثه يعرف أهمية هذا القانون فى حياته اليومية . . ولا عجب أن يكفر به أولئك الذين أحاطت بهم خطيئتهم حتى ألفوا جوها ، فتعطلت مداركهم دون الإحساس بها ، كالأسماك التى تعيش فى قاع المحيط ، لايخطر فى بالها النور لأنها لم تر النور .

حدثنى صديق ثقة أن خالا له قد مر برجل يصفع أباه العجوز . . وما أن بصر به الشيخ المسكين حتى أخذ يستصرخه مستغيثا لينقذه من ولده . . واستجاب صاحبنا للاستغاثة ، فدفع عنه ذلك العاق ، غير أنه لم ينس أن يقول له وهو يدغدغ كتفه : (هل تذكر يوم مررت بك وأنت تصفع أباك هنا قبل ثلاثين سنة ، وقد جعل يستنجد بى كما تستنجد بى أنت اليوم !!! . .) وما كان الشيخ المضروب ليحير جوابا . . بيد أنه نكس رأسه دامع العينين ، كأنه يعتذر لذلك الأب الذى لا ندرى قصته أيضا مع أبيه ! . وهناك حادثة صغيرة جدا ، ولكنها لا تفارق ذاكرتى منذ أربعين سنة ، لأننى لا أرى فيها إلا صورة تنفيذية لذلك القانون الذى لا يحابى . .

كان ذلك يوم جئت إلى دارنا فإذا بطفلة مسيحية من جيراننا ، لا تتجاوز الثامنة تتدحرج من أعلى الدرج حتى تستقر فى أرض الزقاق ، فاحتضنتها أتفقد ما حدث لها ، فإذا جرح فى طى شفتها السفلى . . وعلمت أن شقيقة لى من لداتها هى التى دفعت بها من صحن الدار . وذهبت بالطفلة الجريحة إلى طبيبنا (العربى) الذى أشار بأخذها لفورها إلى البحر . . وغسلت لها جرحها . . وكنت أرى المـــاء يتسرب من ثقب الشفة كأنه يندفع من أنبوبة ابريق ! . ومضت أيام وبينما أنا ذات ظهيرة على مدخل الدار رأيت أخى يضرب تلك الشقيقة الصغيرة بعود ذى فروع فيجرحها فى شفتها السفلى . . وأخذت الصغيرة إلى الحكيم نفسه ، وأشار على بنفس الطريقة الأولى ، فمضيت بها إلى البحر ، وهناك بصرت للمرة الثانية بالمشهد نفسه ، مشهد المـــاء يتسرب من ثقب الشفة كأنه يندفع من أنبوبة ابريق ! . .

ثم مضت أيام وأيام . . وإذا أخى يعود من نزهة فى ضواحى البلد ، وقد وضع راحته على شفته ليسد جرحها الذى شقه عود شائك . . وصحبته إلى الحكيم نفسه . . ثم إلى البحر نفسه . . حيث واجهت للمرة الثالثة المشهد نفسه . مشهد المـــاء ينبجس من تحت الشفة السفلى كأنه يندفع من أنبوبة ابريق ! .

وأعتقد أن لو جريت فى استقصاء هذا الضرب من الحوادث اليومية فى حياة الناس لضاقت حياتى عن استيعابه . . وفى ظنى أن القارئ أيا كان لابد شاعر ، وهو يقرأ هاتين القصتين ، أنه غير غريب عن هذا النوع من العقوبات الصغيرة . . لذلك أقف لأتساءل : أى تفسير رياضى يمكن به تعليل هذا التطابق العجيب فى جزئيات الحوادث الثلاث ! . .

ومع ذلك فليس ضروريا أن يحدث مثل هذا التناظر دائماً لتتوافر الموعظة . . وإنما المهم أن مسرح الحياة ملىء بالمآسى التى تنسجم فيها المقدمات مع النتائج

* * *

إشـــارات من السماء . .

وكنت أقرأ هذا الفصل لأخ كريم من المحامين ، فاذا هو يمسح جبهته

ليتذكر تفاصيل حادثة لا يزال أثرها فى رأسه ، على الرغم من انقضـــاء عشرين عاما . .

كان يومئذ يذاكر دروسه فى مقهى بدمشق ، فإذا كرسى يسقط عليه من القسم الأعلى فيصعقه ، ثم تنبه على قهقهة طويلة ، فعلم أن المعتدى واحد من جنود فرنسيين كانوا يسكرون هناك ويعربدون ! . ويظهر أن الجندى هذا قد شاقه العبث برأس هذا الفتى الملون فألقى عليه المقعد ، ثم راح يستمتع بمنظر جريمته فى حبور لا يستنكر ممن نشئوا على روح التمييز العنصرى المتعصب .

وكانت العدالة الصورية أعجز من أن تمتد إلى تلك اليد ، فترك الفتى أمره إلى الله . ثم لم يطل الانتظار سوى بضعة أيام حتى جاء من يبلغه أن عدالة السماء قد أخذت مجراها . . إذ كان هذا الجندى متحصنا فى أحد خنادق الجبهة ، فسقطت على سقفه قنبلة لم تنفجر ، ولكنها قذفت يافوخه بدعامة من الخشب كان فيها حتفه ! .

وهكذا شاءت حكمة الله أن تجعل أداة التنفيذ هذه المرة دعامة بدل المقعد ، فاختلف بعض جزئيات التطابق ، غير أنه ظل روح العدالة هو البـــارز ! .

وإنى لأعرف وكثيرين غيرى موظفا توفى قبل قليل بعد أن قضى أعوامه الأخيرة نهباً لعدد من الأمراض المتناقضة ، وقد حدثنى طبيبه أن كلا من هذه الأدواء يقتضى ضربا من العلاج من شأنه أن ينشئ المضاعفات الرهيبة فى العلة الأخرى ! . وهذا ما اضطره أخيرا إلى وقف العلاج كله ، منتظرا بمريضه الأجل المحتوم ، الذى لم يوافه إلا بعد أن أمسى شاوا محطما كالثوب الممزق الذى لا سبيل إلى ترقيعه ! .

وعندما تعلم أن ذلك المسكين قد صرف كل سنيه فى الشرطة نكبة على كل ضعيف ، وعدوا لـكل شريف ، حتى أنه لم يتورع عن اغتيال بعض الأبرياء إكراما لعيون أحد الرؤساء الأشقياء . . إذا علمت هذا فتذكر

قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته [1].

وكيف أنسى قصة ذلك الرجل الآخر الذى جمعت بينه وبين أمه ذات مساء رغبة فى إصلاح ذات البين ، فذكرت بعض ما تشكو منه . . فإذا هو تأخذه العزة بالإثم ، فيتجه إليها بدفقة من أقذر الشتائم ، ولا يكتفى بذلك حتى يبصق فى وجهها ! . . وكانت عجيبة الصبر ، إلا أنها لم تمالك أن ترفع عينيها إلى السماء لتقول فى انكسار عميق « اللهم . . إليك أشكو ! . » .

وانتقلت الأم المظلومة إلى جوار ربها ، وتخلف الولد العاق الذى لم يندم على بغيه قط . ولقد رأيته عقيب ذلك يتهادى على عكازه ، وقد تحطم شبابه الأنيق تحت عجلات سيارته ، فما أن وقعت عيناه على حتى أخذته الرجفة ، وصرف وجهه عنى بسرعة ، كأنما أدرك أننى سأسترد بمنظره هذا رواية القدر التى ختمت بهذه المأساة الفاجعة !

وإنى لأفكر فى ما آل إليه هذا الفتى من عجز دائم ، ثم حاجة لا تسدها إلا الصدقات ، فلا أتمالك أن أهتف فى أخفض صوت وأعمق خشوع « آمنت بعدلك يا رب ! ! . . »

وفى حياتى ظاهرة طريفة من هذه الأعاجيب لا تقل عبرها عن محتوى أخواتها الآنفات .

لقد شاءت نزعات التهديم فى سورية أن تبدد الدولة ملايين الليرات لإحداث مسابح مختلطة تقضى على البقية الباقية من الفضائل . . ولم يكن فى وسع مثلى أن يعمل شيئا ولا سيما فى ذلك الجو المشحون بالإرهاب ، إلا أن يحرك لسانه بكلمة النصيحة والموعظة الحسنة ، فقمت بجولة على مدن الساحل ، أتحدث إلى المسلمين فى المساجد والمجالس الخاصة ، أحذر وأذكر وأبين للناس ما يراد بأخلاقهم ودينهم وأبنائهم وبناتهم بهذه (المذابح) . . فلما عدت إلى مستقرى فى اللاذقية وجدت دعوة عاجلة

---

(١) متفق عليه .

لزيارة المباحث . . واستقبلني هناك ضابطا المركز ، وجعل كبيرهما يستجوبني في ما قلت وفعلت ، فكررت ما أسلفت ، فقال : ومن الذى كلفك هذا ؟. قلت : كلفني من لا يرد أمره . قال : ومن لا يرد أمره غير الرئيس ؟ قلت : إنه الله الذى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومسابحكم المختلطة منكر لا نعذر أمام الله إن لم ننهض بواجب التحذير منها . قال : هذا إصرار على معارضة سياسة الرئيس التى تقضى بإخراج المرأة من وضعها الموروث ، فما عليك إذن إلا أن تستعد لمغادرة البلاد . قلت : مثل هذا الإنذار أحرى أن يوجه إلى (الطاشناق)[1] أما أنا فلا يزال على واجب نحو بلادى ، لأنني لم أتمم رسالتى التى بدأتها منذ أربعين سنة فى خدمة الجيل .

وما هى سوى أيام حتى جاءت النتيجة الأولى لهذه المحاورة . . وهى تسريحى من عملى فى التدريس ، وكان مرادهم من ذلك حرمانى مورد الرزق، إذ كنت لا أملك سوى مرتب ذلك العمل .

وأقبل بعض الإخوة يصبروننى ويعزوننى ، فضحكت وقلت لهم : « لقد فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله ، وسترون أنه لن يتخلى عنى أبداً . . »

وكأن القدر كان ينطق بلسانى ، فما هى والله سوى أيام حتى سقط النظام الغاشم كله ، فسرح الرئيس الذى سرحنى ، وسرح رئيسه الكبير الذى أوعدنى بالشنق ذات يوم ، فأخرج فى موكب من الهوان اللائق ، ووضع مساعدوهما من كبار الإداريين تحت المراقبة المذلة ، ثم أعدت إلى عملى على أعينهم جميعا ! . وتم ذلك بقرار خاص من رئيس الوزارة التى قامت على أنقاض ذلك النظام ، ألا وهو الصديق العزيز الدكتور عزت النص عميد كلية الآداب فى جامعة الرياض .

ولا أرى حاجة للتعليق على هذه الواقعة بأية كلمة ، لأنها كأخواتها ليست سوى إشارات من وراء الغيب تهتف بكل لسان : إن وراء هذه

---

(١) حزب أرمني كانت السلطات السورية أيامئذ قد ضبطت لديه أجهزة لاسلكية للاتصال بالعدو .

العدالة الأرضية المشبوهة المشلولة لعدالة سليمة من كل تشويه ، فاذا أتيح للظالم أن ينجو من قبضة الأولى ، بما يملك من قوة الرشوة والإغراء ، فهو واقع لا محالة فى قبضة الثانية ، وإن تأخر به القضاء . . **(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ١٣ — ٣٣) .**

* * *

المسرحية الكبيرة :

على أن هذه أحـــداث خاصة لا تتجاوز فيها عدالة السماء نطاق الأفراد . . فلننظر إلى مجالهـا الآخر فى حياة الجماعات ، وهناك سنواجه الأعجب والأغرب . .

أمم بأسرها محيت من سجل الوجود ، فلا يرى من آثارها سوى بئر معطلة وقصر مشيد ! . . وكم من تيجان تدحرجت برؤوس أصحابها ، فأصبحوا ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ! . .

وها هى ذى امبراطوريات نشهد بأعيننا اختفاءها عن المسرح ، ففى نصف قرن توارت قيصرية الروسية مخلية مكانها لأمة أخرى لا تمت إلى تلك بنسب أو دين . . وسقطت قيصرية بروسية ، ثم زالت خلافة آل عثمان ، وقبل ربع قرن استحالت النازية وأختها الفاشية رماداً تطؤه الأقدام، بعد أن بلغتا من القوة ما مكن لهما أن تتحكما فى مصاير الشعوب . وخرجت بريطانيا المنتصرة من الحرب العالمية صفر اليدين من ممتلكاتها فى الهند وباكستان وإفريقية والمحيط الهـادى . . لتقبع راغمة فى مؤخرة الأمم « العظمى » ! .

وفى الأرض اليوم بعبع كبير قد استطاع أمس ، بضخامة ثروته وتحجر مشاعره ، أن يختلق مع حلفائه البغاة إسرائيل ، ليتخذ منها خنجرا يغرزه فى جنب الأمة العربية والإسلامية . . واستعبد بملايينه المغرية العديد من حكام المسلمين ، يشترى ذممهم لاستبعاد شريعة الله عن حياة شعوبهم ، ومن ثم لإخماد نشاط الدعوة الربانية ، ولتعطيل حركتها عن الامتداد فى جنبات الأرض . ولـكن هذا البعبع آتيه لا محالة يوم غير بعيد لا يخيف

فيه أحدا ، لأنه سيصبح يومذاك تمثالا كبيرا من الوهم يحمل إلى ناظريه أفجع الذكريات ! . .

•

لقد شاء الله أن يتأخر بنا الأجل حتى يرينا طلائع هذه التوقعات فى حياة تلك الأمة . . فإن الخلاف العنصرى بين بيضها وسودها يجعل الحياة فيها على فوهة بركان . . ولقد جاءت موجة الاغتيالات السياسية فيها متلاحقة مرعبة تشد أبصار العالم شداً إليها وهو يتساءل : أين المصير ! . . ويأتى الجواب من فيتنام وكورية ، حيث يصاب كبرياؤها بأشد الضربات إذلالا لتلك النفوس التى فقدت حس العدالة ، حتى لم تعد ترى فى إسرائيل سوى أنها تنفيس عن أحقاد الصليبية العمياء نحو الإسلام ! . . وإذا كان هؤلاء وأذنابهم من عباد المادية المتحجرة قد عموا عن عبر هذه المحن الصماء ، فلم يشهدوا ما وراءها من عدالة السماء ، فنحن تلاميذ مدرسة النبيين لا يسعنا أن نغفل عن معنى الانتقام الإلهى ، الذى تأتى فيه العقوبة متناسبة مع هول الجريمة المقترفة فى إقامة دولة صهيون ، وفى الجناية الخلقية التى ترتكبها حضارتهم ، إذ تنفث سموم الفجور باسم الحرية على بقية الفضيلة فى سائر أنحاء العـــالم . .

وهناك طغاة وطغاة برزوا فجأة على كاهل الشرق أو الغرب ، كما تنشق الأرض عن الكمأة فى ليلة مظلمة ، لا عمل لهم سوى إثارة الكمين من الغرائز الخسيسة ، ثم دفع أصحابها لاغتيال أمن الشعوب وفضائلها التى بها احتفظت حتى الآن ببعض نفحات الاستقرار . . ومع ذلك . . ومع كل ما استولوا عليه من هذه الطاقات الجهنمية ، وما حققوه بها من تحطيم وتدمير ، فهم اليوم يركضون إلى مصايرهم المحتومة فى أعماق الهـاوية ، تسوقهم القبضة الخفية نفسها التى تدفعهم لتمزيق وشائج الأرحام ، ونسف جسور السلام . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد .

أجل إنها لمسرحية كبيرة رهيبة تمثل فيها كل أمة دورها المرسوم ، ثم تخلى مكانها لأمة أو أمم . . وتتطاحن فيها الأفكار والمذاهب ثم تنطوى

وقد لفها العدم . . حتى يأتى يوم لا دار فيه ولا ديار **(لمن الملك اليوم ؟ . . لله الواحد القهار)** .

ذلك هو سلطان القضاء والقدر ، لا يفلت من قبضته شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فلا كبيرة إلا أحاط بها ، ولا صغيرة إلا أحصاها ، ولئن أنكرته العقول الترابية ، إن فى رؤوس المؤمنين لعقولا ترصد ملكوته بعين لا تخطئ لأنها تنظر بنور الله .

وإنه لسلطان تعيا دون الإحاطة به مدارك البشر ، فإذا أتيح لبعضها أن يستكشف بعض أسراره هنا وهناك ، فكفى بالفجر دليلا على النهار . وإذا كان من حق العلم أن يحدد مركبات الكواكب استناداً إلى مقياس التحليل الطيفى ، فأحرى بالعقل السليم أن يستدل من القريب على البعيد ، ومن المحدود على غير المحدود . .

والمؤمن قد يعجز عن تفسير بعض الوقائع من قانون القضاء والقدر ، إلا أن ثقته المطلقة بعدالة الله تملأ صدره بالاطمئنان ، ألا إن كل شيء هناك يجرى وفق الخطة المثلى . . التى لا يعتريها خلل أو نقصان . .



المسجد
وأثره فى المجتمع



المؤسسة الأولى :

أرأيت إلى مركز الكهرباء تمتد أسلاكه إلى أنحاء البلد جميعها ، حاملة تياره الدافع والمضيء . . أرأيت إلى أثر هذا المصنع فى حياة البلد ، إذا كانت أجهزته عاملة ، وشبكته سليمة ، وإذا كان كل من المصابيح والمحركات صالحا بدوره لاستقبال تياره ! . . .

لا شك أن كل شيء فى هذا البلد سيكون حياً ، فالصناعة ناشطة ، والمتاجر رائجة ، وليس ثمة من ظلام . . وإذا وجد مصباح منطفىء ، أو محرك ساكن ، فما علينا إلا البحث عن العلة فى داخل كل منهما على حدة .

هذا المركز الكهربائى أكثر ما يكون تمثيلا لمهمة المسجد فى بناء المجتمع . . إنه مركز الإشعاع ، منه يتزود الفرد بالمفاهيم الصحيحة لحقائق الحياة ، فيفقه الحلال والحرام ، والحق والواجب ، والمباح والمحظور وما يستحسن وما يستهجن . . فيكون ذلك أهم سبب لاحتفاظ مجموع الأفراد بشخصية الأمة .

ثم إنه مركز التدريب على تحقيق معانى الإسلام ، تتلاقى فيه الجماعة من الناس فتتعارف قلوبهم وأجسامهم ، وتتقارب سوياتهم الخلقية ، إذ يجد الضعيف نفسه بإزاء القوى، والحاكم بجانب المحكوم ، والفقير على قدم المساواة مع الغنى ، فلا يلبثون أن تمتلىء نفوسهم بشعور الوحدة التى تفتت الفوارق ، حتى يستيقنوا أنهم كتلة متضامنة ، كل جزء منها لخدمة الكل ، وبذلك يتلاشى من نفوسهم ما تركه اختلاف المنازل الاجتماعية خارج المسجد من موجبات التباين ، الذى من شأنه أن يجعل من المجتمع الواحد شعوبا وأمما ، لا يجمع بينها إلا صراع الطبقات ! . .

ثم إنه المجتمع الطبيعى الذى تبحث فيه مشاكل البيئة كل أسبوع ،

فتناقش على ضوء الأحكام الآلهية ، فلا ينصرف الأعضاء – المصلون – حتى يتكون لدى كل منهم الفهم الصحيح لمـا يجب عليه نحو مجتمعه القريب أو البعيد ، وبهذا يظل المجتمع على صلة بالمنابع الأولى ، التى تكفل وحدة الإتجاه العام ، مهما تتباين الاجتهادات الفردية .

ثم إنه المدرسة التى يتعلم فيها الطالب من المهد إلى الحد كل ما يعوزه من مبادئ الحياة : حياة البيت ، فلا يتهاون بحق أهله عليه ، ولا بحق الله عليهم . وحياة السوق ، فلا يخلط الحلال بالسحت ولا يستبدل الخبيث بالطيب . وحياة الحكم فلا يتخذ من عباد الله خولا ، ولا من ماله دولا . . وإنما ينظر إلى السلطة التى فى يديه على أنها وسيلة لإعلاء كلمة الله ، وتحقيق رسالته فى عباده . . .

وأخيراً إنه نقطة الانطلاق الأولى فى طريق الحياة الأبدية ، منها يبدأ الفرد سعيه إلى الآخرة وهو مطمئن لأنه فى الطريق الذى لا يضل سالكوه . فلا ينصرف إلى الشعب الملتوية ، ولأنه فيه يتفهم مدلول قوله تعـالى : **(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ٦–١٥٣) . . .**

من أجل ذلك كله كان المسجد أول مؤسسة أنشأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تنظيمات المجتمع الجديد بعد الهجرة . . فقد نزل أول قدومه طيبة المباركة فى قباء ، وفيها أسس مسجده، ثم نهض منها بعد أيام يسيرة ، حتى استقرت به القصواء على مربد السهلين ، وهناك خط لهذه المؤسسة ، وأقام حولها بيوت أصحابه ، وألصق بها بيوته ، ثم أطلقها تعمل فى بناء الحياة الإسلامية المطهرة على أسس التوجيه السماوى ، رابطا عن طريقها دنيا الناس بآخرتهم . . ومنذ ذلك اليوم يصبح المسجد مثابة المؤمنين التى منها يتلقون مقوماتهم الروحية خمس مرات فى اليوم والليلة . .

وهكذا نظر المسلمون الأولون إلى المسجد على أنه فكرة تحمل كل هذه المعانى ، فأقاموا صلتهم به على أساسها ، فكان له من الأثر فى تكوينهم ما لم يعرف التاريخ له مثيلا فى أى عمل تربوى . . .

وكان العهد بالمعابد أن توقف على الصلاة والتوجيه الروحي ، لا تتجاوز ذلك إلى أعمال الدنيا ، فإذا المسجد فى الإسلام يتسع ويتسع حتى يشمل الدنيا والآخرة ، وقد بدأ مهمته الشاملة هذه لأول مرة على يد رسول الله ، إذ كان يمثل وحدة اجتماعية كبيرة ترتبط بها قلوب الأفراد جميعا . .

فى مسجد الرسول كان المسلمون يجتمعون لمناجاة ربهم بقيادة نبيهم ، فيقوم فيهم مقام المدرب العسكرى ، وفق نظام دقيق ، يفرض سلطانه على القلوب والجوارح . . وفى هذا المسجد تلقى المؤمنون أصول الشريعة التى جعلتهم معلمين للإنسانية كلها . .

وكان من سنته صلى الله عليه وسلم أن يبعث مناديا يدعو الناس إلى (صلاة جامعة) كلما حدث أمر يتطلب اجتماع الناس للتشاور ، وقد جعل الإسلام يوم الجمعة موسم الحشد الأسبوعى الذى يحيل المسجد ندوة يستمع فيها المسلمون إلى محاضرة الأسبوع . . تشرح لهم ما هم فى حاجة إلى معرفته من شئون دينهم ودنياهم . وقد تحول مسجد الرسول بعض الأحيان مستشفى تقام فى بعض جوانبه مراكز التمريض ، حيث يعالج الجرحى المصابون من قبل رجال ونساء ، تطوعوا لهذه المهمة أو عينوا لها . .

ومن هذا المنطلق أخذ المسجد سبيله فى ضبط المسيرة الإسلامية ، حتى لقد كانت المساجد الجامعة فى صدر الإسلام ، ومنها جامع عمرو ، تؤدى بجانب رسالتها الدينية عدة رسالات (فمن على منابرها تذاع أوامر الدولة وقوانينها . . وكان القضاة يحكمون بين الناس فيها ، وقد شاهد ناصر خسرو فى ذلك الجامع محررى الصكوك والعقود ، كما رأى فيه مجلس قاضى القضاة ، وكان فى الزيادة الغربية منه ، كما كان فيها مجلس قاضى الحكم الشافعى ، ومجلس قاضى الحكم المالكى .

وكان فيه أيضاً بيت المـــال لحفظ أموال اليتامى ، عاينه ابن رستة فى القرن الثالث الهجرى أمام المنبر ، ووصفه بأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد . . ثم نقل إلى صحن المسجد . . وإلى الآن يوجد فى الجامع الأموى بدمشق والجامع الكبير [illegible]ـاة بيت المـــال)[1] . .

---

(١) الكلام الذى بين الأهلة منقول عن مجلة منبر الإسلام ج ٣ ربيع الأول ١٣٨١» آب ١٩٦١ . . .

ومع تطور الدولة الإسلامية تطور وضع المسجد فى طريقه الذى رسمه الرسول نفسه ، فاذا هو يستخدم التقدم الهندسى والاجتماعى لتوسيع الوسائل التى تمـكنه من تحقيق مهمته فى قلب هذا التطور العام . .

ومن هنا بدأنا نرى المساجد ـ منذ العهد الأموى ـ تتخذ صفة المركز الثقافى الكبير ، إذ أصبحت جامعات شعبية مفتوحة الأبواب لـكل راغب فى المعرفة ، لا تقيده بدوام ، ولا تفرض عليه مادة دون أخرى ، بل تفتح لمواهبه طريق الانتخاب الطبيعى ، فينتقل من حلقة إلى أخرى ، ومن شيخ إلى شيخ ، حتى يستقر فى الاتجاه الذى يتلاءم مع استعداده ، وبهذه الطريقة كان للمسجد فضل التخريج لأكبر العباقرة ، الذين تسنموا مقاعد الإمامة فى الدنيا والدين . . .

وفى العصر العباسى لم يعد المسجد هو المركز الاجتماعى الوحيد ، إذ انتشرت إلى جانبه المدارس والجامعات على اختلاف درجاتها واختصاصاتها ، ولـكنه بقى مع ذلك محافظا على اتجاهه الأصيل ، يكافح برسالته النيرة ظلمات الفتن والبدع ، التى نشرتها الفرق المحدثة والفلسفات الوثنية ، فكان كسفينة النجاة فى وسط خضم هائج . . حتى إذا جاءت عصور الإنحطاط استعاد المسجد مكانه أول الأمر فى ظل المماليك أو كاد ، وها هى ذى مخلفاتهم فى مصر والشام تؤكد هذه الحقيقة ، إذ نرى حول كل مسجد جامع ملحقاته من الغرف والمكتبات ، يأوى إليها الأساتذة والطلاب ، وقد حبست عليها الأوقاف الغنية ، لتوفر لهؤلاء وأولئك وسائل العيش الكريم ، فلا ينصرفوا عن العلم إلى التفتيش عن الخبز . . هذا إلى ما أقاموه من مراكز الخدمات العامة كالرباطات والمشافى والمساعدات الاجتماعية المختلفة .

ولـكن هذه المرافق الضخمة سرعان ما أتت عليها أيدى الغاصبين ، فمزقتها شذر مذر ، ولم يبق منها غير المساجد مجردة من كل ملحقاتها الأخرى ،

إلا ما لا غنى عنه من بقايا الأوقاف التى سلمت من مخالب الطغاة [1] . .

على أن المسجد كمركز للخدمات العامة لم يتخل عن وظيفته نهائيا حتى ذلك العهد ، إلا فى بعض الأقطار ، إذ سرعان ما أطل بوجهه الجديد من عاصمة الدولة العثمانية وتوابعها . وفى القسطنطينية حتى اليوم عدد من أضخم مساجد الدنيا ، لا تزال ، شاهدة على ما كان من أهمية للمسجد .

واقرأ معى فيما يلى بعض الوصف لمسجدين منها ورد فى محاضرة أحد المستشرقين إذ يقول : (فى عهد العظمة التركية كان المسجد مركزا اجتماعيا ، فمسجد محمد الفاتح مثلا كان على جانبيه كليات ومستشفى ومركز لتوزيع الطعام ، وخان — فندق — وعلى رابية أخرى كان يربض أوسع المساجد إطلاقا وهو مسجد سليمان القانونى الذى كان حوله عشر مؤسسات منها أربع كليات ، والمدرسة لم تكن مدرسة دينية كما نفهم [2] لقد كانت وحدة للسكن ، وكان المسجد غرفة للدرس وقاعة للمحاضرات) . . .

وكان بوسعك أن ترى لعهد قريب أساتذة جالسين فى صحن المسجد فى الصيف ، وفى المسجد نفسه أثناء الشتاء ، يدرسون جماعات صغيرة من الطلاب [3] . . .

وهكذا استطاع المسجد أن يحتفظ بمركز القلب من المجتمع الإسلامى أزمانا متطاولة ، على الرغم من كل المثبطات التى اعترضت طريقه . . حتى إذا بدأ انحراف المسلمين فى كل مكان عن روح المسجد ، أخذت هذه المؤسسة الإسلامية الكبرى بالانحدار ، إلى أن انتهت اليوم إلى وضعها الأشل . الذى لا تكاد تؤدى معه أية مهمة فى الكثير من المناطق الإسلامية .

---

(١) بدأت سرقة الأوقاف عن طريق السطو ، ثم صارت فى ظل الطواغيت من الحكام تسرق بقوانين !

(٢) يريد أنها لا تكتفى بتدريس الشئون الروحية وحدها .

(٣) كتاب « الإسلام فى نظر الغرب » ص (٨٤) تعريب اسحق الحسينى .

لقد أصبح كل عمل المسجد هناك أن يستقبل بقية من المصلين ، أكثرهم من الذين أوهنتهم الشيخوخة ، فلجأوا مضطرين إلى المسجد ، يغسلون بالصلاة أوضار الأوزار . وقد تجد بينهم القليل من الأحداث والشباب ، ولكن قلما تعثر فيهم على رجل الثروة أو صاحب الثقافة العصرية العالية .

• • •

نماذج وألـوان . . .

ولقد بقى للمسجد من مهامه الأولى صورة الخطابة والتدريس العام ، فكما عنيت مصالح الأوقاف بتأمين المفارش والمياه والإضاءة لهذه المساجد ، تعهدت لمساجد الجمع كذلك بتأمين خطباء الجمعة والعيدين ، وبترتيب المدرسين الذين يتولون تعليم العامة شئون العبادة .

وكان هذا عملا مشكورا من شأنه لو أحسن توجيهه ، وأعطيت فيه الأقواس براتها ، أن يرد لهذه المؤسسة الكثير من عظمتها السليبة . على أن واقع الأمور لا يثلج الصدور ، وذلك أن هاتيك المساجد لم تكن لتشكو اليوم فقدان المدرسين والخطباء ، وإنما كانت ولا تزال تشكو فراغ هؤلاء من القوى الروحية التي تجعل لكلماتهم عمل النور فى أحشاء الظلام ! .

وما أحسب القارىء فى حاجة إلى من يحدثه عن هذا الضرب المألوف من خطب الجمع والأعياد ، التى تضيق بها بعض المنابر قبل الضمائر . . فهى خطب يمكن أن تحتوى كل شيء إلا حقائق الإسلام ، التى توقظ هوامد الهمم ، وتغير مسالك الأمم . .

وما أراه كذلك بحاجة إلى من يحدثه عن الجانب الآخر من أعمال مدرسى المساجد فى ظل الأنظمة المعادية للإسلام ، فهم لا يختلفون عن زملائهم أولئك ، إنهم جميعا ، إلا من رحم الله وأخلص دينه لله ، صور ممسوخة من عمالقة الماضى ، لهم أشباحهم وليس لهم أرواحهم ! . وما ذلك إلا لأن وظائف التدريس والخطابة قد أصبحت محبوسة — إلا قليلا — على طائفة من المرتزقة ، لا يكاد أحدهم يدير نظرا أو يعمل فكرا خارج نطاق الأبواب الخاصة بمباحث الطهارة وأحكام العبادة العملية من كتب

الفقه[1] فهم يكادون لا يعرفون شيئا من هذه الأفكار الخطرة التى تهاجم العقائد الإلهية فى قلوب الشباب ، ولا يهمهم من وظيفتهم إلا الاطمئنان لبقائها ، والحصول على علاواتها ، وفى سبيل ذلك تراهم على أتم الاستعداد لترديد كل ما يملى عليهم من فوق أو من تحت ! . .

وإذا شئت فانظر إلى حلقة المدرس المسجدى ، تعرف من عدد الذين حوله ونوعهم مقدار تعويلهم عليه وانتفاعهم به ، فهم بضعة نفر من العجزة الجهلة الذين ربما فاتوا سن المقهى ، أو فرغت أيديهم من ثمن القهوة ، فاتخذوا من ساعة الدرس فرصة للتفريج عن النفس . . دون أن يعوا شيئا مما سمعوا[2] . . .

لقد سمعت واحدا من هؤلاء المدرسين يحدث الناس بنعيم الجنة ، فيقف نصف وقته على وصف عنقود واحد من أعنابها ، إذ جعله يمتد مسافة كذا من الأعوام ! . فتذكرت سلف هذا المدرس الكريم الذى مر به بشار بن برد وهو يتحدث عن قصر فى الجنة ، فيجعل فناءه مسيرة مئات الأعوام ، فما كان من بشار إلا أن هرول فى طريقه وهو يقول : « بئست الدار هذه فى كانون الثانى ! . . . » . .

ورأيت كذلك أحد هؤلاء الشيوخ يتحدث ذات مساء عن آداب التحية فيقول : لا ينبغى لكم إذا حياكم فقير أن تنهضوا له ، وعليكم أن تنهضوا فقط للغنى ، لأن الأول لم يعتد احترام الناس ، فيعتد النهوض له سخرية منه ، والثانى قد ورث هذا الاحترام أبا عن جد ، فاذا أنتم لم تنهضوا له اعتد ذلك منكم إهانة ! . .

---

(١) يقول الإمام أبو الفرج بن الجوزى فى نقد الفقهاء : « انهم جعلوا النظر جل اشتغالهم ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن وسماع الحديث وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير ، وهى محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة . . . – تلبيس ابليس ص ١٣١ –

(٢) لا حاجة للتذكير بأن المسجد ، فى المناطق التى سلمت حتى اليوم من التسلط الثورى ، لا تزال منطلق الاشعاع العلمى ، وفى مقدمتها الحرمان المباركان ولله الفضل والمنة .

ثم راح يفيض على حلقته من مثل هذا « العلم » حتى سمعته يقول : « وهل هناك أحقر وأكبر جريمة من الفقير الزانى ! . . انه بحاجة إلى الدرهم ومع ذلك ينفق ما يجمع على الفحشاء . . على حين أننا نجد للغنى عذره ، إذا أقدم على هذا الفجور ، بما يملك من الأموال والقصور » !! . .

ولقد والله حدثت عن هذا المدرس أنه يتكلم فى حلقات النساء عن موجبات الغسل ، فلا يترك جسيما ولا جزيئا إلا أطنب فى ذكره . . مما يخجل الحيوان فضلا عن الإنسان !

وكانت خطب هذا المدرس أيام الفرنسيين صورا من بلاغات رجال الانتداب . . حتى لأتذكره يوم الإضراب الكبير يقف على منبره عام ١٩٣٦ فيندد بدعاته ويسفه المحرضين عليه ، ثم يجعل ذلك كله تفسيرا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »(١) . .

على أننى لم أتعرض بعد إلى أولئك السوقة ، الذين جيء بهم من هنا وهناك ليكونوا أئمة وخطباء ومفتين . . ولعل القارئ لم يفته أن يستمع إلى الخطيب منهم لا يحسن قراءة الآية من كتاب الله ، ولا إقامة الحديث من كلام رسول الله ! . ولعله لم يحرم الصلاة خلف واحد من أئمتهم ، فيستمع إلى تلاوته وهو يلف حروف القرآن لفا ، أو يبتلعها ابتلاعا ، أو يمزقها تمزيقا . . فلا يستطيع إلا أن يخرج من الصلاة أو يفارقه بالنية ضنا بصلاته أن يفسدها هذا الجاهل ! . . .

وليس لك أن تدهش من كل هذه المفارقات ، حين تتذكر أن هؤلاء ما كانوا ليتبوؤا تلك المراكز لو استقام الأمر فى مجالس الأوقاف . . .

ولعمر الله إن معظم البلاء إنما جاء من طريق هذه المجالس ، التى كثيرا ما تجد على رأسها أناسا لا يقيمون وزنا للإسلام ، ولا يكادون يفقهون شيئا من أحكامه ! . . .

ولا عجب . . فان تطهير الأوقاف من رواسب العقلية التى تركها

---

(١) حديث صحيح رواه مالك وأحمد – المشكاة ٤٨٣٩ –

الحكم الأجنبي وخلفتها ظلمات الإنحطاط يتطلب جهداً كبيراً وزمنا غير يسير . .

* * *

ليس هؤلاء جهلاء :

وطبيعى أن الجهل ليس هو المشكلة كلها بالنسبة إلى موضوع المسجد ، ولئن كان بين الذين أسلفت الإشارة إليهم من هو فى العلم أفرغ من الفقاعة ، أن هنالك أيضا من لا تعوزه شهرة العلم ولا رفعة الشهادات ومع ذلك فكثير منهم لا يرتفع عن مستوى أولئك السوقة المعممين ، من حيث الإساءة لكرامة العلم والدين . . والمشاركة فى عملية التهديم ! . . وذلك لأن مشكلتنا الكبرى فى الوسط المسجدى إنما هى مشكلة الحاجة إلى الإخلاص الكبير ممتزجا بالعلم الكثير .

ومالنا نذهب بعيداً ! . . لقد رأى الناس قبل عام فقط شيوخا من ذوى السمعة الضخمة فى أوساط العامة يذهبون فى رحلة استطلاعية إلى مركز الإلحاد العالمى ، ثم يعودون ليجعلوا من خطبهم المسجدية أطرف لون من الدعاية لتلك الدولة . . حتى أوشك السامعون لخطبهم أن يفركوا آذانهم ليتساءلوا عما إذا كان هؤلاء يتكلمون عن مكة أو موسكو ! . . وعن الإسلام فى ظل الخلفاء الراشدين ، أو عن الشيوعية فى ظل خلفاء ماركس ولينين وستالين ! . .

ثم ما كان أشد دهشة الناس عندما أخذوا — بعد عام واحد — يسمعون إلى خطب هؤلاء أنفسهم وهى تهدر بالطعن على الشيوعية والشيوعيين ! . وكأنهم نسوا المثل الذى لا يكون ناسيه معذورا : « إذا كنت كذوبا فكن ذكورا » !

وما اخال القارئ قد نسى أن هنالك بين رجال المساجد أناسا يحملون طغراء « كبار العلماء » ثم لا يتورعون أن يذهبوا أبعد من ذلك فى مضمار « التقدم » حتى لترى أحدهم وهو يردد فى رثاء « ستالين » ما قاله الصديق

فى رسول الله : « بأبى أنت وأمى . . لقد طبت حيا وميتا » ! . وحتى لترى بينهم من يبلغ به الغرور أن يخرج على إجماع الأمة كلها ، منذ نزول القرآن حتى الآن ، فيزعم أن الصوم فريضة اختيارية ، لا يلزم بها إنسان يجد فى صومه نصبا ! . .

ومن غريب الاتفاق أن أحضر فى إحدى المكتبات هذا الحديث بين رجلين ، أحدهما معمم . .

قال المعمم لصاحب المكتبة : « .. ولقد سمعته يقول فى خطبة الجمعة ، ومعى عشرات المصلين ، ما نصه بالحرف : « إن قليل الحياء كافر . . . » وترقبته حتى قضيت الصلاة فجئته أقول : « كنا ننتظر دليلك على ما قررته فى خطبتك من الكتاب والسنة . . ويظهر أن الوقت قد ضاق على المنبر ، فهل لك أن تتكرم بهذا الدليل علينا ! » . . .

وتابع المعمم : « ولكنه هرب من الجواب لأنه ما كان يملك دليلا » .

ولم يكن مثل هذه السقطات غريبا لدى بالنسبة إلى الخطيب الذى حدث عنه ، فقد عرف له الناس من أمثالها ما لا يحصى . . ولعل من أطرفها قوله فى خطبة منبرية سابقة : « إن كل ذى عين زرقاء من أهل النار » . . ويستدل على ذلك بقوله تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة زرقا) ! . . ومن أوقح سخافاته تقريره فى درس مسجدى له ذات أصيل من رمضان ، وكان حديثه عن المرأة ، فقال : « . . لقد كثر الزنى بسبب الحجاب فى صدر الإسلام أما اليوم وبعد زوال الحجاب وانتشار الاختلاط فقد انتهى ذلك المنكر ! » والذين كانوا يستمعون إلى هذا الهذر لم يفتهم العلم بأنه إنما كان يدافع بذلك عن سفور بناته وتبذلهن ! . . .

على أن لهذا المعمم الذى ينكر عليه من (الروائع) ما لا يقل دلالة على اللغو . . فلقد دخل المكتبة وأخذ فى حواره ذاك ، وأنا أحدق فى كتيب من تأليفه هو ، وأكاد لا أصدق عينى . . وليس ذلك عائدا إلى ضخامة عنوانه ، بل لتلك المجموعة العجيبة من الألقاب التى أطلقها على نفسه . فهو يقدم نفسه لقراء ذلك الكتيب بهذه الأسماء : (الإمام الشافعى — الإمام

أبو الهدى – الرائد الشرقي الكبير – رائد السلام العام – قاهر أعداء المذاهب المتحدة – عميد العلم العربى – ! ! . .)

فتركته حتى أنهى محاضرته عن زميله ، ثم أخذت أقرأ له هذه الألقاب وأنا أسأله عن كل واحد منها : من تقصد بهذا ؟! . .

وراح يجمجم بكلمات لم أفهم منها سوى أنها لون من الدعاية لترويج الكتاب . . تماما كما يصنع باعة الخضار عندما يزخرفون أعلى سلعهم ليخدعوا بها الأنظار ! وقد نسي الشيخ أن القط أكثر الحيوانات الأهلية أسماء وأقلها ثمنا ! . . .

ولقد حدثنى من أثق به أنه شهد هذا المعمم نفسه يلقى خطبة الجمعة فى أحد المساجد الكبرى ، ثم يختم خطبته تلك بهذه الكلمة التمثيلية : « إنى أدعوكم إلى هذا – واستخرج من أحد جيوبه كتاب الله – ثم استخرج من جيب آخر كتابه هو قائلا : وهذا ! . . » .

وأحب صاحب (الألقاب الستة) أن يشرفنى بمعرفته ، فسأل صديقى الكتبى عنى ، فقدمنى إليه باسمى ، فأبدى الإمام ، حفظه الله ، اهتمامه بى . . ثم قال : إنى أقدرك بالرغم من أننى كنت أحاربك . قلت : وهذه أعجوبة أخرى . أن تحارب من لا تعرف ! .

قال : « كنت أسمع عنك بعض الأفكار التى ينكرها شيوخ المذهب ، فأشارك فى إنكارها عليك » . قلت : كان خيرا من ذلك أن تلقانى فنتداول البحث فى هذه المشتبهات ، حتى ننتهى بها إلى الحقيقة . أما حربك على السماع فشىء لا يعرفه المتثبتون من أهل العلم ، لأنه بحث فى غير موضوع .

أما الحرب التى يشنها على هذا المعمم وأضرابه ، ممن لا يحسنون البراز المكشوف ، فيلجأون إلى الرمى من وراء الجدر ، فهى حرب قديمة لا تنتهى حتى يرجع الإسلام نقياً صافياً كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، أو ينتصر الحشويون فلا يزالون يضمون إليه من هنا شيئا ومن هناك أشياء ، حتى يتحول دين الله إلى ركام من الطقوس الغريبة لا يستبين الناظر إليها أثرا من حقائق الوحى .

بهذا يتضح لك أن الجهل ليس هو المشكلة كلها فى موضوع المسجد ، فمثل هؤلاء لاتستطيع أن تنكر عليهم العلم إذا كان العلم مجرد القراءة والكتابة، وحفظ المتون، ثم حمل الشهادات وتدبيج المقالات ، وحتى نشر المؤلفات ، ومن ثم فلا مجال لتسويغ أعمالهم بأنهم لا يعلمون . بيد أنك لا تستطيع مع ذلك إلا أن تحشر هؤلاء وأولئك جميعاً فى قفص الاتهام ، عند النظر إلى جهودهم الفعالة فى تشويه رسالة المسجد .

ولقد كان فى وسعهم كافة أن يطلبوا رزقهم ومجدهم فى أى مجال من الحياة غير المسجد ، ولعلهم أن يكونوا أكثر نجاحاً من معظم الأطباء والمهندسين والصناع و « الفنانين » لو زاحموهم فى ميادينهم ، ولكنهم — سامحهم الله — أبوا إلا أن يمتطوا ظهر المسجد ، ليتخذوا منه ذريعة يأكلون بها الدنيا ! . ويا ليتهم كما سمعوا وعوا إنذار الله : « **ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا . . . ٢ — ٤١** » . .

* * *

قــوة وأمانــة :

وطالما حاولت أن أتبين السر فى هذا الانهيار الذى يتجلى فى أوساط الكثرة من المسجديين . ولكن عبثاً ، فقد رأينا بين هؤلاء التقى الطيب — إذا كانت التقوى والطيبة مجرد البساطة وحسن النية — ورأينا بينهم الذكى اللبق الذى يلعب بالشقر والبقر — على لغة الحريرى — فلا حسن نية أولئك ولا شطارة هؤلاء بشافعة أو نافعة ! . . على أننى سرعان ما وقعت على جواب هذا التساؤل ، وأنا أقرأ اليوم قول ابنة شعيب فى وصف موسى كما يرويه القرآن : « **يا أبت استأجره . . إن خير من استأجرت القوى الأمين** . . » فتساءلت عن السر فى إعجاب الفتاة بهذا النبى . . فإذا أنا أمام القوة والأمانة . والقوة ليست دائماً قوة العضلات . . بل هى القوة فى كل شى مادياً ومعنويا ، فالتفكير الصحيح قوة ، والإرادة الحازمة قوة ، وقد عنت ابنة شعيب بأمانة موسى عفته الخلقية ، ونحن نستطيع

توسيع مدى الأمانة حتى تشمل الحرص على الحق ، والفناء فيه ، ثم الحفاظ على عهد الله الذى واثق به المؤمنين أن يكونوا مخلصين له الدين ، لا يخافون فيه لومة لائم . . وبهذا نستيقن أن لا سبيل إلى النجح فى أى عمل دينى ما لم تتوافر فى ذويه هاتان الصفتان معاً : القوة والأمانة .

ونحن كثيرا ما نقع بين المؤمنين على رجال من طراز نموذجى فى الصفاء الروحى ، ولكن ينقصهم الإدراك الذى يعصمهم من الهبوط ، وبذلك كانوا فريسة سهلة لكل طالب صيد ! . .

ثم كثيرا ما تقع على طراز آخر من الرجال ، يملكون من الذكاء ما يجعلهم فى الصفوف الأولى . . ولكنه ذكاء الثعالب لا يستغل غالبا إلا فى اصطياد الدجاج ! . . .

وما أخال إنسانا يجهل أن الشيطان الذى حدثنا عنه الله — لا فاضل عباس المهداوى[1] — له من سعة الثقافة وبراعة الذكاء ، وسعة العلم ما لا يملكه الملايين من علماء البشر ، ومع ذلك لم ينتفع من كل مواهبه إلا اتقان فن الفساد والإفساد ! .

* * *

صــور وعبر :

فى ذلك البلد الذى لا يزال يحتفظ بالكثير من المميزات المرموقة عند الهاربين من جحيم (الثوريات) شاهدت ولمست العجائب من الأخلاق (التقدمية) . . وفى أوساط المسلمين تأخذ هذه (التقدمية) طابع التحدى والطابع الدموى فى كثير من الأحيان . . .

ولا أريد أن أسهب فى التمهيد . . بل سأكتفى بذكر الوقائع ، ثم نتبين علاقة هذه الوقائع . . .

سألت أحد طلابى فى الجامعة إذا كان قد أتم زواجه الذى سبق أن

---

(١) فى إحدى المحاكمات الحمراء التى أدارها المهداوى فى بغداد أعلن أن الشيطان ليس هو سوى أهواء النفس ، وليس له وجود خارجها ، وقد نسى المسكين أن موضوع الشيطان لا يخضع للأحكام العرفية ولا لقوانين الطوارئ . . .

أخبرنى به . . فقال : لقد انفرط عقده قبيل الدخول . ثم قص على هذا الخبر العجيب الغريب ، وخلاصته أن قاضى بلده قد حكم بإلغاء عقده ، إذ ثبت له أنه ينتمى إلى جماعة إسـلامية معروفة ، فى حين أن زوجته تنتمى إلى إحدى الفرق الثورية .. والقاضى لا يرى تزويج مثلها لمثله لأنه ليس لها بكفء ! . .

وحدثنى صديق من أهل العلم أنه قصد مع نفر من زملائه لزيارة معمم كبير سبق أن عرفوه من بعض آثاره العلمية ، فلما كانوا على مدخل قصره العامر استقبلهم بهذه المفاجأة : أقدم إليكم نفسى بصفتى (فلانيا) ! . وكان من حق الزائرين أن يدهشوا إذ يرون شيخا من كبار أهل العلم يقبل أن يكون ذيلا لمهرج سياسى كبير ! . .

وفى بلد كان لنصف قرن خلا فقط أحد مراكز الإشعاع الإسلامى ، تستمع اليوم لخطباء يمجدون اليسارية ويرفعون أكفهم بالدعاء لكبير أقطابها ! . . بل إن بعض هؤلاء الخطباء ليديرون خطبهم حول تفسير فقرات من (ميثاقه) كما يصنع أحرار العلماء عندما يديرون خطبهم حول آية من كتاب الله ، أو حديث من كلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد سمعت بأذنى هاتين أحد هؤلاء يخطب فى مسجد أحد المصايف فيستعمل تعابير الصحف الحمراء . . ويأبى على السامعين أن يتجاوزوا حدود التعاليم المادية ، فيحمل على المؤمنين بالدعاء ويسخر منهم ما أسعفته لغته السوقية ، ويتمادى فى بيانه العجيب حتى لا يرضى أن يذكر اسم الله تبارك وتعالى إلا بهذا اللفظ المحرف (ألـلا) فيقول : « أللا لا يريد ، وأللا آل وأللا . . . » فيعبث باسم الله جل وعلا وهو يظن أنه يحسن صنعا ! . . ولما ذكرت لأحد اخوانى ما ألاحظ على هذا (الخطيب المصقع) من ملامح الإنحراف لم يستغرب ذلك ، بل قال لى : انه أمين سر إحدى المنظمات اليسارية . . أو أنه كان كذلك ! .

وأنا لا أتهم منابر ذلك البلد كلها بهذا الهبوط ، معاذ الله . . فإنه البلد ذو الماضى المجيد الذى لا يزال يحتفظ بدعاة يشرفون منابره بكلمة الحق ،

لا يخافون فى الله لومة لائم . . ولكن الذى أريد من هذا العرض هو إبراز الأثر الذى يتركه أولئك الخطباء الآخرون فى قلوب العامة ومشاعرهم ، إذ يخدرون عقولهم فيقودونهم إلى محاربة الإسلام وأهله من حيث لا يشعرون أو يشعرون ! . . .

ولا حاجة إلى القول بأن كل انحراف فى عقلية العامة نحو أعداء الإسلام من الشرق أو الغرب أو أذنابهما ، إنما مرده فى الغالب إلى هؤلاء الذين لا يرون فى (المشيخة) سوى وسيلة للارتزاق ، ولو على حساب مصير الإسلام نفسه ! . . .

* * *

أشـــياء لا تصدق . . .

هؤلاء هم خطباء الفتنة ، ولكى نتبين مدى تأثيرهم فى قلوب الغافلين نسجل هنا حادثة لا تكاد تصدق ، ولا عرف التاريخ لها نظيرا فى حياة المسلمين منذ كانوا . .

لقد وزعت فى ذلك البلد منشورات تدعو إلى تجميع المسلمين فى أكبر مساجده ، لإظهار شعورهم بإزاء عدوان الصهاينة الرهيب على المسجد الأقصى عقيب إحراقه .

وعقب الجمعة زحفت الجماهير إلى الجامع الكبير ، ولكن ما كاد الناس يفرغون من الصلاة حتى انفجرت أصوات بالهتافات لفلان ! . . . وتعمد هؤلاء تعطيل الحفل ، فاستمروا بهتافهم يشوشون به على المشايخ ، الذين أرادوا الكلام فى بيان أهمية العدوان ودلالاته ! . . ونجحوا فيما قصدوا إليه ، فلم يتركوا لأحد أن يتكلم . . وعندئذ دعى الناس للسير فى تظاهرة منظمة إظهارا لمشاعرهم ، وانطلقت آلاف الحناجر بهتاف لا إله إلا الله والله أكبر . . »

ولكن أولئك الغوغاء أبوا لهذه الشعارات أن ترتفع ، فأخذوا يردون عليها بمثل هذا التجديف : (لا إله إلا فلان ! . . فلان هو الله ! . .)

وكانوا يفعلون ذلك محتمين بمسدساتهم التى تسلموها لمواجهة اليهود فى خطوط النار ، فجاؤوا يرهبون بها المؤمنين فى بيوت الله ، ويعطلون تظاهرتهم ضد أعداء الله ! . . أى والله ! . .

ونحن لا نريد من ذكر هذه الظاهرة مجرد التنديد بمدبريها ومنفذيها ، فقد كفانا ذلك قادة القوم إذ أبعدوا هؤلاء الغوغاء عن المنطقة كلها عقيب ذلك التحدى فأحسنوا صنعا ، ولكن نريد فقط أن نتساءل عن الدوافع الخلفية التى جرأت هؤلاء الأوشاب على اقتحام هذا الباب ! . .

الواقع أن خطباء الفتنة لم يكونوا خالين من تبعات هذا التهجم على الإيمان وعلى قضية المسجد الأقصى نفسها . . ذلك لأن دعايتهم الملحة لتضخيم بعض المهرجين ، وعلى منابر المساجد بوجه خاص ، قد ألقى فى أخلاد الغوغاء أن كل حركة وسكنة يجب أن تتوج باسمهم ، وإلا فهى عميلة وخائنة ! . . حتى لقد أفلت من أيديهم زمام هؤلاء المضللين أنفسهم أخيراً ، فإذا هم يجابهونهم بما لا يرغبون ، إذ يمنعونهم حتى الكلام فى ذلك الحفل . . فكان شأنهم معهم كشأن ذلك المحامى الذى اتفق مع الراعى على سرقة الأغنام ، فأوصاه ألا يجيب على أى سؤال فى المحكمة الا بكلمة (ماع . .) فلما نجحت الحيلة ونجا الراعى من المسئولية ، وجاء المحامى يطالبه بقسمته من الغنيمة ، لم ينل منه إلا كلمة (ماع) ! . . وأنا لا أرجم بالغيب عندما أؤكد لهؤلاء ، الذين ضللوا جماهير المسلمين بدعاياتهم ، أنهم أول الخاسرين فى هذه الصفقة ، وسيرون قريبا أنهم سينتهون إلى المصير نفسه الذى انتهى إليه ذلك المحامى ، إذ يشعرون بأنهم فقدوا احترام هذه الجماهير ، بما هدموا من ثقتها بإخلاصهم . . بل لقد بدأوا يواجهون هذا المصير بأسرع مما كان منتظرا . .

وعندما نقدم هذه الأمثلة من ذلك البلد العزيز لا نقصد إلى الحصر ، فليس هو فى ذلك سوى صورة من معظم البلاد العربية والإسلامية ، وإن كانت الصورة أشد بروزا ، فلأن طبيعة المسلمين فى ذلك الجو أشد حرارة ، فاندفاعهم فى الطريق الخاطئ أشد بالتالى قسوة ، كما تشهد بذلك الأحداث .

وطبيعى أننا لو شئنا استقصاء مظاهر هذا الانحراف فى غيره لمـــا أعوزتنا الأمثلة . .

وقد أسلفنا فيما تقدم بعض الوقائع من مصائب المنبر الإسلامى بسورية ، ونضم إليها الآن وقائع أخرى ، لا يخلو ذكرها من العبرة .

فى جامع ابن أدهم بجبلة ، من الساحل السورى ، وقف مفت معروف يخطب المسلمين ، وكانت الغيوم متلبدة بين المملكة السعودية ورئيس الوحدة الموؤودة ، فجعل خطبته صورة من ترهات صوت العرب ومفترياتها على السعودية ، ثم ختم خطبته برجاء للراغبين فى الحج إلى بيت الله أن يستنزلوا سخط الله على رجال المملكة وهم متمسكون بستار الكعبة ! . .

وشاء الله أن يجتمع بعض حجاج جبلة ذلك العام حول الكعبة المشرفة ، فيقول أحدهم : لا تنسوا وصية الشيخ بالدعاء على القوم ! . وكادوا يفعلون لولا أن قيض الله لهم من أقنعهم بفساد تلك الوصية ! . .

وقد أسعف الحظ هذا الشيخ إذ أخذت له صورة بجانب (فلان) فكانت له مورد رزق لم يغلق إلا بزوال تلك الوحدة المظلومة . .

وسمع المصلون أخاه ذات يوم يخطب المسلمين فى مسجد كبير . . فيقول : لقد انتصرنا فى مصر ، انتصرنا فى العراق . . انتصرنا فى لبنان . . انتصرنا فى اليمن . . و . . و . . .

وكانت الأقطار التى يذكر انتصاراتهم فيها يومئذ غارقة فى جداول الدماء . . أو خارجة من جداول الدماء . . ففى العراق حيث القتل والسحل وطمر عشرات الأحياء فى قبور جماعية[1] وحتى أكل لحوم الأحياء[2] ومحاكم المهداوى التى كانت مهزلة الدنيا فى فن العدالة الاشتراكية . .

---

(١) أعلن ذلك عبد الكريم قاسم نفسه وبصوته من إذاعة بغداد إذ كان يخاطب مندوبى اتحاد الطلاب – وهى منظمة حمراء فعلت الأفاعيل أيام حكمه – فقال منددا بهم : المجرمون هم الذين دفنوا مائة وسبعة وعشرين إنسانا فى الرمادة وهم أحياء . .

(٢) نشرت الصحف يوم انقلاب العراق الأول صورة الأمير عبد الإله وقد علقت جثته فى مكان ما ، والشيوعيون يأكلون منها ! . والظاهر أنهم التذوا ذلك اللحم فاستخرجوا الجثة من القبر وأعادوا التهام لحمها أكثر من مرة ؟ .

وفى لبنان حيث المذابح الأهلية التى ذهبت بخمسة آلاف قتيل فلم تدع بيتا فى منجاة من المأساة . . وفى اليمن حيث تقوم تجارب الغازات السامة وقنابل النابالم ، وتدمير المساجد على رؤوس المصلين ، وإتلاف أسباب الحياة واستئصال الأحياء فى المدن وفى القرى . . وفى مصر . . كان أعظم انتصاراتهم تدمير الحياة الاقتصادية ، وتعليق دعاة الإسلام وهداته على أعواد المشانق ، وشحن السجون بعشرات الآلاف من الأبرياء ! . .

وما أروعها من انتصـــارات ! . . .

وكان هناك زميل للأخوين ينافس كبيرهما فى طريقته . ولا يزال الناس يذكرون موقفا له عجيبا ، وذلك يوم أعلن ثانى الانقلابيين فى سورية أديب الشيشكلى دستوره ، وطرحه للناس ليقولوا فيه كلمتهم . وفى اجتماع حشد له جمهور من ذوى المصالح ، انتصب هذا المعمم ليعلن على الدنيا فتواه بأفضلية هذا الدستور ، وعبقرية مخرجه . . وكان مما قاله يومئذ : لقد أنجبت الأمة العربية من قبل محمدا وأبا بكر وعمر وإخوانهم ، واليوم تنجب رجلا جمع عبقرياتهم جميعا ، هو . . الزعيم العظيم أديب الشيشكلى[1]

وقد سبق أن قدمت للقارئ نماذج من عقلية هذا المعمم يسهل بعدها أن يقدم على أهوال من هذه المزالق .

وحتى دمشق عاصمة الإسلام الثانية . . لم تبرأ من هذا الوباء ، على كثرة ما فيها من العلماء والصلحاء .

لقد سمعت دمشق دروساً وخطباً طويلة وعريضة فى الدعاية لإسقاط أحد أعلام الإسلام ، فى انتخاب فرعى كان ينافسه فيه واحد من حزب ثورى . . ولم يكن لصاحب الدروس ، وهو من كبار المعممين ، من مصلحة فى ذلك سوى إرضاء من خلفه من الطواغيت .

ثم شهد مئات الألوف فى سورية صاحب هذه الدعاية على شاشة التلفاز

---

(١) هذه خلاصة خطبته التى نشرتها الصحف المحلية يومئذ .

يمسك لحيته الكريمة وهو ينصح المسلمين بتأييد ذلك الحزب ، والثقة بقيادته . .

وقد شجع موقفه هـذا جماعة من الفارغين على الاندفاع الأعمى فى ركاب السياسة الثورية ، حتى أصبحوا يتكلمون باسم العلماء ، ويطلقون على أنفسهم ألقابهم ! . ولا يستحى أحدهم أن يتسلق المنبر بحماية الحراب فيمجد اليسارية واليساريين ، وهو يكشف عن مسدسه بين الحين والحين ! :

ثم كان من نتائج هذا الهوان ، الذى أصاب المسجد فى ظل بعض العمائم المرتزقة ، أن اقتحم بعضهم مسجدا كريما فى حى الميدان ، الذى عجزت عن اقتحامه من قبل دبابات الفرنسيين ، وجعلوا يتحدون المؤمنين بالهتاف الحزبى ، ليدفعوهم إلى عمل شىء يعطيهم الفرصة لتدمير المسجد على رؤوس المصلين كما حدث فى حماة . . وكما حصل فى قلب الجامع الأموى الكبير إذ اقتحم سليم حاطوم حرمه بالآليات ، ونثر فى جوانبه دماء القارئين وأشلاء القائمين والراكعين . .

وكان ذلك كافيا لتسلل الضعف إلى كثير من الرؤوس التى عجزت عن احتمال مسئولية العمائم ، فأعلنت استسلامها للواقع ، ورضيت أن تتصدر الموائد الحزبية فى مناسباتها المختلفة ، وأن تظهر على رأس المسيرات التى تنظم لاستعراض القوى ، ولإيهام المراقبين بأن وراء المتسلطين تأييد الشعب وعلى رأسه (أصحاب الشعائر الدينية) ! .

ولا حاجة بنا بعد ذلك إلى تتبع هذه الوقائع فى المناطق الثورية الأخرى فهى أشهر من أن تذكر ، ولا غرابة فى انتشارها حيث ينيخ الحكم المطلق بكلكله على صدور الناس ، وحيث يهدد هذا الحكم رجال الإسلام بقطع الأرزاق والأعناق ، فلا يجد ضعفاء العزائم والهابطون مندوحة من الخضوع وترديد ما يهواه المتسلطون ، ما داموا لا يخشون فى زيغهم رقيبا ولا يترقبون حسيبا ! . .

على أن من غير الإنصاف أن نكتفى بالحديث عن جانب السقوط ، ونسكت عن جانب السمو فى هذا الموضوع ، ونحن نسجل وقائع التاريخ .

لقد شاءت رحمة الله أن يحتفظ المسجد برجال لم يصرفهم الروع عن الجهر بكلمة الإسلام فى كل ما يعتور المسلمين من محن وفتن . . وقد تفاوتوا فى قوة الاحتمال فتفاوتوا فى أسلوب التعبير ، حتى كان منهم من يقولها مغلفة بلفافة الأناة والحكمة فتهز القلوب والعقول فى أناة وعمق . دون أن يعرض نفسه واخوانه للبلاء ، وفى اجتهاده أن ذلك أنفذ للحق ، وأبقى للوسيلة . . ومنهم من ضاق صدره بالصبر على الهوان ، فأطلق كلمة الإسلام مدوية مجلجلة زلزلت عروش الطواغيت ، فلم يروا مدفعا لخطرهم إلا بالقضاء عليهم . . وهكذا انضم إلى مواكب الخالدين ثلة جديدة من الشهداء العلماء . . ولا جرم أن الزمن سيطوى فى غباره أكداس الجبارين من أعداء الإسلام ، الذين سلطوا على شعوبه ، فسلبوه بالحديد والنار حق الدفاع عن نفسه ووطنه ومقدساته . . فلا تذكرهم الأجيال إلا للتمثيل على البغى والطغيان . . فى حين تتردد أسماء عبد القادر عودة ومحمد فرغلى وسيد قطب وعبد العزيز البدرى وإخوانهم ألسنة صدق فى الآخرين ، مادام للإسلام بقاء فى العالمين . .

* * *

سفينة وحانوت . . .

أعرف مسجداً بنى على التقوى ، إذ شيده رجل من النخبة الطيبة ، فى منطقة لا مسجد فيها على سعتها ، فلما أنجزه دعا لافتتاحه أحد العاملين فى خدمة الدعوة ، فلم يتردد فى الإجابة ، واستمر يلقى فيه خطبة الجمعة مدى ثمانية أشهر دونما أجر أو رغبة فى أجر . . وكان الناس يهرعون إلى ذلك المسجد لاستماع خطبة هذا المتطوع ، حتى أخذ يغص بالمصلين الوافدين من مختلف أنحاء البلد وضواحيه ، فلا يبقى موطئ لقدم خاليا لا داخلا ولا خارجا . . وقد ألف الشارع المتصل بالمسجد أن يمتلئ خلال ذلك بسيارات الأغنياء ، الذين ما اعتادوا دخول المساجد قبل ذلك إلا فى الندرة !

وكانت هذه ظاهرة غريبة استرعت نظر الكثيرين ، إذ أكدت لهم أن

المسجد غير متعذر أن يستعيد من جديد تأثيره فى اجتذاب الناس وتوجيههم ، وبخاصة لدى المثقفين ، عندما يتاح له الأطهار الذين يملكون القوة والأمانة .

وشاء الطغيان أن يبعد هذا المتطوع عن منبر ذلك المسجد ليحل مكانه رجل آخر بالأجرة . . وفوجئ المصلون بتغيير الخطيب ، لذلك كان لابد للمتطوع أن يودع الناس ويوصى خلفه . . فوقف عقيب الصلاة يلقى فيهم آخر كلماته . . وكان مما قاله للخطيب الجديد : « إن هذا المسجد أسس على التقوى من أول يوم . . وكان من فضل الله أن حفظ لمنبره طهره فلم ترسل منه كلمة إلا فى مرضاته . . فاحرص على سلامة هذا الاتجاه أيها الخطيب ، وتذكر أن المسجد فى الإسلام سفينة النجاة ، يلجأ إليه الغارقون فى لجج الضلال ليستعيدوا اطمئنانهم ، وليعرفوا طريقهم ، لذلك كان لزاما على الداعى المؤمن أن يصون منبره من الانحراف ، فلا ينزل إلى حمأة الشارع . . إن هؤلاء الناس رعيتك وهم إنما يقبلون على خطبة الجمعة ودرس المسجد ليتزودوا منهما بالحكمة التى تقوم اعوجاجهم ، وتصحح اتجاههم ، فإذا هبطت بمنبرك إلى سوية الشارع فقدت القدرة على التأثير فيهم ، وأوشك مسجدك بذلك أن يكون حانوتا صغيرا فى شارع كبير ! » .

ولعمر الله انها لكلمة حق أريد بها الحق . . وليس للمسجد من معنى سوى أنه حانوت صغير إذا هو انحرف عن هذا القصد الذى أوضحته يومئذ تلك الكلمة القصيرة .

* * *

هدم وبناء . . .

وطبيعى أن خطيب المسجد أو مدرسه لن يكون ذلك الربان الحكيم ، إلا أن يكون ممتلئاً يقيناً أن مهمته الكبرى تقوم على الهدم والبناء الدائمين . . فهو هادم لكل باطل تريد التيارات الفاسدة أن تركزه فى قلوب الناس ورؤوسهم ، وهو بان لهذه النفوس يمدها بالمنظار السوى الذى يكشف حقائق الدنيا . وأنا لا أعلم كيف يتاح لقائد المسجد أن يكون الهدام البناء ، إذا هو لم يفهم قبل كل شيء أنه أمين الله على دينه وعباده ، مكلف أن

يحرس أبواب التعاليم الإلهية فى يقظة ، فلا تتسرب إليها الطفيليات من هنا وهناك ، ثم عليه أن يصون قلوب رعيته من سموم البدع ، التى تريد أن تزاحم عليها حقائق السماء ، ذلك لأن العقائد الصحيحة كما أنزلها الله إنما هى وصفة ربانية ، رتبت فيها مركبات الدواء حسب حاجة الفطرة ، فكل زيادة أو نقص فى هذا العنصر أو ذاك جناية على الإنسان ، كتلاعب الصيدلى الغشاش بوصفة الطبيب الماهر ! . ولتوكيد هذه الحقيقة يقول الله تبارك وتعالى منددأ بالزائغين عن سبيله : « **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ! . ٤٢–٢١** » . ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم محذرا من سلوك هذه الطريقة المخوفة : « . . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة[١] » .

ولقد طالما رأينا واقع المسجديين على غير هذه الجادة ، إلا من رحم الله – وقليل ما هم – فهم لا يكادون يفرقون بين جذر وفرع ، وبين أصيل ودخيل ، وإن بعضهم ليهتم بثوبه ، يتأنق به ، وينتقى طرازه ونسجه ، وبعمامته فيقضى الساعات فى تكويرها وتقبيبها ، أكثر مما يهتم بالدين الذى يتعلمه ويعلمه الناس . . . !

وأشد البلاء بهؤلاء أنهم قلما يتصلون بالمنبع الآلهى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل يأخذون كحاطب الليل دون أى تدقيق ، ولهذا كثيرا ما تسمعهم ينسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس له به علم ولا يعلمون أنهم يكذبون عليه شاؤوا أم أبوا . . وقد يقرؤون الحديث الصحيح من كلام الرسول ثم يعرضون عنه ، إيثاراً لكلام واحد من الشيوخ ، وحجتهم فى ذلك أن هذا الواحد أعلم منهم بكلام الرسول فالأخذ عنه أحوط لدينهم ! . ولقد والله سمعت واحدا من هؤلاء ومن ذوى المناصب الدينية العالية ، يقول لى بصراحة مدهشة : « إنى لآخذ بكلام شيخى ولو تعارض مع نص نبوى ثابت ، لأنى أشك بعلمى

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذى وأبو داود .

وأثق بمأخذ شيخى » ! . تماما كما فعــل الذين من قبلهم إذ كانوا :
(إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ٢ـ١٧٠)
. . . وهذا الكلام قد تجد له تأويلا يرضيك ، ولكننى لا أفهم منه سوى الجهل المطبق بمذاهب الأئمة أنفسهم ، الذين يقررون جميعا أن الحديث هو مذهبهم إذا صح ، ثم الجهل المطبق بكتاب الله الذى يتعبد عباده بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم دون غيره من الخلق ، فلا دين إلا ما جاء به فقط ، وكل كلام أو عمل من غيره فوسيلة إلى معرفة ما قال الله وقال رسوله . . .

سألنى ذات يوم واحد من هؤلاء الشيوخ عما أقوله فى الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أقف فى ذلك عند أمره تأدبا وامتثالا فلا أستغيث إلا بالله . . فقال : هذا خطأ محض . قلت : ألا تسألنى عن دليلى ؟ اسمع . . هل تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما صح عنه : « . . إذا سألت فاسأل الله . . »[1] قال : ومع ذلك فنحن نرى صحة الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم والكيلانى والرفاعى و . . . و . . . قلت : يا شيخ . . أنا أقول لك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وتقول لى : نحن نرى ونحن نقول ؟ . . ومن أنتم ومن نحن ياشيخ ؟ . إن الله يقول :
(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنةأويصيبهم عذاب أليم ٢٤ـ٦٣)
فهو يحذرنا من مخالفة رسوله ، فهل عندك آية من كتاب الله يحذرنا فيها من مخالفتك أنت وأمثالك ! . .

ونحن لا نلتمس من هؤلاء أن يهملوا مذاهب الأئمة فى أمور دينهم ، ولـكنا نقول : إن تقديرنا لمذاهب الأئمة لا ينبغى أن يصرفنا عن الاتصال المباشر بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . . والا استحال المذهب نفسه دينا ، حتى يكون هو الأصل فى نظر أتباعه ، وبذلك تتعطل مهمة القرآن والسنة ، حتى ينحصر عملهما فى تزيين الجدران وصدور النسوان ، وما أحسب هنالك شيئا أخطر على الدين والمذاهب من ذلك الخطر الماحق .

---

(١) من حديث صحيح رواه أحمد والترمذى .

والأصل فى الأشياء دائماً أن يكون الرأس هو مرجع الأمر ، يصدر توجيهه إلى بقية الأعضاء فتعمل وفق تقديره ، وهكذا كان الوضع بالنسبة إلى أجزاء الأمة أثناء عصور الإيمان ، إذ كان الناس تبعاً للعلماء فى أحكام الشريعة ، فهم بنظرهم أهل الاختصاص ، تفرغوا لفقه الدين واستنباط الأحكام ، على وجه لا يتاح للجماهير المشغولة بكدحها ، فاذا جاؤوهم يسألون عن الحلال والحرام ، ردوهم إلى قول الله ورسوله ، فى إخلاص المؤمن الذى يبتغى أجره من الله وحده . على أن هذا الوضع سرعان ما انقلب مع غيره من الأوضاع رأسا على عقب ، فاذا الشارع هو الذى يسيطر على الجامع ، وإذا البدع التى تلتهم عقائد العامة هى التى تفرض نفسها على شيوخ المساجد ، حتى لا يجرؤ هؤلاء على مخالفتها وإعطاء حكم الشريعة فيها ، خشية أن ينبذوا بالوهابية والسلفية . . ونحو ذلك من أنواع الألقاب ! . .

وبذلك أضيفت أسباب أخرى جديدة إلى عوامل الانهيار العام ، وإذا المدرس أو الخطيب قبل أن يلفظ كلمة الحق يراجعها مائة مرة متسائلا عن رأى فلان وفلان فيها وموقعها منه ! . . وطبيعى أن العامة لن ترضى عن غير الحاطبين بحبالها على طريقة « يا داخل بلد العميان ضع يدك على عينك » . وهكذا أصبحنا نرى البدع فى كل مكان ، تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس ، يعملها الجاهلون ، ولا يستكف عن تأييدها العالمون ، حتى لقد انتهينا إلى اليوم الذى ورد ذكره فى حديث ابن مسعود إذ قال : « يأتى على الناس زمان تكون السنة فيه بدعة والبدعة سنة . . »[1] وفى مثل هذا الوسط لا تجد أشد عذابا من أهل الحق الذين أخذوا أنفسهم به ، حتى أصبحوا غرباء بين أهليهم وإخوانهم ، فهم كما أنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « سيأتى على الناس زمان يذوب قلب المؤمن فى جوفه كما يذوب الملح فى المـاء . . يرى المنكر يعمل ولا يستطيع أن يغيره[2] » . . .

(١) انظر « البدع والنهى عنها » لابن وضاح ص ٨١ . .
(٢) عن عطاء بن قيس الخراسانى ، المصدر نفسه . .

ولقد استفاد المضللون من هذه الغفلة ، فاندفعوا يشرعون للناس الخرافات ويمكنون السخافات ، حتى طم البلاء وعم ، فإذا المشعوذون يتقدمون الصفوف ، ومن خلفهم الناس راغمى الأنوف . . وإذا نحن أمام مساخر لا أول لها ولا آخر . . فقبور أولياء يطاف بها صباح مساء ، يطلب منها كل شيء حتى النجاح والحمل والشفاء ، وليس هذا فحسب ، بل إن هناك مقامات لدواب هؤلاء الشفعاء ، تقدم إليها النذور ، ويوقد عليها البخور ، والويل لمن تحدثه نفسه بالاعتراض ، أو يسول له عقله الانتقاد[١].

والموجع فى ظل هذه الظروف الشاذة ، أن ترى الرجال الذين هم مظنة الصلاح والعلم ، يقعون فريسة هذه المصايد العامية ، فيذوبون فى بوتقتها متبرعين أو منتفعين . . !

وكمثل من ذلك أسوق هذه القصة من ذكريات ليلة لا أنساها . .

كان المجلس حاشدا بأصناف الناس ، أكثرهم المتعلمون ، وبين هؤلاء بعض خريجى المعاهد الشرعية العليا . . وتكلم الشيخ المحتفى به ، بما فتح الله عليه . . ثم جاء صاحب الدار بالماء فقدم إليه كوبا ، فشرب قليلا منه وأعاده ، فإذا هو يرد سؤر الشيخ إلى الأبريق ، ثم يدور به على الحضور ليتناولوا منه جرعات مباركات ! . .

ولقد استقبلهم الشيخ أول الأمر بكلتا يديه ، يمدهما لا للمصافحة ولكن للقبل ، ثم شيعهم كذلك بمثل ما استقبلهم ! . .

وكذلك لاحظت بين هؤلاء من كان لا يكتفى بلثم الراحتين ، حتى يمسح بهما الرأس والعينين . . ! على أن أغرب ما شهدته يومذاك موقف الرجل الذى كان أعلى الحضور شهادات ، يتمسح بآثار الشيخ ، ويأخذ سؤره فى كثير من اللهفة المصطنعة ، كأنه يريد أن يغرى الآخرين بمثل عمله ! . . فلم أتمالك أن أردد فى نفسى رأى أبى الطيب فى مثله :

عجبت لمن له حد وقد ... وينبو نبوة القضم الكهام

---

(١) فى اللاذقية حفرة يقال إنها مدفن الفرس التى كان يركبها الولى المغربى . . لا تزال حتى اليوم تزار وتبخر . . .

وقد كان لصاحبنا حد وقد ، وكان مرجوا أن يقوم الكثير من ذلك الاعوجاج . . ولكن نبا منه فى المجلس صارم كان جديرا أن يقطع ، لو كان فى يد تحسن الضرب . . وما ذلك إلا خطب يسير ، إذا قوبل بما هو أشد وأدهى ، مما أصبح مألوفا فى كثير من المساجد حيث يصل الشيخ متأخراً لخطبة الجمعة ، فلا يبقى واحد من مريديه هناك إلا نهض على قدميه إجلالا للشيخ . . ! وهو عن ذلك راض وبه جد مسرور . . ولم لا يكون راضيا ومسرورا .. ووراء ذلك الجاه والمـال والمنافع التى لا حد لها . . وقد نسى معه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النـار)[1] ونسوا وجهلوا أن من الأدب النبوى أن يجلس الرجل حيث انتهى به المجلس[2] .

* * *

سلطان الغوغاء . . .

ولقد أدركنا الناس فى بعض مدن المسلمين ، يتخذون من يوم المولد موسما للخروج بالمحمل ، وهو جمل يرفع عليه هودج خال ، وتسدل عليه ستائر الحرير ، ثم يسار به فى الشوارع الرئيسية ، تحف به الجماهير ، فى مقدمتهم الشيوخ .. والمحظوظ من الناس هو الذى يمسك بزمامه . ويتزاحم أصحاب الحاجات على الحيوان ، وبخاصة طالبات الحبل ليظفروا بلمسة من الجمل ! .

وجاء يوم على مدينتى لم يكن فيها شاب ممن يحسنون هذا العرض ، إذ كانت الحرب الكبرى عام ١٩١٤ قد ساقت الفتيان إلى سوح القتال ، وبذلك تعطل خروج المحمل لأول مرة فى يوم الذكرى النبوية . . وسرعان ما أقبل الشيوخ والعجائز على ساحة المسجد يحتجون على ذلك صائحين صاخبين : هذا تعطيل لشعائر الدين ! . .

وأدركت الناس كذلك يحصنون بيوتهم من الأفاعى بتعاويذ يكتبها لهم الشيوخ فجر عيد الصليب من كل عام ، فاذا أشرقت الشمس جاءوا

---

(١) رواه الترمذى وأبو داوود .
(٢) روى أصحاب السنن أنه صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس . . .

زرافات ليأخذوا نصيبهم منها ، ثم ذهبوا يعلقونها فوق أبوابهم وعلى جدرانهم ! . .

وكما حدث فى شأن المحمل حدث فى شأن التمائم يومئذ . . وذلك أن فقدان الورق اضطر الشيخ إلى إلغائها . . ويا لهول النبأ ! . . فقد تجمع الناس فى فناء المسجد يضجون ويهتفون : ذهب الدين . . ذهب الدين .

وما لى أعود إلى الماضى ، وأمامى من الحاضر ما لا يحصى من هذه العجائب ! . . وحسبى أن أذكر القارئ فقط بما يسمعه فجر كل يوم ، وظهر كل جمعة من أصوات المنشدين فى مكبرات المآذن . . يوقعون ألحانهم المتضاربة فى ما يسمونه : التسبيح أو التذكير . .

ولا أزيد القارئ علماً بهذه « الأغانى الدينية » . . فهى أخلاط من الكلام العجيب . . فيه الشعر السليم والمكسور المحطم . . وفيه ما له بعض معنى . . وفيه ما لا يفهم عاقل مراده ! . . ولنقف من هذا كله على (تسبيحات) الفجر . . وما أحسب القارئ إلا قد دغدغت سمعه بألحانها الفوضوية ، يرسلها مع الأثير سوقى قد ضاق به مضجعه ، من إفلاس أو أرق أو . . . فراح يوقظ النيام ليشاركوه أرقه وقلقه ! . .

وفى رمضان يضيق ليل المؤمن ، الذى يهمه أن يؤدى صلاة التراويح ، ثم ينهض لصلاة الفجر فى وقتها . . ولكن . . مسكين هذا المخلوق . . إنه لا يكاد يسلم عينيه إلى إغفاءة مريحة حتى يزلزله صياح (المسبح) يصدع أطباق الليل ، فإذا هو شاخص البصر لا يستطيع إلى الغمض سبيلا ! . .

ولقد كان المكبر نعمة فى بعض الأحيان ، ولكنه فى المآذن وفى رمضان نقمة أى نقمة ! . . إذ أصبح وسيلة لتنافس (أبطال التسبيح) فما يكاد ينطلق صوت أحدهم حتى تتجاوب الأصوات من هنا وهناك وهنالك ! . . وإذا أنت من ذلك تلقاء ألوان من (البرازيت) لا تميز معها حرفاً من حرف . . وتستمر هذه (السمفونية) حتى يأتى الفجر الصادق بأذان الصباح ، فتنهض للصلاة التى لا نوم بعدها للمساكين ! . .

ولقد ابتلى حينا ذات حين بفتى مستهتر ، لا يعرف طريق المسجد إلا فى ليالى رمضان .. إذ يقدم إلى مكبره ، فلا يزال يبوق فيه حتى يقبل المؤذن، فيدع له المكبر والمسجد معاً ! . وهكذا دواليك حتى نهاية رمضان ! . .

ولا تحسبن هذا بدعاً من الأمر ، فأنت واجده حيث ذهبت من بلاد الإسلام إلى بلاد الحرمين . وذات مساء كنت أقاسى الأمرين من هذه البدعة فى حماة ، حيث قدر لى أن أنام فى منزل يجاور مسجداً فإذا أنا فريسة لذلك (المسبح) الآخر الذى بدأ صراخه فى فحمة الليل ! . .

وشكوت أرقى لمضيفى ، وتساءلت عن سبب سكوت الأوقاف عن هذا الإزعاج ، فإذا المصيبة واحدة . . إنها مصيبة الشارع الذى سيطر على الجامع ، حين جرد هذا من القوة التى تدفع عنه ! . .

ولقد ذكر لى ذلك المضيف أن ناساً قد شكوا هذا الأمر إلى الأوقاف فتحركت لمنعه ولكن . . ما كاد الخبر يشيع فى الحى حتى ثار العامة ، واقتحم بعضهم إلى المكبر متحدياً ، يقرع الأسماع بما يشاء من لغو القول ومنكر اللحون . . ثم راح هؤلاء يذيعون فى أوساط الغوغاء أن فلاناً وفلاناً يريدون منع المؤذن من توحيد الله ! . . .

وانتبه إلى هذا الزعم الخبيث الذى يتهم المصلحين بأنهم يريدون منع الناس من التوحيد ! . إنه الحجة نفسها التى يلقيها الشيطان على ألسنة الغوغاء عندنا حين يتهمون المصلحين ببغض رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لا لسبب سوى أن هؤلاء يدعون إلى الوقوف بالأذان عند صيغته النبوية دون تزيد ، فلا يجهر المؤذن بغير ألفاظه التى جاءت عن عصر النبوة . . فإذا هؤلاء يضجون ويصرخون : يا غارة الله ! . إن أولئك يريدون منع الناس من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

* * *

لبــاب وقشــور . . .

تلك صور مصغرة من البدع التى اقتحمت حرم المسجد فى الكثرة من ديار المسلمين . . فليتذكر القارئ معى صور المساجد التى استحالت

قبوراً ، ثم استحالت كعبة يقصدها كل ذى حاجة وعلة ، حتى السكارى يكرعون الخمر فى ساحاتها ، وحتى الكاسيات العاريات ، يعرضن لحومهن فى جنباتها[1] . . . ودعنى أقص عليك واحداً من أحداث هذه القبور السعيدة ، احتكر لنفسه نصف أحد المساجد ، واحتل بسلطانه نصف قلوب المسلمين فى بلده ، على الأقل ، فهم يتسابقون إلى الاحتكاك به ، وأسعدهم الذى تتاح له الصلاة خلفه أو بجانبه ! . .

لقد جرؤ إمام هذا المسجد ذات يوم فأعلن : أن الإسلام لا يبيح إتلاف الأموال فى كسوة الأضرحة ، لذلك يرى أن يتخذ من إحدى حلل هذا الضريح جبة له يدفئ بها جسده ، فى ذلك البرد القارس ! . . ويشيع الخبر فى الحى . . فإذا الناس حتى السكارى منهم ينتخون لقداسة القبر ، وينذرون الشيخ بالكارثة ، إذا هو أقدم على ذلك ! . وتقف الأوقاف وراء الغوغاء . . وبذلك انتصر القبر . . وظل ناعماً بحلله الفاخرة يقدمها طعاماً سائغاً للأرضة . . والفئران ! . وليست هذه المعركة الأولى والأخيرة التى ينتصر فيها سلطان الغوغائية ، مادام هؤلاء هم الكثرة الساحقة السافهة . . ومادام المصلحون — فى الغالب — مبعدين عن قيادة المساجد . فهم يرسلون أصواتهم من وراء زحام العامة دون أن يجدوا لهم نضيراً إلا إيمانهم بالحق ! .

ولقد بدت طلائع انهيار المسجد منذ أن امتدت إليه أصابع الترف . . على أيدى العابثين . . الذين أبوا إلا أن يسلكوا سبيل أشباههم من أباطرة الروم وفارس ، فراحوا يصبون ملايين الدنانير على تزويقها وتزيينها ونقشها وترصيعها بالفسيفساء المذهبة ، فأشبعوا بذلك نزوة البطر ، التى حفزت الفراعنة والأباطرة من قبلهم على تبديد أموال أممهم فى صنع الأهرام والمسال وأقواس النصر وأنواع التماثيل ! . .

وبذلك بدأ الانصراف عن اللباب إلى القشور ، حتى كاد الناس ينسون مفهوم المسجد الصحيح ، الذى أراده الشارع صورة من البساطة تصل

---

(١) شاهدنا ذلك وأسفاه فى مسجد المغربى باللاذقية ، وليس هو بغريب بالنسبة إلى بعض المقامات فى القطر المصرى . . وقد سمع الناس حديث الشيخ عاشور عن بعض ذلك ، فى لحظة عابرة من إذاعة القاهرة . .

النفوس بحقائق الإسلام ! . وتسابق المحسنون إلى تشييد المساجد على الطريقة نفسها ، حتى أصبحت الزخارف فى الكثير منها مشغلة للعين وللقلب ، تنتزع المصلى من جوه الروحى الخاشع لتطلق فكره فى الرسوم المدهشة البارعة . . كأنما المسلمون قد نسوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة بأن تميط ستارتها ذات التصاوير عن جانب بيتها ، لما شغل بصره وذهنه منها أثناء صلاته[1] وكأن أولئك (المحسنين) لم يسمعوا إنذاره صلى الله عليه وسلم لأمثالهم بقوله : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد »[2]..

وبذلك فقد المسجد الكثير من دوافعه العليا ، ليكون أحياناً سبباً إلى إضعاف وحدة الجماعة ، بما تشيعه زخارفه من روح التنافس على الإسراف والتبذير ! .

ولقد كان للإسراف فى تزيين الكنائس أثره الكبير فى استهواء كبار المسلمين ، الذين ما لبثوا أن سلكوا الطريق نفسه ، فإذا المسجد يقارب الكنيسة لا يختلف عنها ، إلا فى موضوع رسوم الطبيعة الحية ، التى لم تبرز بعد على جدران المسجد ، على حين قد غزت الرسوم الأخرى من زخرفية وطبيعية مساجد المسلمين فى كل مكان . وها نحن أولاء نسمع أصواتا جريئة تدعو اليوم إلى استكمال طريق التقليد بإدخال رسوم الأحياء إلى جدران المساجد ، وذلك بعرض القصص القرآنية فى لوحات فنية ، تذكر رواد المساجد – على زعمهم – بأحداثها وعبرها مجلوة فى أبلغ بيان !! .

وقد نسى هؤلاء وأولئك أن المسجد هو المكان الوحيد الذى يجب الحفاظ عليه سليما من أهواء الناس ، ليظل البرزخ الذى يصل بين الدنيا

---

(١) روى البخارى عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) : « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أميطى عنا قرامك هذا ، فانه لا يزال يعرض لى فى صلاتى . . وفى رواية أخرى (فانها ألهتنى عن صلاتى) .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داوود وابن ماجة والترمذى والنسائى وصححه ابن خزيمة .

والآخرة ، حتى إذا فسدت الحياة من حوله كان صالحاً لأن يمدها بالعلاج الذى يقوم أودها ويدركها بالعافية ، وهى المعانى الأصيلة التى عبر عنها عمر بن الخطاب حين خاطب بانى المسجد بهذه الكلمة الحكيمة : « أكنن الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر » . .

وليت الأستاذ محمود تيمور ، وهو صاحب الدعوة لإدخال صور الأحياء إلى المساجد ، قد ناقش هذا الموضوع على ضوء حسه الفنى ، إذن لتذكر أنه إنما يدعو ، من حيث لا يدرى ، إلى مسخ هاتيك المعانى الإلهية التى تحملها قصص القرآن ! . لقد نظر هذا الأديب إلى قصص أهل الكتاب مصورة على جدران الكنائس ، بأيدى ميكال أنج وأضرابه فأخذ بالبراعة والرشاقة وتساوق الظلال والألوان ، حتى تمنى لو يرى مثل ذلك على جدران المساجد ! . وقد نسى حضرته أن المعنى الأدبى حين ينتقل إلى الرسوم والتماثيل ، يفقد أول ما يفقد روح التأثير ، الذى تختص به الكلمة . . لأنه يحاول اختصار الآفاق النفسية المتعددة فى منفذ واحد هو النظر وحده ! .

ونحن قد نعجب بمنظر الطبيعة تخطه ريشة مفن ، لأنه يعرض لنا ، وفى تناسق الأصباغ ، كل ما يجعل هذه الطبيعة مؤثرة ، ولكن هذا المنظر نفسه يحبس موحياته فى إطار المعنى الواحد أياً كان هذا المعنى ، وبذلك يقف عاجزاً عن تحقيق المهمة التى يستطيعها الأديب ، حين يعرض لتصوير هذا المنظر عينه بقوة البيان الفحل . . فلا يقف عند حدود اللون والظل ، وإنما يتناول كل منافذ النفس الإنسانية ، بما يستخدمه فى هذه العملية من خصائص الفنون جميعاً : اللون والتجسيم والحركة والنغم والرمز وما وراء ذلك ، مما تطلقه همسات الحروف من المعانى غير المكتوبة . . إلى ما هنالك من أسرار وأسرار ، تجعل الأدب وحده هو صورة الحياة الكاملة بالنسبة إلى الفنون جميعاً . وما على الأستاذ تيمور وهو القاص البارع إلا أن يجرب ذلك بأن يكلف أحد كبار الرسامين تصوير إحدى قصصه الناجحة ، ثم يقارن بينها رسوماً وبينها كلاماً . . ويومئذ سيتعرف عملياً خطأ ما يدعو

إليه ، إذ يتبين له إلى أى مدى استطاع فن الرسم أن يمسخ معانيه ! . . وإذا كان هذا سيحدث فى قصص الأستاذ تيمور فماذا يكون الأمر إذاً فى قصص القرآن ! ! . . هذا ولا يجوز أن ننسى أخيراً أن الفكرة المرسومة غير الفكرة الملفوظة والمكتوبة ، فللأولى تأثيرها العابر ، يدغدغ النفس مرة أو مرتين أو مرات . . ثم يألفها النظر فتعجز عن الإثارة ، أشبه بالسلك الكهربائى عندما ينقطع عنه التيار ، فيعود كأى خيط معدنى ، لا يفعل ولا يتفاعل . . على حين تظل هذه الفكرة فى التعبير الأدبى حية ، يتجدد إيحاؤها فى النفس ، بمقدار ما تنطوى عليه من دوافع العبقرية ، أو بمقدار ما تكون عليه النفس من استعداد للتلقى ، ومن هنا يطل السر الذى يجعلنا نقرأ الآية من القرآن مائة مرة ، وفى كل مرة نحس لها من الطعم والذوق والانفعال ما يكاد يكون نسيج وحده ، بالنسبة إلى المرات السابقة . . فلا غرابة إذاً أن يكون تصوير القصص القرآنى – لا كان – نذيراً بالكارثة ، كارثة الفراغ من التأثير الذى اعتاد القارئ أن يستقبله من خلال النظم الفنى الأعلى لهذه المعانى الإلهية .

* * *

بطـــالة ورقص . . .

كان فى مقدمة الحطمات التى عصفت بالمسجد أيام الكوارث ، تحوله فى بعض المناطق إلى ملجأ للعاطلين ، يأوون إليه فى سياحاتهم الفارغة ، فينعمون بالدفء وألوان الاحترام . . دون أن يقدموا للمجتمع شيئا مقابل ذلك . . اللهم إلا زيادة الكسالى ، الذين استطابوا هذه البطالة ، فراحوا يحولون مساكن العلماء إلى ملاه دخيلة ، يقيمون فيها حفلات الرقص والغناء باسم التصوف ، الذى لم يسمع به الإسلام قبل تدفق التيارات الغريبة ، مما أحفظ صدور المفكرين على هؤلاء المهرجين . . حتى قال فيهم المعرى :

أرى جيل التصوف شر جيـل ... فقل لهم وأهون بالحلول :
أقـــال الله حين عبدتمـــوه ... كلوا أكل البهائم وارقصوا لى !.

وقد لقى هؤلاء تشجيعاً كبيراً من سخفاء الحكام ، الذين كانوا فى حاجة إلى إلهـاء العامة عن مفاسدهم ، فأغدقوا عليهم المال ، وأباحوا لهم

موارد الأوقاف ، يتصرفون بها وفق أهوائهم . . حتى أوشكت هذه المؤسسات الضخمة أن تتحول أخيراً إلى تكايا خاصة بذوى البطالة وأشباههم . . من الدراويش ! . . .

ثم جاءت سياسة التجهيل فجردت المسجد من أعظم مؤثراته ، إذ أقصت أحرار الفكر عن ذروات المنابر ، لتسلمها إلى صنائعها ، من الذين أتقنوا فن الملق والانحناء ، فكان يسيرا على هؤلاء أن يرددوا كل ما يوحى إليهم . . حتى استحالت بعض خطبهم أخيرا إلى ألوان من الهتاف السوقى بحياة فلان وفلان من أقزام الرجال ! . .

ولا ريب أن هذا الانحدار كان سببا فعالا فى استعجال المصير ، الذى انتهت إليه هذه المؤسسات المسجدية مؤخرا على يد الملاحدة الكماليين فى عاصمة الخلافة ، حيث بلغ الغزو الغربى ذروته فى معاقل الإسلام ، فراح يمحو معالمه من البيت واللغة والمدرسة والقوانين . . ولم يكن حظ المسجد منه دون ذلك ، إذ جرد من كل ملحقاته الثقافية والاجتماعية ، وألزم الاقتصار على استقبال المصلين وحدهم ، فكان ذلك قمة الكارثة الكمالية على الإسلام فى تركية (إذ جاء عملا هداما لأنه أدى إلى فصل الخدمات الاجتماعية عن المسجد)[1] . .

* * *

أمسجد أم متحف ؟ . . .

وقد حدث العلامة الهندى أبو الحسن الندوى فى (مذكرات سائح . .) أنه شاهد فى أحد مساجد السودان صورة كبيرة لأحد مشايخ الطرق هناك ! . وهى بادرة تعيد إلى أذهاننا قصة الوثنية الأولى كما رواها ابن عباس ، إذ يؤكد أن أول ما عرف البشر هذه الأوثان كان من مثل هذه الطريق ، حيث أراد بعض أصحاب « النوايا الطيبة » تثبيت آثار صالحيهم ، فاتخذوا

---

(١) الإسلام بنظر الغرب ص ٨٥ . . .

تماثيل على أشكالهم تذكر أقوامهم بفضائلهم ، ليلتزموا سبيلهم . . غير أن هذه التماثيل ما لبثت أن تحولت آلهة تعبد من دون الله ! . . ونحن لا نخشى أن تستحيل صورة الشيخ السودانى تمثالا يعبد على طريقة الوثنية الأولى . . ولكن الذى نخشاه أن تكون هذه البادرة الشرارة التى تضرم النار ، والنفخة التى تسبق الإعصار . . . فينفتح بذلك الدرب واسعاً أمام صور الأحياء ترصع جدران المساجد باسم الغيرة على الإسلام . . حتى يأتى يوم يتعذر فيه التفريق بين المسجد الإسلامى والمعبد الوثنى ، أو بين المسجد والمتحف ! . كما يريد الأستاذ محمود تيمور . .

* * *

هجــوم مريب . . .

ونعود إلى الكلام عن كفاح المسجد فى صراعه التاريخى فنقول : إن عدداً قليلا من المساجد فى الأقطار العربية قد استطاع بقوة الاستمرار أن يصمد أمام الأعاصير ، كالجامع الأزهر وجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى مراكش . . وهذه الجوامع القليلة نفسها لم تتمكن من الصمود لولا ظروف استثنائية ضخمة ، جعلتها ذات أثر كبير فى مجالات النشاط العام ، فواصلت طريقها حتى أمس القريب ، كمراكز ثقافية تساعد على استبقاء الأثر الإسلامى فى الاتجاهات الإقليمية إلى حد كبير . . غير أن دعاة الانحراف لم يهملوا أمر هذه البقية الباقية من آثار الركائز الإسلامية ، فهم يعملون بكل قواهم للقضاء عليها . . وليست حملة الدكتور طه حسين قبل سنوات على الجامع الأزهر ببعيدة عنا ولا غريبة علينا ، إذ أخذ يدعو إلى إنهائه كجامعة إسلامية ، وتحويله إلى معاهد علمانية ! . وقد نسى الدكتور أن القضاء على هذه الجامعة الإسلامية العظمى وليدة القرون العشرة ، معناه القضاء على مصر نفسها كمركز اتصال بين أجزاء العالم الإسلامى ، هذا فضلا عن حرمان مصر أيضا من بقية الثقافة الإسلامية التى حفظت للأمة دينها ، وشخصيتها ومعالمها المميزة فى أشد ظلمات القرون . .

أما جامعا الزيتونة والقيروان فلا يقل نصيبهما من حملات المستغربين عن زميلهما الأزهر ، وهما اللذان صانا لتونس ومراكش شعلة الكفاح طوال زمن المحنة الاستعمارية ، بما زودا خريجيهما من معانى الحرية ، التى يعتبرها الإسلام أساس الحياة الإنسانية .

وإذا كان هذا وضع الجوامع العظمى فى القاهرة وتونس والمغرب ، فغير مستغرب ما انتهى إليه واقع المسجد فى سائر العالم الإسلامى ، من هذا التقلص الذى يوشك أن يسلبه كل أثر على المجتمع ، بعد أن جرد من كل مؤثراته الفعالة ، فاضطر إلى الدوران ضمن هذه الدائرة الضيقة من الصلاة والموعظة الخاوية غالبا من كل منفعة إلا ما شاء الله ! . .

ولقد بدأ هذا التجريد الأخير طبيعيا إلى حد . . إذ جاء فى الوقت الذى انتقل به زمام الحياة إلى قبضة الحضارة الجاهلية ، التى بات من حقها أن تهاجم بوسائلها الجديدة كل معالم الحضارة القديمة ، بغض النظر عن قيمتها الذاتية ، وهكذا انتزعت مؤسسات المسجد لتلحق بأجهزة الخدمات الأخرى . كما حدث فى تركية مثلا إذ (تحولت هذه المدارس — مدارس المساجد — إلى مراكز لتوزيع الحليب ، وأندية رياضية ، وغرف نوم ، فى حين تركت المساجد لتكون مراكز للعبادة ، وإلى حد ما مراكز للثقافة الدينية[1] ثم ما لبثت بعض الحكومات المستبدة أن حذت حذوها فى بعض الدول الإسلامية فاستولت على أوقاف المساجد ، وبذلك جردتها من أهم مصادر القوة ، وأخضعتها للإرادة السياسية كأى مؤسسة حكومية أخرى ! .

وما دامت الحياة نفسها معركة صراع ، فلا غرو أن تمتد الحلبة إلى سوح المعابد . . التى كان عليها أن تدافع عن نفسها بتطوير وسائلها ، إلى الحد الذى يتطلبه منطق الحياة ، وإلا فليس طبيعيا أن تظل مثلا حلقات المساجد هى صاحبة السلطان فى ثقافة الأمة ، بعد أن قامت المدرسة الحديثة بهجومها المركز على طرائق الثقافة القديمة جميعا . . وليس طبيعيا أبداً أن

---

(١) (الإسلام بنظر الغرب) ص ٨٥ . . .

يستعيد المسجد سلطانه على المجتمع بهذه القبضة من « مشوهى الحرب » وأعنى بهم أولئك المساكين من أئمة الصلاة ووعاظ الجمع ومدرسى الطهارة. بعد أن امتلأت الأرض من حول المسجد بمجامع الكسالى — المقاهى — وأندية الرياضة ، ومحافل الفنون ، ودور الخيالة ، ومسارح الرقص ، ومغريات المسابح والمشارب والمقامر ، وما إلى هؤلاء وأولئك من عوامل الجذب والدفع المسلحة بكل جديد من مبتدعات العلم والفن ! .

* * *

رجــال ورجــال . . .

ولقد رأينا مثل هذه الصدمات تعترى حياة الكنيسة ، وبخاصة منذ عصر الصناعة الكبرى فى أوروبة ، إذ كان من طبيعة العلمانية أن تطارد الفكر الدينية المحافظة ، ثم كان من طبيعة السيطرة الجديدة لفلسفة الماديين أن تنتزع الجماهير من أحضان الكنيسة . . ثم جاءت الثورات الفكرية ، والمذابح الدينية ، والإنقلابات السياسية ، فجردت الكنيسة من وسائل التأثير المباشر فى المجتمع . . بيد أن الطبقة الأكليريكية هناك كانت أصلب من أن تنحنى للعاصفة ، فما هى إلا أن سكنت قليلا حتى نهضت لتنظيم الخطط الجديدة لغزو العالم فى الداخل والخارج ، وإذا ببعثات التبشير تنتشر فى كل جزء من أرض الله ، لا تستثنى مجاهل أفريقية ، ولا مغاور أكلة اللحوم البشرية ، وإذا الكنائس فى أميركة وأوروبة وأفريقية وآسية وحدات اجتماعية كاملة ، فيها الجامعة والكلية والمدرسة ودار الحضانة ، ومعها المكتبة والمصح ودار التوليد ، وحتى أندية اللهو وبرامج التلفزة والسينما ، ومسارح التمثيل ! . وقد بات مألوفا جداً ، فى كثير من الجامعات الأميركية مثلا ، أن يبدأ الأطباء أول أعمالهم بأداء الصلاة ، وأن تعلق فى صدور القاعات كلها صور القديسين والألواح الدينية الأخرى ، وأن تفتتح ساعات الصباح فى مدارسهم ، سواء فى واشنطن أو روما أو اللاذقية ، بالصلاة ورسم إشارات الصليب من قبل الجميع أساتذة وطلابا وطالبات . . وليست الجامعة الأميركية فى بيروت أو القاهرة إلا صورة من هذا النشاط الكنسى الواسع ! . وفى بيروت أكبر مكتبات الشرق قاطبة ، وهى تابعة للارساليات

اليسوعية التى لا يقف نشاطها عند حد . . وها هى ذى مستشفيات الإقليم السورى بأجمعها يقبض على أزمة التمريض فيها راهبات من قبل هذه الإرساليات[1] ، أولى مهامهن تبليغ رسالة الكنيسة إلى كل مريض ، وهن لا يعملن فى مستشفى إلا بشرط أن توقف لهن فيه قاعة خاصة يقمن فيها الصلاة كل يوم بقيادة أحد القسس ، وكل ذلك بمساعدة فعالة من الأطباء والموظفين المسلمين الذين يرون من التسامح تقديم كل وسائل التشجيع لهن ، فى حين قلما يخطر على بال أحدهم تقديم أية معونة لأى مسجد أو مشروع إسلامى ، بل قلما يتنازل أحدهم أن يشارك المسلمين فى أداء صلاة واحدة — إلا من رحم الله — ومن هنا يتبين الفرق العجيب بين رجال المسجد ورجال الكنيسة ، فهؤلاء يتلقون الإصابة القاتلة ، ولكنهم لا يموتون ، بل ينتفضون فيزول القبر والكفن . . ثم يبدؤون من جديد ، وقد استفادوا من عبر الماضى ، فيشقون للكنيسة طريقها المأمون ، على حين أن زملاءهم من المسلمين يسقطون تحت أول صدمة . . ثم يرضون بالأمر الواقع ، فيفقد المسجد على أيديهم كل إمكاناته الموروثة ، ليدوروا فى حلقته الضيقة المفرغة ، وإذا هم أخيراً مقطوعو الصلة بجماهير المجتمع ، يرون بأم أعينهم إلى المساجد تخلو شيئا فشيئا من المصلين ، لتمتلئ بهم مجامع الكسالى والضائعين المحيطة بالمساجد نفسها ثم لا يفعلون شيئا . . كأن ذلك لا يعنيهم ، لأنهم أعجز من أن يفكروا بكل هذا ، ولأن معظمهم لا يعدو كونه موظفا (يعدد أياما ليقبض راتبا) ! . .

ولقد جر هذا التماوت وراءه كوارث وكوارث ، من أقربها انصراف الناس عن الثقافة الدينية ، حتى أصبح البيت العريق فى خدمة الفقه الإسلامى يوجه ولده إلى أى فرع من فروع الجامعة إلا كلية الشريعة . ولقد راجعت مع صديقين لى شيخا من رجال القضاء الشرعى ، نحاول إقناعه بأن يوجه أحد أبنائه الثلاثة لدراسة الشريعة ، فأبى وأصر على توجيهه إلى الكيمياء ، وذلك بالرغم من ميل الابن الشديد إلى الدراسة الإسلامية ! .

---

(١) هذا ما كان عليه الوضع أثناء كتابة هذه الكلمة .

وقد بلغنى أن الأب قد اضطر إلى إنذار ولده بقطع كل معونة عنه ، إذا هو أصر على الانتساب إلى كلية الشريعة ، حتى أكرهه على النزول عند أمره ! . وكل عذر الأب أنه يخشى على ابنه الفقر وفقدان المركز المناسب ، وأن يكون كبعض هؤلاء الشيوخ الذين فقدوا كل احترام ! . وقد نسى أن المسجد إنما يحتاج إلى الدم الجديد الذى ينقذه من أولئك العاجزين ، وأن ابنه حين يتخرج فى كلية العلوم فلن يكون أكثر من شهادة بين آلاف الشهادات الجامعية ، ولكنه لو تخرج فى كلية الشريعة لكان جديرا أن يكون كوكبا يسهم فى تبديد الظلام ، وكشف الكثير من الآلام . . وليت الشيخ تذكر فقط شيئا واحدا هو هذه المكتبة الكبرى التى يهىء واحدا من بنيه وبناته للإفادة منها . . والتى سيكون مصيرها بفضل توجيهه إلى أيدى الجاهلين من باعة الجبن والزيتون ، كما كان حظ مئات الأطنان من أنفس المؤلفات العربية فى تركية عقيب المحنة الكمالية !

* * *

المسجد والمقهى :

وأخيراً لقد ركز الإسلام لواء المسجد ليجعل منه أساس البنية الاجتماعية ، وفضلا عما أنشأ له من المهام فى قلب المجتمع ، فرض له من الآداب مجموعة تمكن له من النفوس بقوة . فنى المسجد يمرن المسلم نفسه على أنواع من الفضائل العملية ، من شأنها أن تطبع كل سلوكه بمعانى الإسلام الحية ، التى تعمل فى نشر الدعوة الإسلامية ما لا تعمله مئات الخطب والكتب . . وما بالك بإنسان يحين وقت الصلاة فيترك عمله أيا كان ، ليأخذ بالاستعداد لها ، فيغسل أطرافه ، وينظف ثيابه ، ثم يلج باب المسجد فى خشوع الموقن أنه مقدم على الله ، وهناك يمسك لسانه عن كل سوء . . بل عن كل كلام إلا التسبيح والتحميد للحكيم الحميد ، حتى إذا أعوزه الكلام مع رفيق له ، لم ينطق إلا همسا . . ثم تقام الصلاة ، فينتظم مع إخوانه فى صف لا فرجة فيه ، ولا تجد فيه عوجاً ولا أمتا ، يقوده إمام لا يجوز سبقه فى حركة ولا سكنة ، ثم يتلو من كلام الله مايذكره بمبدئه ومنتهاه ، وصلته بواهب الوجود ، وبإخوته فى الإنسانية ، قائماً

فى تأمل ، راكعاً فى تذلل . . ساجداً فى تضرع . . مكبراً لجــلال الله فى كل نقلة ، داعيا بالسلام لنفسه ولإخوانه المؤمنين من الأولين والآخرين ، مصلياً على النبي الذى هداه الله به لكل هذا الخير ، حتى إذا ختم صلاته بالتسليم على نفسه ومن حوله لبث مكانه قليلا فى غمرة من الذكر والتأمل ، ثم غادر المسجد ، فى مثل الخشوع الذى دخل به ! .

ولك أن تتصور هذا الإنسان ، وقد أخذ فى تدريب نفسه على ذلك الطراز من الهدوء والخشوع زمنا لا يقل فى مجموعه عن الستين دقيقة فى خمس صلوات من كل يوم وليلة ، ثم لك أن تسأل نفسك عن الكيفية التى سيكون عليها هذا الإنسان ، تحت تأثير ذلك النوع العجيب من التربية الربانية . .

ولا بد أنك رأيت كيف أن عملا ما من شأنه أن يطبع نفس صاحبه بآثاره ، حتى لتميز بين ذى المهنة والآخر فتعرف الجزار بعنفه ، والمدرس بارتفاع صوته وطريقته المنطقية ، والمحامى بنزعته الجدلية ، والخياط بلطف مأخذه وحسن صبره . . . وبمثل هذا المقياس تعرف المصلى بصفاته الخاصة ، من جمال التواضع وأدب التعبير ، وطول الأناة ، وعمق التأمل . . اللهم إلا أن يكون قد حول العبادة إلى عادة ، فأصبح لا يتصل بها إلا كما يتصل الإنسان من رواد المقهى بمقعده منه فى الوقت المعتاد . ثم لا تنس أن تقارن بين هذا المخلوق الذى نشأ فى أحضان المسجد ، فحمل روحه فى سلوكه وفى حركاته وسكناته ، وبين مخلوق آخر تلقفته المقاهى والأندية ، ومختلف المسالك الاجتماعية الأخرى ، فنشأ على طريقتها التى تصنعها الأهواء والمنافع ، مما قد يتيح اللذة العابرة ، ولـكنه لا يعطى المعانى الإنسانية الباهرة . . فإذا الحياة بأشباهه قفر من المودة الحقة ، يتلاقى فيها الأحياء كما يتلاقى السجين مع حارسه ، فقد يتبادلان الابتسامة ، ولكنها ابتسامة تخفى وراءها ألف لعنة ! .

ويسير عليك بعد هذه اللمحة أن تدرك أى خير حرمته هذه الأمة ، منذ اليوم الذى انصرفت فيه عن معانى المسجد ، وأى جريمة يقترفها الناس

في حق أنفسهم ، حين يرضون لها أن تهجر هذه المعاني ، لتنغمس في غمرات الملاهي والمقاهي . . .

والآن ما أحسبك تنكر علي القول بأن أفضل ما يصنعه المصلحون المخلصون لهذه الأمة هو أن يردوا القافلة الضالة إلى طريقها الآمن . . إلى المسجد .

* * *

الأمل الوحيـــد :

ولـكن من حقك علي أيضاً يا قارئي أن تعجل إلى السؤال عن الوسيلة بعد أن عرفت الهدف . . فأنا مثلك موقن أننا غير قادرين على تحقيق هذه العودة إلى المسجد بوسائلنا الراهنة . . إن جهاز المسجد في وضعه القائم غير جدير بمهمته ، ولابد من تحول جذري يضع الأمور في نصابها ، وفي مقدمة ذلك تطهير دوائر الأوقاف من المدلسين والمهرجين ، الذين لا يتورعون عن بيع تأييدهم لـكل (ناقد) . . وإذا كان من حق أي نظام في العالم لا يؤمن على تنفيذه سوى الموقنين به ، فمن حق المسجد على وزارة الأوقاف في كل بلد إسلامي أن تنقذه من أيدي الذين لا يؤمنون برسالته ، وأن تذكر أن معظم المجالس المشرفة على إدارة المسجد في الكثير من ديار المسلمين هي من بقايا التربية الذليلة ، التي تجعل هذه المجالس ملاجئ مغلقة ، لا يدخلها إلا أولو الأنصار ، من الذين حافظوا على وجودهم فيها بقوة السلاح أو التزوير أو الاستمرار . .

والحق أن من الغفلة غير المعقولة أن نختم هذه البحوث عن رسالة المسجد ومصيبته ، دون أن نضع أمام أعين القارئ صورة مصغـرة لهذه المجالس التي تتحكم في مصايره ، والطريقة التي تؤلف على أساسها . . فهي من الطرافة بحيث لا يجوز حرمانه من معرفتها والاطلاع على بضاعتها .

كانت الهيئات الوقفية ولا تزال جزءاً لا يتجزأ من نظام الحكم القائم في ديار المسلمين خلال مراحل التاريخ ، فما دام الإسلام هو الذي يحكم تصرفات المسلمين ، فلن تخرج هذه الهيئات عن كونها وسيلة لتحقيق غاية

الواقف ، تتعهد صيانة الأوقاف وتثميرها ، وتنظم مرافقها ومصارفها فى خدمة المسجد والمؤسسات المحبوسة عليها . . حتى إذا اقتحم الاستعمار الصليبي قلاع الإسلام أطلق يده فى تلك الكنوز ، وراح يتصرف بها لمصلحته ، فيعين لها من شاء ، ويحرم منها من شاء ، وينفق من ريعها حتى على تنصير المسلمين ، كما فعل فى الجزائر وغيرها من مستعمراته .

وكان موقف الغير من المسلمين بإزاء هذا العدوان هو موقفهم بإزاء النظام الاستعمارى كله ، إذ لا يمكن إقناع المستعمر بإصلاح الوضع الوقفى على حدة ، وهو الذى يقبض على ناصية الأمر فى كل ميدان . . وهكذا استمر الكفاح عاما ضد النظام بأجمعه ، حتى فتح الله للمسلمين سبيل الحرية ، فخرج المستعمر بجنوده وأسلحته ، ولـكنه لم يخرج إلا بعد أن خلف وراءه جيلا من الذين نشئوا على طاعته وتقديسه ، وامتزجت أساليبه الإدارية بأرواحهم ، فلم يروا خيراً من مواصلة طريقه فى التنظيم والإدارة والتعليم . . ولم يكن حظ الأوقاف من هذا الاستخلاف بأفضل من حظوظ المؤسسات الأخرى ، فإذا هى تستمر فى الطريق نفسه الذى زجها به العدو من قبل ، وفى كثير من الأحيان تحت سلطان الأشخاص أنفسهم الذين اختارهم لها . .

ولم يكن بد فى النهاية من التظاهر بإصلاح الأوضاع الوقفية ، فصدرت القرارات بتنظيمها على أساس المجالس الجديدة التى حدثتك بآثارها . .

أما كيف تتألف ؟ . . وممن ؟ . . فهنا موضع البحث .

لقد أوجب التنظيم الجديد فى ظل الحكم الجاهلى أن تتألف هذه المجالس من أفراد مسلمين يمثلون مصالح البلد . . أى من التجار والمحامين والأطباء والمهندسين وممثلى الجمعيات الإسلامية وأرباب الشعائر الدينية و . . . ويتم انتخابهم بإشراف مفتى المحافظة ومدير أوقافها . . ويعتبر فائزا بالعضوية كل من نال المزيد من الأصوات .

ولا تعجب إذا قلت لك أن بين هؤلاء الذين انتخبوا لإدارة أوقاف المسلمين من لا يفهم من الموضوع سوى أنه فرصة للظهور أو تحقيق المصالح ؟

لأنه بطبيعة نشأته بعيد عن جو المسجد ، بل عن جو الإسلام مطلقا . . .
ومعنى هذا أن ناساً لا علاقة لهم بأمر المسجد فرضوا أنفسهم بقوة القانون عليه وعلى أهله ! . . فإذا أضفت إلى ذلك موحيات السياسة ، والإيعازات التي لا سبيل لمخالفتها ، أدركت أن هذه المجالس لم توجد إلا لتثبيت الخلل الذى اعترى حياة المسلمين وضمان استمراره .

ولا حاجة للتذكير بأن السلطان الفعلى فى هذه المجالس يظل فى قبضة المفتين ، فهم مع مديرى الأوقاف الذين يحضرون جدول البحوث لكل اجتماع ، فيستبعدون ما يرون ويقدمون ما يشاؤون ، وهم متعاونين مع مديرى الأوقاف الدائمين يتولون تنفيذ المقررات بالطرق التي يختارون . .

وطبيعى أنهم هم الذين يعينون أرباب الشعائر الدينية ويعزلونهم ، دون أن يكون لأعضاء المجالس من أثر فى ذلك سوى الرجاء والشفاعة ، إذا كان ثمة من ضرورة للرجاء أو الشفاعة ! .

وبقليل من التفكير يمكن للقارئ أن يتصور جو الإرهاب الذى يحيط بهؤلاء المساكين ، ممن يسمونهم أرباب الشعائر الدينية ، تحت سلطان هذه المجالس التي لم توجد فى الأصل لخدمة الدين ، بل لتنفيذ أهواء المتسلطين . .

إن هؤلاء المساكين مقيدو الألسنة فلا ينطقون إلا بما يؤمرون ، ومقيدو الرأى فلا ينتخبون لتلك المجالس إلا من لهم يسمون . . والويل لمن يشذ منهم أو يخالف ، فإنهم برزقهم مهددون ، وبالدسائس والوشايات محاربون !.

وطبيعى أن وضعا كهذا ليس من شأنه أن يقدم أى خير للإسلام ، أو لهؤلاء المساكين ، الذين يريدهم الواجب على التفرغ لخدمته ، وعرض حقائقه ، والذود عن حياضه ، ويأبى المتسلطون إلا أن يجعلوا منهم ألعوبة يتصرفون بها كما توحى أهواؤهم ومصالحهم ! . .

لقد كان فى وسع هذه المجالس أن تقدم لقضية المسجد خيرا كثيرا ، لو أحسن اختيار أفرادها ممن لديهم الوعى الإسلامى ، والإخلاص لقضية أمتهم ودينهم ، ولكن هذه أمنية لا مطمع بتحقيقها إلا فى ظل النظام القائم

على هذه الأسس ، وما دام البون على هذا المستوى من التفاوت بين الواجب والواقع ، فسيظل السير إلى الوراء ، وسيظل الإصلاح حلما بعيد المنال .

وليس موضوع مجالس الأوقاف ، فى كنف هذا الفراغ المحير ، إلا كموضوع قانون الانتخاب النيابى – الموؤود – فقد فرض هذا القانون لكل طائفة من أبناء البلاد – بما فيهم الأرمن – مقاعد بنسبة عددهم ، ولكنه ربط مصير كل طائفة بإرادة الأخرى على صورة سلبتها كل حرية فى اختيار نوابها . . وبذلك خضعت الأكثرية الإسلامية لإرادة الأقلية المسيحية ، ففى وسع هذه الأقلية بتعاونها وتنظيمها ، أن ترفع إلى النيابة من تشاء من مرشحى المسلمين ، دون أن يستطيع المسلمون فرض سلطانهم على مرشحيها ! .. ومن هنا جاء تسلل بعض المنحرفين من المسلمين إلى الحكم بوصفهم نواباً عن المسلمين ، على الرغم من أنهم لم ينالوا من أصوات المسلمين فى الاقتراع إلا قلة ضئيلة ، بل أن بعضهم – وهم من كبار الحزبيين – هزمتهم أمتهم فى بلدهم ، ولكنهم مع ذلك انتزعوا النيابة بأصوات غير المسلمين من خارج بلدهم ! . .

ولئن دل هذا على شىء إنما يدل على أن وراء هذه التنظيمات الملغومة مؤامرات تستهدف تجريد المسلمين من كل قدرة على تحسين أوضاعهم ، سواء منها السياسية أو الدينية . . وعندما نقرر هذه الحقيقة لا نخص بها سورية وحدها ، بل لا نستثنى من أخطارها أى بلد إسلامى جرفته تيارات المذاهب الغربية أو الشرقية . .

وهذا لبنان وهو البلد الذى تغبطه الأقطار المجاورة على حريته وبحبوحته ، لا تختلف أوقاف المسلمين فيه عن أخواتها فى سورية ونحوها . . . وحسب القارئ ، للإلمام بواقعه الرهيب ، هذه المقتطفات ننقلها إليه من مقالة للأستاذ الشيخ سعيد شعبان ، نشرتها جريدة الشهاب اللبنانية فى عددها الصادر فى ١٧-٢-٨٨ هـ . .

قال الأستاذ شعبان :

(... إن للقضية – قضية الواقع السىء الذى تعانيه المؤسسات الإسلامية

بلبنان — وجها آخر . . ألا وهو المستوى الذى بلغته الإدارة الوقفية ، التى تتعمد استبعاد الأكفاء ، الأمر الذى حمل أكثرهم على الجنوح حفاظا على لقمة العيش ، مع إيمانهم بمخالفة ذلك لأوامر الله ، وشعورهم بالإثم من انجرافهم تحت الضغوط . . فقد مارس الموظفون فى هذه الدائرة ذلك على أعين الملأ . . ففى كل مناسبة تقدم فيها الأكفاء كانوا يجدون الإدارة هى العقبة الكئود والخصم اللدود لكل إصلاح ، وكنا نراهم يمارسون بأشخاصهم عملية الدفاع عن أوضاع فاسدة ، ليحافظوا على الأجواء التى ألفوا العيش فى مناخها ، ثم يشنون هجوما معاكسا على كل جبهة تنوى الإصلاح وتسعى لتحقيقه . . كنا نرى الضغوط على العلماء الذين لهم حق اختيار الأشخاص للمجالس الوقفية والشرعية تتجلى تارة بتهديدهم فى وظائفهم ، وطورا بالوعود والعروض الرخيصة المبتذلة . . ولقد أخبرنى بعضهم أنه كان يغرى بما لا مجال لذكره ! ! . . وآخر يهدد بالكشف عن شخصه من خلال خطه على ورقة الاقتراع إن هو خالف ما رسم له . . مما تأباه المروءة ويترفع عنه الرجال . . . ولو أنهم تتاح لهم فرص آمنة لنطقت أفواههم بالعجائب ، ولكن الجو المفروض عليهم يحول دون تجرئهم على أن ينبس أحدهم بكلمة ! . .) . .

* * *

إلى المسجد :

إنه لواقع رهيب هذا الذى تصوره كلمة الأستاذ شعبان . . ولكنه ليس بغريب على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

لقد ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، وأوشكت الحياة أن تمسى مباءة أدواء لا علاج لها ، وفى مثل هذه الظلمات يفتقد البدر ، وتتلهف العيون إلى النور . . وقد تساوت الأقطار الإسلامية كلها فى أنها جربت الابتعاد عن مثل الإسلام مختارة أو مضطرة ، فثبت لها جميعاً أن ليس فى مدنية الغرب ما يعوض خسارتها الروحية ، لذلك وجدت نفسها مضطرة إلى استعمال الكابح فى منزلقها الخطر ، فهى اليوم تحاول

الاستمساك ببعض أسباب الإسلام الذى لا نجاة إلا به ؛ وها هو ذا نذير تركى مخلص ، يصرخ فى مجلة (صوت الإسلام) : « إن القواعد الاجتماعية والأخلاقية للجهاز السياسي قد دمرت فى دور من المحنة العنيفة ، أفقد الشيوخ الاحترام ، ففقد الشباب الطاعة ، ومستوى المعاملات قد انحط كثيرا ، ونشبت الفوضى فى الحياة الاجتماعية ، والأمل الوحيد هو العودة إلى الدين »[1].

فلنتعظ بتجربة تركية الخاسرة ، ولنجدد حياة أمتنا بردها إلى المسجد ، فإذا أعوزتنا الوسائل التى تقنع الناس بالعودة إليه ، فلا بد من أن نحمل إليهم روحه فى كل شيء ، وبخاصة عن طريق المدرسة ، التى آن لها أن تثوب إلى رشدها ، فتستعيد منزلتها العليا أيام كانت تتنفس برئتيه ، فتحمل من جوه الروح الذى يجعل المعرفة طريق الإنسان إلى الحق والحرية والخير..

لذلك كله كان المسجد هو البرزخ الذى يجب الاحتفاظ به فوق مستوى الأهواء والمكاسب العابرة . . ليكون دائماً وأبداً صالحا للإنقاذ . وقد روى عن المسيح (عليه السلام) تشبيهه دعاة الحق بالملح الذى يصلح الطعام .. فإن هو قد فسد لم يكن هناك أمل بأى إصلاح . وها نحن أولاء نرى إلى الملح يوشك أن يفسد ، أو يفقد قدرته على الإصلاح ، فلنحاول أن نتدارك الأمر رحمة بأنفسنا ووطننا وأجيالنا القادمة . .

إننا ندعو للعودة بالمسجد إلى مهمته التى أرادها الإسلام ، وبعض الوسائل الموصلة إلى ذلك أن نطهر محاريبه ومنابره من الصعاليك ، الذين صاروا بالمسجد إلى الشقاء ، الذى وصفه أمير الشعراء حين تنفس صدره بهذا البكاء :

مررت بالمسجد المحزون أسأله : هل فى المصلى أو المحراب مروان !
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان فى منائره إذا تعالى ، ولا الآذان آذان !!

---

(١) (الإسلام بنظر الغرب) ص ٨٧ . . .

والحديث عن المسجد يجر إلى الحديث عما يسمى اليوم بالمراكز الإسلامية وبخاصة فى أوروبا وأمريكا ، ذلك لأنها ضرب من المساجد ذات المرافق الثقافية ، التى فى وسعها – لو أحسن توجيهها وإدارتها ، أن تستعيد ماضى المسجد ، أيام كان منطلق الحياة الإسلامية كلها . .

إن الإسلام يخوض فى هذا العصر أعظم معاركه طرا ، معركة الدفاع عن البقاء . والدفاع عن المثل ، والدفاع عن الأرض ، والصمود فى وجه التيارات السامة الوافدة من الغرب الصهيونى ، ومن الشرق الملحد على السواء .. وفى كنف هذا الواقع الرهيب لابد من استعمال الوسائل المشروعة كلها لإفساد خطط الغزاة رجالا أو أفكارا . وإقامة مراكز لهذه الغاية فى قلب الغرب والشرق من أهم هذه الوسائل . ولا شك أننا قد سجلنا بعض النجاح حتى الآن فى مضمار الشكل ، فهناك مراكز فخمة فى الولايات المتحدة وأوروبا إلى حد معقول . ولكن نظرة فاحصة إلى المضمون تكشف لنا حقيقة مؤسفة ، وهى أن فى هذه المراكز كل شىء من ألوان الدعاية السياسية إلى ألوان الترفيه ، إلى حسن استقبال الراغبين فى الاطلاع على أشياء من حياة الشرق ، ونحو ذلك . . أما عرض الإسلام ، والدعوة إليه ، وتعهد أبناء الجاليات الإسلامية بما يحفظ لهم دينهم فى تلك الأوساط ، التى لا تتصل بالمعانى الإسلامية من قريب أو بعيد ، فذلك آخر ما يخطر فى بال القائمين على معظمها . . وليس هذا بالأمر الغريب ، ما دام هؤلاء إنما يمثلون (التيارات التقدمية) فى بلادهم ، فلا يهمهم من أمر الإسلام إلا ما كان ذا نفع مباشر لهذه الغاية الأولى . .

ولقد حدثنى بالأمس طبيب عربى كان عائدا لتوه من الغرب . . فقال : قصدت إلى المركز الإسلامى فى ... يحدونى شوق حار لسماع الأذان والانتظام فى صفوف الجماعة ، وما أن بلغته حتى فوجئت بأبوابه مغلقة وثلاثة من مستخدميه على مقربة منه ، فسلمت وسألت : أليس هذا وقت صلاة

العصر ؟ . . قالوا : بلى . قلت : فعلام لا أسمع أذانا ولا أرى صلاة ؟ » .
فقال كبيرهم : لأننا لا نفتح المسجد إلا أيام الجمعة والعيدين . .

وراح المستخدم يعلل ذلك بقوله : إن افتتاح المسجد فى سائر اليوم يكلف جهودا ومصروفات . . هذا إلى قلة الراغبين فى صلوات الجماعة . » قلت : الجماعة تنعقد باثنين فأكثر ، وأنتم ثلاثة فلم لا تقيمونها بكم على الأقل ؟ . ثم قلت : ألا تفتحون المسجد لأحد خلال الأسبوع ؟ . فأجاب : بلى نفتحه للراغبين فى مشاهدة داخله . . قلت : فاسمحوا لى إذن بذلك .

وفتح المسجد ودخلت ، ولم أتردد فأقمت الصلاة بنفسى وحيدا ، وهم ينظرون ويستغربون لأنى خالفت شرطهم .

قال الطبيب : وأغرب من هذا ما لقيت فى . . . . إذ كنت أقضى فترة تخصصى فى بلد بعيد عن المركز الإسلامى فجئته ذات يوم لاستطلاع أحواله وللنظر فيما يمكن أن نفيده منه ، فوجدته مفتوحا ، وكان المسئول الكبير وهو من حملة الدكتوراه فى الدراسات الشرعية غائبا ، فانتظرت حتى عاد ، وهناك قلت : لابد أنكم تقومون بجهد مشكور فى ميدان الدعوة إلى الإسلام وتعريفه والدفاع عنه . . فارتبك الرجل ولم أظفر منه بجواب شاف ، فقلت : نحن فى شهر رمضان ، وهو موسم العبادة والقرآن ، فلو أنكم خصصتم بعض الوقت من كل يوم لتفسير بعض الآيات أو الأحاديث لوجدتم إقبالا من الطلاب المسلمين ، ولكان فى ذلك خير كثير . فقال : ولكن أوقاتنا فيما قبل الظهر مشغولة كلها بين حاجات البيت واستقبال الزوار وإعداد الشاى . . وما بعد الظهر فهو وقت راحة لا مكان فيه لغيرها ! . . » .

وما أرانى بحاجة للتعليق على هذه الطرائف ، فهى بنفسها ناطقة بواقع تلك المراكز ، التى لا تختلف عن أية دائرة حكومية فى الدولة التى تسيطر عليها عن طريق هؤلاء الممثلين الأفاضل ! . .

ولقد حدثنى هذا الطبيب النسيب أيضاً بأن اتفاقا تم بين الحكومة الإنجليزية والحكومة المصرية ذات يوم على أن تمنح كل منهما الأخرى

أرضا صالحة لإقامة معبد عليها ، فأما الأرض المصرية فقد ارتفعت عليها الكنيسة المنشودة فى أقصر وقت ممكن . . فى حين بقيت الأرض الإنجليزية خاوية على عروشها . . تنتظر حجر الأساس للمسجد المتفق عليه ! . .

وطبيعى أن لمثل هذا التصرف الرسمى إيحاءه العميق فى نفوس الممثلين الرسميين ، الذين لا يكلفهم أحد أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك .

* * *

المفتريات والملحقون الثقافيــون :

وذات يوم تلقيت رسالة من أحد الطلاب العرب فى أسبانيا ، فيها المقيم المقعد عن أحوال المسلمين هناك ، وانقسام الطلاب بين مختلف التيارات غير الإسلامية ، وما تلقاه العناصر الإسلامية من إيذائهم ومشاكساتهم ومن وراءهم من الممثلين الدبلوماسيين . وكان مما حملته تلك الرسالة إشارة إلى كتب تدرس للطلاب الأسبان ، وهى مشحونة بالطعن على الإسلام والافتراء على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .. مما لا يتعذر إبطاله على أى مسلم ذى ثقافة متوسطة ، ومع ذلك فإن تلك الأباطيل تمضى فى طريقها إلى عقول الأجيال الأسبانية فتملؤها حقداً وبغضا للإسلام وأهله ، دون أن تجد من مسئول مسلم أى ملاحظة أو اعتراض . . ونحن مضطرون إلى تحميل أولئك المسئولين واجب الرد والاعتراض على أشباه تلك المفتريات ، لأن مثل هذه الكتب الرسمية فى مدارس الدولة الأسبانية لا سبيل إلى تغيير شىء منها إلا عن طريق الدول الإسلامية ، التى بوسعها إحداث محاورات مع رجال الخارجية الأسبانية لإقناعهم بسحب هذه الأضاليل من الكتب . . وفى اعتقادى أن الحكومة الأسبانية التى تحتفظ حتى الآن بعلاقات طيبة مع العرب ، وتأبى من أجلهم الاعتراف بإسرائيل ، وتقيم الاحتفالات بذكرى عظماء العرب الأندلسيين بين الحين والحين ، فلن تتردد فى تصحيح الوضع لو أحست من العرب والمسلمين أى اهتمام بهذا الموضوع .

والمسلم الحق الذى يبلغ سمعه مثل هذه الوقائع المؤسفة لا يسعه إلا أن يتساءل فى غصة محرقة : ما مهمة الملحقين الثقافيين فى السفارات الإسلامية

لدى الدول الأجنبية ، إذا هي لم تسمع بهذه المفتريات ، أو لم تبذل جهداً في فضحها بالحجة ، والعمل على تغييرها بالطرق الدبلوماسية .

بل إن من حق كل مسلم أن يطلق مثل هذا التساؤل ، لأن منطق الإسلام يقضي أن تكون مهمة الملحق الثقافي المسلم بالدرجة الأولى استخدام كل وسيلة ممكنة ومفيدة للدعوة إلى الإسلام ونشر محاسنه ورد فرى أعدائه . . ثم رعاية شئون الطلبة المسلمين باستخدام الوسائل الممكنة ، لحمايتهم من المفاسد الخلقية والانحرافات المسلكية ، حتى يتوافر لهم الجو الصالح الذي يجعل منهم أعضاء صالحين لمجتمعهم ، الذي سيتولون شئونه بعد التخرج . .

أجل تلك هي مهمة الملحق الثقافي المسلم في البلد الأجنبي بالدرجة الأولى كما يحددها منطق الإسلام ، الذي يجعل الدعوة إلى الله وظيفة كل مسلم أيا كان ، فكيف إذا كان المسلم ملحقا ثقافيا ؟! . .

ولكن . . كم هم الملحقون الصالحون الذين يعملون بمنطق الإسلام . . وبالتالي أين هم من هذه المآسي التي يعانيها الإسلام تحت سمعهم وبصرهم ؟ . .

الواقع — ويا للأسف — أن معظم هؤلاء الملحقين غير مزودين أولا بالفهم السليم لحقائق الإسلام ، ثم هم بالتالي موجهون في غير هذا الطريق ، وبخاصة في ظل الحكومات (التقدمية) التي لا ترى أخطر على وجودها من بقاء الفكر الإسلامي في موضع القوة . .

وطبيعي أن (المركز الإسلامي) الذي يسيطر عليه مثل أولئك الملحقين لا يستطيع تقديم أية خدمة سلبية أو إيجابية لهذا الدين .

ومن هنا كان العمل الإسلامي في العالم الغربي ضمن نطاق الطلاب الإسلاميين وحدهم — وقليل من الدبلوماسيين الطيبين — فهم بإمكاناتهم المحدودة ، وإخلاصهم غير المحدود لرسالة الإسلام ، يقدمون أكبر الخدمات لأوطانهم وشعوبهم ولقضايا المسلمين في أنحاء العالم . . وذلك على الرغم

من كل المثبطات ، التى لا نبالغ إذا قلنا أن معظمها يأتيهم من قبل تلك المؤسسات الدبلوماسية ، التى تمثل أنظمة الحكم غير الإسلامية فى ديارهم . .

وما دمنا فى صدد الكلام عن المؤسسات الإسلامية الثقافية خارج العالم الإسلامى ، فلا ينبغى أن نغفل موضوع البعثات الثقافية التى يشرف عليها أولئك الملحقون . .

إن قضية البعثات هذه ذات وجوه متعددة ، كلها خطير وجليـــل ، والذى يهمنا من هذه الوجوه هنا هو الجانب الخاص بالاتفاقات الثقافية التى تعقد بين الدول الإسلامية والدول الأجنبية . .

أول ما يلاحظ على هذه الاتفاقات أنها قائمة على ادعاء تقارض الخبرات ، وتبادل المنافع العلمية فى نطاق الدراسة . . ومن هذا الباب تدخل الشيوعية (التقدمية) ملفوفة بأدمغة الشباب ، الذى كان ولا زال محسوبا على الإسلام . ولا حاجة إلى التذكير بالفواجع التى فجرها هؤلاء فى ديارهم وشعوبهم ، فهى مما لا يستطاع إنكاره ولا تحديده .. وعن طريق هذه الصادرات الحمراء تؤدى الدول (الصديقة) واجبها المتفق عليه على أتم الوجوه . . ويبقى أن نتساءل : ما الذى قدمنا نحن إلى هؤلاء من الخبرات التى تعهدنا بها مقابل ذلك ! . .

وطبيعى أننا لا نملك أسرارا جديدة من علوم الذرة أو الفضـــاء أو الكيمياء فنتحفهم بها .. وليس فى مدارسنا ولا جامعاتنا ما هم فى حاجة إليه فننفح به مبتعثيهم إلينا ، اللهم إلا أن نمكنهم من دراسة لغتنا لنعطيهم الوسيلة الناجعة لنشر تعاليمهم المدمرة لوجودنا فى أوساط جماهيرنا ، التى كانت فى شبه منجاة من تلك الشرور قبل ذلك . .

ولا غرو ولا عجب فنحن ــ كلنا ــ من الشعوب التى تحتل رأس القائمة بين المتخلفين فى علوم المادة جميعها . ولا فخر ! . . فماذا إذن نكافئ أولئك المحسنين على أفضالهم (التقدمية) ؟! . .

لو كنا جادين فى تصرفاتنا حقاً لقلنا : إننا أمة خسرت زمام المبادرة

فى كل ميدان ، فليس لدينا ما نقدمه للبشرية ، اللهم إلا رسالتها الإلهية التى أعرضت عنها فجنت بذلك على نفسها وعلى الإنسانية كلها . .

أجل . . إن لدينا مفاتيح الحلول التى تتطلبها مشكلات الجنس البشرى فى ميدان العقيدة والأخلاق والمثل ، التى لا سبيل إلى السلام الفردى والأمن الجماعى إلا بها وعن طريقها . .

إن لدينا الإسلام . . فهل يسمح لنا هؤلاء (الاصدقاء الألداء) بإقامة مراكز لعرضه على شعوبهم ، وتفنيد ما حاكوه من مفتريات شيطانية عليه ؟! . .

لقد فتحت الأنظمة (التقدمية) أبواب بلادنا على مصراعيها للماركسية واللينينية والستالينية والمـادية والهوشية والجيفارية والكاسترية و . . وما لا نحصى من بلية ورزية . . فهل يأذن لنا أصحاب هذه العقائد — التى ملأت الكرة الأرضية أشلاء ورعباً ودماً — أن نقتحم أسوار بلادهم لنملأها حباً وصلاحاً وسلاماً ! . .

وإنه لسؤال لا نتطلب جوابا عليه . . لأن جوابه مشهود فى واقعنا ، محسوس فى ضمائرنا . . . كل شىء ينطق به ويشير إليه . .

فهؤلاء (الأصدقاء الألداء) مستعدون لأن ينسفوا كل اتفاق بيننا وبينهم ، بمجرد أن نعرض عليهم فكرة عرض الإسلام فى بلادهم . . وهم معذورون فى ذلك لأن وجودهم كله قائم على إنكار الدين ، والعمل على استئصال جذوره ، من كل ضمير يستطيعون الاتصال به أو السيطرة عليه ، وبخاصة فى أوساط المسلمين الرازحين تحت حكمهم ، والذين أصبحوا تحت مطارق الإرهاب الأحمر فى آخر مراحل التصفية .

ونحن من جانبنا قد تخلينا — حكوميا — عن رسالة الإسلام فلا مكان فى تفكير حكامنا (التقدميين) لمثل هذه (الرجعية) المرعبة ! . .

أجل . . لقد نسينا الله فأنسانا أنفسنا ، وكان من ذلك أن انقلبت في أعيننا المقاييس ، فسمينا التهديم تقدمية ، والهداية رجعية ، وسرت عدوى هذه (الانقلابية) إلى المسجد والمركز والسياسة فإذا نحن ضائعون لا نكاد نعرف إلى أين سائرون . .

إلى كلمةٍ سَوَاء



لغـــة ودين :

الدين في اللغة « الجزاء والمكافأة » ويوم الدين هو يوم الجزاء ، وفى القرآن الكريم (**ذلك الدين القيم .. ٣٠ – ٣٠**) أى النظام المستقيم القائم على حساب كل شيء . . وفى الحديث الشريف « الكيس من دان نفسه[1] » . أى حاسبها وضبطها . وقوله تعالى : « **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ١٢ – ٧٦** » يعنى نظام الملك وقانونه ، وكذلك قوله تعالى « **فلولا إن كنتم غير مدينين ..** » أى محكومين خاضعين لتدبير الله وحكمه . . ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم :

وأيـــام لنـــا غـــر طـــوال   عصينا الملك فيهـــا أن ندينـــا

يريد أنهم امتنعوا عن طاعة الملوك . . فيكون الدين هنا بمعنى الخضوع . وقد أخذ اسم المدينة من هذا المعنى ، لأن فى المدينة الحكم والقضاء ، وفيها خضوع الناس للقوانين . ومن أسماء الله « الديان » لأنه القاهر فوق عباده . . والمدبر أمورهم وسائسهم . . ويتصل بذلك (التدوين والديوان) إذ فيهما معنى الحساب والتسجيل وضبط الأمور ، وكذلك الدين (بفتح الدال) لأن فيه التزام المدين بالأداء . أما قول الشاعر الآخر (أذلك دينه أبداً وديني !) فهو يريد دأبه ودأبي . . وينطوى ذلك على معنى التكرار أو الاستمرار الذى يصبح به العمل نوعا من العادة التى لا تخلو من معنى الخضوع أيضا .

من هذا كله نحصل على تحديد واضح لمعنى (الدين) فى الأصل اللغوى ، فنراه لا يخرج عن مفهوم الحساب والجزاء والطاعة والمتابعة المستمرة . فإذا نظرنا إليه فى المفهوم الإسلامى علمنا أنه ذو صلة وثيقة بهذه المعانى ، فالدين فى الإسلام هو « النظام الإلهى الذى يحدد للإنسان معالم الســـلوك

---

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن شداد بن أوس . وصححه السيوطى فى الجامع الصغير .

فى حياة مؤقتة ، هى معبر إلى مقر ثابت وحياة لا تنتهى ، وهو إذ يفعل ذلك يريه وسائل النجاة كجسور ممتدة فوق أودية تطفح بالسيول . . السيول التى تملأ الأرض خصبا ونورا وقوة ، إذا أحسن استعمال طاقاته فى تنظيم مجاريها وسدودها ، ولكنها تفعم الكون كله شراً ودماراً إذا هو أهملها أو أساء تصريفها .

ثم يذكره دائماً وأبداً أنه محاسب على ما كسبت يداه ، فعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يأتى موعد ذلك الحساب ، ليكون مستعدا أبداً للمثول أمام الحسيب الذى لا تفوته صغيرة ولا كبيرة .

وهكذا نعلم أن معنى المحاسبة ملازم لمفهوم الدين لا ينفصل عنه . . محاسبة الإنسان لنفسه ، ومحاسبة المجتمع المؤمن لأفراده ، ثم المحاسبة الأخيرة الشاملة « **يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ٢٦ — ٨٩** » وهى محاسبة تأخذ صفة الاستمرار الثابت وتتسم بطابع الخضوع المطلق .

ولا جرم أن الدين بمفهومه هذا يؤلف نظاما عمليا دقيقا يلازم النفس ، فهى أبدا فى مراقبة واعية لكل حركاتها وسكناتها ، مملوءة الشعور بالمسئولية ، لا تسمح لغرائزها أن تشتط إلى ما وراء الحدود المشروعة المعقولة . وبهذه المراقبة وبهذا الشعور الواعى بالمسئولية تتحول أعمال النفس جميعها عبادة خالصة ، ثم تصبح الأرض على سعتها معبداً لا تحده الجدران ولا يحتاج إلى كاهن ، إذ يكون الضمير الممتلىء بالروح هو الضابط الذى يعين حركات الفرد . وبذلك تكون العبادة فى الدين على ضربين : عبادة مقننة كالصلاة والصوم والحج وما إلى ذلك من الفرائض المكتوبة . وعبادة دائمة لا يستثنى منها عمل . فالمؤمن فى مزرعته عابد لأنه يعمل وفق النظام الربانى الذى سخر له الأرض ليتعاون مع إخوانه على استثمارها ، وهو فى مصنعه عابد لأنه قائم بقسطه من التعاون على توفير حاجة إخوانه ، وهو فى متجره عابد لأنه يؤمن لإخوانه حاجاتهم من إنتاج المصنع والمزرعة ، كى يوفر لهم الفرص الكافية لتحقيق مهامهم المختلفة فى خدمة المجموع : وهو كموظف — رئيسا للدولة أو كناسا للشوارع — فى عبادة دائمة ،

لأنه قائم بحراسة العدالة وإنجاز المصالح ، وتيسير سبل الخير لإخوانه الكادحين فى مملكة الله . . ثم لا يكون فى الأرض عمل صالح إلا وهو لون من العبادة التى يرفعها الله .

هذا المفهوم الشامل لموضوع الدين ، هو الذى يفترض تحقيقه فى نفس كل مسلم ، حتى أجهل المسلمين بأحكام دينه مادام هذا المسلم معنيا بأمره ، يعيش فى جو الجماعة الإسلامية . . والأمر الطبيعى جداً فى المسلم أن تراه أبداً يحكم على هذا الشىء بكونه حلالا ، وعلى ذاك بكونه حراماً ، وعلى الآخر بأنه مباح أو مكروه ، فتستيقن أن الدين فى الوسط الإسلامى كالماء بالنسبة إلى السمك ، حتى إنك لترى العصاة أنفسهم يقرون بسوء ما يعملون ، فالواحد من هؤلاء يقترف الإثم وهو خائف من الحساب ، ويترقب الفرص للمتاب ، دون أن يشعر بأن استمراره على المعصية من شأنه أن يضعف فى نفسه عزيمة التوبة حتى يتعذر عليه أخيراً تداركها ويفوت عليه فرصها . .

والآن وعلى ضوء هذا المخطط البيانى لحقيقة الدين يسعنا أن نتساءل إلى أى مدى يتحقق هذا المفهوم لدى غير المسلمين ؟؟ . . وبوجه خاص لدى المسيحيين ؟

ونحن مضطرون إلى البحث عن المسيحية فى حضارة الغرب لسبب بسيط : أن الغرب هو الذى يسيطر حتى اليوم شئنا أو أبينا على زمام التوجيه فى معظم الأرض ، بعد أن تخلى المسلمون عن مهمتهم فى قيادة العالم . وعندما نتعرف مفهوم الدين فى الغرب ، إنما نتعرف بذلك المصدر الذى جاءتنا منه تلك الانحرافات الجديدة فى مدارك الكثيرين من أبنائنا لهذا الموضوع .

* * *

المسيحية فى الغــرب :

المفهوم العام للدين لدى الغربيين أنه إحدى الحاجات النفسية ، ينال منها الفرد كما ينال من أى شىء .. فهو إذا جاع تلمس السبيل إلى الطعام ،

وإذا ظمئ مد يده إلى الخمر . وإذا أحس الهياج الجنسى عمد إلى إروائه من أى طريق ! . هكذا تماما يأخذ طريقه إلى الكنيسة يوم الأحد ، لأنه اعتاد أن يسلك هذا الطريق فى مثل ذلك اليوم ، ولعل أحسن مثل لهذا الواقع ما كتبه أحد أدباء أمريكا عن حياة لندن إذ يقول : (إن لندن تعبد بنك انجلترا ستة أيام فى الأسبوع ، فإذا جاء اليوم السابع ذهبت إلى الكنيسة) . .

والكنيسة فى هذا المفهوم لا تختلف عن السينما . . ذلك المعبد الذى استولى على قياد الجماهير فهى زاحفة إليه صباح مساء . . منه تتلقى التوجيه العقلى ومن كهنته ، المؤلفين والممثلين والمخرجين ، يستمد الجميع غذاءهم اليومى الذى يحدد سلوكهم فى نواحى الحياة جميعا . وليست الكنيسة بالنسبة إلى السينما والمسرح والمرقص والمسبح والمشرب ، سوى واحد من عوامل التربية الاجتماعية العامة ، ولكنه بالتأكيد أضعف الجميع تأثيرا فى حياة الأفراد والجماعات الغربية . وإنك لتسمع ممثليهم السياسيين وكتابهم الاجتماعيين يلحون أبداً على تطوير سوية المعيشة تبعاً لتطور المدنية ، ولكنك قلما تسمع صوتا واحدا يدعو إلى رفع مكانة الأخلاق إلى مثل ذلك المستوى ، لأن الحياة فى مفهومهم إنما هى هذا الطعام وتلك المرفهات الجسدية ولا شىء وراءها .

وطبيعى أن عقلية كهذه لا تتسع لمقاييس الإسلام فى تعريف الدين ، ومن هنا جاءت انعزالية المسيحية فى الغرب عن سائر شئون الحياة . . وأصبح مألوفا أن تسمع بين دعاة الإيمان هناك من يقول — مثل ديل كارينجى : « لا مندوحة من الفصل بين العلم والدين ، فالعقل للعلم الذى لا يفهم إلا الحقائق المادية ، والدين للقلب والعواطف التى لها عالمها المستقل . . فلنطلب المعرفة عن طريق العقل ، ولنلتمس الراحة النفسية فى ظلال الدين » . وما أظنك تشك فى أن حقيقة هذا الفصل بين العقل والقلب هي الخطر الأكبر على الدين ، لأنه يصوره فى خلد الناس مجموعة من الأوهام الناعمة ، أشبه شىء بأخيلة الحشاشين ومدخنى الأفيون ! هذا فضلا عن أنه يقسم النفس

الإنسانية فيجعلها مناطق متنازعة، بعضها للنشاط والبحث ، وبعضها للكسل والاستسلام الأعمى . وبذلك يصبح كل واجب الفرد نحو دينه أن يحمل هويته دون أن يترتب عليه أى واجب نحوه ! . . وفى ظل مثل هذا المفهوم العجيب للمعانى الدينية لا يدهشك أن تقرأ هذا الخبر العجيب الغريب عن امرأة أمريكية تملك بيتا للدعارة ، فتقدم طلبا إلى الوزارة المختصة تقول فيه : « إنها أدارت هذا البيت بمنتهى الاستقامة وفقا لتقاليدها الدينية طوال خمسين سنة ، وهى اليوم تلتمس نقل ملكيته إلى ابنتها ، التى هى على ثقة أنها ستديره بمثل تلك الاستقامة ! . . »

ولقد حدثنى أخ كان يتابع الدراسة فى إحدى جامعات فرنسا ، أنه تعرف هناك رجلا جعل يرافقه فى مختلف المناسبات ، حتى بات طبيعيا أن يعرض وإياه للأمور الدينية ، فلما سأله ذات مرة أن يوضح له سبب التناقض بين ما يتعلمون وبين ما يدينون . . انتفض الزميل الفرنسى « التقى » ، ثم سأله بلهجة « العجب البالغ » : ألست كاثوليكيا . . ! ومعنى ذلك أن مجرد كونك كاثوليكيا يفرض عليك أن تصرف ذهنك عن كل سؤال من هـــذا النوع ! . .

وكشأننا فى محاكاة الغربيين تلقينا بالتسليم هذا النوع من الفصل المضحك بين القلب والعقل ، فاذا معظم الشباب الجديد ، مسلمين ومسيحيين فى هذا الشرق ، ينظر إلى القرآن والكتب المقدسة من وراء هذه النظارة المستعارة .

وما أحسب القارئ قد نسى ما حدثته به فى فصل مضى عن ذلك الأستاذ المسلم الذى أدهشه أن يجدنى مؤمنا بالقرآن كله ! .

والآن أرجو أن يضم إلى علمه طرفة أخرى أنقلها إليه عن زميل من المعلمين الذين حضروا إحدى المؤتمرات التعليمية فى الإسكندرية . فقد تعرف هذا الزميل هناك معلمة شملته بجميل الإيناس ، وعرف من أمرها أنها عاملة على إعداد جواز للسفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . . حتى

إذا جاء يوم العطلة الأسبوعية ذهبت به إلى الشاطئ السعيد ، وهناك سألته عما إذا كان يحسن السباحة . فاعترف بعجزه المخجل . ولكنها – وما أكرمها ! – أبت إلا أن تتم فضيلة الضيافة فإذا هى تعرض عليه أن ينزل معها إلى المساء لتعلمه السباحة !

وأنت تستطيع أن تقارن بين هذه (الحاجة السابحة) وبين هاتيك القوادة الأمريكية المستقيمة . . وبقليل من الاستقراء ستدرك وحدة المقياس فى العقليتين ، اللتين لا تريان أية صعوبة فى الجمع بين الخيال الدينى والواقع الملوث ! . .

وبديهى أنه مقياس لم يأت من هذا الشرق ، وإنما ولد فى أحضان الوثنيات اليونانية البعيدة ، ثم مضى فى امتداده هنا وهناك حتى انتهى إلى واقعنا الشرقى على ما نراه ! . .

* * *

الإسلام والعلم

وهنا أذكر كلمة زميل مسيحى ، أدهشه أن يرانى منكرا لفكرة الغربيين فى هذا الفصل بين العقل والدين ، فقال : وما شأن الدين بالعلم ؟ وهما متوازيان لا يلتقيان ! . قلت إن الدين الذى يتنكر لحقائق العلم يحكم على نفسه بالموت ، إذ يبرهن بذلك على زيفه وأنه ليس من وحى الله .

– حسنا إن القرآن يقول بانبساط الأرض ، وقد أثبت العلم كرويتها .

– جهلة القرآن هم الذين قالوا بانبساط الأرض . . أما القرآن فقد حقق كرويتها منذ أن أنزل الله فيها قوله : **(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ٣٩–٥)** ولو رجعت إلى بحوث علماء الإسلام فى عصور الحضارة الإسلامية لرأيت شبه إجماع منهم على ذلك .

– ولكن بعض المفسرين لا يقرون ما تريد من التكوير . .

– إن التكوير هو التكوير أقروا أم لم يقروا . ولكن المهم أن تعلم يا صديقى أن المسلم إنما يستمد من كتاب الله وما صح من سنة رسوله غير

ملزم بما يقوله أى فقيه . . لأن الناس بشر يصيبون ويخطئون . وقد رأينا عالما كبيرا من المحدثين ـ قبل نصف قرن ـ يقول بعدم إمكان الطيران ويعتبر جهود علماء أوربا فى هذا المضمار عبثا لأنه يقرأ فى القرآن : **« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان ٥٥ـ٣٣ »** .ثم ها هو ذا الإنسان يطير قاطعاً الفضاء بأسرع من الصوت ، ثم ها هو ذا يطلق أجرامه الصناعية محملة بالأحياء إلى ما وراء جو الأرض . . فلو أخذنا برأيك فى إلزام القرآن تبعة أخطاء المفسرين لكان علينا أن نكفر بالقرآن ، أو نسلم على العمياء زاعمين ألا علاقة للعلم بالدين ! . .

ـ ولكن الآية صريحة بنفى القدرة على الطيران وإمكانه . . فالعالم ليس هو المخطئ . .

ـ بل هو المخطئ .. لأنه لم ينظر إلى الآية من خلال نظمها ومدلولاتها اللغوية ، وإنما أطل عليها من كوة الآراء التى قرأها وسمعها . فالآية لا تنفى إمكان الطيران وإنما نفت إمكان النفاذ من أقطار السموات والأرض دون سلطان . وإذا علمت بأن من معانى السلطان القوة والحجة والبرهان علمت بالضرورة أن الأمر متوقف على حصول الوسيلة المحققة لهذا النفاذ ، فهو إذن تنبيه ربانى صريح بأن نفاذ الإنسان من جو الأرض إلى الجواء الفلكية الأخرى أو بعضها ممكن عندما يستكمل كشف القوانين التى تفتح له الطريق[1] بخلاف النفاذ من أقطار السموات والأرض جميعاً الذى سيبقى فى حيز المستحيلات . .

ـ حقاً إنه لتخريج معقول . . ولكن لم لم يقل به المفسرون ؟! .

ـ لأن المفسرين كغيرهم من الناس مقيدون بمفاهيم بيئاتهم ، فلا يستطيعون التفكير بالشىء قبل توافر ظروفه ، ومن الطبيعى جداً أن يقف

---

(١) ذهب المفسرون لهذه الآيات مذاهب شتى ، ورجح بعضهم ربط أحداثها بيوم القيامة . . ولكنهم لم يستندوا فى ذلك على أثر حاسم ،فظل الموضوع ضمن حدود الاجتهاد . . وبذلك يبقى باب الاجتهاد فى فهمها مفتوحا على ضوء الكشوف العلمية . وسيأتى كلام عن ذلك فى آخر الفصل .

العقل — وهو القوة المحدودة — عاجزاً عن الإحاطة بمعانى القرآن غير المحدودة ، وإنما يتقدم المفسرون فى الكشوف القرآنية على مقدار تقدم العقول فى كشوفها العلمية **(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ١٨—١٠٩ . .) . .**

— طيب . . لقد بدأ الإنسان يفكر بغزو الكواكب ، وقد سمعت أمس حديثاً عن المريخ يؤكد أن شروط الحياة متوفرة فيه إلى حد . .. فيمكن والحالة هذه أن يكون عليه نوع أى نوع من المخلوقات الحية . بل إن عالما أمريكيا يؤكد أنه قد تبين من خلال مرصده كثيرا من الأقنية الهائلة تخترق المريخ من القطبين إلى الوسط ، فتوقع أن يكون ثمة ضرب من النشاط العقلى فى سكان ذلك الكوكب أكبر من كل ما عرفه البشر على الأرض . فهل تجد فى القرآن ما يسوغ هذا النوع من التفكير ؟

— لم أزعم قط أن القرآن كتاب جغرافية أو فلك ليتولى تفصيل كل شىء من هذه الظواهر . . . ومع ذلك فإننا نقرأ فيه مثل هذه الإشارة التى لم تقل فيها الكلمة الأخيرة حتى الساعة : **(ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) ٤٢—٢٩** فأنت ترى أن ثمة إخباراً صريحاً بوجود دواب فى كل من السموات[1] والأرض ، وأن من الميسور جمع هؤلاء بهؤلاء . وقد أطلق الله فى القرآن اسم الدابة على كل حى إذ قال : **(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع . . » ٢٤—٤٥ .**

وأنا أعرض لك هذه الإشارات القرآنية دون أن أعطيها تفسيراً قاطعاً ، وكل ما أريده هو أن أذكرك بأن الإسلام لا يؤمن بخرافة الفصل بين العلم والإيمان ، بل إنه على الضد من ذلك يلهب كوامن النشاط الإنسانى للتفكير

---

(١) من معانى السماء فى الذكر الحكيم السحاب والسقف . وكل ما علاك فهو سماء . وسيأتى تفصيل ذلك .

فى آفاق السموات والأرض . . حتى ليقطع بأن تقدير الخالق موقوف على عقول العلماء وحدهم :« **إنما يخشى الله من عباده العلماء » ٣٥–٣٨ ..**

ولا عجب فبالإسلام « حررت الروح من الهوى ، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التى طالما أبقته موثقاً إلى إرادة ناس آخرين ، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية . فهوى الكهان وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون ، وسماسرة الخلاص ، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان . . لأن الإنسان بالإسلام أمسى خادم الله وحده[1] » .

* * *

الدين والكنيسة

ومن العقائد الأساسية لدى كل مسيحى أن رجال الكنيسة هم الممثلون لسلطة التشريع فى كل ما يتصل بموضوع الدين . وقد أدى ذلك مع الأيام إلى أن تصبح مقررات هؤلاء الرجال هى المصدر الرئيسى ، إذا لم نقل الوحيد للمسيحية ! . وبذلك صار الإنجيل رمزا معنويا ، إذا قرئ فإلى حد ولغاية واحدة هى التبرك فقط . وقلما تجد مسيحيا عاديا مثلا يعرف شيئا عن مضمون العهد القديم ، إلا ما يسمعه أثناء الصلاة . وقد أشار (بيارضودج) إلى ذلك صراحة حين قال : « نحن المسيحيين لا نقرأ سفر اللاويين بتاتا ، ولا نصوصا من رسائل بولص ، وإنما نعنى عناية جدية بالموعظة التى ألقاها المسيح على الجبل ، والقاعدة الذهبية ،وبعض النصوص الجميلة التى تتعلق بالحياة الحديثة[2] . بل لقد سمعت كاهناً ينكر اتهام النبى سليمان بالوثنية ، ويقرر فيه حكم القرآن فقلت : ولكن العهد القديم يخبرنا أنه ارتد إلى الوثنية ونشر عبادة البعل .. فقال بالحرف : نحن لا نؤمن بأخبار العهد القديم ! » . .

---

(١) الدكتورة « لوريا فيشيا فاغليرى » فى كتابها دفاع عن الإسلام ص ٤٦ ط ٢ ، وقد كان من مقتضيات البحث أن نتناول هنا موضوع الرحلة القمرية وما أثير حولها وبيان موقف الإسلام منها ، ولكننا أرجأنا ذلك إلى نهاية الفصل ليكون ملحقا له مستقلا .

(٢) كتاب « الإسلام بنظر الغرب » ، ترجمة اسحق الحسينى ص ٤٣ .

وطبيعى ألا يكون كل كاهن أو كل مسيحى من هذا الطراز جاهلا لمضمون العهد القديم أو منكرا لأخباره . . ولـكن فى هذا دليلا على أن اقتناء المسيحين للـكتب المقدسة لا يعنى بالضرورة اطلاعهم عليها أو تصديق جميع أخبارها بالتفصيل . . ذلك لأن القوم — فى الغالب — مكتفون من الدين بما يأخذون عن رجال الـكنيسة ، لا يكلفون أنفسهم مهمة التنقيب عن مستنداتهم ولا تتبع مصادرهم . ومرد ذلك إلى أمور :

١ — أن جمهور المسيحيين قد ألف منذ عصور الاضطهاد أن يتلقى تعاليم دينه مباشرة من أفواه رجاله الذين كانوا وحدهم مظنة الإطلاع عليها ، وذلك بسبب ما لقيه أتباع المسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى من مطاردة ومصادرة ، قضت عليهم أن يفروا بدينهم إلى المغاور والكهوف ، وأن يستخفوا بعبادتهم عن أعين العدو ، حتى إذا جاء عهد قسطنطين كان العارفون لحقيقة المسيحية وتعاليمها قلة نادرة ، فلا غرابة أن يستمر الناس بالرجوع إلى هذه الجماعة يستفتونها فى كل شيء .

٢ — إقامة هؤلاء المسئولين من أنفسهم مشرعين فى أحكام الديانة ، فلم يقفوا عند حدود ما جاء به المسيح من قول وعمل ، ولم يشاؤوا أن يتقيدوا بتعاليم الكتب السابقة التى استمر عليها المسيحيون حتى المؤتمر الأول الذى عقد فى أورشليم بعد عشرين سنة ونيف من نهاية المسيح ، بل أخذوا يتصرفون فى الأحكام حسب المناسبات ، فيعطلون ما يرون تعطيله ، ويثبتون ما يستحسنون تثبيته . . حتى أنهم ألغوا جميع محرمات التوراة كلحم الخنزير والربا وما إليهما ليحصروا الممنوعات فى أربعة أشياء هى : « الزنا وأكل المخنوق والدم وما ذبح للأوثان »[1] ثم ما لبثوا أن قضوا بإباحة كل مأكول ومشروب بحجة « أن كل ما يدخل الفم ليس ينجس الإنسان ، إنما ينجس الإنسان كل ما يخرج من فيه » . وبذلك انفصلت المسيحية عن أحكام الـكتب المقدسة السالفة تماما ! . .

---

(١) اعمال الرسل صبح ١٥ . . .

٣ – ويأتى هنا ثالث الأسباب وربما أكبرها جميعا ، وهو امتزاج العقيدة المسيحية بالفلسفة الإغريقية عن طريق الأفلاطونية الحديثة ، كالتثليث الذى استقرت عليه المسيحية بعد مجمع نيقية ، المعقود فى آخر الربع الأول من القرن الرابع الميلادى . . . وإنما هو فى الواقع صورة جديدة مما كانت الفلسفة اليونانية قد انتهت إليه فى تصوراتها للألوهية على أيدى فلاسفة الإسكندرية ، وبوجه أخص على يد أفلاطون الذى مزج فى هذا الموضوع بين أفكار الأغريق والهنود[1] ومن هنا تحولت العقيدة المسيحية من حيز البساطة التى هى سمة العقائد الإلهية فى كل وحى إلى ميدان التعقيد الفلسفى الذى لا طاقة للجمهور بحل رموزه ، بل إن رموزه لتنوء بها أدمغة الكبار من فلاسفة المسيحية أنفسهم ، الأمر الذى جعلها مبعثا لعشرات الفتن والمذابح فى تاريخ الغرب والشرق !

وقد تأتى عن هذا كله أن أصبح جماهير النصارى مقيدين بتعاليم رجال الكنيسة وحدهم . وبات من المسلمات الرئيسية لديهم أن هؤلاء الممثلين الرسميين للكنيسة مزودون بالعصمة التامة من كل خطأ أو انحراف ، بل لا يجوز عليهم الخطأ والانحراف ، لأنهم مسددون بإلهام الروح القدس ! وهكذا عزل عامة النصارى عن أصول المسيحية فى مجموع الكتب المقدسة حتى غدا من مصطلحاتهم الكنسية تقسيم أسفار العهد الجديد إلى أسفار تاريخية صرف ، هى الأناجيل وكتاب أعمال الرسل ، وأسفار تعليمية هى بقية الرسائل التى قررت المجاميع قبولها . ومعنى ذلك أن القسم التاريخى لا يفرض على

---

(١) تتلخص أفكار أفلاطون فى الناحية الإلهية بما يلى :

(أ) انه تعالى واجب الوجود ومنشئ الكل . (ب) أول شىء صدر عن أعمال هذا المنشئ هو العقل الذى له قوة الإنتاج. (ج) أن هذا العقل الفعال قد انبثق عنه الروح الذى هو وحدة الأرواح جميعا . . ثم عن هذا الثالوث يصدر كل شىء . .

ومن هذا التزاوج نشأت عقيدة التثليث المسيحية ، وإن افترقا أحيانا فى بعض التفاصيل . فالآب فى عقيدة التثليث يقابل منشئ الكل عند أفلاطون : والعقل المنتج هو الابن والكلمة لدى النصارى ، وليس روح الكل فى تعبير أفلاطون سوى روح القدس عند المسيحيين . وقد فسر هذا الموضوع بدقة المستشرق ليون جوتيه فى كتابه – المدخل إلى الفلسفة الإسلامية – وانظر العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية لمحمد طاهر التنير ص ١٩ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٥ . .

المسيحيين أية التزامات ، وإنما هم ملزمون فقط بتحقيق القسم التعليمى الذى يعتبر وحده الشريعة العملية . . وها هو ذا أحد كبار القسس — عبد الأحد — يعلن أن المؤسس الحقيقى للمسيحية إنما هو بولس ، الذى كان أشد أعداء المسيحية منذ ظهورها حتى ما بعد المسيح . والذى وضع بتعاليمه ورسائله الأربع عشرة أساس العيسوية ، كما هى الآن . على هذا لا يعتريك أى عجب إذا قيل لك : إن ديانة المسيح قد أقصيت تماما من حياة النصارى منذ ذلك اليوم ، الذى اعتبرت فيه رسائل بولس أساس المسيحية ! .

ومنذئذ عزلت الأناجيل والأسفار القديمة عن حياة الناس العملية لتكون فقط مرجعا تاريخيا لا سلطان له على أى توجيه ! وقد اعترف الكثيرون من احرار الفكر فى العالم الغربى (أن الدين الذى اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس)[1] . .

وهذا نيتشه يتحدث عن البون الشاسع بين تعاليم المسيح وديانة بولس فيقول : « لقد كانت دعوة المسيح فى جوهرها دعوة إلى النظام والقوة ، أما بولس فقد حولها إلى دين صار ملاذاً للخائفين والمذعورين » ولذلك أطلق نيتشه على بولس اسم « باسكال اليهودى » لأنه بنظره ميال إلى الخرافات والمكر[2]. ويعبر — كولن ولسون — عن هذا بقوله : « إن قول المسيح : كن سيد نفسك قد تلاشى وحل محله مسيح آخر من اختراع بولس »[3] و«ان المسيحية لم ترتكز على تعاليم المسيح وإنما ارتكزت على عقيدة ميتافيزيكية اخترعها بولس »[4]، ولهذا يأسف الكثير من أحرار الفكر ، لأن حركة الإصلاح البروتستانتية لم تكن لصالح فكرة المسيح بل كانت لصالح مسيحية بولس[5] . وقد أكد ذلك (ويلز) فى (ملخص التاريخ) بقوله : ان المسيح لم يبشر بالمسيحية المعروفة اليوم ، وإنما أحدثها بولس المتعلم بالاسكندرية ومنها أخذ تعاليمه الوثنية ، التى استحالت فيها آلهة قدماء المصريين إيزيس وهورس وسيزاييس إلى الآب والابن وروح القدس . . »

(١ و٢ و٣ و٤ و٥) أنظر « سقوط الحضارة » لكولن ولسون ص ١٧٩ — ١٨٨ ترجمة زكى حسن ط ١ .

معركة لابد منها :

وإذا أنت أنعمت الفكر فى سفر (أعمال الرسل) تبينت أن إقدام القوم على إلغاء شريعة التوراة وبخاصة ما يتعلق منها بالمحرمات والختان ، إنما كان بدافع التيسير لانتشار المسيحية بين الشعوب الوثنية فى القرون الأولى ، ثم ما لبث هذا الضرب من الاجتهاد أن أصبح أساس العمل التبشيرى لدى خلفـــاء الرسل من رجال الـكنيسة ، ومن هنا تسربت تقاليد الأمم الوثنية وبخاصة فى نطاق الشعوب الرومانية إلى صميم المسيحية ، لاسيما بعد أن حصرت كل المحرمات فى الزنى ، والدم والمخنوق والمذبوح للأصنام ، كما بينا آنفا ، حتى لقد أصبح معلوما عند مؤرخى الـكنيسة وعلماء الاجتماع أن المسيحية بعد امتزاجها بتلك الشعوب قد أخذت صبغة أخرى غير التى بشر بها المسيح . وما أظن مثقفا يجهل الأصول الوثنية لـكثير من الطقوس والاعياد المسيحية[1]. كما أنه لم يعد بين طلاب المدارس الثانويين من يجهل أثر الوثنية اليونانية والرومانية فى هذه التماثيل والرسوم التى تطغى على جدران الـكنائس فى الشرق والغرب ، وموقف الأباطرة الرومان والروس منها بين موافق ومخالف ، وما صدر بشأنها من قوانين محرمة ومحللة ، حتى صارت إلى ما هى عليه اليوم جزءاً لا يتجزأ من المسيحية ، يتفننون فى نحتها وتلوينها وزخرفتها ، فهـى فى كل كنيسة ، ما عدا الـكنائس الإنجيلية ، حتى لتستحيل بها المعابد متاحف ومعارض ! . . وهى فى كل بيت لا تخلو منها حجرة ولا منضدة ، يركع لهـا الجميع ضارعين مستنجدين ، كما يركع المؤمنون لرب العالمين ! . ولو سألتهم لقالوا لك : نحن لا نعبدها وإنما نقدس بها ذكرى أصحابها ، فنحيي معانى حياتهم فى نفوسنا ، ونتوسل بهم إلى الرب لقضاء حاجاتنا تماما كما قال جاهليو العرب فى آلهتهم من قبل : **« ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ٣٩–٣ .**

---

(١) اقرأ من ذلك قصة الفداء فى الهندوكية وتقديم كرشنا نفسه للموت من أجل تخليص الإنسان من الخطيئة الأصلية ، وكذلك موضوع العبادة عند الأمم الوثنية السابقة للمسيحية . وقارن بما انتهى إليه الأمر فى العقائد النصرانية – (العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية) ص ٤١ و ٤٣-١ . . .

ولا شك أن هذا ضرب من التطور البعيد تناول السطوح والأعماق ، فنأى بالمسيحية عن أصولها البسيطة التى لم تعرف قط هذه الظواهر قبل اندماجها فى تلك الشعوب .

وجريا على قوانين الحياة كان لابد للكنيسة التى قبضت على ناصية الحكم أن تفكر بالتشريعات الزمنية مع عملها الدينى ، وإذ لم تجد فى الانجيل ولا فى الرسائل أى أساس للسلطات المدنية ، واستحال عليها الأخذ بتشاريع العهد القديم . . عمدت إلى سد هذا الفراغ بقوانين أخذت أصولها وتفاصيلها من هنا وهناك . ثم فرضتها على الشعوب أوامر مقدسة ليس لأحد تجاوزها أو مناقشتها ، ثم ما لبثت أن احتكرت مهمة التعليم ففرضت على الرعية آراء رجالها فى الفلك والجغرافية والتاريخ والطبيعة ، دون مراعاة لوقائع الحياة ولا لقوانين الكون . . الأمر الذى ما لبث أن اصطدم بطلائع الفكر الجديد المنبثق من حضارة العرب فى الأندلس والشرق ، فإذا هى أمام معركة لا مندوحة من خوضها ، معركة تفرضها القوانين التى لا تسمح بالبقاء إلا للأصلح .

* * *

بواعث العلمانية :

وما أرانى فى حاجة لأن أحدث القارئ هنا عن تلك التجارة التى عمد إليها البعض من ورثاء بطرس فى روما ، إذ راحوا يبيعون صكوك الغفران ، ويقطعون الأرض فى ملكوت السماء لمن شاء من الراغبين فى الشراء . . وها هو ذا فيكتور هيجو – أديب فرنسا الأكبر – يترجم طغيان المفكرين ضد هذه الانحرافات فى واحدة من روائع قصائده بعنوان (المسيح فى الفاتيكان) ، فيصور المسيح وقد سئم المقام فى السماء ، إذ رأى الشعب يتوجه بصلاته إلى القديسين والأيقونات الذهبية . . ولذلك يهبط إلى الأرض ، ويقصد الفاتيكان ليستطلع الخبر :

« وبلغ السيد فسحة متسعة مملوءة بالأشياء التى لا اسم لها . .
عظام وأيقونات وقطع معدنية . .

وهناك مأمورون عديدون يسرعون بإعداد الرزم وشحنها . .
وآخرون يقبضون الأموال ، ورئيس هؤلاء مجلل بالحرير . .
وإذ شاهد هذا الرئيس المسيح داخلا بأثوابه البالية صاح فى حدة :
من سمح بدخول هذا المتشرد الحقير إلى مقام سيد الدنيا — البـــابا !
أرنا الفضة التى فى جيبك . . إننا لا نبيع على وعد . .
هذه أوامرنا البابوية المقدسة : المغفرة للأغنياء ، أما الفقراء فللشيطان !
وينفجر السيد المسيح بالسخط من هذه الأوضاع الشاذة . .
ويتدفق بالتوبيخ لهذا الرئيس :
ويل لـكم . . تقتلون تعاليمى بتمويهاتكم ! .
وتدنسون هيكلى بأصنامكم ! . .
لقد شاهدتنى أورشليم راكبا على جحش ! . .
أما شعب رومة فينظر إلى قداسة البابا ممتطيا ظهور المسيحيين ! . .
إنكم لا تحترمون شيئا . .
كل شيء لديكم سلعة تباع ولا يقدر المؤمن أن يخطو فى كنائسكم
دون أن يدفع ! . .
ولـكن دولاب الزمن قد ابتدأ يدور . .
والشعوب التى أتعبتها أحمالـكم قد بدأت تتحرك . .
ارتجفوا أيهـا الـكهنة . .
ان رومة تتحرك . وفرنسا ترتجف . . . » . . . الخ .

ودعنى أذكرك بما أصاب الحركة الفكرية على يد الـكنيسة فى الغرب من الصدمات المزعزعة ، إذ تجردت لنور العلم تريد إطفاءه ، قاذفة بالهرطقة كل من يجرؤ على الكلام فى موضوع لم توافق عليه الكنيسة . . ! ولا يزال حديث محاكم التفتيش وتقتيل أحرار الفكر بيد قضاة الـكنيسة ، يشكل بقعة الظلمة فى جبين التاريخ الحديث . . وحسبك أن تتذكر أنها جعلت حكم الموت أو التحريق نصيب كل من يعثر معه على كتاب من تأليف العرب ولو كان بحثا فى الزراعة ! . .

ولعلك قرأت خبر (جاليلى) الذى سيق إلى المحاكمة لأنه تكلم عن دوران الأرض ، وهو أمر لم يقل به رجال الكنيسة . . فهو إذن معاد للمسيحية ، ولا مكان فى الحياة لمثل هذا المغامر . . ! وهكذا خير هذا المسكين بين الموت مصراً على رأيه ، وبين الحياة مكذباً لنفسه ، فآثر السلامة لرأسه ، وأقر على نفسه بالكذب . . ! بيد أنه لم ينس أن يضرب بقدمه الأرض بعد ذلك وهو يقول : « ولكنها مع ذلك تدور . . ! » . .

أجل . . ذلك هو تاريخ الكنيسة . . أيام كان للكنيسة سلطان نافذ على المجتمع . . تساهل مع التقاليد الوثنية ، وقسوة على أحرار الفكر الباحثين عن الحقائق الكونية ، ثم سوق للشعوب إلى المجازر باسم الغيرة على تعاليم المسيح ! . . وكانت النتيجة المنطقية لهذا كله أن يبلغ الضغط حد الإشباع ، ثم يأتى الانفجار . . فتنقسم الكنيسة بعضها على بعض ، وتثور العقول والضمائر المحبوسة ضد المهازل التى تمثل باسم المسيح ، ثم كانت ذروة الكارثة على المسيحية وعلى الدين كله ، تلك الثورة النفسية التى أوقدها الشعور بالظلم ، فى صدور رواد النهضة العلمية فى العالم الغربى ، فإذا هم يبعثونها حملة شعواء جامحة ضد الدين بكل معانيه وحقائقه ! . . وإذا هم يعلنون منذ ذلك اليوم ألا مكان للدين فى ميدان العلم . . وألا إيمان بشىء لا يقع تحت المنظار والإحساس . . ومن ثم فلا محل للإيمان بالله فى عالم المخابر والمباحث ! . . وبذلك انتصرت تلك العلمانية التى عزلت الفكر عن معانى السماء ، والتى لم تكن فى الواقع إلا حصاد التعصب الممزق ، الذى رافق سلطان الكنيسة منذ الخطوة الأولى ، فجعل تاريخها سلسلة من الاضطهاد والحرمان واللعن ، تصبه فى وجه كل من حاول البحث عن الحق.[1] .

ولقد كان حقاً على الكنيسة منذ البدء أن تتذكر كون خلو الأناجيل

(١) اقرأ حديث المجامع المسكونية فى كتاب « محاضرات فى النصرانية » ص ١٢٠-١٤٧ . ثم لا تنس أن النهضة العلمية قد استقرت أخيرا فى طريق الإيمان بالله ، بعد تلك العواصف التعصبية المتقابلة ، ولكنه إيمان يختلف عن مقررات الكنيسة بكونه منبثقا من أعماق المخابر العلمية التى تشير بكل حقائقها إلى الله . . وهذا « جورج ايرل دافيز » أحد كبار علماء الغرب يصف لك هذا الإيمان الجديد بأنه « يقوم على أسس يختلف كل الاختلاف عن الأساس الذى يقوم عليه الإيمان المستمد من سلطان الكنيسة ورجال الدين » . .

وبقية الأسفار الحديثة من كل أثر للنظم السياسية ، إنما هو دليل قاطع على أن مهمتها محصورة فقط فى حدود التهذيب الروحى ، وإحياء القيم الخلقية ، فى عالم هو أحوج ما يكون إلى هذه المثل . ولو هى قد تدبرت كلمة الإنجيل : « اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . ولو هى عملت بوصية مؤسسها بولس : « لتخضع كل نفس للسلاطين . لأنه ليس سلطان إلا من الله . . ومن يقاوم السلاطين يقاوم ترتيب الله[1] لجنبت نفسها ، ولجنبت الإنسانية ، ولجنبت الدين كل هذه الزعازع . . ولكن مما يؤسف أن هذه الحقيقة لم تفطن إليها الكنيسة إلا تحت مطارق الثورات والمذابح ، ولذلك لم تعد إلى حدودها الحاضرة إلا بعد أن كلفت البشرية بحارا من الدماء والدموع ، وعشرات الملايين من القرابين الإنسانية ! . .

* * *

عصمة الكنيسة :

ولكن . ولنقلها بصراحة : إن هذه التجارب المرة لم تؤت حتى اليوم كل ثمارها المرجوة ، إذ لا يزال هناك كثير من الأمور تنتظر التعديل وفقا لمنطق الواقع . . ولعل فى مقدمتها هذه السلطات الكنسية التى تضع فى أيدى رجالها حق التشريع الدينى ، واختراع الشئون التى يتوهمون فيها خدمة للمسيحية ، مهما اشتطت عن منطق التعاليم الأساسية ! . . ولقد أشرنا إلى ذلك عندما عرضنا لإيمان الجماهير المسيحية بعصمة رجال الكنيسة ، على وجه يجعلهم يتلقون كل قرار كنسى بروح التسليم المطلق ، دون أى اهتمام بالمستندات القانونية . . الأمر الذى عطل تفكير العامة إذ أوقع فى خلدهم أن المسيحية ليست سوى بلاغات رجال الكنيسة ! . . والغريب أن يتساوى فى هذا المفهوم جميع الطبقات منهم ، حتى رجال الفكر الذين أصبحوا يرون الدين ضربا من الاحتكار . . فكما يجب على المريض أن يعمل بتوجيهات الطبيب دون مناقشة ، هكذا يجب على المسيحى أيا كان أن يلتزم رأى الكنيسة دون مناقشة ! . . وهو تمثيل قد يكون معقولا حين

---

(١) رسالة بولس إلى رومية صح ١٣ . .

يكون الموضوع موضوع اختصاص فى الدراسة ، فيكون هناك العالم بالدين والجاهل به . . فلا يستغنى هذا عن سؤال ذاك فيما يجهل . ولكن ثمة أصولا لابد من توافرها للجميع جاهلين وعالمين . . ذلك ما يتعلق بأسس العقيدة والمنبع الذى منه تستمد . أريد أنه لابد فى العقائد من مصدر إلهى يرجع إليه عند الاختلاف ، ويكون بمثابة المقياس لكل قول فى هذه الناحية . . وهذا يقضى أن تكون آراء رجال الدين كآراء غيرهم ، معرضة للفحص فى ضوء هذا القانون الأساسى ، فلا يقبل منها إلا ما كان مطابقا لمنطقه . فالمسلمون والمسيحيون سواء فى أن منهم الجاهل والعالم ، والأكثر علما . ولكنهم يختلفون فى الأساس ، فبينما يؤمن كل مسلم أن كل قول فى العقيدة موضوع مناقشة إلا ما قال الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ترى المسيحى يستسلم لكل ما يقوله رجال الكنيسة دون تردد أو مراجعة ! . . وهذا واقع كثيرا ما كنت أجهله حتى لمسته عن كثب فى حياة أصدقائى من المسيحيين . وأشد ما أدهشنى قول أحدهم ، وهو اليوم كاهن ومن أحسنهم تهذيبا : أنتم المسلمين تخطئون عندما تناقشوننا بأقوال المسيح . . فالمسيحية يا صديقى ليست هى الأناجيل بل هى ما اتفق عليه رجال الكنيسة !. .

وهنا تذكرت قول القرآن العظيم : « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو . .** » ٩ — ٣١ ثم تذكرت تفسير رسول الله لهذه الآية إذ قال له عدى بن حاتم (رض) : إنا لسنا نعبدهم . فقال صلى الله عليه وسلم : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ . . ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ . . فقلت : بلى . قال صلى الله عليه وسلم : « فتلك عبادتهم . . »[1]

وما لنا نعود إلى أبعاد التاريخ ونحن نرى كل يوم صوراً جديدة من هذا التحكم المطلق . وما أخال أحدا قد نسى بعد ذلك النبأ الجرىء الذى أرسله جناب البابا قبل بضعة أعوام ، يوم وقف يعلن فى جماهير الحجاج :

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى وحسنه ، وكثير غيرهما .

« أن العذراء قد رفعت إلى السماء . . وأن على كل كاثوليكي أن يؤمن بذلك دون ريب ، وإلا عرض نفسه للحرمان ! . . »

ولقد تلقى يومئذ مئات ألوف الحجاج هذا البلاغ طبعا بالانحناء ! . . ولعل قليلين جداً منهم هم الذين سألوا أنفسهم في همس بالغ : ومن أين استقى جنابه هذا الخبر الذى جهله العالم المسيحى كله طوال العشرين قرنا ! . وطبيعى أن أصحاب هذا السؤال من القلة التى لا تستطيع الإيمان بعصمة قداسته[1] . . .

ولقد جربت أن أسأل مدرسا من زملائى المتحمسين للكثلكة عن انطباعاته بإزاء بلاغ البابا هذا . . فقال : ذلك أمر تلقاه مئات الملايين بالتصديق والرضى فلا مجال للجدل فى حقيقته ! . . قال هذا وهو يرفع قبعته ويحنى رأسه فى خشوع . . .

ونسى زميلى أن القصة لا تعدو الإخبار بحادث تأريخى ، لا يقويه تصديق مئات الملايين ، إذا لم يكن له سند من التاريخ نفسه . . وليس مجرد تصديقه أو تكذيبه دون سند إلا كذلك المثل الذى يتندر به العامة فى بلادنا ، إذ يقولون : أن رجلا استحلف آخر على أمر . . فأجاب قبل أن يفهم الأمر : أقسم أنه حق . . ولكن ما هو !؟ . .

وقد كان من جميل الاتفاق أن أستمع الساعة إلى خبرين ، يحمل كل منهما دلالته القاطعة بأن هؤلاء المحترمين من رجال الكنيسة لا يزالون اليوم حيث كانوا قبل مئات السنين ، لم تفدهم عبر الأحداث أى شىء . .

أما أول الخبرين فيرويه صديق محام ، وخلاصته أن موكلة له مسيحية قد رفعت على زوجها دعوى بطلب الطلاق لدى المرجع الكنسى . . وكان لابد من الحكم بذلك لاستحالة الإبقاء على الرابط الزوجى بينهما . .

---

(١) كانت سلطة البابا قاطعة دون ما حاجة إلى إعلان عصمته ، فلما أخذت الأفكار الحرة تتسلل إلى الإمارات الإيطالية فى مطلع القرن التاسع عشر ، نهض البابا جريجورى السادس عشر بمقاومتها وأصدر فى ذلك منشورا عام ١٨٣٢ ثم عقب البابا بيوس التاسع بمنشور آخر أصدره عام ١٨٦٤ على النهج نفسه . . ثم فاجأ الفاتيكان العالم بقرار أعلن فيه أن البابا معصوم من الخطأ – قصة الاضطهاد الدينى ص ١٤٠ .

غير أن الحكم جاء بنفسه عجيبا ، إذ فرض على كلا المطلقين أن يظل بغير زواج ثلاث سنوات ! . .

ودهش صديقى المحامى لهذا الحكم ، وسأل المطلقة عما إذا كان مطلقها سيخضع لحكم الكنيسة بالامتناع عن الزواج كل هذه المدة ؟! ولكن المرأة أجابت بكل بساطة : انه لن يحتاج إلى ذلك لأنه أتى بخليلة منذ اليوم ! . وبقى أن يعرف الصديق كيف تعالج هى موضوعها خلال هذه المدة . . غير أنه لم يسمع منها جواباً على سؤاله !

وأما ثانى الخبرين فيقصه على شاب مسيحى ، وملخصه : أن زوجته قد هجرته فلجأ إلى المرجع الكنسى ، ولكن دون جدوى ، إذ ظل عدة أشهر لا ينظر فى قضيته .. على أنه فوجئ يوم أمس بحكم صادر ضده من ذلك المرجع ، وهو يقضى بالتفريق بينه وبين زوجته ، كما يقضى عليه بتسلم طفله الذى لم يتجاوز الشهرين بعد ! . .

وكل ذلك دون أن تعقد أية جلسة لهذا الموضوع . وبالطبع لم يكن الرجل راضيا بهذا الحكم الذى لا أساس له من القانون أو الشريعة . ولا أكشف سرا إذا قلت : إنه بعث فى صدر الشاب ثورة من الشك ضد الدين كله الذى يمثله ذلك المرجع المحترم ! . . وطبيعى أن شيئا من ذلك كله لم يكن ليحدث لولا ذلك المبدأ الصارم ، مبدأ الاستبداد الذى يمثله سلطان الكنيسة . . وأنا لا أرتاب لحظة فى أن هذا المبدأ هو الذى قضى أولا بانقسام المسيحية على نفسها ، فجعل من الدين الواحد أديانا ، ثم كان هو الذى أسدل حجابا كثيفا بين المسيحى وبين دلالات الكتب المقدسة القاطعة بنبوة المسيح ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم بوحدة الرسالة الربانية التى أنزلها الله على أنبيائه جميعاً ، فحال بذلك دون الوحدة العالمية . . ومن هنا كان رجال الكنيسة هم المسئولين الأولين عن انتشار كل مذهب مادى فى الأرض ، والسبب الأول والأخير فى انسلاخ مئات الملايين من المؤمنين بالله عن هذه العقيدة فى ظل الشيوعية الأممية . . التى لم تكن فى حقيقتها سوى نهاية المطاف للحرب الطويلة الأمد ، بين الكنيسة ومصلحة الشعوب . .

المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم :

« أنت الذى أعطيتنى سلطانا . . لأعطى الحياة الأبدية لكل من أعطيته . . وما الحياة الأبدية إلا أن يعرفوا أنك أنت الإله الحقيق وحدك . . ويسوع المسيح الذى أرسلته[1] » . .

هذه مناجاة حارة يرفعها المسيح إلى ربه ، فى أدب يليق برسول كريم يقدر جلال الله . . وهى إلى ذلك تعبير صريح واضح لا يكد ذهنا ولا يكلف جهدا . إنه اعتراف من المسيح بأن كل ما يملك من قوة إنما هى من عند الله ، وأن خلاصة رسالته إلى الناس هى تعريفهم أن الألوهية خاصة بالله وحده ، وأن المسيح ليس إلا رسولا بعثه الله لتجديد هذه الحقيقة . .

وماذا يقول المسلمون فى المسيح غير هذا الذى يقوله ربهم عن لسان المسيح : **(وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ٦١–٦)**

ولو رضى المسيحى هذه الحقيقة أكان ثمة خلاف فى العقيدة بينه وبين مسلم ؟!

لكن هل يصدق المسيحى نفسه فيما يقرأ من كلام المسيح هذا ؟! كلا لأنه مقيد بتفسير الكنيسة التى تقول له : (إن المسيح يتكلم هنا عن ناسوته الذى هو به رسول لا يملك شيئا . . فلا تنس أن له صفة أخرى هى اللاهوت الذى هو به إله وبه يملك كل شىء . .) !

ثم لنقرأ الآن من إنجيل يوحنا أيضا . . « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم « بار قليط » آخر ليثبت معكم إلى الأبد . . وهو يعلمكم كل شىء . . وهو يذكركم كل ما قلته لكم . . يشهد لأجلى . . يوبخ العالم . . لأنهم لم يؤمنوا بى . . وأن لى كلاما كثيرا ولكنكم لستم تطيقون حمله . . وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق . . لأنه ليس يتكلم من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بكل ما سيأتى . . وهو يمجدنى . . » . . .

---

(١) إنجيل يوحنا صح ١٧ . .

ولا شك أن المسيحي الذى يتلو فى وعى هذه الإشارات ، سيدرك بصورة مجملة أن هناك رسولا من عند الله سيأتى بعد المسيح ، حاملا للناس رسالة ضخمة يفصل بها الله لعباده كل شيء : (**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء . ١٦-٨٩ . .**) وهى رسالة خالدة لأنها تثبت إلى الأبد ، ومجددة للحقائق التى دعا إليها المسيح ، إذ تذكرهم بكل ما قال ، بعد أن يكونوا قد نسوه أو أخطأوا تفسيره ، وشاهدة له وممجدة ، لأنها تدفع عنه ما أحيط به شخصه من مغالاة الذين ادعوا له الألوهية ، ومن تخرصات الذين رموه وأمه بكل فرية . ومن صفات هذه الرسالة أنها تنطوى على أسرار من النظم والحقائق لم يكن لدى البشر طاقة بحملها وبفهمها أيام المسيح ، وبذلك تعلم البشر جميع الحق الذى يجعلهم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك .

أجل . . هذا أقل ما ينبغى أن يفهمه قارئ هذه الفقرات من بشائر المسيح عن أهم أحداث المستقبل . . ولا سيما إذا ضم إليها ذلك الخبر من إنجيل يوحنا نفسه ، إذ يحدثنا عن جماعة ذهبوا لاستكشاف أمر يوحنا المعمدان فراحوا يسألونه : هل أنت المسيح ؟ هل أنت إيليا ؟ .. هل أنت النبي ؟؟[1] فنعلم أن لدى علماء إسرائيل خبرا نبويا عن ثلاثة مبعوثين آخرهم (النبي) . . فإذا كان إيليا هو يوحنا نفسه فقد بقى علينا أن نعلم من هو هذا النبي ! . . ولا سبيل إلى صرفه عن (محمد) صلى الله عليه وسلم ، ما دمنا قد علمنا أن بعثة محمد كانت أعظم حدث فى سير التاريخ ، وفى مفاهيم الحضارة بعد المسيح . ومثل هذا النبأ العظيم لا يجوز أن تغفله الكتب المقدسة ، وهى التى تحدثت عما دونه أهمية ! . .

على أن القارئ المسيحى بالتأكيد سوف يكذب نفسه مرة أخرى أيضا ، إذ يسمع تفسيرات الكنيسة التى ستقول له : البارقليط هو روح القدس ، وقد حل بعد المسيح على تلاميذه فأنطقهم بكل اللغات ! . .

وطبيعى أن ليس لدى المسيحى العادى متسع للتحقيق فى هذه التوجيهات ، فضلا عن ثقته العمياء بما تقرره الكنيسة ، وإلا فكيف يفوته العلم أن

---

(١) يوحنا صح ١

فى كلمة (بارقليط آخر) دلالة حاسمة على أن المخبر به إنسان مميز بالرسالة الإلهية كالمسيح نفسه ، وأن فى توبيخه للعالم ، على عدم إيمانهم بالمسيح ، دلالة أخرى على أن المسيحيين الذين تظلهم بعثة هذا (البارقليط) سيكونون منحرفين عن حقيقة الرسالة المسيحية ، فهم من أجل ذلك يستحقون توبيخه . وعلى هذا فسيكون تفسير البارقليط بالروح القدس أو المعزى تصرفا لا يتفق مع النص ولا مع المنطق ، خصوصا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى أخبار المؤرخين مثل « وليم مور » الذى يقول بأنه وجد من أتقياء المسيحيين بعد المسيح من ادعى كونه هو البارقليط الموعود ، وأن ناسا كثيرين قد اتبعوه مصدقين . . بل إن صاحب (لب التواريخ) يؤكد أن النصارى ظلوا قرونا قبل البعثة النبوية ينتظرون هذا المرسل . . وهذا وحده كاف للقطع بأن مسيحيي القرون الأولى ، أو كثيرين منهم بالأقل ، ما كانوا ليفهموا البارقليط إلا إنسانا سوياً لا ملاكاً ولا روحاً إلهيــاً . وفرق بعيد بين رجل يواجه العالم كله برسالة السماء ، وبين حال إلهامى خاص ، لا يتجاوز عددا محدودا من أبناء البشر أيا كان هؤلاء ! . .

ولكن لا ننسى أننا نطالب القوم بأمر خطير ، يقتضى إعادة النظر فى الكثير الكثير ، فإن مجرد إثبات كلمة (أحمد) أو (صاحب الحمد) كما يرى بعض المستشرقين مكان كلمة (المعزى) فى الترجمة العربية لمعنى البارقليط كاف وحده لنسف كل الحواجز القائمة بين المسيحية والإسلام ، إذ تتلاقى يومئذ وصية المسيح هذه حرفيا مع ما أثبته القرآن من كلام المسيح إلى بنى إسرائيل : « **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . . ٦١ — ٦** »[1]

---

(١) نشرت مجلتا الأزهر والتمدن الإسلامى وغيرهما نبأ هاما استقته مجلة (المصور) عن الفاتيكان من مصادر دقيقة الاطلاع ، مؤداه أن البابا الراحل قد ألف لجنة من كبار علماء اللاهوت لوضع تقرير دقيق عن حقيقة الدين الإسلامى . . وقد أنهت اللجنة دراستها الطويلة العميقة ، فخرجت بتقرير يشهد بصحة الإسلام وصدق رسوله ، وأن البابا قد عزم على إصدار بلاغ يفاجئ العالم بالاعتراف بالإسلام كدين إلهى حق . على أن الأجل الذى دهم البابا قد حال دون تحقيق هذا الحدث ، فأصبح الأمر موكولا إلى تصرفات البابا الجديد ومجلسه الأعلى ! .

ومما يلفت النظر ذلك الحدث الآخر الذى تناقلت خبره وكالات الأنباء مؤخرا وهو إنشاء مسجد للمسلمين فى حاضرة الفاتيكان ، فهل يعتبر هذا طليعة المرحلة الحديثة فى حياة الإنسانية ! .

شاهد من إيطاليا :

ولقد آثرنا نقل كلمة (البارقليط) كما جاءت فى التراجم المطبوعة فى لندن عام ١٨٢١ و ١٨٣٢ و ١٨٤٤ وهى بديل كلمة (بيريكليتوس) اليونانية . والعارفون باليونانية القديمة يعلمون أنها تحمل معنى (محمد) أو (أحمد) دون خلاف .. ثم ترجمت فى الطبعات العربية الأخيرة بكلمة المعزى – التى أشرنا إليها – وفى إحدى الطبعات اليسوعية بالعربية تذييل لكلمة (المعزى) يقول بأن الأصل اليونانى ليس له معنى (الحمد) ! . . وهذا النفى فى الواقع ينفى ما يريدون إثباته فى تذييلهم ، لأنه يؤكد الصلة القائمة بين الحمد والبارقليط بدلا من أن يعارضها .

ولإيضاح هذه الحقيقة ننقل للقارئ عن كتاب (قصص الأنبياء) . هذا الحوار الطريف بين مؤلفه المرحوم (عبد الوهاب النجار) وبين صديقه المستشرق الإيطالى الدكتور (كارلونيلينو) وهو يحمل الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة ، وكان آنذاك يدرس العربية فى دار العلوم بالقاهرة .

المؤلف : ما معنى كلمة (بيريكليتوس) ؟

المستشرق : إن القسس يقولون : معناها المعزى .

المؤلف : إنى أسأل الدكتور كارنيلينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اليونانية القديمة ، ولست أسأل قسيسا .

المستشرق : إن معناها (الذى له حمد كثير) .

المؤلف : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من فعل (حمد) ؟

المستشرق : نعم .

ولا شك أن فى هذا الاعتراف الصريح من دلك المستشرق الإيطالى شهادة اتهـام ضد أولئك الذين لا يستحيون أن يغيروا الوقائع اللغوية والدينية والتاريخية تأييدا لمـا وجدوا عليه آباءهم . . ولو كان

فى ذلك التقليد الاستسلامى القضاء المبرم على سلام البشرية[1] .

* * *

وشاهد من التــاريخ :

ولقد عثرت لجنة الاكتشاف الفنية الملحقة بالجيش الفرنسى فى بعثة نابليون عام ١٨٢٠ على صورة الحكم الجنائى الذى أصدرته المحكمة الرومانية على المسيح ، محفورا على صفحة من البرونز ضمن وعاء من الرخام الأبيض ، فى مذبح دير الكابوشيين من ضواحى القدس ، وهو مكتوب بالعبرية ، ومحفوظ حتى الآن بالدير نفسه ، وها نحن أولاء ننقل ترجمة هذا القرار كما نشرتها مجلة (الإيمان) المسيحية الدمشقية — عدد نيسان ١٩٥٧ منقولا عن مجلة فرنسية :

« بيلاطس البنطى حاكم الجليل الأدنى ، المتسنم رئاسة مجلس الشيوخ ، يحكم على يسوع الناصرى بالموت على الصليب بين لصين للأسباب التالية » :

١ — أن يسوع مضلل . ٢ — أنه ضال . ٣ — أنه عدو الشريعة (القانون) . ٤ — أنه يدعى نبوة الله بطلا . ٥ — أنه يدعى ملك إسرائيل بطلا . ٦ — أنه دخل الهيكل والجموع تتبعه بسعف النخل . .

وبناء عليه فإن بيلاطس يأمر كرينوس كيرنيليوس قائد المئة أن يقود المجرم إلى مكان العقاب ، ويحظر على أى شخص أن يسترحم السلطة بشأن هذا العقاب . . » . .

---

(١) من محاسن الصدف أن يعرض على اليوم أحد أبنائنا من الطلبة الهنود بحثا عن الهندوكية ، فأقع فيه على مثل هذه البشريات عن محمد صلى الله عليه وسلم فى أسفار الهندوس المقدسة ، وقد جمعت بين اسمه ونعته كما ورد فى كلام المسيح وأشعيا . وإلى القارئ تلك العبارة : « جاء فى الكتاب المقدس : (بهوشيا بران) أن رجلا جاء فى المنام إلى الملك بهوج ملك السند فقال له : عليك أن تلحق بدين رجل ظهر فى الصحراء وهو مختون له كلام يسمع ، اصطفاه برهما ، يأكل الطيبات من اللحوم ، تظهر على يديه معجزات كثيرة ، وهو محفوظ من أعدائه ، اسمه محامد يعنى كثير الحمد (بهوشيا بران) .

وقد تكرر لفظ أحمد وأحامد فى : (آثار ويد) (منتر ٨ — سوكت ٦ — منتر ٣٠) وكذلك كلمة (حامد) — سام ويد (منتر ١٥٢ — منتر ١٥) عن مجلة كانتى الهندية الصادرة من دلهى عدد ٨ يوليو ١٩٦٩ بقلم (ويد بركاش) .

والقارئ يرى بلا شك أن فى هذا القرار كل ما استطاعت المحكمة أن تجمعه من الأسباب المسوغة لحكم الموت ، وهى لا تعدو من الناحية السياسية اتهامه بالخروج على القوم ، وادعاء ملك إسرائيل . . ولكنها من الناحية الدينية تسجل ادعاء المسيح النبوة ! . . وهذا أشد مؤيدات الحكم حتما . .

وهنا لابد من القول بأن ادعاء الألوهية كان أحق باهتمام بيلاطس ، فلو أن المسيح نسب ذلك لنفسه ، أو رماه به خصومه اليهود لما أغفل القرار ذكره . . وبذلك يثبت بما لا يقبل الجدل أن وصف المسيح بالألوهية لم يعرف فى زمنه قط ، كما لم يثبت أنه شاع قبل ظهور الأناجيل ، الذى تأخر إلى مطلع القرن الثالث بعد ميلاد المسيح . وعلى هذا فلن يبقى فى العقل مجال للقول بالطبيعتين . . بل الصواب كل الصواب الوقوف عند اعتراف المسيح نفسه الذى نقلناه فيما تقدم عن إنجيل يوحنا . .

ولعل قارئا يقول هنا : إن مضمون الحكم البيلاطسى لا يخرج عما قررته من انتفاء نسبة التأليه إلى المسيح . . ولكن ألا ترى أنه يضعنا أمام مشكلة صلبه بين لصين ، كالشأن فى رواية الأناجيل نفسها ! . . فلهذا المتسائل نقول : إن الذى يهم الباحث من هذا القرار بالدرجة الأولى إنما هو شخصية السيد المسيح على لسان أعدائه الأولين وأتباعه المؤلهين . أما موضوع الصلب فأمر دون ذلك . لأنه لا يعدو أن يكون ضربا من العدوان على رسل الله ، تعرض لمثله أكثر من نبى قبل المسيح ، وكل ما تتضمنه الوثيقة من هذه الناحية هو أنه صدر عليه حكم الموت على الشكل الموصوف ، ولكن الحكم شيء والتنفيذ شيء ، والوثيقة نص قضائى يثبت صورة الحكم ، لا قرار تنفيذى يصور تنفيذ الحكم ! . . ونحن المسلمين مقتنعون أتم الاقتناع بأن الحكم لم ينته إلى التنفيذ ، وذلك اعتمادا على شهادة الله من فوق سبع سماوات بأنهم ما قتلوه وما صلبوه . . بل رفعه الله إليه

* * *

ظلمات وأشعة :

من الإنصاف للمدنية الحاضرة — على علاتها — أن نقر لها ببعض الفضل

فى تخفيف قبضة الكنيسة عن عقول أبناء المسيحية . . فلقد جاء حين من الدهر كان رجال الكنيسة هم مصدر كل خبر دينى كما أسلفنا ، سواء فى الشرق أو الغرب ، ومن هذا الباب دخلت على نفوس الجماهير عقد التعصب المجنون ضد الإسلام ونبيه ، إذ كان كل ما حصل لديهم من علم عن محمد صلى الله عليه وسلم هو أنه عدو المسيحية الأكبر ، بعد أن صوروه لهم كمجموعة من الشواذ البشعة ، من شأنها أن تملأ قلوبهم بالحقد عليه وعلى دعوته وعلى أمته .! . . ولما تخلص العلم من عقد التعصب الكنسى – إلى حد ما – نشطت بعض الرؤوس إلى البحث الحر فى حقيقة هذا النبى فإذا هى تطل على غير الجحيم الذى وصف لها ، وإذا هى أخيرا تذيع من حقيقة هذا النبى ما تكفل بتبديد الكثير من الظلام ، الذى أطلقه المتعصبون منذ عهود الصليبية الأولى . . وها نحن أولاء نرى من ثمرات هذه الحرية ما يبشر بغد أفضل ، تتعارف فيه المسيحية والإسلام عن كثب تعارفا يفىء على العالم بكل خير . . ومن كان – قبل قرن فقط – يتوقع أن يسمع رجلا كاثوليكيا كالأستاذ (شبرل) عميد كلية الحقوق فى جامعة (فيينا) يقول فى مؤتمر للحقوقيين عام ١٩٢٧ (إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها . . إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى عام . .) .

ومن كان يحلم أن ترتفع أصوات العديد من أساطين رجال القانون فى العالم المسيحى إجلالا لشريعة محمد واعترافا بكمال « أحكامها التى لا يمكن لشىء فى الوجود أن يكون أتم منها رجحانا » كما يقول سبنسر . وهل كان يعقل قط أن تفسح أعظم كنائس أمريكا منابرها لداعية مسلم كسعيد رمضان ، ليتحدث عن الإسلام وقضايا العرب بأنصع حجة وأصرح بيان . !

وها نحن أولاء نقطف لذيذ الثمرات من هذا التحرر الكريم ، يتجلى فى طائفة من كبار أدباء العرب المسيحيين كمارون عبود ، وميخائيل نعيمة[1] وبولس سلامة ، ولبيب الرياشى ، ونظمى لوقا ، ومن قبلهم

---

(١) من المؤسف أن ينجرف الأستاذ نعيمة فى تيار الماديين فيزعم – فيما قيل لى – أن هزيمة حزيران كانت نتيجة الدين ! . . وبقليل من التفكير يعلم أن الدين لم يدخل المعركة قط .

الأديبة العالمية مى زيادة ، ثم فقيد الحرية المجهول الآخر أسبر (الغريب) الذى ملأ آفاق لبنان هتافا بحقائق الإسلام ، أيام كان البلاء موكلا بالمنطق ، فكانت مجلته - الشمس - هى النور الوحيد فى ظلمات تلك العهود ، عهود الانتداب الفرنسى ، حتى توفاه الله ثابتا على الحق لم يرج أحدا ولم يخش إلا الله . .

وأى مفكر منصف لا يمتلئ إعجابا أمام هذه الروح الخيرة من الحرية التى يحمل لواءها بين شعراء العرب الصديق الأستاذ رشيد سليم الخورى (الشاعر القروى) فتطلق لسانه بمثل هذه النفثات الخالدة : (لم تكن لى فكرة سوية عن الرسول العربى . . حتى آتانى الله فضله . . فأماط عن بصيرتى حجابا من الجهل كثيفا . . وحلق بى إلى سماء من تراثنا الروحى لم تكن خطرت لى على بال . . وأى حر يعشق الفضل حيث وجده ، وأديب يهيم بالحكمة وساحر البيان لا يخر ساجدا للحديث الشريف ومعجز القرآن . . .)[1] .

ومثل هذه النفس التى حررها الحق من أغلال التعصب غير مستغرب أن تقذف وجه الباطل بمثل تلك الصيحة المجلجلة الأخرى[2] :

من يبك عهد الموامى والدمى فأنا ... والحمد لله قد حطمت أصنامى
شغلت قلبى بحب المصطفى وغدت ... عروبتى مثلى الأعلى وإسلامى

* * *

الحق يحرركم :

أجل . . هذه نعم ما كنا لنحلم بها لولا دفقة الحرية التى كشفت عن العالم غربيه وشرقيه الكثير من ظلمات التعصب . . ولكن المحزن حقا أن هذا النور لا يزال بعيدا عن الكثير من النفوس التى ألفت حياة الظلام . أليس من المؤلم المفجع أننا لا ننفك نرى بين ظهرانينا شبابا امتلأت رؤوسهم

(١) من مقدمة ديوان القروى . . . (وليته تذكر أن السجود لايجوز إلا لله ، إلا أنه علم ذلك بعد إعلانه إسلامه ولله الحمد) .

(٢) من مطولة رائعة ألقاها الشاعر فى حفلة تكريم أقامتها له الحكومة السورية فى دمشق قبل سنوات . . .

ببضاعة الثقافة العصرية ، على حين قلوبهم ظلت محبوسة فى سجون التقاليد الكنسية ! . شبابا لا يعرفون عن محمد إلا ما كان يسمعه جهلاء أوروبة عنه فى عصور الصليبية ، وهم مع ذلك يقرؤون بعض الدروس عن هذا النبي ، ويسمعون الكتاب الذى جاء به يموج به الأثير صباح مساء ، ثم هم يعلمون مع ذلك أن محمدا من أبناء هذه الأرض العربية ، ولعلهم قرؤوا فى بعض الكتب أن القرآن الذى أنزل عليه هو الذى حفظ لأمته لغتها ، وبالتالى بقاءها القومى ، فكان من حق تاريخ أمتهم عليهم أن يكلفوا أنفسهم بعض البحث عن حقيقة هذا الرجل ، الذى يدعى أنه رسول الله إلى الناس جميعا ، ويرميه خصوم الحق بألوان من التهم لو صحت واحدة منها لكانت جديرة أن تمحو اسمه من تاريخ الإنسانية ! .

ولكن . . وما أوجع لكن ! . . إن هذا الشباب الذى لا يقبل أية فكرة فى الرياضيات والفيزياء وما إليهما دون قناعة وتحقيق ، هو الذى يتلقى تهم خصوم محمد دون أية مناقشة أو تدقيق ! . . فتراه يردد ما قالوه فيه ، من غير أن يكلف نفسه السؤال عن بواعثه وخوافيه ! . وما كان أحراه أن يقرأ فى تدبر قول الإنجيل : (تعرفون الحق والحق يحرركم . .)

وأذكر هنا حديثا قديما سمعته من الشاعر اللبنانى الأستاذ (سعيد عقل) فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكنا آنذاك فى سهرة عند الصديق الأستاذ (رشيد سنو) بطرطوس[1] ، وكان الحديث مما لا يتفق مع الصحيح من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، فراجعته فى الموضوع ، وأوضحت له الحقيقة بدلالات تاريخية ، فإذا الدهشة تعلو وجهه . ثم يسألنى فى إلحاح عما إذا كنت واثقا مما أقول ! . فقلت له : كل الثقة . . وقد رواه فلان وفلان فى كتاب كذا . . وإذا شئت رجعنا إلى المصدر فى الحال .

فلم ير ضرورة لذلك ، وقال : هذه معلومات تلقيتها من المستشرقين أساتذة اليسوعية فى بيروت ، وكنت أحسبها فوق كل ريبة ، حتى سمعت

---

(١) مركز إحدى المحافظات السورية . . .

منك ما ذكرت . . لذلك أود لو أجمع بينك وبين هؤلاء الأساتذة لتتناقشوا في الموضوع فيعلموا مثل الذى أعلمتنى .

قلت : لا مانع عندى من ذلك . . وسأحاول الاتصال بك لهذه الغاية فى أول رحلة قادمة إلى بيروت .

وغادرنا الأستاذ – عقل – فى اليوم التالى إلى لبنان . . ولم ينس أن يلح على بتحقيق هذا الوعد وهو على مدخل السيارة . .

ثم شاء الله أن أكون فى بيروت بعد أيام ، فكان أول عمل قمت به بعد الاستجمام أن ذهبت أفتش عن الشاعر حتى التقيته فى مقهى الشرق من ساحة الشهداء . . وهناك ذكرته بما اتفقنا عليه ، فأظهر الاهتمام ، ووعد بتهيئة الاجتماع يوم غد . .

ولكن يؤسفنى أننى لم ألق صاحبى فى ذلك الغد . . على كثرة ما انتظرته وسألت عنه ، فحرمت بذلك متعة اللقاء الذى كنت شديد اللهفة إليه ! .

والذى أهمنى من تذكر هذه الحادثة هو أن الأستاذ عقل لم يرض يومئذ باستعمال عقله . . وأبى إلا أن يسمع فى موضوع البحث حكم اليسوعيين ! .
ثم لم يكتف بذلك حتى . . نسى موعد الاجتماع الذى ألح هو عليه ! .

* * *

بين التقليد والتحقيق :

والتزام الأستاذ عقل لمقررات اليسوعيين ، يذكرنى – وأنا أراجع مسودة هذا الكتاب – بموقف قريب مشابه لرجل كنسى يسمونه (البحاثة) هو الخورى أيوب سميا . . .

فى عدد أيلول ١٩٦٢ من مجلة (النعمة) البطريركية الدمشقية ، وفى الحلقة التاسعة من مقالات هذا البحاثة نقرأ ما يلى : (. . . فهؤلاء المريميون كانت منهم فئة فى مكة ، وكانوا يعبدون الله بثالوث يفسرونه به تعالى وبالمسيح وبمريم ، ولما كانت الكعبة بيت آلهة لجميع العرب ، ولكل

قبيلة فيه معبودها ، وضع هؤلاء المريميون فيه صورتى المسيح ومريم . . وذكرهما أصحاب السير النبوية كابن هشام وعلى بن برهان الدين الحلبى ، وحكى الأزرقى أن محمدا عندما كسر أصنام كعبة مكة أبقى على صورتى المسيح ومريم واحترمهما . . ولكنهما تلفتا عندما ضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق . . ومن أولئك المريميين كان ورقة بن نوفل الأسدى . . وإياهم عنى محمد بـ (الناس) فى الآية ١١٦ من سورة المائدة : **(يا عيسى بن مريم . . أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين ! . .)** وبقوله فى ١٧ من المائدة أيضا :**(لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم . . .)**.

فهاهنا (تحقيقات) عدة ، نحب أن نقف على بعضها قليلا ، لنتبين ما فيه من قوة التحليل والتدقيق :

١ — إن حضرة (البحاثة) يقول بأن محمدا — عليه صلوات الله وسلامه — قد أبقى على صورتى المسيح وأمه فى الكعبة . . . وأنهما قد لبثتا مكانهما هناك سليمتين مشهودتين عشرات السنين ، حتى أتلفهما الحجاج .

٢ — إن القرآن قد عنى بآيات المائدة أولئك الذين يسميهم (البحاثة) مريميين ، وفيهم ورقة بن نوفل .

٣ — إن القرآن هو من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ! .

ونحن نقرأ فى كتب السيرة أن أصناما كانت على الكعبة حطمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن صورا للملائكة والنبيين كانت فى حيطانها ، فأمر بمحوها جميعا ، ثم لم يكتف حتى عنى على بقيتها بيديه ، إذ أمر أسامة بن زيد (رضى الله عنه) فجاءه بدلو ماء ، فجعل يمحوها ، ومن ثم دعا بزعفران فلطخ موضع تلك الصور . . وهذه رواية الحلبى . . وهى فى الوقت نفسه رواية أصحاب السير السابقين ، أو أصحها ، لما درج عليه الحلبى من النقل عنهم ، والتوفيق بين رواياتهم . . وفيها الدلالة القاطعة ، على أن الكعبة قد طهرت من كل أثر للأصنام والصور باطنا وظاهرا ، منذ ذلك الحين .

ثم إن القول بإبقاء النبي صلى الله عليه وسلم على صورة ما ، إنما ينم عن جهل مطبق بجوهر رسالته ، التي تحرم تصوير الأحياء أيا كانوا – إلا لضرورة – ولا سيما ممن يتجه إليهم بعض الناس بالعبادة . . فضلا عن مجافاته الظاهرة لمضمون الآيات نفسها ، التي تقرع الأسماع تنديدا بمؤلهي المسيح وأمه ، منفردين ومجتمعين . . !

أما الزعم ببقاء هاتين الصورتين إلى عهد الحجاج فعبث أشد غرابة ، لأن مثل هذا الأمر ينبغي أن يكون من التواتر والشيوع بمنزلة البديهيات ، إذ يكون مشهودا ومعلوما من الملايين . .

وأما قصد القرآن بالناس إلى المريميين خاصة ، وفيهم ورقة ، فلا دليل عليه ، لا من القرآن ولا من التاريخ ، لسببين أولهما : أن مفهوم التأليه فى الإسلام يشمل كل دعاء لغير الله ، فدعاء النبيين والأولياء والقديسين وغيرهم لنفع أو ضر – بعد موتهم طبعا – إنما هو عبادة ، وكل عبادة لغير الله تأليه ، لأنه توجيه الخاص بالله إلى سواه . ومن هنا يتضح أن تقييد الناس بفئة ما ، ما دامت فئات أخرى تشاركها فى هذا المفهوم ، تحكم لا مسوغ له من الفقه القرآنى . .

على أن (البحاثة) المحترم قد نسى ، من الوجهة التاريخية ، أن ورقة قد لقى رسول الله فى مكة ، أول ما واجه الوحى ، وقد استمر العهد المكى ثلاث عشرة سنة ، انتقل بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، وبما أن سورة المائدة مدنية ، وهى آخر سور القرآن نزولا ، كان المدى الزمنى بين لقاء ورقة ، وآيات المدينة قرابة ربع قرن ، وهذا كاف للفصل بين شخصية ورقة وجماعته ، وبين مناسبة الآى التى تتناول الحديث عن مؤلهي عيسى وأمه ، أيا كانوا ، دون تفريق ولا تخصيص . . يضاف إلى ذلك أن خبر ورقة قد انقطع عقيب مطالع الرسالة ، مما يرجح أن الأجل قد وافاه قريبا من ذلك[1] .

---

(١) فى رواية البخارى عن عائشة (رض) بعد أن أورد خبر بدء الوحى واجتماعه صلى الله عليه وسلم بورقة قال : « ثم لم ينشب ورقة أن توفى » .

وشيء آخر هو أن عقيدة ورقة ، كما تبدو من أعماله وأقواله ، شديدة الشبه بالعقيدة الإسلامية ، بل هي هي . . نفهم ذلك من موقفه مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ومن قوله له : أبشر ثم أبشر . فإني أشهد أنك نبي مرسل ، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك ، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك » . .

ففي هذا الكلام صراحة تحسم كل تردد ، في أن ورقة لم يكن قط مؤلها لأي بشر ، وأنه كان من الذين أخلصوا دينهم لله وحده ، ونحن وغيرنا مضطرون لقبول هذا الحكم على عقيدة ورقة ، لأنه الحكم الحاسم الذي تقدمه السيرة ، وهي المصدر الوحيد لأخبار الرجل . .[1]

بيد أن المؤسف حقاً هو أن هذه البديهيات على قربها من متناول (البحاثة) المحترم ، قد فاته النظر إليها ، لأنه في الواقع لم يشأ أن يكون محققا ، فاكتفى بالأخذ عن لويس شيخو ولامانس وأمثالهما ، دون أن يكلف نفسه النظر في المصادر التي يدعون الاستناد إليها ، وهي هي الخطة نفسها التي رأيناها عند صاحبنا القس مؤلف الأطروحة . .[2]

ولا غرابة أن يحاول (البحاثة المحترم) تنصير الإسلام ، بمثل هذه الأخبار العجيبة ، عن صورتي المسيح ومريم عليهما السلام ، فقد سبقه إلى ذلك بحاثون كثر . . أبى أحدهم إلا أن يجعل من الكعبة مركز أسقفية في الجاهلية ، وكل حجته أنه قرأ في أحد النصوص التاريخية عبارة : (.. وكان على الكعبة أسقف . .) فاختطفها دون وعي ، ثم راح يشيد عليها ما استهواه من علال وقصور . . وهو غافل أنه إنما يصنع من الأسقف — بفتح الهمزة جمع سقف — أساقفة وأسقفيات لا وجود لها ، ولا لهم ، إلا في مركز تخيلاته ! . . .

بقي أن نقول لحضرة الحوري (البحاثة) : تستطيع أن تقول في القرآن ما يمليه اعتقادك ، ولكننا نذكرك فقط بأنك ، حتى في هذا لن تكون

---

(١) أجمع رواة السيرة على هذه المعاني مع اختلاف في اللفظ يسير
(٢) سيأتي الكلام عن هذا .

معبرا عن فطرتك التى لا يمكن أن تصدق أن كتابا كالقرآن شهد عمالقة الفكر العالمى ، بأنه فوق كل قدرات البشر ، يعقل أن يكون من كلام رجل أمى ، عاش قبل أربعة عشر قرنا ، فى بلد لم يحتو مدرسة ولا جامعة ، ولم يتجاوز فى معلوماته حدود الفطرة البدائية ! . .

وصدق الله العظيم الذى يقول فى وصف كتابه الحكيم : **(قل آمنوا به ، أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم ، يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا . . إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون . ويزيدهم خشوعا) ١٧-١٠٧ ـ ١٠٩**(١)

* * *

تحقيق تاريخى :

بعد نشر هذا التعقيب فى (حضارة الإسلام) رأينا أن نعيد النظر فى خبر الأزرقى عن صورتى المسيح وأمه ، لنتبين أى مدى يمكن التعويل

---

(١) مما يذكر بالخير لمجلة النعمة أن تعقيبنا هذا لم يكد يظهر للقراء فى مجلة (حضارة الإسلام) حتى اختفى اسم (البحاثة المحترم) من صفحتها الأولى . . فكان ذلك تقديرا جميلا من المجلة للحقائق التى أوردناها . ومن غريب الاتفاق أننا نراجع هذا البحث وبين يدينا رسالة وصلتنا من طالب لاذقى يتلقى دراسته الجامعية فى مدريد بأسبانية ، وفيها من أخبار التعصب الكنسى هناك ما يجدد موضوع الخورى أيوب سميا . .

يقول الطالب : إن وزارة التربية والتعليم فى هذا البلد لا تتورع أن تقدم لطلبة العلم فى بلادها ألوانا من السموم بوصفها حقائق تاريخية وبشرية ! .. فى بعض كتبها يدرسون أن المحمدانيين - ويقصدون المسلمين - يعتبرون المرأة بلا روح ، وأنها لا تدخل الجنة ، وأنها خلقت للغرض الجنسى فقط ! . . هذا إلى الكثير من المناكير التى يخترعونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مصحوبة بالصور التى يراد بها تثبيت ذلك الاختلاق ! . . وليست كتب الدولة هذه سوى أنموذج مصغر لمحتويات الكتب الأخرى المعروضة فى المكتبات العامة . . فهناك ترجمات لمعانى القرآن لا تخلو من مثل هذه الأراجيف . . ومن أمثلتها قول المؤلف فى مقدمة إحداها : « أن القرآن نمط من أقاصيص ألف ليلة وليلة ! . . . » وفى مقدمة غيرها يقول مترجم آخر : « إن محمدا بذكائه استطاع أن يأخذ من اليهودية والنصرانية ، ويضيف إليهما أشياء جديدة . . . » .

والخطير فى هذه المفتريات أن الطلاب الأسبان يتلقفونها على أنها « حقائق علمية » . وقد يقضون أعمارهم دون أن يقرؤوا كلمة فى تفنيدها . . . ذلك لأن الدبلوماسية الإسلامية فى بلادهم مشغولة بالدعاية للطواغيت . . . وبالكلام عن فرص المتعة التى توفرها دولهم للسائحين فى حين أن أساتذة « سميا » يعملون معاولهم فى تهديم الحقيقة ، محاولين إطفاء كل أثر للنور الذى بدأ يقتحم [illegible]

عليه من الناحية التاريخية ، فتحصل لنا ما يلى ، إستنادا على الطبعة الماجدية بمكة المكرمة :

(ا) ورد خبر الصورتين فى مواضع عدة من الكتاب بدأ من ص ١٠٠ بعضها عن عطاء بن أبى رباح ، وبعضها عن عمرو بن دينار ، ومنها عن بعض الحجبة عن مسافر بن عثمان . .

(ب) بعض هذه الروايات يحمل الشبهة فى ذاته إذ ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه وضع يده على صورة عيسى وأمه ، وأمر أن يمحى سائر الصور إلا ما تحت يده ! . . .

(ج) وبعضها يؤكد أن هاتين الصورتين قد شوهدتا فى جوف الكعبة حتى قبيل هدمها من قبل الحجاج ، أو قبيل الحريق فى عصر ابن الزبير . .

(د) وتختم هذه الأخبار بالرواية الثابتة فى كتب الحديث ، إذ يروى المؤلف الأزرقى عن جده عن . . . جابر بن عبد الله قوله : (زجر النبى عن الصور ، وأمر عمر بن الخطاب زمن الفتح أن يدخل البيت فيمحو ما فيه من صورة . ولم يدخله حتى محى !) ويكرر الخبر عن جده . . . عن الحسن (أنه – صلى الله عليه وسلم – لم يدخل الكعبة حتى أمر عمر أن يطمس على كل صورة) .

(هـ) ولتعليل هذا التناقض بين كلا الخبرين ، خبر محو جميع الصور دون استثناء ، وخبر استثناء الصورتين ، لابد أولا من التذكير بقيمة كتاب الأزرقى (أخبار مكة) فهو (كان صغير الحجم ثم زيد عليه علاوات كثيرة وضم إليه مواد عديدة أدت إلى اتساعه) . . ! – انظر المقدمة – ولا يستغرب أن يكون خبر استثناء الصورتين من هذه الإضافات . . ثم هناك احتمال آخر أشار إليه الزرقانى على المواهب وهو أن هاتين الصورتين لعلهما كانتا مرسومتين بضرب من الدهان يتعذر زواله فبقيت منهما بقية . . وكلا الاحتمالين معقول ومقبول . .

على أن الخبر الذى يظل بادى البطلان هو الزعم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استبقى الصورتين عمدا . لأنه لا معنى لاستثنائهما ، بعد أن ثبت إتلافه صلى الله عليه وسلم — أو طمسه — لصورتى إبراهيم وإسماعيل ولما قررناه من منافاة هذا الإبقاء للمعلوم بداهة من شريعته صلوات الله وسلامه عليه . وهذا ما يذهب إليه الأزرقى نفسه حين يروى نبأ الطمس العام لجميع الصور ، وبخاصة حديث ابن أبى شيبة عن ابن عمر (رض) (أن المسلمين تجردوا فى الأزر وأخذوا الدلاء وانجروا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها ، فلم يدعو أثرا من المشركين الا محوه وغسلوه) . ص ١٠٥ — وهو الحق الذى نقرؤه فى صحيح البخارى عن ابن عباس (رض) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت . .) .

• • •

نبـوة لا عبقرية :

وكنا ذات مرة — أنا وزميل من رجال الأكليروس — نتحدث فى موضوع الرهبنة ، فقص على أخبار كتبهم فى شأنها ، وكانت هذه الأخبار متفقة مع أنباء القرآن فقرأت لصديقى قوله تعالى : (**وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة . . ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها . . . ـ ٥٧ — ٢٧**) . . فلم يتمالك الزميل أن أظهر دهشته من دقة هذه التفاصيل . . ثم قال : (حقا إن محمدا ذكى . .) ولم أتمالك بدورى أن أدهش من تعليله فأقول : (وما شأن ذكاء محمد فى الموضوع ؟ إنه الوحى يا صديقى . . إنه الذى علم محمدا ما لم يعلم) .

وفى يوم آخر كنت مع صديق مسيحى ، وقد أخذ يعرض على شبهاته على القرآن . . فأوضحت له ما عمى عليه . . . وكشفت له بعض كنوز هذا الفرقان . . فلم يستطع إلا أن يهتز لما سمع من الحقائق ، التى لم يعرفها البشر كعلم إلا فى هذا العصر . ولكنه سرعان ما أجابنى : (حقا إن محمدا عبقرى) . قلت : ولكن هل يصح فى عقلك يا عزيزى أن تبلغ

العبقرية الشخصية فى إنسان عاش قبل أربعة عشر قرنا ، وفى أعماق الجاهلية ، بعيداً عن مصادر العلم والثقافة ، إلا أشعارا لاتتجاوز معانيها وصف غزوة ، أو مدح خلة ، أو هجو زلة ، أو كشف خلجة ، أن يكشف من قوانين الحياة والطبيعة ما استغلقت دونه أفهام البشرية كلها ، فلم تلمحه إلا بعد أكثر من عشرة قرون ! . يا عزيزى . . إن من شأن الذكاء الشخصى فى أمة موهوبة كالأمة العربية أن نخرج خطيبا كأكثم ، وحكيما كزهير ، وحائرا كطرفة ، ومتأملا كأمية بن أبى الصلت ، وباحثا عن الله كزيد بن نفيل . . أما أن يخرج رائدا عالميا يخبر بما كان ويكون وسوف يكون وما يجب أن يكون حتى قيام الساعة .. فأمر لا يقول به الأذكياء المنصفون ! .

قال : يمكن أن نسميه ما شئت . . الا أن نقر له بالنبوة . .

قلت :

من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعــه شىء ولا يضــع

لن يؤذى مقام محمد يا عزيزى أن تجحد نبوته ، ولـكن الأذى إنما يصيبك أنت بهذا الجحود ، لأنك تخالف ضميرك إلى أوهامك . .

قال : ولـكن السيد المسيح قد أخبرنا بمجىء أنبياء كذبة ، وحذرنا من الانخداع بهم .

قلت حسنا . . ولـكنه إنما حذرك من الـكذبة ، ووصفهم لك حتى لا تخدع بهم ، وأى تحديد لهؤلاء الـكذبة أشد وضوحا من قوله « من ثمارهم تعرفونهم » فهل تسمى هذه الحقائق العلمية التى جاء بها محمد . . وهذه النظم التى لا تزال فى المحل الأصلى بالنسبة إلى كل ما اكتشفه البشر من نظم . . هل تسمى هذا كله ثمار الـكذب . . ؟!

أجل يا عزيزى .. من ثمارهم تعرفونهم ، ومن ثمار محمد يؤمن العقل بأنه نبى مرسل من عند الله .. أما النبوات الكاذبة فظاهرة للمبصرين ، وهى بارزة فى ثمارها التى خدعت الناس عن الحقيقة قرونا طويلة . وما أحراك يا صديقى أن تنعم النظر بكلمة (توماس كارليل) فى هذا المضمار ، إذ يرد على الطاعنين بنبوة محمد قائلا : (لقد أصبح من أكبر العار على متمدن

من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى الطاعنين بالإسلام . . وآن لنا أن نحارب ما شاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . . كلا . . ما محمد إلا شهاب من الله أضاء العالم) .

سؤال وجواب : وأسمع اثنين من زمـــلائى مرة يتحدثان فى موقف الإسلام من زواج المسيحية بالمسلم والمسلمة بالمسيحى . .

يقول المسيحى : « لن نعرف طريقنا إلى الخير إلا حين نلغى هذه الحواجز بين الطوائف فتزوجونا ونزوجكم » . ويقول المسلم : « أنا معك . . ولا أرى أى مانع لذلك » . وكأنما انتبه إلى وجودى على مبعدة منه فاستدرك يقول ، وهو يوجه الكلام إلى : هل فى القرآن ما يمنع هذا ؟!! .

ولم أكن مضطرا إلى المساومة على دينى فقلت : بلى . . وفى إجماع الأمة منذ نزول القرآن حتى اليوم حجة قاطعة على هذه الحقيقة . . بيد أننى واثق من أن زميلى الكريم مؤيد الإسلام فى ذلك عندما يتعرف وجهة نظره .

فقال زميلى المسيحى : وكيف !!؟

قلت : لقد أذن الله لنا بتزوج الكتابية ، بعد أن قضى علينا بتركها وعقيدتها ، فلا نكرهها على الإسلام ، إذ فرض علينا حتى رقة اللهجة مع الكتابى فقال : (**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ٢٩ ــ ٤٦**) فهى كزوجة آمنة على عقيدتها ، لا تسمع من بعلها ما يؤذيها فى ذلك . . وإذا كان المسيح ، وهو مدار إيمانها ، يحتل فى عقيدة المسلم منزلة النبى المكرم ، وهى أسمى مرتبة يصل إليها بشر ، فان تسمع إذن من زوجها المسلم فى حقه إلا ما تسمعه فى حق محمد صلى الله عليه وسلم . . وبهذا ضمن الإسلام للكتابية وسطها الزوجى السعيد ، الذى يوفر لها كل أسباب الكرامة والهناءة . .

وفى تاريخ المسلمين قديماً وحديثا ما يريك النماذج العملية لهذا الطراز الكريم من المعاملة ، فأنت ترى كثيرا من الكتابيات فى بيوت مسلمين ، لا يزلن على دينهن يلقين إكرام البعل ، ويتلقين إحسان الولد .

هذا شأن المسلم مع النصرانية . . أما شأن المسلمة مع النصرانى فإليك البيـــان . .

وعددت له أربع نساء يعرفهن ، ولا أدرى كيف صرن أزواجاً لرجال من النصارى ، ثم سألته : هل بقيت واحدة منهن على دينها ! . . وكان الجواب طبعاً بالنفى ، فقلت : أما السبب فى هذا فمرده العقيدة يا عزيزى . . إن المسلمة التى يفرض عليها دينها أن تؤثر محمداً على نفسها وأهلها وولدها ومالهـا وكل شىء بعد الله ، لا تستطيع الحياة فى وسط لا يتورع عن أن يرميه بالـكذب ! . . وبعد قليل ستجد نفسها بين أمرين : الانسلاخ من الإسلام ، وهذا ما حدث للنسوة الأربع ، أو التخلى عن عش الزوجية ، الذى جعله اختلاف العقيدة فى محمد جحيما لا يطاق . وهكذا ترى يا صديقى أن الإسلام أحل زواج المسلم بالكتابية بعد أن أمن لهـا العيش السعيد ، وحرم زواج المسلمة بالـكتابى رحمة بكليهما ، ودفعاً لهذا الشقاء العتيد[1] .

ولم يرض زميلى بكل ما سمع فقال : ومن زعم أننا نتهم محمداً بالكذب !

قلت : لا تغضب . . فنحن فى موقف صراحة لا يقبل التلاعب بالألفاظ ، ولو فكرت قليلا فيما أقول لذهبت إليه ، ولم تجد مسوغـا للاعتراض عليه . .

قال : لقد فكرت فلم أجد مسوغا لاتهامك إيانا بهذا ، وها أنذا كمسيحى أؤكد لك أننى أقدر محمداً كبطل قومى ، وكرجل عبقرى . .

قلت : ولـكن محمداً يا صديقى لم يدع البطولة ولا العبقرية ، وإنمـا ادعى النبوة : فهل تقر له بهذا ! . فقال : أما هذه فلا . .

---

(١) أذاعت لندن فى س ٦ صباح الأربعاء ٩-٩-١٩٧٠ (أن ١٢ إيرانيا حكموا بالسجن فى زنجبار بموجب القانون الذى يلزم أى فتاة قبول أى خاطب غير مصاب بالتدرن الرئوى . وطبيعى أن وراء ذلك تصفية القواعد الإسلامية التى لا تبيح زواج المسلمة بغير المسلم . . . ومع ذلك فلا صوت يرتفع بالاحتجاج لأن صاحب القانون صديق اليساريين وقاتل آلاف المسلمين) .

قلت : فأنت إذن تكذبه شئت أو أبيت . . على أنك تسميه مع ذلك بطلا ! . حقاً إنه لضرب من التقدير العجيب ! ! .

معجزات : ويحسن بى فى هذه المناسبة أن أشير إلى فكرة كثيراً ما لمسناها فى كتب المستشرقين ، ومن حذا حذوهم فى بلاد العرب ، فقد وجد هؤلاء أنفسهم من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أمام حقائق أكبر من أن تطفىء الأفواه الكاذبة أنوارها الغالبة ، فراحوا يتقولون بأن محمداً قد أخذ هذه العلوم من ذوى المعرفة فى عصره ، وسموا من هؤلاء (بحيرا) الراهب وسلمان الفارسى . وكان الأجدر بالأعداء الجدد أن يتعظوا بإخفاق أسلافهم ، وأن يستفيدوا من الانتصارات التاريخية التى وصل إليها العقل الإنسانى فى ميدان المعرفة ، فجاءت كشاهد حاسم على حقائق هذه الرسالة الخالدة ، تردد فى مسامع الدنيا من جديد قول القرآن المجيد : **(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ٤١ ـ ٥٣ ؟)** .

وإلا فمن أين لذوى المعرفة من عصر محمد أن يدركوا ما لم تدرك الدنيا كلها قبل العصر الحديث ، من هذه القوانين الكونية التى تعلم الإنسان أن لا شىء من لا شىء : **(أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ٥٢ ـ ٣٥)** وأن القمر منطفىء يستمد نوره من الشمس : **(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ٧١ ـ ١٦)** . وأن المـــاء هو أصل جميع الأحياء : **(وجعلنا من المـــاء كل شىء حى ٢١ ـ ٣٠)** وأن كل ما تقع عليه حواسنا مؤلف من عناصر ذات نسب موزونة **(وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ١٥ ـ ١٩)** . .

وأن قانون الزوجية عام فى الكائنات نباتها وحيوانها ومكروبها وكهربائها **(سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ٣٦ ـ ٣٦)** .وأن الذرة التى هى وحدة المادة،والتى ـ إلى أمس القريب ـ كاد يجمع علماء الأرض على كونها الجزء الذى لا يتجزأ ، هى خاضعة للزيادة والنقصان ، حتى يكون ما هو أكبر منها وهو مجموع الذرات ،

ثم يكون ما هو أصغر منها ، وما ذلك إلا جزء الذرة : **(لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ٣٤–٣)** . وبذلك يضع القرآن لعقل الإنسان ،بدأ تحطيم الوحدة الذرية للحصول على أجزائها ، كطاقة جديدة فى القوى الكونية . . إلى آخر ماهنالك من عشرات القوانين الطبيعية التى تفتح للعقل طريقا للكشف لا نهاية لها ، إلا يوم تزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج أثقالها ، وتحدث بكل أخبارها . فيكون ذلك نذيرا بنهاية الحياة . . ولن تأتى تلك النهاية حتى يستنفد الفكر الإنسانى كل قدراته ، ويكشف له العالم الطبيعى كل مخبآته : **(حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن – تسكن – بالأمس ١٠– ٢٤)**

وقد جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : **والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ، وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**[1]. وليس ذلك إلا إشارة واضحة لما سيصنعه إنسان المستقبل من أجهزة التخاطب التى تبلغ من الدقة أن تختفى فى طرف العصا ، أو فى رباط الحذاء . . وقد أذاعت إحدى المحطات قبل أسبوعين نبأ اختراع ألمانى لمدخرة لا تتجاوز بحجمها بذرة الكرز ، وفيها من الطاقة ما يدير المذياع لمدة خمس سنوات ! . . وقد بقى من نبأ الحديث كلام السباع وأخبار الفخذ ، ونحن لا نفهم المراد منهما ، ولكن الزمن كفيل بإبرازه قريبا أو بعيدا . .

هذه الحقائق فى القرآن والحديث كانت كافية – لدى المنصفين – لقطع دابر اللغو والثرثرة التى تحاول تجفيف المحيط بالقمع . . وحجب الأفلاك بإغماض العين ! . ولكنها ليست أبدا كافية لدى العميان من مجانين التعصب القاتل ، فهم أبدا يبحثون عن مداخل الريب يثيرون غبارها فى طريق الله ، ليحولوا بين نوره وعباده . وقد نسى هؤلاء المساكين أن

---

(١) أخرجه الترمذى عن أبى سعيد . انظر تيسير الوصول إلى جامع الاصول ج ٤ . .

لعقل الإنسانى الذى بدأ السير فى خط الحرية لن يؤخذ بهذه الترهات إلى الأبد . . . وسيأتى اليوم الذى ينفض به عن عاتقه بقية أغلالهم ، لينطلق نشيطا إلى جنة القرآن .. وإن فى إخفاقهم بإطفاء نوره حتى الآن لدليلا مقنعا على أن للنور حافظا لن يقهر ، وناصرا لن يكسر : (**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ٦١ـ٩**) ..

* * *

شبهات :

قدم إلى قسيس من معارفى رسالة كان قد كتبها كأطروحة لنيل إجازة فى اللاهوت يريد منى أن أعطيه رأيى فيها . . وكانت الرسالة بحثا فى تاريخ الكتاب المقدس ، قديمه وحديثه ، فلم أجد فيها سوى ترديد لما كتبه بعض رجال الكنيسة ، وبخاصة من المستشرقين ، محاولة لإعطاء هذه الأسفار صفة الثبوت ، عن طريق شهرتها فى العصور القديمة . وأنا هنا لا أحب الدخول فى جدال حول الغموض الذى يحيط بنسبة هذه الكتب : من كتبها . . ؟ ومتى كتبت . . ؟ وأين كتبت . . ؟! وما رأى المؤرخين فيها . . ؟ وكم كان عددها فى الأصل . . ؟ ولماذا أبعد بعضها وأدنى الآخر . . ؟ وما هنالك من الخلاف بين ما يتبناه النصارى منها وما يتبناه اليهود ، ثم اختلاف كل من الطوائف النصرانية والطوائف اليهودية فيما بينها بشأن هذه النسخ أو تلك . . ثم اختلاف الترجمات الرسمية ، وما تعرضت له من تغيير . . إلى آخر ما هنالك مما ألف فيه المجلدات أخذا وردا !! . . أجل لا أحب البحث فى شىء من هذا أو ذاك ، ولكن أريد الوقوف عند نقطة من هذه الرسالة أشد ما أضحكتنى . . ولا سيما أننى سمعتها تردد على أفواه بعض الشباب من معارفى النصارى ، وكثيرا ما قرأتها فى كتب مؤلفيهم من المبشرين ، وبخاصة المستشرقين الذين يزعمون الإسلام فرعا من اليهودية[1] .

هذه النقطة هى محاولتها إقناع القارئ بأن كل حقائق القرآن إنما هى

---

(١) انظر « الإسلام فى نظر الغرب » ص ١٨

من هذه الأسفار ! . . ولإثبات ذلك يردد صاحب الرسالة آراء معلميه القائلين بأن مضامينها كانت مترجمة إلى العربية أيام البعثة النبوية . . وقد اتصل بها محمد صلى الله عليه وسلم فى مكة والمدينة وتلقاها من أفواه الناطقين بها هنا وهناك ! . . ثم قس على ذلك كل ما يخطر على بالك من الصغائر والكبائر ! . .

قلت : إننى سمعت هذه المزاعم من كثيرين من القوم ، وقرأتها فى الكثير من مؤلفاتهم .. وكنت فى كل مرة أضحك فى مرارة أسفا على هذه العقول الراقية أن تسخر طيعة لترديد أقوال ليس أيسر من تفنيدها وتبيين زيفها ، لو نظر إليها على ضوء النقد النزيه . .

وسأكتفى هنا بإيراد ما قلته فى شأنها لأحد الأصدقاء من هؤلاء .

كان هذا الصديق يردد الادعاء بأخذ القرآن عن كتب العهد القديم ، فأفهمته أن الأخذ يقتضى التطابق ، وبكلمة موجزة أن أخذ القرآن عن هذه الكتب يقتضى ألا يخالفها فيما اتفقت عليه حتى أصبح عقيدة مشهورة لدى ملايين المؤمنين بها . . ولو قد اطلعت على تفصيل القرآن لهذه الأخبار لوجدت بونا شاسعا بينها فى القرآن وبينها فى تلك الكتب ، حتى لتقطع أن منهج القرآن فى ذلك كان منهج نقد لمحتويات هذه الأسفار ، وتصحيح لما يراه مخالفا للواقع ، وكمثل على ذلك أذكر قصة سليمان عليه السلام . . ففى كتب العهد القديم أنه ، وهو النبي المختار ، قد أيد عبادة البعل ، وسعى لنشرها فارتد بذلك إلى الكفر ! . . والقرآن يبرئ سليمان من أمثال هذه الجريمة فيقول : (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ٢–١٠٢) . . ثم أذكر قصة هارون أخي موسى ، فى تلك الكتب أن هذا النبي المرسل ، باعتراف التوراة ، قد انتهز فرصة غياب موسى فصنع من العجل الذهبي وثنا لبنى إسرائيل ، ثم أغراهم بعبادته ، ثم دعاهم للطواف به كاشفين عوراتهم[1] ! . والقرآن يبرئ هارون من هذه الفرية ، إذ يبين أن صانع العجل ، والداعى إلى عبادته إنما هو السامرى ، ولم يكن دور هارون فى القضية سوى تحذير قومه من ذلك الضلال حتى عودة أخيه . .

---

(١) انظر سفر الخروج ص ٣٢ . . .

وكذلك جاء التباين شديدا بين قصتي لوط فى القرآن وفى سفر التكوين، فبينما هو فى القرآن من أئمة الإنسانية القائدبها إلى النور، المزودين بالعصمة من كل منكر، إذا هو فى سفر التكوين ذلك السكير الذى تصرعه الخمرة حتى لا يعى ما يعمل، ثم تأتى ابنتاه بما لا يخطر على بال أحقر الساقطات، إذ تسكران أباهما ثم تضاجعانه بحجة الإبقاء على النسل الإنسانى ! . . كأن الدنيا لم يبق فيها من الرجال سوى لوط، ومن النساء إلا هاتان الساقطتان[1] !.

وهكذا . . ومن هذه الأمثلة القليلة يتضح لك أيها الصديق فساد الرأى القائل بأخذ القرآن عن غير الله : **(ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ٤ – ٨٢)**

وكان طبيعيا أن أسمع من هذا الصديق ساعتئذ قوله : « إذا كان هذا موقف القرآن من هذه الأسفار فما بالكم تحاكموننا إليها، وتحاجوننا بها ؟! . »

قلت : ولكن فى هذه الكتب بقية من آثار الأنبياء، نعرف صحتها من موافقتها للعقل والقرآن . . ونحن نلفت نظركم إلى هذه الآثار بخاصة، ومن زاويتها، ومن زاوية العلم والعقل معها، ندعوكم أن تنظروا إلى القرآن وإلى محمد صلى الله عليه وسلم . .

قال : والإنجيل ؟! . . قلت : هذه الأناجيل تاريخ لحياة السيد المسيح، فيها بعض أقواله، وسائرها من أقوال كاتبيها فى وصفه وأعماله . وأنا كمفكر خالى الذهن من سلطان الكنيسة لا يهمنى سوى كلماته التى – بما تحمل من آثار الروحانية العليا، الموافقة لمقاييس الحق – تدلنى على إمكان صدورها منه . ونحن إذا احتججنا بالإنجيل فإنما نحاجكم بأقوال المسيح، بغض النظر عن كل قول آخر، وإلا فكيف تطالبنا بالتسليم لهذه الكتب على علاتها، وهى موضع الأخذ والرد لدى مفكريكم أنفسهم ! . . وهذه دائرة المعارف البريطانية تعطى حكمها القاطع بأن إنجيل يوحنا منحول، بل تقول : إنه (مزور أراد صاحبه إيجاد التعارض بين اثنين من الحواريين هما يوحنا ومتى) .

---

(١) سفر التكوين ١٩–٢١–٢٨ . . .

وهذا حكم لا نستطيع رده بسهولة خصوصا عندما نذكر أن خمسمائة من أكبر علماء المسيحية قد اشتركوا فى تأليف هذه المعلمة ! .

وسرعان ما رأيت صاحبي يضحك ملء فيه ثم يكرر قولة غيره : ومع ذلك فإنكم تخطئون جداً حتى عندما تناقشوننا بالأناجيل أو بأقوال المسيح . . فالمسيحية يا صاح إنما هى مجموع قوانين الكنيسة ، التى هى وحدها صاحبة الحق بالحكم فى مثل هذه القضايا . . » .

* * *

عقلية خاصة :

« الكنيسة هى وحدها صاحبة الحق » هذه الكلمة التى ختم بها صديقى محاورته ، قد أعادتنى مرة أخرى إلى صميم البحث ، فوجدتنى مشدود النظر إلى هذه الحقيقة الرهيبة : حقيقة الفرق بين مقياس الإسلام كما أفهمه ، ومقياس المسيحية كما يفهمه صديقى .

لقد افترق المسلمون سبعين فرقة ونيفا ، وكان لأضاليل الشعوب الغابرة أثرها الفعال فى هذا التقسيم ، ثم مضت قافلة الزمن فسقط فى الطريق من لم يستطع السير ، وخلص إلينا حتى اليوم بقية من هذه الجماعات ، على رأسها أهل السنة والشيعة . . ثم حفنات صغيرة اختطفتها الأهواء والمحاكاة العمياء من أحضان القرآن ، فهى لا تنتسب إلى الإسلام إلا بمقدار ما تقتضى مصلحتها العابرة ! .

والسنة والشيعة متفقتان على أصول الإسلام الكبرى . . وقد يكون بينهما من الخلاف ما يكون . . ولكن المهم أنهما يلتقيان على القرآن والسنة ، حتى أن الشيعة فى نظرتها السياسية إنما تحاول الاحتجاج بالقرآن والحديث . وقد أصبح معلوما بالبداهة أن كل خلاف ، مهما تكن شقته بين هاتين الجماعتين ، يمكن حله بالرجوع إلى هذين الأصلين ، وذلك لسبب واحد هو أن المتحررين من الهوى يدينون بأن لا عصمة لغيرهما من النصوص ، وأن كل قول لأى قائل مهما تكن منزلته ، خاضع لهذا المقياس محكوم به . .

ولقد تبلد تفكير الكثيرين من المسلمين منذ عصور الانحطاط . . وجمدوا على تقاليد يجترونها مما أخذوه من فلان وفلان من الصوفيين

والمتأخرين . . ولكنهم مع ذلك مؤمنون فى أعماق وجودهم أن الحكم الأول والأخير هو ما قاله الله ورسوله . . ولا وزن لأى كلام غيره ، إلا بمقدار ما ينبثق عن هذا المنبع . . ومما اتفق عليه أئمة المسلمين فى كل عصر هذا المبدأ المشهور : (ليس لأحد أن يقلدنا ما لم يفهم من أين أخذنا . .) (ومهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل . . فيه عن رسول الله خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله وهو قولى .)[1] . .

وهذا يعنى فى الإسلام أن مهمة الأئمة وكبار الفقهاء تيسير السبل أمام الأمة . . للأخذ المباشر عن الكتاب والسنة .

وكان طبيعيا أن تكون هذه نفسها مهمة رجال الكنيسة : مساعدة أتباعهم على فهم أصول المسيحية الثابتة فيما صح من كلام المسيح والأنبياء السابقين . . أما أن يكونوا هم الأصل فذلك شيء لا أحسب منطقا فى الدنيا قادرا على هضمه ! . .

لقد نسى هؤلاء المحترمون أن الإنسان هو الإنسان ، سواء كان قديسا أو رجل شارع . . خاضع أبدا لمؤثرات الطبيعة والهوى والموروثات وعوامل الثقافة وما إلى ذلك . . فهو — مهما يدع التجرد للحق — غير قادر على التثبت فى الحق ، ما لم يكن فى يده المقياس الكشاف الذى لا يفوته تسجيل أدق الإنحرافات ، وبخاصة فى الحقائق الدينية التى تفقد كل قداستها وعصمتها بمجرد الانقطاع عن أصولها الإلهية الثابتة .

هذه حقيقة كثيرا ما جربها هؤلاء المحترمون ، ولو هم قد التفتوا قليلا إلى الوراء لأبصروا ركام الأخطاء التى أثقل بها أسلافهم عاتق المسيحية خلال التاريخ . . فى حروبهم الصليبية ، وفى مذابحهم الدينية ، وفى محارقهم البشرية ، وفى محاولتهم صد تيار العلم والمدنية ، وفى أكداس المراسيم التى أصدروها لدعم سلطان الطواغيت ضد الشعوب والطبقات العاملة ،

---

(١) من كلام الإمام الشافعى . وبدافع هذا الأصل هب بقية الصالحين من علماء الإسلام لمناقشة شيخ الأزهر فى رأيه الذى طلع به على المسلمين فى موضوع الربا ، إذ رأوا فى اجتهاده انحرافا عن مدلول النصوص المقدسة . وبهذا الباعث ناقشنا خلفه فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود فى بعض ما ورد فى كتابه (أبو ذر والاشتراكية) وناقشه غير واحد من العلماء فى أكثر من كتاب له

وهم يحسبون أنما يفعلون ذلك كله خدمة للمسيحية . . وانقاذا للإيمان . . ثم لم يكتشفوا هذه الأخطاء إلا بعد تمزق المسيحية ، وارتفاع قبضتهم إلى الأبد عن كثير من أممها ودولها ! ! .

* * *

بقايا الفتن :

ويا ليت أصحاب السيادة الوارثين لأولئك الآباء الغابرين ، قد اتعظوا بأخبار أسلافهم ، فعمدوا إلى تدارك ما فات ، ولو هم فعلوا لأنكروا الكثير مما يوقده بعضهم حتى الساعة من نيران الأحقاد بين العباد ، ولكان مستحيلا أن ترى حتى اليوم مذابح إيرلندة الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت ولاستحال علينا أن نشاهد فى إحدى كبريات الكنائس الأمريكية مثلا رسوما لموسى وعيسى وبوذا يضيئون طريق البشر بالنور . . وعلى مقربة منهم رسم رمزى لمحمد صلى الله عليه وسلم يعمل سيفه فى رقاب الناس[1] ! . .

ولم نذهب بعيداً إلى إيرلندة وأمريكا ؟ . وفى كنيسة ما بلبنان ما هو أشد وأدهى ، فان الزائر لهذا المعبد لا يفوته أن يرى على يمينه تلك اللوحة التى تمثل وحشية الدروز وهم يعملون الحجارة والعصى والأدوات الفاتكة برؤوس الشيوخ من الموارنة (الأبرياء) ! . . لتكون ذكرى لا تمحى لمذبحة الستين ، تلك الفتنة التى أصبح واضحا جداً لدى جميع البشر أنها مؤامرة الغرب ، الذى ضرب أبناء البلاد بعضهم ببعض كى يستثمر الفتنة لأغراضه الاستعمارية . .

وطبيعى أن الروح التى أوحت بعرض هاتين اللوحتين هنا وهناك لم تكن يرمى إلى خير الإنسانية ، وإنما قصدت إلى تأريث الأحقاد إلى الأبد ، فى نفوس المرتادين لهذين المعبدين ! . . فاللوحة الأولى ضد محمد ومن ورائه العالم الإسلامى ، الذى لا يمثل بنظر أصحابها سوى ضرب من الوحشية المتحجرة . .

والثانية ضد الدروز الذين لا يستطيع المصلى فى تلك الكنيسة أن ينسى ،

---

(١) من مقال لجيمس ميشيل فى عدد شباط ١٩٥٥ من مجلة « المختار » . . .

وهو ينظر إليها ، أنهم هم الذين قتلوا جده ، وربما استأصلوا أصوله فى ذلك اليوم البعيد . . !

وما أحسب إنسانا ذا حس نبيل يستطيع أن يمنع نفسه الاشمئزاز أمام هذه القلوب الخربة ، التى تدفع أصحابها ليحيلوا بيوت الله مواطن لإثارة الضغائن والمؤامرات ضد سلام الإنسانية [1] ! ! . .

ولعمر الله ما كان لمايكل روهان أن يقدم على إحراق المسجد الأقصى المبارك ، لولا الإيحاء الدينى الذى ملأ صدره إيمانا بأن الله يأمره بهذه الجريمة . ومن هنا نستطيع أن ندرك السر فى إخفاق الكنيسة دون التخفيف من فواصل الألوان فى العالم الغربى ، حيث لا يزال مفهوما أن اعتناق المسيحية من قبل الشعوب الملونة لا يعطيهم حق التطلع إلى مرتبة الإنسان الأبيض . . حتى ولا فى حق التعليم . . وإنى لأكتب هذه السطور وفى رأسى بقية من دوى المذياع الذى كان ينشر قبل لحظات أنباء الحرب اللونية فى أمريكا ، حيث لا يستطيع طفل ملون دخول المدرسة إلا فى حماية الجيش ! . . وفى لندن حيث يهاجم الملونون — من رعايا الكومونولث — على مشهد من رجال الأمن ، وتخضب الأرض بدمائهم ، لا لذنب سوى ما أفرغه الله على جلودهم من أصباغ لا تروق عيون الجنس السيد . . !

إنها لبقية الوثنيات الغربية التى قسمت العالم قبل المسيح إلى سادة وعبيد ! . ثم جاءت المسيحية المظلومة تفرغ على هذا التقسيم — بلسان الكنيسة — لونه الشرعى . . الأمر الذى لم يعرف له التاريخ أثراً فى العالم الإسلامى ، حيث اعتبرت الهوية الإسلامية منذ اليوم الأول سببا كافيا لأخوة كاملة ، لا فضل فيها لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . .

* * *

بطولة العقيدة :

ولقد رأينا مما أسلفنا الكارثة التى ألمت بالمسيحية ، منذ اليوم الذى امتزجت فيه بتمحلات أفلوطين ، فكان ذلك باعثا فعالا زين لممثليها الرسميين أن يتبنوا الكثير من الأفكار الدخيلة ، وبخاصة تلك الجدليات

---

(١) ولعل تهديم المساجد وطمس معالم القرى الإسلامية أثناء الحرب الأهلية فى لبنان إحدى ثمرات هذه الأثار . . .

التى حملها إلى المسيحية شعوب الإمبراطورية الرومانية ، فما لبثت أن جعلت من العقائد النبوية البسيطة الواضحة رموزا معقدة ، لا سبيل إلى حلها عن طريق العقل أو الفطرة ! . .

ولعمرى . . لقد كاد هذا السبيل أن يكون مصير الإسلام نفسه منذ عصر المأمون ، لولا عناية الله التى تداركته ببطل العقيدة الإمام الصابر أحمد بن حنبل ، وإخوانه الثابتين على عهد الله .

إن الناس ليقرؤون أنباء الصراع بين السنة والمعتزلة ، ويعجبون بقوة الاحتمال التى قابل بها ذلك الإمام سياط جلاديه من المعتزلة زمنا ليس باليسير . ولكن قليلون منهم الذين فقهوا أسرار ذلك الصراع ، فعلموا أنه كان صراعا بين الفلسفة والنبوة . . بين النبوة التى تريد أن تحفظ للإنسان فطرته سليمة من كل انحراف أو تشويه ، وبين الفلسفة التى تأبى إلا إفساد هذه الفطرة بذلك الترف العقلى ، الذى لا يتقبل الحقائق إلا ملفوفة فى الأكفان ! . .

وبتضحية الإمام وعظمة احتماله ، وجرأته العجيبة على قذف كلمة الحق فى وجوه الخلفاء المخدوعين ، والشيوخ المضللين ، تنبه العالم الإسلامى إلى ما يراد بدينه من قبل هذه الوثنية اليونانية الخبيثة ، التى تسللت إليه باسم الفلسفة ، لترد الإنسانية إلى جاهليتها الأولى . . وبذلك استقرت العقائد الإسلامية فى مستواها النبوى الأعلى ، تاركة مجال العبث لأولئك الصبية الكبار من ضحايا السفسطائية الأعجمية ! . ولكم كانت المسيحية فى حاجة إلى بطل صبور كأحمد ، يبذل نفسه البريئة للعذاب إنقاذا لأمانة الله ، التى وضعها فى عنق الأحرار من أولى العلم والعزم . .

ونحن حين نقول هذا لا ننكر تلك البطولات المجيدة التى عرفها تاريخ المسيحية فى تضحيات آريوس وأنصاره الأولين من دعاة التوحيد ، المناضلين ضد تسلط الأفلوطونية على كنيسة المسيح . . ولا ننسى كذلك انتفاضة كلفن ولوثر وإخوانهما ضد طغيان الرئاسات الدينية وشذوذها عن طريق الإنجيل . . ولكن المسيحية المظلومة لا تنفك فى أشد الحاجة

إلى بطولات أخر ، تكمل طريق آريوس [1] وتولستوى [2] وسوسينوس [3] حتى تستعيد حقائقها التى سلبتها الفلسفات والانحرافات . .

* * *

حديث جمجمة :

« . . فى صبيحة اليوم وقعت عينى على جمجمة بشرية فوق أحد الأرف من المدرسة ، وكثيرا ما لمحتها هناك من قبل ، ولـكن لم أجد نفسى قط مشغولة بها كما هى اليوم ، وفجأة رأيتنى أتساءل : لمن هذه الجمجمة ؟ . .

---

(١) كان آريوس قسيسا من الإسكندرية أوائل القرن الرابع الميلادى .. وكان على رأى الجماعات القائلين بوحدانية الله وأن عيسى عبد مخلوق بعثه الله برسالة التوحيد ، وقد انتشر هذا الرأى أيامذاك فى أكثر الأوساط المسيحية ، كمصر والشام وفلسطين ومقدونية والقسطنطينية . . ويمثل أتباعه الأكثرية الساحقة بين المسيحيين . . وقد عقد فى أيامه أعظم المجامع المسيحية أثرا وهو مجمع « نيقية » حيث تجاوز المجتمعون الألفين من كبار رجال الدين ، وقد انقسموا شيعا كل واحدة لهـا رأيها فى المسيح ، ولـكن شيعة آريوس كانت هى الغالبة ، إذ تجمع حوله أكثر من سبعمائة من القسس يقولون : إن الأب وحده — ويريدون الإله المستحق للعبادة — هو الله . . والابن — يريدون الذى اختاره الله لرسالته — كائن مصنوع ، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن ». ولقد كان مأمولا أن ينتصر رأى آريوس لولا تدخل قسطنطين الإمبراطور ، الذى وجد رأى القائلين بألوهية المسيح على قلتهم أقرب إلى أفكاره ، وبخاصة أنه لم يكن قد تنصر بعد . وهكذا عطل قسطنطين إذ ذاك اجتماع القوم ، واعتبر المؤتمر مؤلفا من مؤلهى المسيح ، الذين لم يكن عددهم يتجاوز ثلاثمائة وثمانية عشر . . وقد ترك لهؤلاء أن يتخذوا القرارات التى فرضت فيما بعد على العالم المسيحى كله ! . أما هذه القلة فقد كان على رأسها بطريرك الإسكندرية الذى كان مشبعا بأفكار المدرسة الفلسفية ، وقد أبى أن يواجه خصمه آريوس بالمناقشة الحرة وجعل يحذر الناس منه ! . . ومن ذلك اليوم دخل أتباع آريوس فى معركة مع الدولة الرومانية ، وبجانبها كل رجال الدين الذين تجردوا لمحاربة الموحدين والإجهاز على دعوتهم ، دون أن يتاح لهؤلاء مجال الدفاع عن أنفسهم بحرية . . حتى خفت صوتهم ولـكنه لم ينقطع نهائيا حتى هذه الساعة .

(٢) هو الأديب الفيلسوف الروسى الـكبير ، تناول بالبحث عقائد المسيحية كما هى اليوم فخرج بالقول أن حقيقة المسيحية قد حجبت بالتفاسير والشروح التى شوهت وجهها وأخفته عن الأبصار . . ويتهم بولس بأنه لم يفهم تعليم المسيح ، فزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، ويقول أيضا : إن القائلين بألوهية المسيح ليس لهم سند حقيقى من أسفار موسى ، ولا من الزبور ولا من أسفار الرسل .

(٣) هو مؤسس الفرقة الصوصنية الذين انشقوا على كنيسة رومة إبان القرن السادس عشر ، إذ أنكروا عقيدة التثليث وتأليه المسيح ، ونادوا بالتوحيد الحق ، فبطشت بهم الـكنيسة ، وفر بقيتهم إلى سويسرة ، ثم لاذوا بشرق أوربة حيث شرعوا فى إذاعة عقيدتهم . . وتابعهم فى ألمانيا طائفة الأناباست الذين سحقتهم الـكنيسة أخيرا . . .

من صاحبها ؟ . . أذكر أم أنثى ؟ . . أصالح أم فاسق ؟ . أطاغية من الظالمين أم صعلوك من المظلومين ؟

ولكن عبثا بحثت عن الجواب ، لأن الهوية الوحيدة التى تحملها هى أنها جمجمة بشرية مجهولة . . ولا شيء غير ذلك .

وفى ظهيرة هذا اليوم جاءنا نعى هذا الزميل ، فامتطينا السيارات لاستقبال تابوته . . وفى الطريق التقينا بمواكب من القرويين خرجت فى زينتها للاحتفال بعرس ، فلم أتمالك قشعريرة سرت فى كيانى .. ثم وجدتنى مسوقا إلى هذا التساؤل الحائر : جمجمة بشرية مجهولة الهوية . . ومواكب تزحف إلى العرس . . ونحن إلى أين ؟ إلى استقبال جثمان زميل ! . . »

هذه لعمرى قصة الحياة . . عرس يعقب ولادة . . ولمحة من الزمن كالحلم الخاطف يسمونها الحياة ، لا تلبث أن يطاردها الموت ، ثم ماذا . . ؟ ثم هذا المصير الرهيب الذى يتمثل فى جمجمة مجهولة .

ما أرخص هذه الحياة . . وما أوجع هذه المأساة ! . ولكن . . مهلا . . أهذه هى الحياة كلها حقاً . . ؟ لئن كان الأمر كذلك فما أجدر الناس بتعجل الانتحار تخلصا من هذه المهزلة . . التى تفتح فمها ضاحكة من غرور الأحياء جميعا .

وهنا خيل إلى أنى أسمع هاتفا من وراء الغيب يقول : « أجل .. هذه هى الحياة كلها . . عندما تقف بأبنائها عند حدود المادة . . عند حدود هذه الجيفة التى يتنازع عليها الأغنياء . . ولكن ستجدونها شيئا آخر يموج بالجمال ، حينما تنفخون فيها أيها البشر من ذات قلوبكم ، حينما تملئونها من معانى السماء ، فتستحيل بمحبة الله وبمعرفته اشراقة من نور لا يعتورها انطفاء . . ويومئذ فقط تدركون أنكم تملكون الحياة التى تنبثق من الأزل لتصب فى الأبد ، الحياة التى لا يلم بها فناء ولا اضمحلال . . الحياة التى لا يكون فيها الموت إلا مرحلة انتقال من الوجود المحدود ، إلى الخلود الذى ليس له حدود » .

هذه العبارات تلخص كلمة ألقيتها ذات يوم تأبينا لزميل مسيحى ، وكان الجمع حاشدا يملأ المكان ، ويزدحم به الشارع المقابل .

ولقد شعرت يومئذ أن آذان هذه الآلاف جد مرهفة إلى كلمتى ، تتلقفها فى صمت وتتبع ، ثم تبين لى فيما بعد أن كثيراً من الأذهان قد احتفظت بأثرها ، وحتى اليوم لا أزال أجد من هؤلاء من يتحدث بهذه الأفكار ، ويذكرنى بها كلما عرض لى به لقاء . . وكان هذا وحده كافيا لإقناعى بأنه لم يزل فى قلوب الناس زوايا لا يملؤها سوى هذه المعانى الروحية ، وأن فى هذه الزوايا مفاتيح الأخوة التى أودعها الله فطرة الناس ، لتجمعها على الحق بين الحين والحين .

فيا شباب المسيحية :

بهذه المعانى أطرق اليوم أبواب قلوبكم ، وإنى لسعيد إذ وجدت استجابة من وراء هذه الأبواب .

أناشدكم الله أولا أن تنزعوا عن عقولكم قيود التقليد لأى كان ، وأن تذكروا أن لأحدنا أن يحب نفسه وأهله وأصدقاءه ومن فوقه ومن تحته ، ولكن لن يكون العاقل الحر حتى يكون الحق أحب إليه من كل هؤلاء . . وأذكركم ثانيا بهذه الحقيقة التى كفر بها معظم البشر فى هذه الأيام ، وهى أن الإنسانية المتناحرة المتسابقة إلى التفانى والدمار ، والغارقة فى وحول العصبيات العمياء ، لن تعرف طريقها إلى الاستقرار ما لم نعرف نحن أتباع الأنبياء طريقنا إلى ضميرها . . والطريق يا شباب هو تجديد إيماننا بالله ، ثم تصحيح نظرتنا إلى الدين . . ثم نشدان الحق فى حرية ملتهبة لا تعرف فتورا ولا مهاودة ولا مجاملة . . فإذا فعلنا ذلك استطعنا أن نحمل لهذه البشرية الحائرة الضائعة مصباح السماء من جديد ، فنردها إلى جنة الحب التى أخرجها منها الشيطان ، منذ اليوم الأول الذى فقدت فيه معانى الإيمان الصحيح .

ولا شك أن هذا التحرر سيكلفنا الكثير . . غضب الجامدين الذين حولوا الدين الحى إلى رموز ميتة لا تتجاوز حركة الشفاه والأصابع . . ونقمة المحافظين الذين استحال الدين عندهم إلى عصبية حزبية ، لا يهمهم منها إلا استبقاء قوة الطائفة . . ولو على أشلاء الإنسانية كلها . . ولكن ذلك يسير جداً بالنسبة إلى ما يفرضه الواجب ، وبالقياس إلى ما تحمله قبلنا أبطال الحرية من أعباء التضحيات .

إن الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو نقطة الانطلاق فى طريق الإنقاذ . . وهو أمر لا يتطلب إلا شيئا واحدا هو أقل تكاليف الحرية والرجولة ، ذلك أن نطلق ضمائرنا من أغلال التعصب الموروث ، لننظر بأعين رؤوسنا إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . وإلى سيرته . . ويومئذ ستعلمون أن هذا العربى (الذى حطم الأصنام ، وأنشأ دينا خالصا لله الواحد ، وحرر النساء من العبودية ، ودعا إلى العدالة الاجتماعية العامة)[1] والذى شهد للمسيح بالنبوة والبراءة من كل وصمة نبزه بها أعداء الحق ، والذى أحيا الشعور بوحدة الإنسانية إذ أحيا من جديد روح الإيمان بوحدة الرسالات النبوية جميعا ، حتى بات كل واحد من أتباعه يؤمن بأنه حلقة فى سلسلة الإنسانية الكبرى ، وواحد من أتباع النبيين كافة ، لا يقبل الله منه إيمانا ولا عبادة حتى يؤمن بالمسيح وموسى وإبراهيم وإخوانهم ، كما يؤمن بمحمد تماما . أجل . . يومئذ ستعلمون يقينا أن هذا العربى الممتاز هو أحق خلق الله بحبكم وتمجيدكم واستجابتكم . وكيف لا يكون كذلك وقد أرسل بالدين الذى يشتمل على جميع المثل العليا والمبادئ السامية التى لا نظير لها فى أى دين آخر ، والتى هى كفيلة بمنح أتباعه الحق فى قيادة الأمم وزعامة الشعوب عن جدارة واستحقاق[2] .

وحسبكم أن تتذكروا أن الإيمان بمحمد بالنسبة إلى المسيحى الفاضل هو كإكمال المادة فى امتحان الشهادة ، إذ يكون قد ربح بذلك معرفة نبى هو خاتم النبيين ، وانتفع برسالة هى خلاصة رسالات السماء ، صانها الله من كل تبديل وتغيير ، كما شهد بذلك أولو العلم فى الشرق والغرب ، إذ أعلنوا على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذى انتهى إلينا سليما كما أنزله الله على رسوله ، تحقيقا لوعده الكريم **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١٥ ـ ٩)** .

---

(١) من مقال لجيمس ميشر فى المختار عدد أيار ١٩٥٥ . . .

(٢) من كلام العلامة الألمانى « فارنو » فى كتابه « يقظة العالم الإسلامى » الصادر عام ١٩٥٤ ؛ وقد نشرت مجلة الأزهر عنه دراسة وافية بقلم الدكتور محمد غلاب عدد شوال ١٣٨٠ هـ .

إلى كلمة سـواء :

يا شباب . . إن لـكم من شواهد العلم المؤيد لحقائق القرآن ، ما يزيل كل ريب فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما يجعلـكم مسئولين أمام الله عن كل تردد فى التصديق برسالته . . وقد ذهب الزمن الذى كان يستسيغ تكذيب هذه الحقائق ، وأصبح المعقول عند أولى العقول أن لا يفر من هذا الإيمان إلا جامد على تقاليد ميتة ، أو مائع منحل قد أعلن سقوطه فى امتحان الرجولة . . وإنى لشديد الثقة بأنكم يوم تفتحون قلوبكم لهذه الحقيقة ستكونون الدم الجديد فى وريد البشرية المحطمة ، واللسان البليغ المبين فى الدعوة إلى وحدة الإنسانية المهشمة .

وحسبكم يومئذ شرفا وسعادة أن تكونوا حملة اللواء فى موكب الإنسانية . . تتقدمون وملء صدوركم اليقين بأنكم فى الطريق الأمين إلى سعادة الدارين .

اسمعـوا إلى أخ لـكم من أتباع عيسى يحدثكم عن أثر محمد (صلى الله عليه وسلم) فى قلبه : « لقد كان يسير ذات مرة فى شارع – كاتر فاج – على مقربة من جامع باريس ، بعيد الخاطر عن أرضه اللبنانية ، وإذا بتكبيرة تنطلق من المئذنة ، وتتعـالى على الجلبة الباريسية ، فكانت بغتة حلوة ملأت فؤاده . . فلم يتمالك أن حول طريقه وغشى باحة المسجد ، حيث قضى بعض الساعة بين تلك القناطر والقبب ، وكأنه فى سربه فى لبنان ، ينظر إلى منازلهم ، ويصغى إلى أحاديثهم .. على أن بينه وبينهم سماوات ومفازات ؟ ؟ »[1]

ان هذا والله لقبس من المشعل الذى أضاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) طريق العرب ، أزال وحشة الغربة ، وحطم حدود الزمان ، فأشعر هذا المـارونى ، وهو فى عاصمة فرنسا المسيحية ، إنه أقرب ما يكون إلى ذلك المؤذن الذى يعيش معه بقلبه ولغته . . أبعد ما يكون عن ذلك البلد الذى يعيش فيه بجسده وحده .

---

(١) من مقال للشاعر اللبنانى أمين نخلة . . .

أجل . . إنها العروبة التى حفظها الله بالنبى العربى صلى الله عليه وسلم ، فحفظ بها تلك القربى التى ترد الأنس المفقود إلى ذلك المسيحى الغريب ، فى البلد المسيحى البعيد .

ثم اسمعوا إلى عبقرى الشام العلامة فارس الخورى ، يؤكد لكم وللعالم كله : « أن محمدا أعظم عظماء العالم ، لم يجد التاريخ بمثله ، والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها . . يحتوى على أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الشريعة التى دعا الناس إليها باسم الله لأنها متفقة مع العلم ، ومطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية » . .

ولا تنسوا وأنتم تقرؤون هذا الكلام أن قائله كان ألمع رجال القانون فى سورية ، والرجل الذى أدهش العالم بحججه الحقوقية ، أثناء نضاله عن فلسطين فى مجلس الأمن وهيئة الأمم ، ورئيس اللجنة القانونية الممثلة لجميع دول العالم المتمدن . .

على أننى مرة أخرى أقول لكم : إنكم لن تستطيعوا الانتفاع بشىء من هذا حتى تتحرروا من كل عبودية لغير الله . . وحتى يكون الحق أحب إليكم من كل شىء سواه .

أيها الشباب :

إننى أخص ندائى هذا بكم وحدكم ، لأن الشباب وحده القادر على التكيف مع الواجب حين يؤمن به ، مهما خالف طريق السابقين من الآباء أو الأقرباء ، ولأن الشيوخ قد لصقوا بالماضى حتى صاروا امتدادا له ، فليس من سبيل إلى إيقاظ عقولهم لمناقشته ، ولا سبيل إلى ضمائرهم لأنها حجبت تحت ركام الاستسلام الضرير فلا طاقة لهم بالشك فيما ورثوه ، ولا يخطر على بالهم الانسلاخ مما ألفوه . . إن الشباب الحى هو وحده موضع الأمل بإعادة النظر فى هذه التقاليد التى فرضت عليه فى غياب إرادته ، دون أن تسندها دعامة من تاريخ أو رواية سليمة ، وإنما هى اندفاعات آنية أرسلتها ألسنة لم تقم وزنا للتبعة الإنسانية ، ولم تفكر قط بحقوق الأجيال .

لقد رأيتم مثلا من ذلك فى القرار الذى أعلنه حضرة البابا على مئات الألوف من زوار الفاتيكان قبيل سنوات قليلة ، والذى يفرض على أتباع الكثلكة أن يؤمنوا بارتفاع العذراء إلى السماء ، دون أى سند من شهادات التاريخ الذى لم يسمع قبل هذا القرار بشىء من ذلك قط .

وها أنتم أولاء تشهدون اليوم قرار خلفه الجديد عن تبرئة اليهود من دم المسيح . . وهو بدعة ردت كل ما ذهب إليه رجال الكنيسة خلال التاريخ فى هذا الشأن .

لقد قررت كتبهم المقدسة ، وتفسيراتهم المستمرة أن دم المسيح فى عنق كل يهودى منذ يهوذا الاسخريوطى حتى نهاية البشرية ، وهو تقرير قد يكون ظالما ، وقابلا للاعتراض ، ولكن قرار اليوم على كل حال خرق فاضح لأفكار المؤسسين لهذا الدين . . يفاجئ الناس بهذه الحقيقة وهى أن القوم لا يرون أى بأس فى أن ينقضوا اليوم ما شادوه بالأمس ، سواء كان ذلك حقاً أو باطلا . . وهذا كاف لتفريغ مقرراتهم من أى حق بثقة العقلاء .

* * *

شـــياطين السياسة :

وطبيعى أن المؤتمر المسكونى الذى أقدم على إعلان هذا النقض الجرىء لم يفعل ذلك بدافع التقدير للحقيقة والإنصاف للأبرياء . . وإنما دفع إلى ذلك دفعا بأيدى شياطين السياسة الذين يريدون تجميع العالم المسيحى فى تكتل صليبى جديد ، وراء المخلب الذى يسمونه إسرائيل . . وفرق بعيد بين تأييد ينهض به الساسة فى البيت الأبيض والدوننج ستريت والكرملين ، وآخر تؤازره أمم الصليبية باسم الدفاع عن أبناء عمومتهم الذين يشاركونهم فى قرابة المسيح ! .

إن المسلمين يا شباب ، لن يضيرهم أن يصب العالم المسيحى لعنته على فئة من اليهود بعينها ، أو على اليهود بأجمعهم ، بالنسبة إلى موضوع المسيح ، لأنهم مرتاحو الضمير من هذه العقد المفتعلة ، فهم مطمئنون إلى

أن المسيح لم تمتد إليه يد المجرمين من الرومان أو اليهود بل رفعه الله إليه ، بعد أن ألقى شبهه على عدوه الذى أراد به كيدا فجعله من الأخسرين ، ولكن الذى يؤلم المسلمين أن تتحرك الفتنة الصليبية مرة أخرى باسم المسيح ، وبنفس الأيدى التى أوقدتها من قبل ، ثم لا تجد هذه الأيدى من استنكار أحراركم سوى أصوات ضئيلة لا تتجاوز أصابع اليد .

يا شباب المسيحية . . لقد كانت الشعوب التى استجابت لبطرس الناسك ، رائد الحروب الصليبية الأولى ، معذورة بجهلها ، وبعدها من المعرفة والإدراك ، فما عذركم وأنتم أبناء المعرفة والثقافة ، بإزاء هذه الجريمة الجديدة ، التى يقودها اليوم من يسمون أنفسهم بالمؤتمر المسكونى ، ولا غرض لهم من ورائها سوى تعبئتكم وإخوانكم لتكونوا كآبائكم السابقين ، وقود النار الجديدة التى يعدها هؤلاء المحترمون لإبادة المسلمين ، وإطفاء نور الله الذى فتح أعينكم على الحقيقة المطموسة ، ونصب لعقولكم الموازين التى بها تفرقون بين الحق الأبلج ، والباطل الأعرج .

قولوا لهؤلاء المحترمين أن قراركم الأخير إنما يبرئ اليهود من جريمة وهمية ، شهد الله قبلكم ببراءتهم منها فى كتابه المعصوم من كل تحريف ، وشهد بشهادته ستمائة مليون من المؤمنين بهذا الكتاب العظيم ، فلا قيمة إذن من هذه الناحية لاعترافكم الذى جاء متأخرا . . ولكنا نقول لكم : إن جريمة اليهود الواقعية المشهودة فى اعترافاتهم اليومية ، والمسجلة فى كتبهم التوجيهية ، إنما هى اتهام العذراء بالزنى ، ووصف المسيح رسول الله بأنه وليد زانية . . فهل تجرؤون على تبرئتهم من هذه الجناية الكبرى ! . . لقد برأتم يهود اليوم من جريمة مزعومة حصرتموها فى حفنة من أجدادهم ذهبوا قبل ألفى سنة ، فما موقفكم من جريمة حقيقية يقترفها كل يهودى صباح مساء حين يوجه إلى المسيح وأمه مثل هذه الشنائع ! . . وبديهى أن قذفا كهذا إنما يصور واقعا نفسيا يغلى بالأحقاد ، التى لا تتورع أن تدفع بصاحبها إلى ارتكاب أحط الجرائم ضد المسيحية وأهلها . . فهل سألتم أنفسكم عن ذلك كله حين تبرعتم بتوقيع قرار البراءة المزعوم ! . إنكم بقراركم الساذج

لم تصنعوا شيئا سوى توكيد ما زعمه اليهود أنفسهم من أن (يهوه) لم يخلق المسيحيين إلا ليكونوا مطية للجنس اليهودى المختار ، ومع ذلك فستكون أولى نتائج هذه الاستجابة أن تسوقوا شعوبكم المخدوعة إلى مؤازرة العدو الحقيقى - اليهود - ضد المسلمين الذين هم وحدهم شهود البراءة للمسيح وأمه ، لأن دينهم يوجب عليهم أن يرفعوهما إلى أسمى ذرى الفضيلة . . فبالله عليكم أليس منتهى الخطل بل الجنون أن تكتلوا أممكم لدعم الطاعنين بالمسيح والعذراء بوجه المنزهين لهما ، المؤمنين بطهرهما ![1] .

يا شباب المسيحية (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . . ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) ٣ - ٦٤ .

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال : إننى من المسلمين) ... (وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ٤١ - ٣٣ و ٣٥

وأخيراً اصغوا معى فى تأمل عميق إلى هذه الانتفاضة الفطرية ، تطلقها امرأة مسيحية ضاقت ذرعا بما كانت عليه تحت كابوس العبودية لغير الله ، فلاذت أخيراً بكنيسة التوحيد التى ترفض أن تتهم المسيح بما هو منه براء ، وتأبى له إلا ما وصف به نفسه يوم ناجى ربه بقوله الكريم : (وما الحياة الأبدية إلا أن يعلموا أنك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته . .) . .

---

(١) جاء فى التلمود - كتاب اليهود الاقدس - « من يقتل مسيحيا يكافأ بالخلود فى الفردوس . . » ولذلك حصل الحاخام يهوذا من الامبراطور الرومانى على أمر بقتل كل المسيحيين فى رومة عام ١٥٥ م ومن أحكام التلمود قولهم « ان المسيح كان مجنونا وكافرا لا يعرف الله . . » ومن أجل هذا يقول الحاخام « رشى » (اقتل الصالح من المسيحيين . .) ويقول « ميمانوذ » (يجب على الإنسان - اليهودى - أن يقتل بيده الكفرة مثل يسوع الناصرى واتباعه ويلقيهم فى هاوية الهلاك . .)

انظر ص ٨٦ و ٨٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ من (الكنز المرصود فى قواعد التلمود) واقرأ فى آخره اخبار الجريمة العالمية عن قتل اليهود الأب توما . .

اصغوا معى إلى قولهـا :

ليس عيسى فى نظرى إلا رجلا عاش حياة علوية . .
وأرى فى ولادته مجرد ولادة بشرية تماما . .
ولـكن الحب العميق فى سويداء قلبي هو الحب العظيم . .
الذى أكنه لأخى المسيح . .
أنا أعلم أننى ارتكبت خطايا باستحلال منكر وإنكار معروف ..
ولـكن لا يستطيع أحد غيرى أن يكفر عن خطيئتى . .
وأنا أعلم بالحب الذى فى قلبي كيف أصلح حالى مع الله . .
أنا أعلم أن أجلى قصير وأن الموت آت . .
وأنا أرسل دعاء الحب والثقة مع كل نفس ألفظه . .
ورغم أنى خارجة عن الـكنيسة وعن حظيرة العقائد . .
فإننى أكن فى قلبي حبا لله والناس ، وذلك كل ما يحتاجه المرء[1].
فيا شباب المسيحية . . .
اصغوا وفكروا . . . ثم احكموا . . .

---

(١) من قصيدة معربة عن مجلة – اسلاميك رفيو – عدد شباط ١٩٥٣ ، وهى من شعر امرأة تنتسب إلى « كنيسة الموحدين » كنيسة جديدة خرج أتباعها عن عقيدة التثليث إلى الإيمان بوحدانية الله ، وبأن المسيح رسول من الأنبياء المكرمين .

وقد نقلناها بدورنا عن مجلة التمدن الإسلامى بدمشق عدد شباط ١٩٥٧ . . .

قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض

تقدم فى صدر هذا الفصل ملخص حوار دار بيننـــا وبين أحد الزملاء المسيحيين ، عرضنا فيه لموضوع الأرض وكرويتها وبعض شئون الكواكب .. وقد رأينا أن الحديث فى هذا الشأن سيظل ناقصا بنظر القارئ ما لم نعرض فيه لذكر الحدث الأخير الذى تمثل فى ارتياد القمر . . . . وانه لحدث غير يسير أطلق مئات الأسئلة ونشر عشرات الاستفهامات : ما حكم القرآن فى هذا الأمر ؟ . وما موقف السنة النبوية منه ؟ . . . وهل نصدق خبر النزول على سطحه أو نرفضه ؟! . . .

ولقد سمعت أحد الاخوان يحاضر فى هذا الموضوع فيهون من أمر هذه الرحلة ، ويحاول التركيز على أنها ليست أكثر من دعاية إعلامية غربية يراد بها إرهاب المسلمين من قوة القوم ، وتضخيم مركزهم العلمى والمادى فى أوهامنا ، ليستمر إعجابنا بهم وإكبارنا لشأنهم ، فنظل سادرين فى تقليدهم ، ويظلوا موغلين فى استغلالنا ! .

ومع أن المحاضرة كانت موضوعية فى معظم جوانبها ، أبرزت سعة علم المحاضر فى المباحث الفلكية ، إلا أنها لم تستطع الإجابة على الكثير من تلك الاستفهامات . . بل ربما أضافت إليها عدداً آخر من الاشكالات التى تتطلب الحلول . .

والشىء الذى أريد قوله هنا هو أن موضوع ارتياد القمر ليس من التوافه التى يحسن بالعقل المسلم أن يمر بها دون اهتمام . . ذلك لأنها نتيجة تقدم هائل فى فهم القوانين الكونية ، وفى القدرة على الانتفاع بها . . . وإنكارنا لهذه الحقيقة يكاد يشبه إنكار أحدهم لحلاوة العنب الذى عجز عن بلوغه . . وفى اعتقادى أنه لو تحققت هذه الرحلة على يد علماء ورواد

مسلمين لكان جديرا بنا أن نزهى على الدنيا ، ونملأ الآذان والقلوب تنويها بعبقريتنا . .

والآن نعود إلى السؤال الأول : ما حكم القرآن وأخبار المعصوم صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ؟ . . .

ولقد كان الجواب سهلا ميسورا لو ترك الأمر لمصادر الوحى ولدلالة اللغة العربية ، إذ يرجع المفكر فى هذه الحال إلى الآيات والأحاديث التى أشارت إلى الموضوع ، ثم إلى فهم السلف لها ، ولكن الذى عقد الأمر وأبعد الشقة هو أقاويل المتأخرين المتكاثرة والمتضاربة ، والتى امتزجت فى الأحيان الكثيرة بتصورات أهل الهيئة من غير المسلمين ، فوضعتنا تلقاء مسارب مسدودة لا نعلم كيف ننفذ منها . .

وفى رأيى أن المشكلة كلها مقصورة على تحديد مكان الأجرام بالنسبة إلى الأرض : أهى فى الفراغ الكونى بين السماء والأرض ، أم هى داخلة فى السماء نفسها ، أم ملصقة بها ؟ . . .

وجواب هذا كله قائم فى تحديد معنى السماء كما وردت فى مصادر الوحى وفى ضوء المدلول اللغوى .

وقد شاء الله أن يكفينا مئونة استقصاء النصوص المبينة لذلك بما دبجته يراعة العلامة المدقق الشيخ عبد العزيز بن باز فى هذا الصدد ، ولعل من أمائر التوفيق الربانى أن أقع على مقالته تلك على غير ميعاد ، فى الوقت الذى كنت أتهيأ لهذا العمـــل . وسأكتفى من بحثه الجميل هذا بالفقرات الأكثر اتصالا بالموضوع .

قال أحسن الله إليه :

(. . . قد تأملنا ما ورد فى الكتاب العزيز من الآيات المشتملة على ذكر الشمس والقمر والكواكب فلم نجد فيها ما يدل دلالة صريحة على عدم إمكان الوصول إلى القمر أو غيره من الكواكب ، وهكذا السنة المطهرة . . وخلاصة ما يتعلق به من أنكر ذلك أو كفر من قاله ما ذكره

الله فى كتابه الكريم فى سورة الحجر حيث قال سبحانه : (**ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . . . .**) وفى سورة الفرقان : (**تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا**) . وفى سورة الصافات (**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب .**) وفى سورة الملك : (**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .**) وفى سورة نوح : (**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . .**) .

وقد ظن هؤلاء أن ما ذكره الله فى هذه الآيات الكريمات ، وما جاء فى معناها على أن الكواكب فى داخل السماء أو ملصقة بها ، فكيف يمكن الوصول إلى سطحها ! . . وتعلقوا أيضا بما قاله بعض علماء الفلك من أن القمر فى السماء الدنيا ، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة ، وزحل فى السابعة .. وقد نقل ذلك كثير من المفسرين وسكتوا . والجواب أن يقال : ليس فى الآيات المذكورات ما يدل على أن الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب فى داخل السماء ولا أنها ملصقة بها ، وإنما تدل على أن هذه الكواكب فى السماء وأنها زينة لها ، ولفظ السماء يطلق فى العربية على كل ما علا وارتفع . .

ثم ذكر فضيلته من الشواهد على ذلك قوله تعالى : (**وأنزل من السماء ماء . .**) وأن المراد بالسماء هنا السحاب . سمى بذلك لعلوه وارتفاعه ، وأن المراد بالسماء فى قوله تعالى : (**فليمدد بسبب إلى السماء . .**) السقف لعلوه بالنسبة إلى من تحته . وكذلك فى قوله سبحانه (**مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء**) أى فى العلو . والأدلة فى هذا الباب من كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام المفسرين وأئمة اللغة على إطلاق لفظ السماء على الشىء المرتفع كثيرة . . ثم قال فضيلته :

« إذا عرف هذا فيحتمل أن يكون معنى الآيات أن الله سبحانه جعل هذه الكواكب فى مدار بين السماء الدنيا والأرض ، وسماه سماء لعلوه ، وليس فيما علمنا من الأدلة ما يمنع ذلك . . واستدل بقوله عز وجل عن حركة الشمس والقمر والليل والنهار (**وكل فى فلك يسبحون** . .) على أن الشمس والقمر دون السماء الدنيا (ولو كانا ملصقين بالسماء لم يوصفا بالسبح لأن السبح هو الجرى فى المـــاء ونحوه . . . » .

ونقل رواية ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . . . أن البروج المذكورة فى سورة الفرقان إنما هى بين السماء والأرض . . .

ثم ينتهى من ذلك كله إلى القول بأنه لا إشكال فى أن الوصول إلى سطح القمر أو غيره من الكواكب لا يخالف الأدلة السمعية .

ويقف عند قوله تعالى فى سورة نوح : (**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً** . .) فيقول : ليس فى الأدلة ما يدل على أن معناه أن الشمس والقمر فى داخل السموات ، وإنما معناه عند الأكثرين أن نورهما فى السموات لا أجرامهما . . .[1] فأجرامهمـا خارج السموات ونورهما فى السموات والأرض . . .) .

وقد رأينا من المنكرين لإمكان الصعود إلى بعض الكواكب من يحتج بما رواه ابن جرير (رح) عن عبد الله بن عمرو ، من طريق ابن ثور عن معمر عن قتادة (أن الشمس والقمر وجوههما قبل السموات وأقفيتهما قبل الأرض . . .)

---

(١) يبدو لى من الآية الكريمة – والله أعلم – أن ليس المراد كون نورهما فى كل من السموات السبع ، بل كونهما كائنين ضمن إطارهن ، ودليل ذلك ما ثبت من إجماع العلماء – كما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن إياس بن معاوية – أن السماء على الأرض مثل القبة – الفتاوى ج ٢٥ ص ١٩٥ – وبما أن السماوات طبقات بعضها فوق بعض فكل منها كالقبة فوق الأخرى . . وإذا فهم هذا اتضح تبعاً لذلك أن الشمس والقمر ضمن محيط السموات السبع إذ هما محاطان بإطار السماء الدنيا ومن ورائها بقية السموات . . . وعلى هذا فهما فى السموات السبع حقاً لأنهن محيطات بهما . فمثلهما فى ذلك كمثل مصباح أضيء فى الدور الأول من بناية ذات طبقات فلك أن تقول أن المصباح فى البناية ، وإن لم يحتل سوى جزء منها . . ومثل هذا فى كلام العرب كثير ، ومنه قوله تعالى : « فاسألوا القرية » وإنما يسألون بعضها لا جميعها ، وكقولك إنى أسكن المدينة ومسكنك فى جزء منها لا كلها .

فيقول الشيخ معقبا على هذا الخبر : (وفى سنده انقطاع لأن قتادة لم يدرك عبد الله بن عمرو ، ولعل هذا إن صح عنه مما تلقاه عن بنى اسرائيل[1] وليس هناك حجة يعتمد عليها فيما نعلم تدل على أن القمر فى السماء الدنيا والشمس فى الرابعة . . وأما قول من قال ذلك من علماء الفلك فليس بحجة لأن أقوالهم غالبا مبنية على التخمين والظن ، لا على قواعد شرعية وأسس قطعية ، فيجب التنبه لذلك . .) ونقل عن الحافظ بن كثير (رح) اختلاف علماء الفلك فى هذا الأمر ثم قال : (ولو فرضنا أنهم اتفقوا على ما ذكر فاتفاقهم ليس بحجة . . .)

إلى أن قال : وظاهر الأدلة السابقة ، وكلام كثير من أهل العلم أو الأكثر كما حكاه النسفى والألوسى ، أن جميع الكواكب ومنها الشمس والقمر تحت السموات ، وليس فى داخل شىء منها . . وبذلك يعلم أنه لا مانع من أن يكون هناك فضاء بين الكواكب والسماء الدنيا يمكن أن تسير فيه المركبات الفضائية ، ويمكن أن تنزل على سطح القمر أو غيره من الكواكب . . ولا يجوز أن يقال بامتناع ذلك إلا بدليل شرعى صريح يجب المصير إليه . . .) .

وما أحكم قول الشيخ بعد ذلك : (ومما يدل على إمكان الصعود إلى الكواكب قول الله سبحانه فى سورة الجن : **(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا)** . فإذا كان الجن قد أمكنهم الصعود إلى السماء حتى لمسوها ، وقعدوا منها مقاعد ، فكيف يستحيل ذلك على الإنس فى هذا العصر الذى تطور فيه العلم والاختراع حتى وصل إلى حد لا يخطر ببال أحد من الناس حتى مخترعيه قبل أن يخترعوه . .)[2] .

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رح) : أن « عبد الله بن عمر أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما . . . ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد . (مقدمة فى أصول التفسير) ط لاهور ص ٣٢ .

(٢) هذا مع التذكير بأن الإنسان بطبيعة تكوينه أحق بالكشف والعلم من الجن إذ هو المخلوق الوحيد الذى ميز بخاصية المعرفة « وعلم آدم الأسماء كلها » و « علم الإنسان ما لم يعلم » .

ثم ختم ذلك بالكلام عن السماء ذات الأبواب فقال : « أما السماء المبنية فهى محفوظة بأبوابها وحرسها فلن يدخلها شياطين الإنس والجن لقوله تعالى : (**وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون**) وقوله : (**وحفظناها من كل شيطان رجيم** . .) وثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج به لم يدخل السماء الدنيا وما بعدها إلا بإذن ، فغيره من الخلق أولى . . . » .

وبعد فهذا كلام محقق قد أنار الله بصيرته بروح الحق ، فهو لا يقبل الأمر ولا يرفضه إلا بالدليل الشرعى والعقلى ، ولا جرم أن أحكامه فى بحثه هذا نابعة من ذلك .. وهى صريحة فى كونه لا يرى فى الكتاب الحكيم ولا الخبر النبوى مانعا يحول دون إمكان نجاح الرحلة إلى القمر أو سواه من الكواكب . . وحجته الحاسمة فى ذلك أن السماء فى هذين المصدرين المعصومين لم تحمل معنى واحدا بل معنيين مختلفين بحسب المقام والقرينة . . أما أحدهما فالسقف المرفوع ذو الأبواب والحرس الشديد ، فالوصول إليه فوق مرامى الأوهام البشرية . وأما الثانى فهو ما علانا من السقف والسحب والفراغ الكونى الذى بين السماء والأرض ، وهذا هو المقصود بمغامرات الرواد وأعمال المراصد . . وهذا هو الحق المبين الذى لا تتجاوزه علوم أهل الهيئة قديما وحديثا . . فما نعلم أحدا منهم زعم إمكان الوصول إلى السماء المبنية التى عرج إليها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لسبب بسيط هو إدراكهم عن طريق الوسائل الرياضية العليا أن أجهزة الإنسان بالغة ما بلغت من الدقة والقوة عاجزة عن أن تحلم بالوصول إلى المجرة فضلا عما فوقها . . وحسب المرء أن يعلم أن المركبة الأمريكية التى أطلقت فى اتجاه المريخ قد استمرت فى اندفاعها أكثر من ستة أشهر ، قطعت خلالها قرابة مائتى مليون ميل ، فأى رائد يغامر بنفسه فيودعها مثل هذه المركبة كل هذا الزمن ! فكيف بما وراء المريخ مما يستهلك بدل الأشهر الأعوام بل عشرات الأعوام ، ولا يصل ضوؤه إلى الأرض إلا بعد انطلاقه بعشرات الملايين من السنين — فيما يزعمون — ! . . . .

كيف يشوهون الحقائق :

وهذا مما يسترعى الانتباه فى كلام العلامة بن باز هذا أنه توكيد لما سبق أن أفضى به فى مختلف المناسبات العلمية ، وقبل الذى نقلته الإذاعات العالمية عن نجاح الرحلة القمرية بأكثر من عام . . وقد سمعناه يقول ذلك فى دار الحديث بالمدينة المنورة ، ثم فى المعهد العلمى من المدينة أيضا ، و ذلك فى تعقيبه على بعض المحاضرات . ولولا ذلك لأمكن لمتقول أن يزعم أن الشيخ قد جنح إلى هذا القول بعد حصول المفاجأة التى لا مجال لإنكارها ، كما سبق أن فعلت إذاعة صوت العرب عندما أخذت ترجف بأن (نائب رئيس الجامعة الإسلامية فى السعودية نشر مقالا فى جميع الصحف أهدر دم كل من يقول أن الأرض كروية، وأن الأرض تدور حول الشمس ! . .).

وطبيعى أن مخترع هذه المفتريات ، وهو الشيوعى المعروف أحمد بهاء الدين ، لم يقدم على تأليفها إلا لينفذ من ذلك إلى التشهير بالمملكة – البلد الوحيد الذى يحكم شريعة الله ، ويحمل راية التضامن الإسلامى ، فى هذا الجو الأحمر المخضب بجرائم الاشتراكية – لذلك أعقب ذلك الإفك بقوله : (وإذا كان يبدو غريبا أن يذاع هذا الرأى عام ١٩٦٦ وفى عصر الفضاء ، فصاحب هذا الرأى منطقى مع ما تردده المملكة السعودية هذه الأيام من أفكار وآراء . . فحكام السعودية لا يتحدثون الآن إلا عن الأفكار والنظريات المستوردة ، ولا يدعون إلى (الحلف الإسلامى) إلا بدعوى دفع خطر الأفكار المستوردة عن المسلمين ، وهم يقصدون الاشتراكية بالطبع ، يكتفون برفضها بناء على أنها مستوردة ، وبهذا المعنى أليس القول بأن الأرض كروية أيضا نظرية مستوردة !! . . [1]

ومن هذه المفتريات تدفقت مادة غزيرة لتسويد عشرات الصحف الحمراء يومئذ ، ولتزويد الإذاعات التى تتربص بالفكر الإسلامى الدوائر ، فى شرق وغرب ، بما تتوق إليه من وسائل الطعن والدس . على حين أن

---

(١) من تعليق صوت العرب حول مقال نشر فى مجلة المصور ، ليلة الجمعة الأخيرة من ذى الحجة ١٣٨٥ . . .

وإذا صح تقدير المناظير والرياضيات الفلكية كان ذلك دليلا على أن السنين الوارد ذكرها فى الحديث الشريف حول أبعاد السموات إنما هى سنون ضوئية أو أنواع أخرى من المقاييس الزمنية التى لم يصل إليها علم الإنسان بعد .

وقد اطلع على رأينا هذا أحد فضلاء العلماء فكان من رأيه حمل السنين على مفهوم العرب لأن القرآن إنما خاطبهم بما يعلمون . وإذ كانوا لا علم لديهم بالأزمنة الضوئية ونحوها كان صرف السنين فى الحديث والقرآن إلى غير المتعارف بينهم غير سديد .

والذى نراه أن المراد من السنين إنما هو تنبيه السامعين إلى عظم المسافة ، وهو هنا أمر محقق ، لأن مجرد ذكر ذلك البعد الهائل كاف لجعل المخاطب به مهيأ الذهن لتصور البون السحيق الذى يفصل بين هذه الأجسام العلوية ، دون أن يضطر إلى تعيين ذلك بالساعات والدقائق .

ونحن اليوم لو سألنا راكب بعير عن الزمن الذى سيستغرقه أثناء رحلته من طيبة إلى دمشق مثلا لقال : شهرا ، ولو سألنا سائق السيارة عن ذلك لأجاب : ثلاثة أيام ، فى حين لو سألنا راكب الطائرة النفاثة لقال : ساعة أو قريبا من ذلك ! . . فالمدى المكانى واحد ولكن المدد اختلفت باختلاف وسائل السفر .

وكل ذلك على فرض التسليم بصحة الأخبار المتعلقة بموضوع المسافات إذ فيها كلام لغير واحد من رجال الحديث .

وعلى أى حال ففى ما قدمناه ما يكفى للدلالة على أن كل محاولة للوصول إلى السقف المحفوظ فى حكم المستحيل . . هذا إذا حذفنا من حسابنا مخاطر الرحلة من الرجوم والشهب والحراسة التى علمناها بطريق الوحى ، والتى هدى إليها أولو العلم بقوانين الفضاء . .

ثم مهما يكن وراء ذلك الاتجاه العقلانى من حسن النية وسلامة الطوية والرغبة الأكيدة فى خدمة الكلمة القرآنية ، فلابد من القول بأن خيرا

الطواغيت ، أو يحاولون التعرض لها بأى نقد علمى ! . . . ولكنه عجب لا محل له إلا عند المنصفين ! . . .

ولعمر الحق أن كلام الشيخ ألصق – عند أهل الحجى – بالحق والعلم السوى من الانسياق وراء كل ناعق ، وكان أجدر باحترام أولئك المرجفين وتوقيرهم لو كانوا ممن يهمهم أمر الحق والعلم . ولكنهم فى الواقع ليسوا سوى ناقمين من الإسلام ، فهم يتلمسون لعلمائه السقطة ، فاذا لم يظفروا بها احتالوا لاختراعها ، ثم لنشرها بكل ما تحت أيديهم من وسائل الدعاية والإعلام ! .

ومما يحسن ذكره هنا أن تصريح العلامة بن باز فى موضوع الصعود إلى القمر فى دار الحديث إنما كان باعثه كلام العلامة القرآنى الشيخ محمد الأمين الشنقيطى فى الموضوع نفسه ، إذ كان الشيخ الأمين يستنتج من ظواهر الآى عدم الإمكان ، ثم ختم استنتاجه الشخصى بهذا الاستدراك العالى إذ قال : هذا ما نفهمه من آيات الكتاب العزيز ، فاذا تحقق ما يتوقعه الآخرون من الوصول إلى سطح القمر كان ذلك دليلا على أننا كنا مخطئين فى فهم إشارات الكتاب الحكيم . . ولا عجب فكلام الله هو الحق الذى لا يعتريه خطأ ، وإنما يتأتى النقص والخطأ من قصر فهمنا وقصور إدراكنا...»

وهنا جاء تعقيب العلامة بن باز حيث ناقش الموضوع بدقة وعمق ، وانتهى من ذلك إلى ما أسلفناه من توكيده على إمكان الوصول إلى الكواكب .

وهكذا جاء كلام كل من العالمين الفاضلين صورة من العقل الإسلامى الناضج ، الذى لا هدف له سوى تعرف وجه الحق والوقوف عند حدوده دون دوى ولا ضجيج ، ودون محاولات مفتعلة لقسر الآيات على موافقة كل ما يقوله مفكرو الغرب ، حتى ولو أدى ذلك إلى مخالفة روح القرآن ومنهج السلف ، كما تورط بعض المجددين فى العصر الحديث .

* * *

السلف لا الغــرب :

لقد رأينا الشيخ محمد عبده وسيد أحمد خان يسلكان هذا المعبر

المخوف ، فيصرفان الكثير من أنباء القرآن العظيم عن الوجهة التى فهمها السلف . . . وكان الحافز لهما على ذلك محاولة التوفيق بين الإسلام والاتجاهات الجديدة التى تسربت من الغرب ، وفى ظنهما أنهما بذلك يتداركان بقية الإيمان فى نفوس الجيل المفتون بمفاهيمه ليحفظا له صلته بدين الله ! . ولكن سرعان ما اتسع الخرق على الراقع ، فاذا المأخوذون بهذا المسلك غير السلفى يوغلون فيه إلى غير نهاية ، حتى شمل اجتهادهم كل جانب ، من المعجزات إلى السياسة إلى الاقتصاد إلى المرأة إلى ما لا يحصى من الشئون .. وإذا نحن من ذلك أمام أسلوب من التفكير لا يمت إلى منهج خير القرون بأى سبب ، لأنه منهج غريب دخيل ، لا أساس له ولا أصل من التصور الإسلامى الأصيل .

وكمثل من ذلك نقتصر على موقف تلاميذ هذه المدرسة من موضوع السماء لما نحن بصدده من حديث . وفى مجلة (الوعى الإسلامى) صور من ذلك تتجلى فى حلقات من البحوث الفلكية ، كتب بعضها الدكتور أحمد محمد الغمراوى – الكاتب المعروف ببحوثه الإسلاميه الرائعة وغيرته المتأججة على الحق – وفيها ينسج على منوال سلفه الشيخ محمد عبده فى تفسير السماء المبنية على أنها هى هذه الكواكب ولا شيء غيرها ...[1] وعلى

---

(١) الوعى الإسلامى عدد ربيع الأول ٨٨ . . وفيه يقول الدكتور حول قوله تعالى من سورة النازعات « السماء بناها . . . » « أن البناية فى الأرض متلاحمة الأجزاء لبنة إلى لبنة ، أما السماء فلبناتها الكواكب والنجوم وما إليها . . . » ويكرر فى المقال نفسه : « أن كلمة بناء بالنسبة للسماء من أعجب الاستعارات ، لأنها وإن خالفت البنيان الأرضى للتباعد العظيم بين الأجزاء فقد تحقق فيها أهم مميزات البنيان من ترابط الأجزاء بالجاذبية . . . » ص ١١ و ١٣ .

وهو لا يكتم تأثير مدرسة محمد عبده فى تقريره هذا إذ يقول : « واللطيف البديع أن كبير المفسرين المحدثين الإمام محمد عبده فسر بناء السماء طبق قانون الجاذبية ، فكان فتحا فى التفسير ، وفتوى عملية تبيح تفسير الآيات الكونية فى القرآن طبق ما ثبت أو يثبت على أيدى علماء الفطرة – يريد علماء الطبيعة – » .

ثم يورد بعض كلام الشيخ محمد عبده فى تفسير البناء فإذا هو تكرار يكاد يكون لفظيا لما ذكره من اعتبار الكواكب لبنات مترابطة بالجاذبية وقد سلك سبيله فى التفسير « العقلانى » الدكتور جمال الدين الفندى فى بحوثه الفلكية التى انطوت على علم جم . انظر الوعى الإسلامى عدد ذى الحجة سنة ١٣٨٨ ص ٩ . . .

فى حين جعل الشمس بمثابة السراج الذى فيه الضوء والحرارة المتوهجة جميعا . . ودون أن يفصل العلاقة بين القمر والشمس أرانى أستنتج منه بدلالة التلازم أن الشمس تفيض ضوءها عليه ، فينقله إلى الأرض على صفته تلك خاليا من الحرارة التى تلازم أشعتها ، كشأن السراج حين ينعكس ضوؤه على جسم صالح لنقله ، فهو ينير دون أن يؤذى . . وقد تجلت هذه الحقيقة بالصورة البصرية ، إذ شاهد الرواد مواد السطح القمرى كنفاضات البراكين المنطفئة ، فهى تستقبل أشعة الشمس ، فتعكسها بدورها إلى الأرض على الصورة التى نعهدها . . .

وفى وصف الله سبحانه السراج بكونه وهاجا – فى سورة النبأ – إشارة كبيرة إلى كون الشمس كوكبا مشتعلا محرقا ، بخلاف القمر الذى اكتفى بإعطائه صفة النور .

وهذه الحقيقة القرآنية القائمة على الأخذ والعطاء بين القمر والشمس قد فقهها السابقون من علماء الإسلام دون أى خلاف فيما نعلم . . وهذه عبارة الحافظ ابن كثير (رحمه الله) فى تفسير لقوله تعالى فى سورة (ياسين) (**والقمر قدرناه منازل** . . .) تقرر هذا الأمر بجلاء لا غموض معه ، إذ يقول : (أما القمر فقدره منازل . . . ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ، وإن كان مقتبسا من الشمس حتى يتكامل نوره . . .)[1] وفى إيراده عبارة (وإن كان مقتبسا من الشمس) على هذا الوجه العفوى دلالة على أن القضية تكاد تكون من المسلمات عند علماء الإسلام . ومرة أخرى نقول هنا : إن هذه الكشوف الفلكية الأخيرة لكأنما قد قصد بها استجلاء حقائق القرآن الحكيم ، وخدمة معانيه الجليلة . ولا جرم ، فليس من علم عرفه الإنسان إلا وهو صالح لتوكيد معجزة القرآن . وصدق الله القائل فى محكم كتابه ومستقبل جلاله : (**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ... أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ٤١ – ٥٣**) ...

---

(١) ابن كثير ج ٣ ص ٥٧٢ . . .

مقالة الشيخ لم تعد يومئذ حدود البحث الواعي الذى يحاول صاحبه التوقف عند حدود النصوص الإلهية بكل ما أوتى من قدرة على الفهم والاستنباط .

ولو عدنا إلى كل ما كتبه الشيخ يومئذ مبتدئا ومعقبا لم نجد فيه أى نفى لكروية الأرض ، بل على الضد من ذلك قد أورد من كلام ابن القيم ما يؤكدها . وإنما كان أساس البحث إنكاره على من يقول بسكون الشمس بوجه خاص ، وإليك كلامه بالحرف .

(. . وهكذا علماء الإسلام المعروفون المعتمد عليهم فى هذا الباب وغيره قد صرحوا بما دل عليه القرآن الكريم من كون الشمس والقمر جاريين فى فلكهما على التنظيم الذى نظمه الله ، وأن الأرض قارة ساكنة قد أرساها الله بالجبال وجعلها أوتادا لها ، فمن زعم خلاف ذلك وقال : إن الشمس ثابتة لا جارية فقد كذب الله وكذب كتابه الكريم .

. . وأما من قال أن الأرض تدور والشمس جارية فقوله أسهل من قول من قال بثبوت الشمس ، ولكنه فى نفس الأمر خطأ ظاهر . . . لأن القائلين بدوران الأرض قد أوردوا شبهات توجب التوقف فى كفر من قال بذلك . .) .

وأكد الشيخ هذا المعنى فى جوابه للأستاذ الصواف إذ قال : (. . ولم أكفر من قال بدوران الأرض ، ولا من قال : إن الشمس تجرى حول نفسها ، وإنما صرحت بتكفير من قال : إن الشمس ثابتة لا جارية . . .) .

فأين تهويشات (صوت العرب) ومن أخذ بمزاعمها من صحف الغرب والشرق ، من هذه الحقائق التى لا تتجاوز نطاق البحث الموضوعى ! . . . وأى مأخذ يجده المنصفون فى كلام الشيخ إذا كان يعلن حكم الله فى ارتداد من كذب كلام الله عن جريان الشمس ، واتبع ما تتلوه الشياطين على دعاة الباطل القائلين بسكونها — إذا كان ثمة من يقول بسكونها — ! . . .

وإنه لعجب أن يؤاخذ عالم إسلامى إذا صرح بحكم الشريعة فيمن كذب كتاب الله ، فى حين لا يجدون أى حرج فى أعمال ما يسمونه محاكم الشعب ، حين تصدر أحكام الموت بالجملة على من يرفضون الخضوع لأنظمة

للإسلام أن نسلك إلى استجلاء ما تريد سبيل السلف دون أى اهتمام بما يؤثره المنهج الغربى أو ينكره . . . ونحن على أتم الثقة بأن كل تباين بين المدلول القرآنى والمنطق البشرى — إذا حدث — فسينتهى آخر المطاف بانتصار الأول وتقويم نظرة الثانى ، كما تم ذلك فى الكثير من الشئون التى اختلف فيها الباحثون مع خبر الوحى سواء فى القديم أو الحديث .

* * *

حقائق قرآنيـــة :

ثم إن ثمة حقائق قرآنية كان للكشوف الفلكية الأخيرة أثر كبير فى استجلائها ، حتى كأنما قد أجريت لخدمتها فقط .

أما أولى هذه الحقائق ففى مثل قوله تعالى : **(وهو الذى مد الأرض ١٣–٣)** و **(الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . ٢٠–٥٣)** و **(أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ٢٧–٦١)** و **(والأرض فرشناها فنعم الماهدون ٥١–٤٨)** و **(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ٦٧–١٥)** و **(والأرض بعد ذلك دحاها ٧٩–٣٠)** إلى آيات غير قليلة فى موضوع الأرض ، وما تحمله من دلائل رعاية الله وحكمته فى تكوينها على ما هى عليه ، مما لا يمكن تصور تأتيه فى معزل عن كمال العناية والحكمة . .

فى هذه الآى بيان للرحمة الإلهية فى فرش الأرض ومهدها ودحوها وتذليلها للسالكين ، وإعدادها للإنبات ، وإمدادها بما يقتضيه ذلك من الأنهار والجبال والحواجز الحائلة بين أنواع المياه ، حتى لا يختلط بعضها ببعض .

وقد جاءت الرحلة القمرية بالعجائب من المؤكدات لهذه الحقائق ، إذ تبين للرواد أن ليس فى القمر أية صلاحية للحياة ، فلا ماء ، ولا مولد الحموضة ، وبالتالى فلا نبات ولا حشرات ، ولا أثر للحياة البتة . . يضاف إلى ذلك انعدام الصلاحية فى سطح القمر نفسه . إذ هو مؤلف — كما يقولون —

من مواد زلقة ، وأكثره فجوات وشناخيب وفوهات براكين لا يمكن معها أى مطمع بالاستقرار . . . ومن هنا يتضاعف إدراكنا لعظم فضل الله تبارك وتعالى فى تنظيم سطح الأرض على هذه الشاكلة التى لو اختل أى وضع فيها لكان وجود الأحياء ، ونشوء الحضارة على غاية من الاستحالة . .

وما أحسبنى آتيا بغريب إذا قلت : إننى على كثرة ما قرأت وما كررت قراءة هذه الآيات لم أفطن قط لأهمية ما تضمنته من ذكر الفرش والمهد وما إليهما إلا بعد اطلاعى على نتائج هذه الرحلة ! . . ولا غرابة فكم من عظيمة فى القرآن لم ينتبه إليها العقل البشرى إلا بعد أن كشفتها له التجارب وحققتها له الموازين الرياضية !

ثم حقيقة ثابتة نقرؤها فى هذه الكلمات من الذكر الحكيم : (**قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ٧ — ٢٥**) . فالله سبحانه يصدر هنا حكمه الحاسم فى شأن الإنسان والأرض ، فيربط بينهما بشكل نهائى لا يقبل تبديلا ولا تعديلا . . لقد قضى أن يجعل من الأرض مجال حياتنا فلا حياة فى سواها من الأجرام الفلكية ، وأن يجعلها موضع موتنا فلا مثوى لنا فى سواها ، وأن يجعل مبعثنا منها وحدها . وهو حكم جازم حاسم بأن الإنسان لن يعيش ولن يموت ولن يخرج إلا فى هذه الأرض ومنها . . . وفى هذا الحكم تحد للجنس البشرى كله يؤكد له أنه عاجز عن إحداث أى تعديل فى هذا المصير الذى قضى به عليه . . فهو قد يصل إلى القمر ، وقد ينزل فى بعض الكواكب الأخرى ، ولكنه لن يجد مستقرا للحياة ولا محلا للموت خارج هذه الكرة الأرضية . . فسبحان من جعلها مرتعا ومعتقلا لا نستطيع له فراقا ، ولا منه فكاكا ! . . .

أما ثالث هذه الحقائق فى قوله تعالى : (**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ٧١ — ١٥ و ١٦**) وقوله سبحانه : (**وجعلنا سراجا وهاجا ٧٨ — ١٣ . . .**) فقد أعلمنا وهو الحكيم العليم ، أنه جعل القمر نورا ، والنور بطبيعة تكوينه لين لطيف ناعم ، ويؤدى وظيفته من الإضاءة دون أذى للبصر ولا إرهاق ،

الرغم من قدرته البلاغية الموضوعية ، وبذله أقصى الجهود فى توكيد هذا المفهوم ، أخطأه التـــوفيق ، إذ بدا وكأنه يحاول تحميل الكلام الإلهى غير مراده الأصيل ، ولا غرو ، فالدلالة القرآنية بالغة الدقة والصراحة على أن السماء التى فتحت لمحمد صلى الله عليه وسلم هى غير هذه الكواكب ، قد حصنت بالأبواب ، وحفظت بالرجوم والشهب ، وأقيم عليها الحرس من الملائكة ، فلا يفتحونها إلا لمن أذن له الله ورضى دخوله . . وهى أبعد عن أحلام العلوم المادية من أن تتصور بلوغها ذات يوم ، وأنى ذلك وهى على بعد خمسمائة سنة من كرة الأرض ، وبينها وبين السماء التى تعلوها مثل ذلك الزمن ، ثم مثل تلك المئين من السنين بين كل سماء وأخرى حتى السابعة ، كما ورد فى الخبر النبوى[١].

وكما تأيد ذلك بشهادة أولى العلم الذين يقولون بأن البعد بين أرضنا والشعرى مثلا يقارب خمسين بليون ميل ، وأن بعض التوائم من النجوم ، وهى التى تتراءى كنجم واحد ، بين التوأم والآخر منها ما يقارب ألفى مليون ميل[٢] . . .

ويقول مؤلف (الكوكب الشرقى) فى الرد على منكرى وجود السماء إذ يؤولونها بنظام الأفلاك : « . . إن علماء الفلك أنكروا وجود السماء لأنهم لم يبصروها بنظاراتهم التى كشفت لهم من الكواكب ما يضيع الفكر فى ضبط بعده ، حتى ذكر بعضهم أنه لو فرضنا طائرا طار من الأرض إلى الشمس بسرعة مائة ميل فى الساعة ، واستمر سائراً نهارا وليلا صيفا وشتاء من غير انقطاع فإنه لا يصل إلى الشمس فى أقل من مائة سنة وست سنوات ونحو سبعة أشهر ، ولو قصد هذا الطائر زحل بهذه السرعة لما بلغه فى أقل من ألف وإحدى عشرة سنة ، أو نبتون لاقتضى له ثلاثة آلاف ومائة وست وثمانون سنة !! . . »[٣]

---

(١) مضمون حديث شريف أخرجه أبو داوود عن العباس (رض) ويقويه ما روى عن ابن مسعود فى المغنى نفسه . انظر فتح المجيد « بعدما بين كل سماء والتى تليها . . . » ص ٤٧٠ . .

(٢) كلام الدكتور الغمراوى فى « الوعى الإسلامى » عددى ربيع الأول وشعبان عام ١٣٨٨

(٣) أنظر « الكوكب الشرقى » ص ٤٥ . .

من الأرض كل شيء ، وبذلك استحقا الذكر لتوجيه الأنظار ولإثارة الاعتبار . . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ العقاد : « ما الذى يمنع أن يكون دوران الأرض حول الشمس أدل على الحكمة الإلهية ، لأنها فى موضعها من المنظومة الشمسية قد أصبحت أصلح للحياة من جميع السيارات . . » ثم يقول : « وما الذى يمنع أن تكون النواميس فى الطبيعة أدل على الحكمة الإلهية من الفوضى والاختلال ! »[1] .

* * *

لنتأمل قليـــلا :

وقد رأيت أن أعقب هنا على كلام العلامة بخيت بما تبين لى فى موضوع هذه الآية الكريمة . وأبدأ ذلك بما ساقه الشهيد سيد قطب (رح) فى مقدمة تفسيره لسورة النمل إذ قال ما ملخصه : « موضوع السورة الرئيسى هو العقيدة : الإيمان بالله وعبادته واليوم الآخر وما فيه من أحداث ، والإيمان بالوحى والغيب والتسليم لله . . . ثم تأتى القصص لتثبيت هذه المعانى وتصوير عاقبة المكذبين والمؤمنين . . فإذا انتهى القصص . . أخذ يطوف بهم فى مشاهد الكون وأغوار النفس يريهم آثار صنعة الله وحكمته . . ثم يعرض عليهم بعض أشراط الساعة ومشاهد القيامة وما ينتظر المكذبين بذلك . . . والتركيز فى هذه السورة على العلم ، علم الله المطلق بالظاهر والباطن ، وعلمه بالغيب خاصة ، وآياته الكونية . . .

وهكذا تبرز صفة العلم فى جو السورة تظللها بشتى الظلال فى سياقها كله من المطلع إلى الختام . . — ج ١٩ ص ١٢٥) . . .

وفى ضوء هذا التلخيص المكثف لمحاور السورة أوجه نظر القارئ إلى ما يحيط بالآية المقصودة من هذه المعانى ، وذلك منذ الآية الثالثة والثمانين

---

(١) القرن العشرون . . للعقاد ص ١٣٤ ولابد هنا من التعقيب على كلمته الأخيرة ، فالعقاد رحمه الله يضع الفوضى والاختلال مقابل نظام الدوران ، وليس الأمر كذلك ، إذ القائلون بسكون الأرض يقولون بدوران الشمس حولها ، فالنظام كائن فى الحالين . . فلا فوضى إذن ولا اختلال . .

دائرة حول الشمس ، ولا تزال حتى الآن هى المشهورة لدى المشتغلين بعلم الهيئة التى يسمونها الجديدة ، وهى السابقة فى اعتبار الزمن[1] .

وقد وجد بين علماء الإسلام المحدثين من مال إلى تقرير فيثاغورس وكوبرنيكس ولم ير فى هذه الآيات الكريمة ما ينافى ذلك . . وخلاصة ما ذهبوا إليه من تفسير للفظ الميدان والأوتاد هى أن من وظيفة الجبال ضبط حركة الأرض فى توازن يحفظها من الشطط والانحراف إلى خارج النطاق المرسوم لها ، كما تضبط حركة السفينة بما يوضع فيها من أثقال ، فتقوى بذلك على الثبات بوجه العواصف والتيارات التى كانت جديرة بتحطيمها أو إدخال الاضطراب على مسيرتها . . وكشأن الخيمة إذ تشدها الأوتاد إلى الأرض فتمنع العواصف من انتزاعها من مكانها ، ولكنها لا تمنعها من الحركة أو الاهتزاز . واجتماع الحركة مع القرار أمر مشاهد فى الكثير من المرئيات كالمروحة مثلا ، فهى تدور بحركة سريعة دون أن تفارق مكانها ، أو تضطرب – أى تميد – قاعدتها ، وكالنفاثة التى تنتهب الفضاء دون أن يحس راكبوها بأى اضطراب . . .

بل إن بعض هؤلاء العلماء قد جاوز هذا التفسير المعقول إلى مدى غريب ، فقال : (إن الآية – وهى قوله تعالى : **(وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ٢١–٣١)** – إنما تدل على أن الله تعالى من على عباده بنعمة عظمى هى جعله فى الأرض رواسى لأجل أن تميد بهم . وتميد لغة اما بمعنى تتحرك أو تعطى . . . فهو يفهم من الميدان غير ما فهمه جمهرة المفسرين الذين رأوا أن ثمة تقدير مضاف إلى المصدر المؤول . يعنى أنه تعالى جعل الرواسى كراهة أن تميد بهم ، فى حين يرى أن المحذوف لام الجر فقط ، فيكون الميدان على رأيه مقصودا لجعل الرواسى تميد بهم ، إذ هى بهذا

---

(١) « توفيق الرحمن » ص ٤٧ لمفتى الديار المصرية السابق الشيخ محمد بخيت ، وبديهى أن تخريجه هذا مخالف لكل ما ورد عن السلف وأئمة اللغة . وقد روى الترمذى فى تفسير الميد حديثا يقول : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فمال بها عليها فاستقرت . . . » ولكنه عقب عليه بأنه حديث غريب ، وأعله الذهبى بسليمان بن أبى سليمان قائلا : « لا يكاد يعرف » ولكنه على ضعفه يستأنس به من الناحية اللغوية على الأقل . . .

الميدان قد أهلت للانبات واعطاء المنافع ، ويستشهد لهذا التخريج بسياق الآيات في قوله تعالى : (. . **والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم** . . . .) فيقرر أن قوله تعالى :(**متاعا لكم ولأنعامكم**) وهو مفعول لأجله ، وقع غاية للدحو ، فكأنه قال : أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها لأجل متاعكم ومتاع أنعامكم . ولذلك يتعجب من ذهاب المفسرين إلى غير هذا الوجه ، لأنه الأظهر والألصق بالواقع في نظره . . .

هذا وقد وجد القائلون بدوران الأرض سندا لمذهبهم فى مثل قوله تعالى من سورة ياسين : (**سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ٣٦ — ٤٠**) فيفهمون من التنوين فى (كل) إشارة إلى الأرض فى السياق ، ويتأكد ذلك لديهم بضمير الجمع الذى ختمت به الآية فى (**يسبحون**) ويقولون : يجب أن يحمل الضمير فى قوله تعالى : (**وكل فى فلك يسبحون**) والذى ناب عنه التنوين فى كل على ضمير الجمع حقيقة ، ليوافق الضمير المسند إليه الفعل بعده ، ويعود الضميران إلى الأجرام الثلاثة المتقدمة عليها ، التى هى الأرض فى قوله تعالى : (**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها . .**) والشمس والقمر فى قوله تعالى : (**والشمس تجرى لمستقر لها**) و (**والقمر قدرناه منازل** . . .) . . ولم يتقدم قبل الضميرين ما يصح أن يرجعا إليه إلا هذه الأجرام الثلاثة . .)[1] . . .

وتحرير عبارة المؤلف أن المنوى فى تنوين كل والضمير فى يسبحون كلاهما عائد إلى جمع حقيقى هو الأرض والشمس والقمر الثلاثة المذكورات فى الآيات المتتابعة .

---

(١) توفيق الرحمن ص ٤٢ . . .

على أن الذى رتب الجبال على هذه الحال لا يعجزه سوق الإنسان إلى ذلك المـــآل ! . . .

ثم لا ننس أن من أسلوب القرآن الحكيم المزج بين أحداث الدنيـــا والآخرة ، فكثيرا ما يذكرنا بدقيق صنع الله ، وجليل حكمته فى مظاهر الكون ، ثم لا يلبث أن يزج بنا فى مشاهد الهول الأكبر ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . . . فيكون من نتائج ذلك فى القلوب الحية تعهد يقظتها بالتأمل العميق كى لا تصرفها اللحظات العابرة عن الاستعداد للآخرة ، وحتى يصل بها الوعى إلى أن يذكرها كل شىء بمصيرها الأخير فلا تكون فى زمرة الغافلين . .

ثم أليس فى تنظيم النفس البشرية وعلائقها بالكون والحيـــاة والمخلوقات عن طريق الوحى الإلهى ، صورة من التنظيم القائم بين أجزاء الكون ؟!

« هذا الليل والنهار . . لو انفرد أحدهما بالوجود دون الآخر لانعدمت الحياة . . بل لو كان النهار أو الليل أطول منهما الآن عشر مرات فقط لأحرقت الشمس فى النهار كل نبات ، أو لتجمد فى الليل كل نبات ، وعندئذ تستحيل الحياة ، ففيهما إذن على حالتهما الموافقة للحياة آيات لقوم يؤمنون . . . » . .

وهذه الجبال التى اقتضت حكمة الله أن تجعلها متحركة الذرات وفق القوانين التى أقام عليها المـادة . لولا قدرة الله تمسكها لأزالتها سرعة الحركة أو لفتتتها ، ولفقدت الأرض بذلك القوة المرسية ، ولتعرضت للميد الذى لا تستقيم معه الحياة . . فهو يحركها ويثبتها ويوازن بها حركة الأرض ، على الوجه العجيب الذى نراه .

والليل والنهار والجبال فى تنظيمها شأنها كشأن النفس البشرية حين تلتقى مع نور الوحى فتستقيم مسيرتها ، وتربط بين دنياها وآخرتهـا ، فيتأمن لهـا ذلك الانسجام الكامل السعيد مع قانون الوجود . . والويل لهذه النفس حين تعرض عن هذا النور لتتخبط فى الظلمات ! . إنها يومئذ

وأخيرا . . . ذلك هو الإسلام دين الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك هو مصدره المعجز الذى لم يختلف مع العلم الحق فى أمر قط ، فلا سبيل إلى توهم أى فصل بين أخباره وبين أى حقيقة علمية ، فاذا زعم كريسبى موريسون أن الدين للقلب والعلم للعقل ، فلا علاقة لزعمه هذا بالإسلام ، الذى لا يعرف تجزئة الإنسان . والذى يعتبر أهل العلم أنصاره ودعاته فى كل زمان ومكان (**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ٣-١٨**) و (**قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا . . إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ١٧-١٠٧**) .

* * *

أتدور أم لا تدور ؟

بقى أن نقف قليلا على مشكلة الدوران . . لنرى : هل ثمة ما يسوغ تلك الضجة المشبوهة التى أثارها (صوت العرب) وأصداؤه هناك وهنالك ؟؟ . . .

لقد رأى فضيلة العلامة بن باز فى ظواهر الآيات القرآنية — كما أسلفنا — ما يرجح جانب السكون فى وضع الأرض ، وذلك فى مثل قوله تعالى : (**وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ١٦ - ١٥**) و (**ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . . ٧٨ - ٦ و ٧**) وقد تكرر هذا التعبير عن الجبال بالرواسى ، وعن وظيفتها بقوله سبحانه (أن تميد) وأنها بمثابة الأوتاد للخيمة . . فذهب ذلك بتفكير بعض العلماء إلى سكون الأرض وانعدام حركتها ، وبذلك قالوا . . وإليه ذهب أيضا الكثير من أهل الهيئة قديما وحديثا ، ومن هؤلاء بطليموس عام ١٤٠ ق . م ومن جاء بعده من أهل الهيئة وفلاسفة المسلمين كابن سينا والفارابى وغيرهما . حتى جاء كوبرنيكس الإيطالى فى القرن الخامس عشر الميلادى فجدد نظرية فيثاغورس التى قال بها منذ القرن الخامس ق . م وهى مرتكزة على اعتبار الأرض

إلى التسعين ، فى الآيات الثلاث ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ عرض لمشهد المكذبين محشورين للحساب بين يدى ربهم حيث يستمعون إلى تقريعه الرهيب وهم مبهوتون لا يستطيعون ردا : (**ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال ؛ أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ! . أم ماذا كنتم تعملون ؟؟ . . ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .**) .

ويتغير المشهد فإذا نحن أمام مشهد آخر من مظاهر حكمة الله ورعايته فى إطار الدنيا ، إذ يشد نظرنا إلى تنظيمه لليل والنهار ، وأهمية كل منهما فى توفير وسائل الحياة ، ودلالة ذلك على وجوده وحكمته ورحمته سبحانه ، فهو لم يقذفنا إلى هذه الأرض عبثا ، ولم ينشرنا عليها محرومين من أسباب الرعاية ، بل أعدها لنا فى نظام محكم يوفر لنا كل ما تتطلبه معيشتنا واستعدادنا وهو بذلك يقيم الحجة على هؤلاء المكذبين فلا يتوهمون أنهم مظلومون ، ويحذرنا من مثل مصيرهم فى الوقت نفسه ، فلا نعطل فطرتنا التى توجهنا نحو خالقنا ورازقنا ، لئلا نسقط فى هاويتهم . . (**ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا . . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون**) .

فإذا انتقلنا إلى الآية التالية وجدنا أنفسنا مرة أخرى أمام جانب من مشاهد اليوم الآخر ، حيث ينطلق دون الصور فيملأ الذعر كل قلب فى السماوات والأرض .. ويزحف الخلق إلى ربهم فى ذلة اليائس من كل مهرب ، ليؤدوا حسابهم على ما قدمت أيديهم .. (**ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . . وكل أتوه داخرين .**) .

ومن هنا تصرف أبصارنا إلى منظر الجبال لنرى تلك الأعجوبة الإلهية : (**وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب . . صنع الله الذى أتقن كل شىء . إنه خبير بما تفعلون .**) . .

وبإزاء ذلك لا نتمالك أن نتساءل : ما شأن الجبال فى ذلك الموقف الذى سيق فيه البشر إلى ساحة الحساب صاغرين . . . بعد أن علمنا من آيات

الكتاب الحكيم أن هذه الجبال كانت فبانت ، إذ أتاها أمر الله فنسفت وسيرت فكانت كالسراب . وقد بات الناس فى موقف الحساب هذا مشغولين ببلائهم وذعرهم عن التأمل فى أسرار المصنوعات الكونية ، فليس فى نفوسهم مكان للتفكر بشيء خارج نطاق الهول الهائل الذى يشهدون ، والمصير الرهيب الذى يجهلون ! . . .

ثم سرعان ما نطل عقيب ذلك على نتائج الحساب ، حيث نرى كل نفس بما كسبت رهينة فـ **(من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النـــار . . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ! . .) .**

وبعد هذا يعود السياق إلى أمور الدعوة ، إذ نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يواصل طريقه فى زحمة الأحداث يعظ ويذكر ويقيم حجة الله على عباده . . .

فلنرجع بصرنا الآن فى نظم الآى . وأول ما يخطر على البال هو هذا السؤال : لقد رأينا الله تبارك وتعالى يعرض مشهد الليل والنهار وحكمته فى تنظيمهما خلال مشاهد الحشر والمحاسبة ودوى الصـــور . . وكذلك وعلى الطريقة نفسها جاء بذكر الجبال وما فى جمود ظاهرها وحركة واقعها من دلائل القدرة والإتقان الإلهى ، محاطا بصور القيامة وأحكام العدالة الإلهية التى سينتهى إليها كل مسئول . . .

فأى فرق بين موقع آية الليل والنهار ، وآية الجبال ؟ . . .

ليس بين المفسرين من يقول بأن انتفاع المخلوقات بحركة الليل والنهار فى الآية الكريمة خاص بما يصيران إليه يوم الحساب . بل كلهم فيما أعلم يذهبون إلى أن المراد بذكرهما توجيه العقل إلى التأمل الواعى فى ذلك التنظيم العجيب ، ليهتدى صاحبه بذلك إلى حقيقة التوحيد ، فيستجيب إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيتجنب مصير المكذبين . . .

فلماذا لا تكون الحكمة من ذكر الجبال بتلك الصورة على أساس المنطلق نفسه : توجيه العقل للتفكير فى هذا الأمر العظيم ، الذى يعطى أقوى الأدلة

ويؤكد المؤلف استدلاله هذا بآية الجبال المتحركة فى قوله تعالى من سورة النمل : (**وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب . . صنع الله الذى أتقن كل شىء ٢٧–٨٨**) فيقول : وليست هذه الآية فى بيان أحوال يوم القيامة كما قاله بعض المفسرين ، لأن ذلك لا يلائمه ختام الآية فى دلالة ذلك على صنع الله المعجز . . . لأن التعبير بمثل هذه العبارة يدل على أن الغرض هو التفكر فى هذا الصنع المتقن ، ليدل على وجود الصانع وحكمته وتمام قدرته وإحاطة علمه ، وعلى أنه قادر على بعث من فى القبور . . . ولا معنى لأن يخاطبنا الحق سبحانه فى ذلك اليوم بأن ننظر ونتفكر فى هذا الصنع المتقن . . . وقد أصبحت الجبال كثيبا مهيلا كالعهن المنفوش . . . بخلاف سيرها الآن فإنه مع كونه غاية فى السرعة لا يشعر به من عليها ولا يختل به شىء من نظام العالم . . .

ثم يقول : وحينئذ تكون الآية ظاهرة فى أن الأرض متحركة بحركة سريعة جدا ، لأن الجبال جزء من الأرض فلو كانت متحركة وحدها لاقتضت حركتها انفصالها عن الأرض واختل النظام . . . وطبعا تكون حركتها على الاستدارة لأنها لو كانت على الاستقامة – أفقيا – لاختل نظام العالم ، لأن الحركة المستقيمة تقتضى اختلاف وضع المتحرك وانتقاله . . .[١]

ومراد المؤلف أن لو سكنت الأرض لاستمر الليل على أحد قسميها ، والنهار على القسم الآخر ، فتستحيل بذلك الحياة التى نعرفها على الأرض ، ولانعدم بذلك كل أثر لكل ما هو حى من إنسان أو نبات أو حيوان ، وإلى هذه الأهمية أهمية الليل والنهار يشير الله تبارك وتعالى بقوله فى سورة القصص : **(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . . من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ! ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ٧١ و ٧٢ و ٧٣)** فبدوران الأرض اذن حدث الليل والنهار ، وبهما توافرت وسائل الحياة ، فكأنهما

(١) توفيق الرحمن . .

ستجمع شقاء الدنيا إلى شقاء الآخرة ، فهنا ظلمات الطريق ، وهناك عذاب الحريق . . . عياذا بالله ! . . .

وإلى هذا نتذكر حقيقة أخرى كبيرة مثيرة ، وهى أن كل جزىء من هذه المتحركات مشمول بعلم الله بحيث لا يفلت منه ذرة ولا نواة ولا نيوترون ، وبقدرته المطلقة فلا يزيغ منها شيء عن مهمته التى سخرها لها . . كشأن النفس البشرية . محكومة بهذا العلم المحيط وهذه القدرة المبدعة ، فهى خاضعة للقوانين الكونية ، بحيث لا تملك الفرار من المسئولية عن أى عمل تأتيه ، ولا تستطيع إخفاء شيء عن صاحب الخبرة التى لا يعزب عنها شيء مما تفعله أو تهم به . . .

وهكذا تنسجم مقدمات السورة مع خواتيمها ، إذ تضيء ساحة الأحداث بأنوار العلم الذى دونه كل علم ، والحكمة التى دونها كل حكمة .

وأخيرا . . هذه ملاحظات من حق كل مفكر من المؤمنين أن يسمح لها بالخطور فى باله ، وبخاصة عندما يعلم أن ليس فى الموضوع تفسير حاسم عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أو عن صحابته أو التابعين لهم بإحسان . . إنما كل ما قيل فى آية الجبال حتى الآن اجتهاد شخصى توارد عليه الآخذون من مختلف القرون ! . . .

وأنا شخصيا قد قدمت فيما أسلفت أننى بوساطة الجهاز الألكترونى قد استمعت إلى حركة الجزيئات فى قطعة الأورانيوم ، فلست أستغرب بعد ذلك أن تكون الجبال ، وهى أكثر تخلخلا من الأورانيوم ، متحركة بمثل مر السحاب ! .

فسبحان الصانع الوهاب الذى أتقن كل شيء ، وإليه المآب . . .

على أن حركة الجبال شيء ودوران الأرض بمن عليها وما عليها شيء آخر ، والذى يبدو لى أن ليس للقائلين بالدوران حجة فى هذه الحركة ، ذلك لأنها ضرب من الحركة العامة التى تتصف بها المادة جميعا ، إذ يقرر علماء الكونيات أن كل جسم مؤلف من ذرات — هى أساس المادة —

وكل ذرة مؤلفة من نواة يدور حولها عدد معين من الجزيئات . . . فالجسم المادى جامد فى الحس ولكنه متحرك فى الواقع . . وهذا بالطبع غير دوران الأرض .

* * *

بين النفى والإثبات :

ونعود إلى أصل البحث فنقول : إن فى فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله دقائق رائعة من مثل هذه الشئون ، فهو يثبت استدارة الأجسام الفلكية بالاستناد إلى قوله تعالى: **(ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ٦٧–٣)** . فيقول : « وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع وغيرهما ، فانه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه . والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحى ليس بعضه مخالفا لبعض » .

وينقل عن بعض أصحاب الإمام أحمد رحمه الله قوله : (فى إثبات الدوران) : « لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة ، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين . . » . .

ثم قال فى شأن الأرض : وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة[1] والظاهر من عبارته عن الأرض أنه لا ينفى دورانها إذا لم يصرح بثبوته ، فقد أثبت لها حركة بل حركات ، ووصفها بالشكل الكروى ، وهو الشكل الذى يتحدث عن دورانه فى العبارة القريبة .

وفى بحث الدكتور الغمراوى الذى قدمنا منه أمثلة ، يقول فى موضوع الدوران : . . ويحتمل أن تكون أداة التعريف فى (الشمس والقمر) للعهد أو للجنس ، فإذا كان مرد الضمير – فى يسبحون – إليهما وحدهما تحتم أن تكون (أل) للجنس ، وإلا لجاء الضمير على التثنية ، وإذن فالنص الكريم يدل على أن فى السماء شموسا وأقمارا . . . كما أثبت علم الفلك الحديث . .

---

(١) الفتاوى ج ٢٥ ص ١٩٤ و ١٩٥ . .

أما إذا كانت (أل) للعهد فيتحتم أن يرجع ضمير الجمع لا إلى الشمس والقمر فقط ، ولكن إليهما وإلى الليل والنهار معهما ، ويكون لليل والنهار إذن حركة فى الفلك . والليل والنهار يتعاقبان على جو الأرض ، ففلكهما إذن هو جو الأرض وغلافها الهوائى . . . وتعاقبهما هو حركة فعلية يدل على كيفيتها قوله تعالى : **(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل . .)** . .

. . وقد جاء الزمخشرى فى التكوير بأوجه ليس منها الحركة ، مع أنها أساس اللف واللى . . ولكن العلم أثبت حرفية معنى التكوير حين أثبت للأرض لفا ودورانا حول محورها أمام الشمس ينشأ عنهما الليل والنهار ...[1]

وإعادة الواو فى **(يسبحون)** إلى مجموع الشمس والقمر والليل والنهار هو رأى السلف من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين ، فهذا شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله يقول : « يقول الله سبحانه : وكل ما ذكرنا من الشمس والقمر والليل والنهار فى فلك يجرون . . » . . .

وهذا الحافظ ابن كثير يقول فى الآية نفسها : « يعنى الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أى يدورون فى فلك السماء » ويروى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى .

ولكن بعض المحدثين من الباحثين الإسلاميين زادوا على ذلك أن فسروا الليل والنهار بالأرض كما رأينا فيما قدمنا ، إذ فهموا أن ليس لليل والنهار وجود مستقل ، وإنما هما ناتجان عن جسم متحرك هو الأرض ، لأنهما ليل الأرض ونهارها دون غيرها من الأجرام ، فهما إذن خاصان بها ولازمان لها ، فوصفهما بالسبح إنما هو — على رأيهم — من قبيل إقامة اللازم مقام الملزوم ، وتخصيصهما بالذكر فى هذا السياق لبيان أهميتهما فى وجود البشر .

---

(١) « الوعى الإسلامى » عدد ربيع الأول ١٣٨٨ باختصار . وهو يذكر ذلك عن الأرض بعد قوله فى حركة الشمس : « أما الشمس فقد أثبت العلم لها حركة فى فضاء الكون سرعتها نحو ١٢ ميلا فى الثانية فى اتجاه النسر الواقع . . . »

وقد ذهب الشهيد سيد قطب المذهب نفسه فى تفسيره لسورة ياسين وعند الكلام على قوله تعالى: **(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون .)** إذ يقول : « فالأرض الكروية فى دورانها حول نفسها فى مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس فإذا هذه النقطة نهار ، حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس انسلخ منها النهار ولفها الظلام ...»[1]

وقصارى القول فى موضوع الدوران أنه لا يزال دائرا بين النفى والإثبات عند علماء الإسلام القدامى منهم والمحدثين ، ولا يرى أحد الفريقين فى رأى الآخر ما يستدعى الخصومة واللدد فضلا عن التفكير وإهدار الدماء ، مادام كل منهما يستمد رأيه من اجتهاد خالص فى فهم نصوص الكتاب العزيز ، دون تعصب ولا انسياق مع الهوى . . .

ومرد ذلك كله هو أن مصادر الوحى لم تقرر حكما نهائيا فى الموضوع ، ولم يرد عن السلف قول قاطع ملزم ، فبقى بذلك المجال فسيحا أمام الاجتهاد العلمى ، وبانتظار الكشوف الصحيحة التى سيكون لها وحدها تعيين المدلول الحاسم لمراد الإشارات القرآنية فى موضوع الأرض . . .

وأخيراً . . . على أن من حقنا ونحن بصدد النظر فى أقوال النافين والمثبتين لحركة الأرض أن لا نختم البحث قبل أن نذكر القارئ بهذه الحقيقة ، وهى أن الخلاف حول هذه النقطة بالذات لا يؤثر على جوهر الموضوع ، وهو أن ثمة حركات دائرية تتشكل بها الفصول والأيام . . سواء كانت من الأرض حول الشمس أو من الشمس حول الأرض[2].

---

(١) « فى ظلال القرآن » ج ٧ ص ٢٤ . . .

(٢) لا خلاف عند علماء الهيئة فى كون الشمس متحركة ، بل انهم لا يقبلون القول بسكون أى جرم فلكى ، وقد ثبت بعد انفلاق الذرة أن الجسم المادى – أيا كان – مؤلف من دقائق متحركة بسرعة تحول دون الإحساس بها . . . وقد اتفق لى أن وضعت على أذنى مضخمة ألكترونية متصلة بقطعة من الأورانيوم ، فإذا أنا أسمع حسيسها الصادر عن حركة ذراتها . . وفى وسع أى كان أن يجرب ذلك عن طريق مثل هذا الجهاز ، وإنما المراد هنا بحركة الشمس أو الأرض نوع خاص من الحركة الدائرية التى بها تتشكل الفصول والأيام . . .

وقد فصل الكلام فى هذه الناحية صديقنا العلامة اللبنانى الشيخ عبد المجيد المغربى رحمه الله ، فى كتابه (الكوكب الشرقى) الذى يناقش به نظرية لابلاس فى موضوع النظام الشمسى . . وها نحن أولاء ننقل بعض ما حرره فى ذلك قال غفر الله له : « . . . وقولهم فى الشمس بحركتها الظاهرية يعنون به أن الحركة فى الحقيقة للأرض الدائرة حول الشمس . . وهذه المسألة منازع فيها كما يعلم مما ذكره العلامة العضد فى كتاب المواقف ، ويظهر ميلانه إلى القول بحركة الأرض ، وعليه إجماع علماء الهيئة اليوم ، وقد استدلوا بأمور نذكر أهمها وأقواها :

قالوا أولا : لا يصح دوران الجسم الأكبر حول الأصغر ، فالعكس هو الطبيعى . . .

قلنا : إن ما لا يصح هو ما يلزم على تقدير حصوله فساد أو محال عقلي أو مخالفة لنواميس الطبيعة ، وما هنا ليس كذلك ، ولو فرضنا بطيخة كبيرة أخذت تدور فى فضاء بعوضة صغيرة حولها لا نرى من محذور فى العقليات والطبيعيات يمنع ذلك إلا فى الاستحسانات الفكرية . . .

قالوا ثانيا : كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض .

وقلنا : هذا قياس تمثيلى لا يثبت حكما كما هو معروف فى المنطق ، على أن فى القول بأن الأرض كوكب نظرا . .

قالوا ثالثا : تغير ظل الأرض وقت الخسوف على سطح القمر بهيئته يدل على أنها دائرة وظلها تبع لها .

قلنا : قد يجوز أن ذاك التغير من تأثيرات حركة القمر نفسه إذ ذاك ، لأن المقابل يحدث بحركته تنقلا فيما يتلقاه من مقابله . . .

قالوا رابعا : ذبذبة البندول ، فقد وضعوه وضعا لا يتأثر بمؤثر خارجى عليه فرسم خطوطا تتقاطع وتكون رؤوسها أقواسا تطول كلما قرب البندول من القطبين ، وتقصر كلما قرب من خط الاستواء ، وفيه يكون على خط مستقيم دائماً ! . . .

قلنا : هذه الذبذبة بعينها تحصل إذا كانت الشمس هى المتحركة حول الأرض لأن المدار على وضعية الأرض من الشمس ، والخطوط المذكورة إنما هى من تأثيرات الحركة وتبدل الوضعية بينهما قطعا ، سواء كان المتحرك هو الأرض أو الشمس ، فى الوجهين تتبدل الوضعية فترتسم تلك الخطوط المتقاطعة ، وهذا أقوى ما جاء فى استدلالاتهم على حركة الأرض حول الشمس .

ونحن إنما نقصد فيما أوردناه بيان أن المسألة أضعف من أن نعتبرها ظنية فضلا عن أن تكون قطعية كما يتوهمه من يتلقفون مثل هذه العلوم فى المدارس العصرية من أبنائنا وغيرهم ، تلقفا بدون ارتكاز على المنطق ، وإنما هى الثقة بالأساتذة والمعلمين تقنع ضمائرهم بها فيتلقونها كعقيدة أقطع عندهم من بعض عقائدهم الإيمانية ، والمسألة بالنظر الإسلامى لا ضير فيها ولا شىء فيه ينافيها ، وعلمنا وجهلنا هل الأرض هى التى تدور أم الشمس سيان ، وإنما من الواجب أن يكون علمنا مبنيا على أساسات متينة منطقية[1].

وهذا التفصيل لنقاط الخلاف فى موضوع دوران الأرض يأخذ به أكابر جهابذة الفلك من الأوروبيين أنفسهم ، فهذا (بو انكاريه) الذى يعتبر أكبر الرياضيين الفلكيين فى أوروبة يقول فى كتابه (العلم والفروض العلمية) يقولون : «إن الأرض تدور ... وأنا أيضا لا أرى مانعا من دورانها ، فإن فرض دورانها سهل القبول ، ويمكن به فهم كيفية تكوين نمو (الدنياوات) . . . ولكنه فرض لا يمكن إثباته ولا نفيه بالأدلة المحسوسة . . . »[2]...

وما ذلك إلا لأن نتائج الحركة الدورية لا تختلف ، سواء كانت الأرض ساكنة والحركة من غيرها ، أو كانت متحركة حول غيرها كما أسلفنا . . . مثلها فى ذلك مثل الدرج المكهرب ، فنحن نقف عليه فيدرج بنا إلى الدور المراد ، ولو سكن وتحركنا نحن عليه لانتهينا إلى النتيجة نفسها .

* * *

---

(١) الكوكب الشرق ص ٩٢ و ٩٣ . .

(٢) دائرة معارف محمد فريد وجدى مادة « أرض » ص ٤٦ . . .

ومرة أخيرة نذكر القارئ الكريم أن الحديث لا يزال فى سياق الكلام عن (الإسلام والمسيحية فى ضوء العلم) ، وقد تبين من خلاله أن التصادم بين الفكر الإسلامى والحقائق العلمية الثابتة أمر يكاد لا يعرفه تاريخ الإسلام ، وإذا حدث شيء منه فرده إلى الاجتهاد المحض ، وقصور العقل البشرى عن الإحاطة الكاملة بالمعانى الإلهية . . فليس فى الإسلام قرارات كنسية أو تلمودية فتفرض نفسها على عقول الأتباع دون سند من كتاب الله أو السنة الصحيحة . ولا يستغرب ذلك من دين يقول الله جل وعلا فى كتابه الخالد :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء . .)

لذلك لا يعرف الناس فى تاريخ الإسلام محاكم تفتيش تقضى بإحراق أهل العلم لمخالفتهم آراء رجال الدين ، ولا أحكام حاخامين تستبيح استنزاف دماء غير اليهود لتعجن بها فطائر الأعياد ، ولا تعاليم كهنة يدفعون الجماهير العمياء إلى ذبح ألوف الأبرياء ، دونما ذنب سوى أنهم كفروا بعبادة البقر واستحلوا لحمه !. . .

* * *

خطـــاب من باريس :

عقيب الفراغ من تسطير هذا البحث حول السماء والأرض والخلاف بين القائلين بدورانها وثباتها اطلعت على خطاب وارد من باريس إلى فضيلة العلامة ابن باز حول ما سبق أن كتبه فى هذا الموضوع وما أثير حول آرائه من ردود فعل شغلت صحف الشرق والغرب . . وقد انطوى الخطاب على إشارات هامة تؤكد أن القول بثبات الأرض ودوران الفلك حولها لا يزال من الآراء الحية المدعومة بأقوى البراهين العلمية . . وفى ما يلى ترجمة هذا الخطاب – بعد الاستئذان من فضيلة المرسل إليه :–

(. . تشنيو موريس

٨٦ شارع الاكويدومس – ٧٥ باريس ١٠

فرنســا

باريس ٣ أوغسطس ١٩٦٦

فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة .

لقد طالعت بطريق الصدفة فى صحيفة (فرانس سوار) بتاريخ ١٠ — ٦—٦٦ بحثاً لأحد علماء الفلك يعد ثورة على جميع النظريات الفلكية المعروفة إلى وقتنا هذا .

ذلك أن الباحث يبرهن بطريقة علمية على أن الأرض لا يمكن أن تدور حول الشمس . . غير أن المجموعة الشمسية كلها يمكن أن تدور مجتمعة[1].

وقد استدل الباحث على هذه النتيجة بما يلى :

١ — المدارات العظمى للذرات : منشؤها . تعيينها . ثباتها الدائم فى مجموعتنا الشمسية . . .

٢ — إن دائرة (فان ألن) ليست هى مركز القطب الشمالى ، كما كان متصورا . وتناول ذلك بالشرح .

٣ — تكوينات الرياح وحدوث المد والجزر بغير التأثير القمرى باعتباره كوكبا من الكواكب .

٤ — التحديد الدقيق لكوكب (فولكين) وإمكان رؤيته وهذه العوامل تناولها بالبحث العلامة (كميل فلاماريون) فى كتابه . (الفلك للعوام) بحث فيه جميع التفصيلات للحقائق المعروفة والمجهولة والمشتبه فيها . فشرح الحقائق المعروفة وكشف عن المجهول وأوضح المشتبه فيه ومن ذلك أن مجموعتنا الشمسية تشتمل على قوتين متساويتين ومتضادتين فى حركتهما تتبادلان مركزهما باستمرار . وينتج من تضادهما قوة ثالثة وهذه القوة تعمل على ضبط التوازن بين الفعل ورد الفعل ، ثم بين رد الفعل وحركة جديدة

---

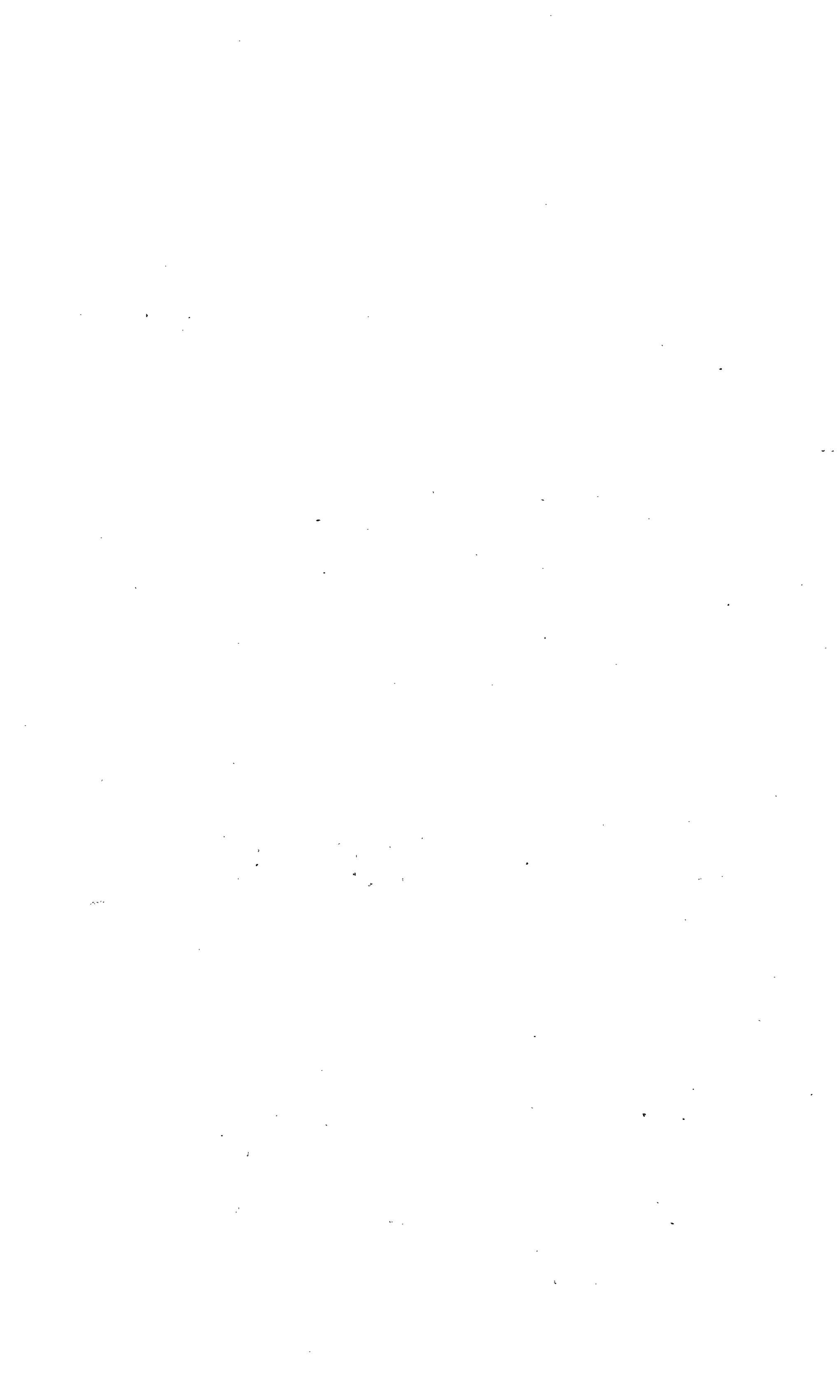
(١) هذا الوضع الفلكى المغاير للنظرية الرائجة اليوم يمكن تبينه بوضوح فى ما نقلناه قبل قليل من كلام العلامة أبى الحسن بن المنادى برواية شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله ، إذ يقرر أن العلماء مجمعون على أن السماء — يريد الفلك — على مثال الكرة . . . تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب ، ثم يعرض للأرض فيقول أنها كرة مثبتة فى وسط تلك الكرة كالنقطة من الدائرة . . . — انظر الفتاوى ج ٢٥ ص ١٩٥ . . .

أخرى ، وهذا هو الذى يسرى بين الكواكب وليس له موضع ثابت .
وبذلك يمكن التدليل على أن الأرض لا تدور حول الشمس . ثم بعد ذلك
يمكن البرهنة بطريقة أخرى مادية وملموسة : الأجواء الثلاثة لـكوكب
جوبيتر (المشترى) حلقات كوكب ساتيرن (زحل) وتوابعه . وظائف
الأجزاء المختلفة للشمس مع التزامها بالقوة المحركة المركزية الشاذة فى عملها
(لا تقبل القياس) . البعد بين كل كوكب وبين الشمس ، وبين كل منها
من ناحية أخرى ووضعه لأسفل أو لأعلى . المسارات العظمى الهوائية وتكوين
الجاذبيات المختلفة لكل منها . واتجاهها ووظيفة كل منها . ثبات ميل الأرض
وكذلك باقى الكواكب . وغيره وغيره . وكل هذه الأفكار التى سردها
بالكامل فى هذا المجال يمكن تطويرها لـكى يستفاد بها فى تأييد وجهة نظركم
فى أن الأرض لا تدور حول الشمس . ويسرنى أن أجيب على أى استفسار
تبعثون به . وتفضلوا بقبول فائق التحية . .

التوقيـع

تشنيو موريس

* * *



مناهجنا
بين التقليد والإبداع



أمس واليـــوم :

التعليم هو إحدى قضايا الحياة الكبرى ، رافق الإنسان منذ دب على هذه الأرض ، وقد اتخذ فى عهده البدائى صورة التوجيه الأسرى ، يتلقاه الطفل على يد الأبوين ومن حولهما ، ثم ما لبث أن تشعب مع تشعب الحياة ، ثم تعقد مع تعقدها ، حتى انتهى الأمر إلى أن يحل المجتمع محل البيت ، فتتقلص سلطته على الإبن إلى مثل خيوط العنكبوت . .

هذا شأن التعليم بالنسبة إلى العالم ، على أنه بالنسبة إلينا نحن فى هذا الشرق الإسلامى ، يحمل صورة أخرى من التطور جعلته مشكلة لم نهتد حتى الساعة إلى وضع حلولها السليمة . . فنحن خرجنا من محنة قرون خسرنا فيها قياد أنفسنا بعد قياد العالم . كان لنا حضارة ذات طابع ربانى ، استمدت أصولها من كتاب سماوى ألف بين صفوف العرب ، ثم ألقى على عاتقهم مسئولية إنقاذ البشرية المحطمة من أخطار لا عداد لها ، بعضها من الأنظمة الطبقية التى كانت تمزق الجماعة الواحدة شذر مذر ، وبعضها من المفاسد الخلقية التى جعلت الحياة ظلمات مطبقة لا منفذ فيها لنور . . وبعضها من العبودية لآلهة متنازعة ، ذهبت بالبقية الباقية من كرامة الإنسان !

وخرج هؤلاء العرب من جزيرتهم إلى الدنيا ينشرون فيها الضياء ، ويذكرونها بما نسيت من معانى السماء ، فكانوا أساة كلوم ، ومنائر علوم ، يثيرون أشواق النفس الإنسانية إلى المعرفة ، بعد أن حرروا هذه المعرفة من سلطان الكهنة ، واحتكار الطغاة وبراثن الخرافات . وهكذا استطاعوا فى برهة وجيزة من عمر التاريخ أن يذيعوا فى الأرض مفاهيم الحرية والأخوة ، ثم لم يتخلوا عن هذه المهمة إلا بعد أن وضعوا من هذه المبادئ بذورا ، ما لبثت أن آتت أكلها ثمرات شهية لا تزال البشرية تنعم بالكثير منها حتى اليوم . .

كذلك كنا بالأمس أطباء الدنيا وأساتذتها الهداة المحررين . ولكن هؤلاء الأساتذة ما لبثوا أن شغلوا بملذاتهم عن رسالتهم ، ثم فتحوا السبيل

أمام سموم الأمم المنحلة تتدفق على مجتمعهم مجونا وزندقة وسفسطة ، فكان طبيعيا أن يسقطوا فريسة لهذه الأدواء ، ثم ينتهوا إلى المصير نفسه الذى لقيته هاتيك الأمم .

وفتحنا أعيننا فإذا نحن أمام غزو كاسح ، تنصب به علينا قوى لا طاقة لنا بها ، قد زودت بكل الأسلحة القاهرة . . وما هى الا لمحة الطرف حتى تهاوت بقايا معاقلنا تحت سنابك هؤلاء الغزاة ، ثم تبعتها أعرافنا وأخلاقنا ، إذ شرعت تنهار تباعا تاركة مكانها لتقاليد ومشخصات لا عهد لنا بها فى جاهلية ولا إسلام ! . . وهكذا تناول الإنقلاب كل شىء ولم يبق على شىء .. ثم كان من نتائج ذلك أن داخلنا الشك فى كل إمكاناتنا الماضية ، حتى مقوماتنا الروحية ورسالتنا السماوية ! .

على أنقاض هذا الصرح الضخم من تراثنا الفكرى والروحى أقبلنا نرفع بناء التعليم والتربية من جديد ، ولكن سرعان ما وجدنا أنفسنا تلقاء مناهج هى صورة ممسوخة عن برامج هذا الغازى ، فيها كل شىء من الحشويات الحلبية ، وليس فيها إلا القليل من الحقائق العملية . فكأن هناك تصميما قد وضع عمدا ، لنسف البقية الباقية من مقوماتنا الأصيلة ، فجعل فى هذه المناهج ألغاما راحت تنفجر فتزلزل الضمائر ، وتطمس البصائر ! .

لقد وضعت هذه البرامج كل مقدساتنا موضع الريب ، وباسم الحرية الفكرية عمدت إلى عرضها فى إطار من الألوان القبيحة المنفرة ، فما لبثت أن عملت فى رؤوس هذا الجيل من أبنائنا ، فإذا هم يضربون عرض الحائط بكل تراثنا المقدس ، وإذا هم أخيرا يناصبون آباءهم وإخوانهم العداء ، لا لشىء غير ما يرونه من اهتمامهم بهذه القيم ! . ومن هنا جاء هذا التهدم الرهيب للكيان الأسرى بين أظهرنا ، إذ أصبحنا نرى البيت الواحد مجموعة من النقائض لا تنتظمهما وحدة ! .

لقد عزل النظر القرآنى تماما عن مخططات التاريخ والأخلاق والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس ، فأصبح الطالب يقرأ فى هذه المواد كل رأى إلا رأى الإسلام ! ... هذا فحسب بل إنه ليقرأ كل رأى مخالف

للإسلام ، دون أن يفسح للإسلام مجال الدفاع عن نفسه ! . . ولعل من أغرب المضحكات المبكيات أن ترى علم الاجتماع مبنيا معظمه على أسس النظريات المادية ، التى لم ينته فيها العلم بعد إلى القول الأخير ، دون أن يتعرض لما يقابلها من الحقائق الدينية ، التى تتحدث فى تفصيل أساسى عن المراحل البدائية للإنسان وللطبيعة ! .

* * *

هـــذه السموم :

لقد أصبح من المسلمات لدى هؤلاء (المثقفين) أن الإنسان خلق مجردا من كل اتجاه دينى ، ثم جاءت الحاجة تخلق له الآلهة ، فى مظاهر القوة والخصب والنفع ، ثم جاء التقدم الفكرى ليختصر هذه المعبودات ، ويحذف منها حتى صارت أخيرا إلى التوحيد !..

وطبيعى جداً أن تنتهى هذه الأفكار (العلمية !) إلى الاعتقاد الجازم بأن الأديان ليست — بناء على هذا التسلسل — إلا ضربا من (التقنين) لهذا التطور ، تناقلته الأجيال أولا بطريق المشافهة ، ثم عمدت إلى تسجيله فى كتب مقدسة! . . والنتيجة اللازمة أن يعتقد الطالب والدارس أن الأنبياء ليسوا سوى أفراد موهوبين ، عرفوا كيف يستغلون ضعف أتباعهم وتطلعهم إلى المجهول ، فنسقوا لهم هذه المفاهيم الوهمية على هذه الصورة المترقية من التفكير الدينى ! . .

هذا اللغو الذى يسمونه (حقائق علمية) هو الذى ينهض على أساسه أشد نواحى هذه المناهج حساسية وتأثيرا فى عقول ضحاياها من أبنائنا ، وبخاصة فى المناطق التى اخترعت لنفسها مسمى (التقدمية) . . وما هى فى الواقع إلا تكذيب وقح لقيمنا الروحية ، يجعل من الكتب الإلهية وجميع الآثار الدينية أساطير لا سند لها من الحقيقة ! . .

كنا نتناول طعام الغداء ظهر أحد الأيام ، فلاحظت ابنة لى صغيرة مشغولة عن الطعام بشىء فى رأسها ، فنبهتها وذكرتها بقرب وقت المدرسة ،

ثم سألتها عما يشغلها من الفكر . فشرعت تقص على ما سمعته صباح ذلك اليوم من إحدى المدرسات ، إذ كانت تقرر درسا فى مبادئ التاريخ ، وكان طبيعيا أن تعرض لقصة الدين ، على الطريقة المثبتة فى الكتاب .

وتقف ابنتى لتقول للمدرسة :

« ولكن هذا مخالف لما ندرسه فى كتب الدين . . حيث نرى أن آدم هو أول إنسان وأول نبى دعا إلى التوحيد ، فإذا صح هذا كان التوحيد هو الأصل ، وكان الشرك هو الدخيل ، وقد بعث الله الأنبياء لتصحيح العقيدة ، وتقويم الاعوجاج الطارئ على هذا الطريق » .

وكانت المدرسة على رأى ابنتى ، ولكنها مضطرة لتقرير ما بين يديها مما فرض عليها ، لذلك قالت للصغيرة : أنا معك . ولكن . . هكذا الكتاب يا بنيتى ! .

* * *

بين كتابين :

وإذا كان فى هذا التناقض ما يضحك القارئ ، فلا بأس أن نزيده من ذلك ، فنقدم إليه مثلين لا يقلان غرابة عما سبق :

فى كتاب (التربية الإسلامية) لصف الشهادة الثانوية بسورية بحث فى (نظام الأسرة) جاء فيه بالحرف : « . . وكان من أمره سبحانه ألا تبدى النساء زينتهن ، ولا مواطن الزينة كالعنق والصدر . . . فإذا تقيد الرجال بأمر الله المنزل واضحا فى كتابه المبين ، وتقيد النساء بهذا الأمر الذى فيه صيانة أعراضهن من عبث الماجنين . . . صلح أمر الرجال والنساء ، ولم يعد المجال متسعا للحديث عن السفور والحجاب ، لأن التقيد بأحكام الشريعة يقطع جدلا يثيره بعض الكتاب والمتكلمين ، وإذا تتبعت الآيات الكريمة فى كل ما يتعلق بالمرأة وصيانتها ، رأيت الإسلام يحجب المرأة عن مخالطة الرجال تجنبا للفتنة وعواقبها . . . والذى اجتمع عليه رأى الفقهاء أن المرأة كلها عورة ، إلا الوجه والكفين ، وإبداء العورة يخالف

نصوص الشريعة ، وظاهر الآيات الكريمة ، ومخالفة أمر الله عمدا معصية وفسوق . . . »

والكلام هنا واضح الدلالة على أن الإسلام يدفع الفتنة بمنع الاختلاط ، وأنه يفرض ستر المرأة ، ما عدا الوجه والكفين بغير زينة . . ومعنى ذلك أن كل دعوة إلى أى طريقة مخالفة لهذه الأحكام ، إنما هى دعوة إلى الاستهانة بشريعة الله ، وتجرئة على مجافاتها ، وتشكيك بصلاحيتها للحياة . .

والآن ننقل النظر إلى مؤلف آخر . . . هو كتاب (الأدب العربى) للصف نفسه ، فى الصفحة ٩٠ نقرأ — فى تقديم لنص من كلام قاسم أمين — ما يلى : « . . وكان أن قطع الرجل شوطا فى مضمار التقدم ، وخلف المرأة فى عقر البيت مقيدة بالأغلال الجائرة . . . فظلت سجينة فى حجابها الأسود . . ولكن شمس العصر . . أضرمت فى العقول المتطورة الواعية ، ثورة عاصفة على رواسب الماضى . . . »

ويعود الكتاب إلى الموضوع نفسه فى مقدمة أخرى لبائية الرصافى عن المرأة . . . إذ يقول : « . . . وكان الحجاب سجنا رهيبا حكم عليها الجهل والتعصب أن تقضى حياتها فى ظلمته ، فعاشت محرومة من حقوقها الإنسانية . . . »

ونحن لا نخالف المؤلفين فى الثورة بما كانت عليه المرأة — وغيرها — من تخلف أثناء عصور الجمود . . ولكننا نريد مناقشة حكمهم بشأن الحجاب ، وبكلمة أصرح بشأن سلامة المجتمع الإسلامى من الاختلاط ، على أنه السجن الرهيب ، الذى تمثلت فيه رواسب المفاسد جميعا ! . . . هذا مع العلم بأن ثمة منفرجا واسعا بين اتجاه النصين ، اللذين ينصبان على نواح أخرى لا يكاد يذكر معها الحجاب ، بل لم يذكر بالفعل ، إلا لماما ، وفى ثانى النصين بوجه خاص . . مما يجعل المقدمتين لونا من التشهير بمبدأ الحجاب ، أكثر منهما تمهيدا لمضمون النصين ! . .

وهنا أذكر أن واحدا من طلابى فى هذا الصف قد جاءنى ، أثناء دراسة

بائية الرصافى ، بصفحة منتزعة من مجلة لبنانية ، وهو يشير إلى جانب منها كتب فى أعلاه : (هكذا تصورنا مجلة ألمانية) . . ويلى ذلك كلام مترجم عن مجلة (كويك) الصادرة فى ميونيخ ، كتبت أصله امرأة إيطالية تحت عنوان (الجنس المشلول) . . وقد جاء فيه : (المرأة المسلمة تعيش وراء ملاءة سميكة أكثر ما تشبه شراشف النوم . . . ومن خلال شق ضيق جداً فى أعلى هذه الملاءة تتصل بالعالم الخارجى . . . ترى السماء والناس ، وكأنها وراء القضبان الحديدية فى السجن . . وفى البلاد العربية تموت النساء بلا حساب ، حيث يمنعن من زيارة الطبيب للمعالجة إذا مرضن . . . إنهن حيات دون أية فائدة ، فلا يسجلن فى السجلات الرسمية . . . وليس لهن اسم فى الغالب ولا هوية ! . .)

وبديهى أن الطالب إنما أراد لفت انتباهى إلى دقة التشابه بين كلام هذه المرأة الأجنبية الأفاكة ، وحكم الكتاب الذى بين يديه ! . . ولم تكن ملاحظة ذلك بالأمر العسير ، لأن مثل رأى الزملاء فى تينك المقدمتين لم يكن فى واقعه سوى ترجمة — أو أصل — لهاتيك المزاعم الظالمة . . .

إن (أدريانا فالارش) — وهو اسم الكاتبة — تصور الحجاب سجنا رهيبا يقطع المسلمة عن الدنيا ، ويجعلها محرومة من كل شىء . . حتى العلاج والاسم والهوية ! . . فجاء الزملاء الكرام يصورون ذلك فى إطار (الأغلال الجائرة . . ورواسب الفساد . . . والسجن الرهيب . .) ثم يلخصون هذا كله فى كلمة جامعة مانعة هى : أن الحجاب قد سلب المرأة المسلمة حقوقها الإنسانية . . !

والقارئ العربى حين يطلع على مفتريات تلك الكاتبة الأجنبية ، لا يعجزه أن يهتدى إلى البواعث الصهيونية التى أملتها ، لإعطاء صورة مشوهة عن واقع الإسلام . . ولكن لا يعلم كيف يفسر عمل أساتذة من إخوانه يرمون أمهاتهم وأخواتهم بأشنع من هذه الفظائع ، وهم يرونهن بأعينهم لا يختلفن عن نساء البشر فى شىء ، اللهم إلا بما يميزهن من الفضيلة والعفة والحياء ، التى أسبغتها عليهن تعاليم دينهن الحنيف ، تحت ذلك الحجاب المظلوم ! .

على أن الذى يهمنا من هذه وذلك هو التنبيه إلى مدى التعارض القائم بين دعوة مؤلفى الأدب ، والقرار الذى انتهى إلى استنباطه مؤلفو التربية الإسلامية ، فى مشكلة واحدة ، وفى كتابين لفصل واحد ، يحمل كل منهما اسم وزارة التربية والتعليم ! . . . إنه لتعارض من شأنه أن يحرم الطالب الغض كل أثر للاطمئنان العقلى ، فضلا عما يزرعه فى أذهان الناشئة من ضرورة التفريق بين الدين كشىء وهمى لا صلة له بالفكر الواعى ، وبين الحضارة كنتاج علمى لا مكان فيه للأوامر الغيبية . . وهى هى النتيجة التى صار إليها مفهوم الدين فى ظل الحضارة الغربية ، على الرغم مما فيها من جهل مطبق بحقيقة الإسلام ، الذى لم يعرف قط فى تاريخه مثل هذا الفصل بين منطق الوحى ومنطق الحياة . .

أما مسألة السفور والحجاب ، على كثرة من كتب وما كتب فيها ، فمن المؤسف أن يترك أمرها لمثل هذه الفوضى ، يقول فيها كل بما يشاء . . وعندنا أنها جزء من القضية الكبرى ، قضية موقفنا من الإسلام شعوبا ودولا . . أنخضع حياتنا لأحكامه ، فنستشيره فى كل ما نأخذ وما ندع ، أم ننسلخ منه فنسلم قيادنا إلى أهواء لن تراعى فى هذه الأمة إلا ولا ذمة ! . .

* * *

أخلاقهم الفلسفية :

أما الأخلاق فهى ذروة المهزلة . . إنها فى المنهاج كمادة الآثار القديمة ، تدرس لمعرفة تركيبها وتاريخها وطريقة صنعها . . لذلك تبقى بعيدة عن مجال النفس ، لا أثر لها فى سلوك الطالب ولا المدرس . .

والإنسان الذى تعلمه أن الأخلاق إنما هى حصيلة التواطؤ الاجتماعى للحد من عنصر العدوان على حقوق الآخرين ، لا يحق لك أن تطالبه باحترام هذه الحقوق عندما يتاح له انتهاكها لمنفعته ، وهو بمنجاة من سلطان القانون !.

ولا شك أن مؤلفى ومدرسى هذا النوع من الأخلاق الفلسفية ، قد فاتهم أن أخلاقهم هذه أعجز من أن تقوم اعوجاجا أو تصحح فكرة ، لأنها ولدت ميتة منذ تجريدها عن قداسة العقيدة . . وياليتهم تذكروا أن عظماء

التاريخ من أبطال الأخلاق ، لم يتح لهم قط أن يقرؤوا حرفا مما قالوه أو قيل لهم عن الأخلاق ، ومع ذلك كانوا مثل الأخلاق الأعلى فى أنحاء العالم جميعا ! .

فى جريدة محلية سورية قرأت خبرا مؤداه : أن تاجرا حلبيا قد فقد حزامه الذى فيه ثروته ، وكان آخر عهده به إذ غشى دورة المياه التابعة لأحد المساجد ، وعاد فلم يجد له أثرا . وأرسل مناديا يصيح بأعلى صوته فى شوارع اللاذقية : (كمر فيه خمسمائة ريال مذهب . . من أعاده إلى صاحبه فله عشر ليرات ذهبية . .) .

. . واعترضه فقير ممن يخدمون فى بعض المساجد ، يطلب إليه أن يجمعه بصاحب الحزام . . . ولم يطل الوقت حتى كان الفقير والتاجر فى غرفة حقيرة مظلمة من فناء المسجد . . وهناك ومن تحت فراش بال محشو بالقش أخرج الخادم الحزام . .

ولم يتمالك التاجر . . فإذا هو يكب على حزامه معانقا . . وأبى الخادم الفقير إلا أن يحصى التاجر محتوياته ليتحقق من سلامتها . واضطر هذا إلى أن ينفض حزامه على الفراش ثم يعدها خمسمائة كاملة . . ومد التاجر يده بعشرة من هذه (الريالات المذهبة) إلى الخادم ، ولكن هذا سحب يديه كأنما يقصيهما عن نار ! . . وألح التاجر ، ولكن الفقير كان أصلب إرادة من الصخر . . .

ولما رأى التاجر هذا التصميم على الرفض لم يفهم منه إلا أن الفقير قد استقل المبلغ ، فاضطر أن يقول له : أنها مخمسات ذهبية . . وأنها لخمسون ليرة عثمانية من أصل ألفين وخمسمائة ! ... وقلب الصعلوك المؤمن شفتيه وهو يقول : دعها فى حزامك . . إننى غنى عنها برحمة الله . . ونشرت الجريدة الخبر لتسجل دهشة الناس من هذه العجيبة الأخلاقية ! .

وطبيعى أن هذا الصعلوك لم يدرس فلسفة الأخلاق على أيدى هؤلاء المدرسين ، ولا على أيدى أساتذتهم الغربيين ، ومع ذلك فإننا نتحداهم جميعا أن يأتونا بأنموذج واحد من خريجى هذه الفلسفات ، يمكن أن يعف

عن الدرهم الواحد من السحت ، إذا وجد سبيلا لابتلاعه . . ولا نكلفهم المعجزات برد مثل هذه الثروة من الليرات ! . .

ويحضرني في هذا المقام ذكر قصة من قلم طاغور اسمها على الغالب (البلبل) وخلاصتها أن ملكا أعجب بتغريد بلبل ، فحشد الرجال لاصطياده . . وجعله في قفص رائع من الذهب ، ثم طلب إلى موسيقي القصر أن يلقنوه لغتهم ، ليكون تغريده فنيا . وأخذ هؤلاء يحشون فم البلبل بأوراق النوطة حتى خمد نفسه وقضى نحبه ! . . .

هكذا تماما نحن ورثة التراث الإلهي مع هؤلاء المستشرقين والمترجمين والمدرسين . نريد أن نفتح قلوبنا لروحانية هذا التراث ، كما فعل أسلافنا من أساتذة الدنيا ، ولكن هؤلاء يأبون إلا أن يصرفونا عن طبيعتنا إلى نوطاتهم ! . . والمصير معروف . إنه مصير البلبل . . . إنه الاختناق بهذه الغازات السامة ! . . .

ومثل هذا يقال في فلسفة النفس ، إذ تأخذ مناهجنا نظريات الغربيين أخذ حاطب الليل دون مناقشـة ، وربما بطلت إحدى هذه النظريات في الغرب نفسه ، وهي باقية في كتبنا لا يمسها تبديل أو تعديل ! . . .

وقد علم أولو العلم أن في تراثنا الثقافي ، وبخاصة في الأخلاق والرياضة الروحية ، نظريات للنفس كثيرا ما انتفع بها علماء الغرب أنفسهم ، حتى تركت طابعها المميز في كثير من هذه المترجمات . . ولكن مؤلفي الكتب المدرسية عندنا لم يبلغ سمعهم شيء من ذلك ، لأنهم استراحوا إلى الترجمة ، بعد أن أيقنوا بأن العلم كل العلم ما جاء عن الغرب ، أما ما عندنا فهو الخرافة التي لا تستساغ ! . وإنه ليؤسفني ويخجلني حقاً أن أقول : إن أستاذا من الأخصائيين في علم النفس ، ومن ذوي الشهرة البالغة في (فلسفة القومية العربية) كان يراقب مع زميل له إحدى قاعات الامتحان ، ولما وزعت على الطلاب أسئلة الدين نظر فيها متعجبا ، ثم سأل زميله مستغربا : « وما شأن القرآن في مثل هذه المباحث ؟! . » ثم لم يستنكف عن الاعتراف بأنه لأول مرة يعلم أن القرآن يتعرض لمثل هذه الموضوعات (العالية) ! . . .

كذب على التــاريخ :

ولنلق نظرة إلى مادة التاريخ نر العجب الأعجب . . . ذلك لأن تاريخ العرب والإسلام فى مدارسنا وجامعاتنا إنما يدرس من زاوية النظر الغربى البحت . . كل حادث يجب استقصاء أسبابه فى طوايا المشاكل الاقتصادية وما إليها ، حتى الفتوح الأولى لا يجوز أن تعدو هذه العوامل ، فهى على الغالب نتيجة الفقر والجدب فى الجزيرة العربية ! . أما ما عدا ذلك من الحوافز الدينية فهو عنصر ثانوى لا يستحق النظر ! . .

ولقد هالنى أن وجدت بين مدرسى التاريخ غير واحد من خريجى الجامعة السورية ، ينظرون إلى عمر بن عبد العزيز نظرتهم إلى حاكم من الدرجة الدنيا ، حتى بالنسبة إلى خلفاء الأمويين ! . وكل ذنبه عندهم أنه عنى برد المظالم ، وفتح لمن شاء من أهل الكتاب طريق الإسلام ، ثم جمد حركة التوسع العسكرى تطهيرا للجهاد من أرجاس الشهوات ، فشحت بذلك موارد بيت المـال ! . . . إلى آخر ما هنالك من عدوان على الحقيقة والتــاريخ ! . .

وقد نسوا أن وجود عمر بن عبد العزيز فى تاريخ الدولة الأموية إنما كان استئنافا لتاريخ النبوة ، الذى تمثل فى خطة الرسول والخلفاء الراشدين من قبله . . . فجاء يتتبع آثارها ، ويحيى ما اندرس من معالمها ، بسبب الانحرافات التى طرأت على سير الدولة الأموية . وهو الأمر الذى يمكن تبينه جليا فى جوابه على رسالة أحد عماله الذى كتب إليه يقول : إن أهل الذمة يتهافتون على اعتناق الإسلام وفى ذلك خسارة ضخمة لبيت المـال، بما يفقده من موارد الجزية . . »

فرد عليه قائلا : « إن الله بعث محمدا هاديا . . ولم يبعثه جابيا . . . »[1]

وبديهى[2] أن المنطق الغربى الذى لا يفهم إلا المــادة ، عاجز عن أن

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٥ . .

(٢) البديهى : نسبة سماعية إلى البديهة وهى فصيحة كسليقة وطبيعة . . .

يهضم حقائق تاريخنا الأصيل. وما انطوى وراء أحداثه من التيارات الروحية التي ولدت المعجزات . . . وإلا فمن أين للفكر اللاصق بالتراب أن يفهم مثلا كيف تستطيع بضعة آلاف من مساكين المسلمين ، أن تقهر مئات الألوف من أعظم جيوش الدنيا عتادا وتدريبا في العراق والشام ! . . وأن الإسلام الذي خسر معركة (حنين) عندما كان جنوده اثني عشر ألف مقاتل ، عاد فربح المعركة عندما تخلص من هذه الكثرة ، واقتصر على بضع مئات من صفوة المؤمنين ! . .

وأن المسلمين الذين كانوا يتسابقون إلى النجاة في إحدى المواقع ، حتى ليدوس بعضهم بعضا فراراً من ضغط العدو الزاخر . . . سرعان ما يعودون إلى المعركة ، ثم ينتزعون النصر بهذه الكلمة يسمعونها عن لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم : (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف)[1]

وأن جيش المسلمين أيام عمر بن عبد العزيز قد اقتحم (سمرقند) حتى ركز أعلامه فوق نجادها ووهادها ، ثم ما لبث أن تخلى عن انتصاره لينسحب من البلاد ، نزولا على حكم الشريعة ، التي قضت أن الفاتحين خالفوا قوانين الإسلام ، فلم ينذروا عدوهم ليأخذ حذره ! . . . وأن رجلا من عامة المسلمين يظفر بتاج كسرى ، وهو ثروة لا يحلم بمثلها عربي في الجزيرة ، فيحمله حتى يطرحه في غنائم المسلمين ، ثم يعود دون أن يعلن عن نفسه !...

وكيف يتاح لهذه العقلية الحجرية أن تتذوق رحمة صلاح الدين ، وهو يترك ساحة المعركة دامع العينين ، ليبحث عن طفل صليبي فقدته أمه ، ثم لا يهدأ له بال حتى يعيده إليها ويبلغها مأمنها ! . وتسقط القدس في يديه ، وينزل أعداؤه على حكمه ، فيكتفي منهم بتعويض يسير يعفى منه كل ضعيف وفقير ، ثم يسمح لهم بالنزوح حاملين أموالهم وكل ما أهمهم ، متناسيا أن هؤلاء أنفسهم هم الذين ذبحوا بالأمس القريب سبعين ألفا من إخوانه في ساحة المسجد الأقصى ، حتى غرقت قوائم خيولهم بدماء هؤلاء

---

(١) رواه مسلم عن أبي موسى وفي المشكاة برقم – ٣٨٥٢ – . . .

اللائذين بهذا الفناء من الأطفال والشيوخ والنساء !!! وأن عسرة تنتاب المجاهدين فى أحد المآزق ، ويستبطئون النصر حتى يلوذ واحد منهم تربه ، فيقسم عليه : لينصرن المسلمين وليكتبن له الشهادة فى سبيله . . « فاذا النصر يتنزل ، وإذا الرجل يكرمه الله بالشهادة ، فيكون ذلك واحدة من معجزات الرسول الذى أنبأ عن مثل هذا بقوله : رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره . . . »[1] . . .

وأن خالد بن الوليد قد تحدى كل قوانين الطبيعة يوم فتح العراق ، حين أخذ السم فاستفه على اسم الله ، فبرهن للرجل المؤمن بالسم ، أن عزم المسلمين موصول بالقوة التى لا يقهرها شىء من قوى الكون .

. . وأن رجلا من عامة المسلمين فى جيش مسلمة بن عبد الملك قد حقق لإخوانه فتح الحصن الذى استعصى عليهم . . . فلما جاء وقت المكافأة اختفى الفاتح ، ثم لم يظهر نفسه للقائد إلا بعد أن أخذ عليه العهد ألا يكتب اسمه فى صحيفة ، ولا يأمر له بشىء ولا يسأله من هو ! .

فكان مسلمة لا يقوم بعدها فى صلاة إلا قال : (اللهم اجعلنى مع صاحب النقب . .) ! . وأخيرا . . هل فى مقاييس المادية والديالكتيكية أن يحدث ما حدث فى بورسعيد يوم العدوان الثلاثى . . إذ نسف العدو أقنية المياه ، فقطع الحياة عن البلد المجاهد ، ثم أطلق القذائف المحرقة تلتهم الأخضر واليابس ، فى حين كانت الطوائر تمطر الأرض بسحاب من المتفجرات المدمرة والناسفة ، حتى سدت كل منافذ الحياة . . فلا ماء للشرب فضلا عن الإطفاء ، ولا سبيل للوقوف بوجه النار الزاحفة ، ولا سبيل إلى الفرار منها . . . وتطلعت القلوب إلى علام الغيوب ضارعة إليه مخلصة له الدين . .

وسرعان ما أقبل جواب السماء ، ففتحت أبوابها بماء منهمر ، خمد به البلاء . . ورويت منه الأحشاء الظماء . . . !

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة . . .

أكبر الظن أن الذين سيؤرخون لمعركة بور سعيد ، من هؤلاء الغربيين أو المستغربين ، سيحذفون هذه العجيبة أو سيقولون : (وكان من غرائب الصدفة أن تهطل الأمطار على غير انتظار ، فتطفىء النار ، وتسلم بقية الديار ! . . .) والصدفة عند هؤلاء هي كل حقيقة لا يعرفون لها وصفا ، في حين أنها عندنا صورة من القانون الإلهي الذي يعجز التحليل المادي عن أن يجد له التعليل الرياضي .

* * *

عقليتـــان :

إن ها هنا ضربين من العقليات والمفاهيم ، لا أحسب عاقلا يقول بإمكان التوفيق بينهما ، ضرب لا يؤمن بما يخرج عن حدود بصره وبطنه ، وضرب يصل بالنظرة الواحدة بين الأرض والسماء ، فلا يرى لشيء أن يحدث إلا بأمر من الله . . . لذلك تراه يعلل كل شيء وفق مقياس إلهي ثابت ، يوقن بأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل . ولا ريب أن نظرتين بينهما هذا التضاد لا تتيسر لإحداهما الحياة إلا على أنقاض الأخرى ، وهذا يعني أننا بين أمرين : إما أن نؤثر مذهبنا في دراسة الحياة وتربية الأجيال ، فنحتفظ بخصائصنا ومقومات وجودنا ، بوصفنا أمة الرسالة الخالدة ، وإما أن نسلك مذهب الغربيين أو الشرقيين — وكلاهما سواء — فنتخلى إلى الأبد عن وجودنا الإسلامي ، ونقطع كل صلة بين أبنائنا وبين رسالة آبائنا . ولا وسط بين المذهبين ، ولن ينفعنا ما نوهم به أنفسنا من هذا الترقيع ، الذي لا يؤخر الكارثة فضلا عن أن يدفعها . . .

* * *

الحقائق والتطـــور :

شكا إلي ذات يوم مدير إحدى المدارس الخاصة ما يحسه من تفشي الإلحاد بين عدد من تلاميذه . وفاتحني في طرد بعضهم خشية أن تسري عدواهم إلى غيرهم ! . . واستغربت شكوى المدير ، وعجبت كيف يستغرب مثل هذه الأمور ، وهو نفسه يتولى إثارتها في نفوسهم من حيث

لا يدرى . . وذلك عن طريق علم الاجتماع الذى يبسط لهم نظرياته المادية ، فيملأ صدورهم شكوكا بما يسمعونه لدى سواه من التعاليم الدينية ! . .
ولا أذكر إذا كنت قد قلت له : إن هذا الطرد إذن سيكون نصيب معظم الطلاب يوما بعد يوم . . ما دمت لا تجد علاجا لذلك الداء إلا هذا الدواء ! .

ورب قائل : هذه سبيل الإنسانية كلها اليوم فى كل مدارس الأرض ، فلا مندوحة عنها ، وإلا انقطع بنا الطريق . وحسب الإسلام أن تركنا له ساعتين من الدروس الأسبوعية ، ثم جعلناه واحدا من موضوعات الامتحانات العامة . . وهذا وحده كاف لتصحيح مفاسد المناهج — إذا كان ثمة من مفاسد ! — .

وهى كلمة فيها الكثير من ظواهر الإنصاف ولكنها خلو من حقيقة الإنصاف ، وذلك لأن الدعوة إلى تصحيح المناهج ، وفق مقاييسنا الإسلامية، ليست دعوة إلى الغاء الحقائق العالمية المشتركة . . فروح الإسلام نفسه تقضى أن (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها) وعلى هذا فكل حقيقة علمية ثابتة هى فى طبيعتها قرآنية ربانية ، لأنها قائمة على أساس السنن الإلهية ، التى يدفعنا الله دفعا إلى اكتشافها والانتفاع بها ، ويحذرنا أن نصرف عنها وجوهنا فنكون كمن (**لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . .**) **٧ — ١٧٩**

وكل ما ندعو إليه هو أن نعى أنفسنا ونفهم رسالتنا أولا ، حتى إذا فعلنا ذلك اتضحت لنا أهدافنا ، فعلمنا أننا لم نخلق لنكون عبيدا نسوق ركاب القوم ، بل طلائع الركب نقود الإنسانية إلى الجادة .

ثم إن العالم المتخبط من حولنا فى وحول الشهوات وأضاليل النظريات ، أحوج ما يكون إلى من يحمل إليه النور ، فإذا استطعنا أن نفعل ذلك استعدنا مكاننا الأعلى فى منازل الحياة ، وكان لنا كأمسنا الغابر دور المنقذ ، الذى يهب للعالم ما لم يهتد إليه حتى الآن من الحلول لمشكلاته التى لا تزداد إلا تعقيدا

واستعصاء . . وهذا لن يكون تجاوزا للوظيفة الطبيعية التى ألقاها القدر على عاتق المسلمين حين اصطفاهم لحمل رسالة السماء ، فجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

أما إذا اكتفينا من التربية والتعليم باتباع هؤلاء وأولئك على العمياء ، فلن نزيد العالم إلا حفنة من الوقود تضاعف من قابليته للاشتعال ، ولن نوفر لأنفسنا يومئذ شيئا من الشعور بالسعادة ، التى يحسها من أيقن أنه قدم إلى إخوانه فى الإنسانية أى خير أو عزاء ! .

على أن من أعجب المضحكات التى تواجهك ، من أولئك المسحورين ببهارج الغرب ، ادعاءهم أن مقاييس الأمس ، أيا كانت ، عاجزة عن الوقوف أمام حركة التطور العالمى ! . . فهم لا يستطيعون أن يعقلوا — مثلا — كيف يتعرض كل شىء للتبدل ، حتى أوضاع الشعر ، وأحذية النساء ، وأدوات الطبخ . . . ثم تبقى معايير الأخلاق جامدة فى معزل عن تلك الحركة ! . . .

ولو هم قد أنعموا الفكر ، لعلموا أن هذا التغيير الذى يدهشهم إنما يتناول فى الواقع سطوح الأشياء دون أعماقها ، إذ لو صح ما يذهبون إليه من إخضاع كل شىء له ، لاستحال اطراد المدنية ، ولزلزلت موازين العلوم الطبيعية ! . . لأن القوانين الكونية نفسها تكون إذ ذاك محكومة بهذا التحول المستمر ، وهو شطط لا يقول به عاقل . . ومتى أدركوا هذا سهل عليهم أن يتحققوا أن للأخلاق الأساسية كذلك قوانينها الخالدة الراسية كقوانين المادة تماما ، وهى بالنسبة إلى المجتمعات البشرية نقاط انطلاق ، ينبغى أن تنبثق منها كل التطورات الاجتماعية ، كما تنبثق أشعة الدائرة من جوانب المركز ، فهى تمتد هنا وتمتد هناك ، وتمتد من كل جانب ، ثم تنفرج كلما أمعنت فى الامتداد ، حتى لتبدو فى نهاياتها كأنها متعددة المصادر ، مع كونها فى الحقيقة موحدة المنبع ، لا تتحرك إلا وفق القانون الذى يربطها بالمركز . . .

ولكن هذه حقائق تتطلب العقل الذى لم يفسده التقليد الأعمى ، وهيهات أن يدركها من حرم معرفة نفسه ، ومضى على آثار غيره ، دون أى تفكير أو تقدير ! . . .

* * *

هــذه سبيلنــا :

ونحن – العرب – أمة صغيرة بالنسبة إلى من حولنا من كبريات الأمم ، إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية الأعداد . وإذا نظرنا من زاوية الفكر العالمى انحدرنا إلى أدنى فى سلم القوة . . . فأين نحن من الصين والهند والاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة ! . . . وأين رسالتنا الفكرية – على وضعنا الراهن – من الديموقراطية التى تستوعب ثلث العالم ، ومن الماركسية التى تشمل نصف العالم ، ومن الوثنية التى تستغرق بقية العالم ! . . .

على أننا – نحن العرب – نستطيع أن نكون إحدى القوى الكبرى حين ندخل الدنيا من باب الرسالات العالمية ، فنقدم للإنسانية الحائرة نظام الحياة الكامل ، الذى ما فتئت تفتش عنه منذ قرون وقرون . . .

بهذه الرسالة يمكن أن نكون شيئا ثقيلا فى ميزان العالم ، إذ ندخله كالطبيب العظيم ، حين يقبل على بلد منكوب بالطاعون ، أو كالمصباح القوى عندما يرسل شعاعه فى ليلة مدلهمة الظلام . . وما لم نرفع لواء هذه الرسالة من جديد فنحن صائرون لا محالة إلى الذوبان فى إحدى الكتل البشرية ، مهما أبدعنا فى اختراع الشعارات المزوقة ! . .

. . . هذه عناصر رئيسية فى الفكر التربوى الذى نريد ، فاذا أيقنا بحقيقتها سهل علينا الفهم أن مادة الدين لا ينفعها أن تعطى حصتين أو ثلاثا أو عشرا فى الأسبوع ، إذا كانت المواد الأخرى قائمة على أساس مناف لحقائق الدين . . . والطالب الذى يتعرض لهذا التناقض لن يكون إلا فريسة للشك أو النفاق ! . وفى هذا أكبر البلاء على الأمة . .

وعلى ضوء هذا الوعى سنجد يومئذ الطريق إلى المنهاج السليم ، الذى يضمن لنا تكوين الجيل الصالح ابناء الحياة . . ذلك المنهاج الذى تتعاون

فيه أجزاء المواد جميعا لتؤلف الكل التام . وفى ظل هذا التنظيم لن يوجد المدرس الذى يستخدم مادته لإفساد القلوب ، ولن يوجد الكتاب الذى يسمى الأضاليل حقائق ، ولن يوجد معلم الدين الذى يهرب التلاميذ من النوافذ لينعم بالراحة ، وهو يسجل فى صحيفة الصف الدرس الذى لم يقرره ! . بل سيكون كل مدرس يومئذ ، وكل مادة ، دعوة حية إلى الخير والحق ، وبرهانا قويا على أن غاية التربية والتعليم تفجير منابع القوة الخيرة فى قلب الطالب ، حتى يكون العضو الصالح لأمته وإنسانيته . . ونحن حين ندعو إلى هذا المنهاج ، إنما ندعو إلى النهج الذى يعد عنصرا أصيلا من حياتنا العلمية المشرفة ، يوم لقنا الدنيا : أن العلم هو أفضل ما وهب الخالق لعباده من النعم ، التى يحررون بها أنفسهم من كل عبودية لغيره .

ومرة أخرى نقول : إن تصحيح المنهاج لا يقتضى محو جميع خطوطه ، حتى التى تتناقض مع مبادئنا الأساسية الثابتة لا ندعو إلى إلغائها ، إذا كانت لا تزال مما يهتم به لدى الأمم الأخرى . وكل ما ندعو إليه هو أن يكون فى هذا المنهاج متسع لنظرات الإسلام فى كل ما يعالجه من شئون . . حتى يتاح لذهن الطالب أن يتعرف بصورة دائمة رأى الإسلام فى كل منها . .

ولقد كان هناك من يعتذر بأن البحوث الإسلامية لن تيسر الحصول على نظريات كاملة فى هذه المواطن الحساسة . . لأنها بطبيعتها جديدة لم تعرف قبل عصر النهضة ، فلم يتح بحثها لعلماء الإسلام ومفكريه أيام حضارة الإسلام ! .

ومثل هذا الزعم أصبح واضح العوار لسببين : الأول أن فى القرآن والسنة أسس هذه القوانين ، وهى لا تزال بانتظار العيون الحاذقة التى تستكشفها ، وهذا أمر بات أكثر سهولة مما سبق ، بما اكتشفه العقل الحديث من آفاق العلوم التى قرر القرآن أصولها الكبرى . . وأما السبب الثانى فهو ما أخرجه جهابذة الإسلام المعاصرون من مؤلفات قيمة فى هذه الموضوعات قدموا بها للعالم مقررات كاملة فى السياسة والاقتصاد والأخلاق والنفس والحرب والسلم والقانون . . وما إلى ذلك مما يقنن نظرة الإسلام فى هذه

الميادين العالمية . . وبذلك أضحى كل إغفال لهذه الحقيقة جهلا فاضحا بمبادئنا ، أو تخطيطا متعمدا يسلخنا من هذه المبادئ ! . .

* * *

تكذيب التـــاريخ :

على أن الكتاب المدرسي ، مهما يحقق من التكامل ، سيظل محدود الأثر ، إن لم يظفر بالمدرس الذى ينسجم معه عند نقل محتوياته إلى صدور طلابه . . والويل لهؤلاء الأبرياء حين يكون مدرسهم من الضرب الذى فسدت طويته ، فلا يجد شفاءه إلا فى الإفساد والتشويه ! .

لقد عرضنا فيما تقدم صوراً من الكذب على التاريخ ، فلننظر الآن إلى صور مقابلة من تكذيب التاريخ .. ذلك التكذيب الذى تحوكه أنامل الضغينة المشبوهة ، لتزلزل ثقة الأمة بمثلها ورجالها . . ثم نتساءل : إلى أين تدفع الأجيال حين يتولى قيـــادها الفكرى هذا الطراز العجيب من المدرسين .

قرأت فى إحدى الصحف خبرا عن مدرس لم يرقه أن يحمل الكتاب المدرسي أى إطراء لصلاح الدين الأيوبى ، فراح يعمل به طعنا وتجريحا ، ويقذفه من التهم بما لم يسمع به شرق ولا غربى ممن أرخوا لهذا البطل . . وكنت أعرف حادثتين من هذا النوع . . أما إحداهما فبطلها مدرس من الطراز نفسه ، وقف ذات يوم فى ملأ من طلابه الثانويين . . يعلن بكل (رجولة) أن صلاح الدين لم يقم له التاريخ وزنا ، إلا بعد أن جاء الجنرال غورو فركل قبره بقدمه ! . وهى كلمة لا أستبعد أن تكون أحد العوامل التى دفعت به مؤخرا إلى كرسى الوزارة فى إحدى الحكومات التقدمية)! . .

وأما الثانية فقد شهدتها إحدى مدارس الساحل السورى ، حيث وقف أحد المدرسين من الاتجاه ذاته ، يورد قريبا من شتائم زميله ، ويجرد قاهر الصليبيين وأعوانهم من كل فضيلة ، ومن كل أثر فى تحرير هذه الديار من أغلال الاستعمار ! . . .

هذه وقائع ثلاث تعددت أمكنتها وأزمنتها ، واتحدت فى ملابساتها ودلالاتها ، فهى تستهدف تشويه شخصية صلاح الدين فى أذهان الجيل الجديد ، وفى سبيل ذلك لا تستنكف أن تكذب على التاريخ ، وتتنكر لحقائقه ، التى أصبحت من التواتر بحيث لا يفكر بمهاجمتها إلا من أراد تحطيم قرنيه[1] . . .

بقى أن نتساءل عن الحوافز الخفية التى تدفع هؤلاء السادة إلى مثل هذه المحاولات البائسة . . . ! وهنا نجد أنفسنا تلقاء المشكلة عينها . . . مشكلة الإسلام الذى لا يستطاع سلخ صلاح الدين عن رسالته وعن فعاليته ، فكل إطراء لهذا البطل إنما هو فى الواقع تمجيد للإسلام الذى صنع شخصيته ، وكون عبقريته ، وجعل منه واحدا من عمالقة الدنيا . . باعتراف خصومه المنصفين من الصليبيين ! . .

لقد نبت صلاح الدين فى ظل أستاذه العظيم الشهيد محمود نور الدين زنكى ، ثم مضى على سننه يحيى سنن الإسلام ، فيقيم دعائمه ، ويحصن معاقله ، ويطهر صفوفه من الهدامين ، الذين مزقوا من قبل شمله حتى أطمعوا به من لا يدفع عن نفسه ، وبذلك أعاد لدولة الإسلام هيبتها ، ورد إلتها وحدتها التى طال بها العهد ، حتى أصبحت من أحلام الماضى ، ومن ثم صدم الصليبية الباغية بالقوة القاضية ، التى خلصت من عناصر الهزيمة ، فلم يكن إلى قهرها أو دحرها من سبيل . . .

وطبيعى أن خطة صلاح الدين تلك لم ترض عنه جميع الناس ، وبخاصة أولئك الموتورين ، الذين تتفجر صدورهم حقدا على الإسلام . . وقد حدثنا التاريخ بردود الفعل الآثمة التى قصدت اغتياله وهو فى أخطر مواقف الدفاع عن الوجود الإسلامى فى هذه الأرض ، لا مرة بل مرات ومرات ، فلم تكن ليزيده إلا تصميما على خطته ، إذ ملأته يقينا بأن القدر لا يحفظه من

---

(١) فى أحد المراكز الثقافية فى بلد « تقدمى » ، وفى إحدى المناسبات المتصلة بقضية فلسطين ، تحدث أحد المتكلمين عن حطين وبطلها العظيم . . ولم يكن ذلك مما يتفق مع أهداف الحزب الحاكم فأخذ هتافوه يصرخون : تسقط حطين التى جاءت بصلاح الدين !

من هذه المؤامرات ، إلا ليحقق به مهمة الإنقاذ لهذه الأمة من أعدائها المسعورين ، المتعاونين فى الداخل والخارج على اختلاف أسمائهم وألوانهم ...؛

ونحن اليوم إذ نشهد هذا التشويه المتعمد لعظمة هذا العملاق ، لا نستطيع الا أن نلتمس بواعثه البعيدة فى مسارب الحقد التاريخى ، الذى تحدر من هناك . . . من أعماق الماضى . . . أجل إنه امتداد لتلك المحاولات الرهيبة ، التى طالما عملت للقضاء على أهداف صلاح الدين باغتيال شخصه ، تتحرك اليوم لاستكمال هذه المحاولات باغتيال ذكره ! .

ولكن خاب فأل القوم . . لقد جهلوا أن الذى صان حياة البطل ، حتى أتم رسالته ، هو نفسه الذى يتولى اليوم رعاية ذكراه ، فى مواكب الخلود . . حتى تكون القدوة العملية للجيل المؤمن ، فى عملية الإنقاذ القريبة ... ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الموتورون والمضللون والملحدون ومن ورائهم الباطنيون . . .

* * *

التعليم الدينى :

يحسن بى أن أتساءل أولا : هل على أن أفرد موضوع الدرس الدينى بطرف خاص من البحث ! ! . لا جرم أن مادة الديانة تؤلف وحدة أساسية من المنهج التعليمى فى كل بلد إسلامى ، فهى إذن جديرة بأن يعيرها المفكر ما تستحقه من العناية . .

ونظرة إلى تفاصيل هذه المادة ، فى برامج الدولة ، تعطى الباحث صورة مركزة عن أهميتها فى المجال الثقافى ، فهى ليست مجموعة من الرموز والطقوس والأحكام الخاصة بالجنابة والاستبراء ، وما إلى ذلك مما يحسن تركه لحكمة المدرس وتوجيه البيت ، بل هى فى الواقع – وبخاصة فى صفوف الشهادتين – موضوعات قيمة ، تبحث أهم مشاكل الفرد والجماعة فى نطاق الكيان الإنسانى ، على ضوء الكتاب والسنة وتحقيقات الأئمة . ومن هنا كانت مادة الديانة فى وضعها الراهن مادة ثقافية ، ذات أثر فعال فى تكوين « الفكر الإسلامى » .

وأرانى مضطرا إلى الإلحاح على تحديد هذا الأثر ضمن حدود الفكر وحده ، ذلك لأن الدين هو الشيء الوحيد الذى لا تغنى فيه المعرفة النظرية عن التطبيق العملى . . فنحن قد نمد الطالب منه بما يمكنه من البحث والدرس والتغلب على مصاعب الامتحان ، ولكننا لا نستطيع أن نشق به الطريق إلى قلبه ، لنجعله عنصرا من تركيبه الطبيعى ، على الوجه الذى يحقق انفعاله به وتذوقه لمعانيه . . ما دمنا واقفين به عند حدود العمل الذهنى الصرف .

ولعل قصور الكثيرين عن الإحاطة بهذه الحقيقة هو الذى يقيم الحواجز بين علمهم بالدين ، كموضوع ثقافى ، وبين إحساسهم به ، كطاقة تملأ الكيان كله بإشعاع يضيء ظلمات المجهول .

وبهذا التمييز بين الدين كعلم مفهوم ، والدين كسلوك منظور ، روى عن بعض الصحابة قولهم : « كنا نتعلم الآية من كتاب الله فلا نتجاوزها إلى سواها حتى نتعلم العمل بها » . .

وبمثل هذا الإدراك الواعى ، كان (نيومان) يحدد الإيمان الحقيقى بأنه الذى يصدر من الكيان كله لا من العقل وحده[1] .

وكان برنارد شو يعرفه بأنه « إحساس يتصف بالسمو والحيوية ويسيطر على الشهوات الدنيئة . . التى لا يجد الإنسان التافه أية حاجة للسيطرة عليها ، إلا بمقدار ما يتعلق الأمر بمراعاة الأعراف السائدة فى مجتمعه » .

وإنما كان ذلك لأن الإيمان هو القوة الخفية التى تنقذ الإنسان من تفاهة الهدف الذى ينتهى ، إذ يطل به على الهدف الذى لا ينتهى ، ولو عاش ملايين السنين ، وذلك بما يمنح بصيرته من سعة الآفاق .

وبديهى أن فى هذه الحقيقة ما يجعلنا نؤمن أن (التربية الدينية) ليست تعليما يستهدف حشو الآذان بطائفة من المفاهيم الفلسفية ، ولكنها ، قبل ذلك ومع ذلك ، تدريب روحى على تحقيق هذه المفاهيم ، يجعل الطالب قادرا

---

(١) انظر ص ٢٨٥ و ٢٨٧ و ٣٤٦ من كتاب « سقوط الحضارة » ترجمة أنيس زكى حسن . . .

على ترجمتها إلى سلوك منظور . . وإلا كان كالمريض الذى يدرس وصفة طبيبه حتى يستظهر حروفها ، ولكنه لا يفكر بتنفيذها عمليا فى معالجة دائه ! – على تعبير العلامة المودودى – . . .

ولعمرى ليس فى منهاج التربية الدينية ما يشكوه المفكرون ، أكثر من هذا الفراغ المخيف بين المفهوم والمنظور . . فالطالب إذا أصاخ إلى درس الدين فإنما يصنع هذا مدفوعا برغبة النجاح ، ولولا ذلك لما أعاره أى اهتمام ، يضاف إلى هذا أنه قلما يجد من آثار هذه التعاليم فى سلوك معلمه ما يحببها إلى نفسه . . . !

لقد كلفت إعطاء بعض الدروس الدينية لصفى الكفاءة والثانوية فى مدرسة خاصة .. فكان من أوائل توجيهاتى هناك أن وجهت نظر الطلاب إلى قيمة الدين فى حياة الإنسان ، وفى نظرته إلى الوجود ، ثم قلت : أنا لا يهمنى نجاحكم فى الشهادة بمقدار ما يهمنى تكوين العزائم التى تستطيع ، بما تفيده من هذه الدروس ، أن تنهض بعبء إحيائه فى صميم المجتمع . . إنكم بحاجة إلى معرفة حقائق الإسلام ، ولكن الإسلام بحاجة كذلك إلى من يترجم حقائقه إلى أعمال ، فى البيت والمدرسة والمصنع والدولة . . »

وكان متعذرا على الطلاب أول الأمر أن ينظروا إلى الدين على ضوء هذا التوجيه ، لأن فكرتهم عنه لم تكن مما يرتفع إلى هذا المستوى ، ولذلك قوبلت كلماتى بكثير من الدهشة ، بل إن بعضهم لم يطق كتمان حيرته فراح يتساءل : وما شأن الدين فى هذه الجوانب من الحياة !؟

والطلاب معذورون فى موقفهم ذلك ، فهم لا يكادون يعرفون شيئا عن الدين بعامة والإسلام بخاصة ، وأنى لهم ذلك بعد أن نفى الإسلام من البيت والشارع والمدرسة ، وعزلوا هم فى هذه المدارس الخاصة عن كل صلة به ، حتى فوجئوا بدروسه على غير استعداد !

ولا أحدثك عن أسطورة إذا قلت : إن طالبا فى صف ثانوى ، وأبوه مفتش فى التربية والتعليم ، قد كتب لى فى مسابقة أدبية : أن خطيب الجمعة يلقى خطبته عقيب الصلاة . . ولما سألته : فى أى مسجد رأى ذلك ؟

أجابنى فى إصرار : لم أدخل مسجداً ، ولـكن حدثنى بذلك من دخل المسجد . . !

فهل تبيح لنفسك لوم هذا الفتى ، وهو الذى لم يسمع فى بيته كلمة عن الدين . . ثم انتهى إلى الحلقة الثانوية دون أن يجد أية حاجة لدرس الدين ؟!..

وفى إحدى مدارس الراهبات أنذرت بإنهاء مهمتى ، بعد ثلاث سنوات من التدريس ، وذلك لسبب بسيط هو أننى أريد من تلميذاتى ، فى صف الشهادة الثانوية ، أن يحافظن على مظاهر الحشمة حين يحين موعد درسى على الأقل ، وهو أمر لا تطيقه المدرسة ، التى لا ترى من مصلحتها أن يبقى للإسلام أى أثر فى حياتهن ! . . فهل نبيح لأنفسنا لوم هؤلاء الطالبات ، وقد تخلى أهلوهن عنهن ، فلم يزودوهن بشىء من خصائص الإسلام . . ثم التهمهن المحضن التبشيرى ، فلم يدع لهن سبيلا للاتصال بهذا « البعبع » الرهيب !

والآن نعود إلى ما بدأنا به هذا القسم . . .

الحق أننا حين نتحدث فى موضوع التعليم الدينى كمادة مستقلة إنما نفعل هذا مجاراة للواقع الذى لا سبيل إلى تجاهله . . وهو واقــع مباين لمبادئنا التى لا تسمح بعزل الدين عن أى من جوانب الحياة . ذلك لأن امتيازنا كأمة إنما ينهض على أساس من هذه الحقيقة ، التى جعلت أسلافنا ، من حملة التراث الإلهى ، يربطون كل أعمالهم بسبب من الاتجاه إلى الله ، فلن تقرأ لهم بحثا فى الفقه أو التاريخ أو الفلك أو الطبيعة أو النفس ، إلا وجدته يرف بنور الإيمان . . .

وهنا أتذكر مناسبة جمعت ثلة كبيرة من رجال التعليم ليستمعوا إلى محاضرة ألقاها علينا أحد الـكبار من موظفى هذا الملاك فى سورية . كانت تلك المحاضرة قيمة إلى حد أنها لم ترض سوى القليلين من المجتمعين . . وكنت واحدا من هؤلاء ، فكتبت إليه فى اليوم التالى تعليقا مطولا اجتزئ منه هنا بالسطور التالية ، لمـــا لهـا من صلة بما نحن الآن بصدده . .

تقدير وتذكير :

« . . . إن وقفتك القصيرة القوية على موضوع الدين فى (التعليم الموجه) كانت مثيرة وناجحة ، إذ عرضت للأمر بقوة الناقد الخبير لا المتعصب الفارغ ، فأذكرت السامعين من المعلمين : أن موضوع الدين من الأهمية فى إنشاء الجيل الطالع بحيث يكون من الخيانة إهماله أو إفساده ، لأن حاجتنا إلى القلوب العامرة بالإيمان ليست دون حاجتنا إلى الرؤوس المشحونة بالمعلومات . وأستطيع أن أضيف إلى ذلك العنصر – عنصر الدين – فكرة (الرائد) أو (مرشد الصف) ثم فكرة تحويل المدرسة إلى (مركز إشعاع) بالنسبة إلى البيئة الاجتماعية . . »

هذه نقاط ، وإن تعددت فى الحساب ، يمكن اعتبارها أجزاء لفكرة أصيلة واحدة هى فكرة « التوجيه الراشد » الذى لا سبيل إليه الا العناية بالتكوين الروحى ، الذى لا سبيل إليه أيضا إلا بتكوين الضمير الرفيع فى صدر المعلم ، حتى يستيقن أنه لا يعدد أياما ليتقبض راتبا ، وأنه ليس موظفا لمصلحة قوم بعينهم ، ولا هو رسول فكرة أجنبية ، كل همه من التعليم هو أن يهتبل الفرص لدسها فى أدمغة طلابه ! . . ومن هنا يتبين أننا أمام وحدة موضوعية لا مندوحة عن فهمها أولا ، ثم استكمال وسائلها التطبيقية ثانيا ، وأختصر لأوجز رأيى فى هذا الأمر :

لقد تبين من حديثك أن البلاد مشرفة على مرحلة من التربية الجديدة تقوم أول ما تقوم على سلامة الفطرة ، ثم على أساس من الإيمان الصحيح ، الذى به وحده تتفجر الطاقات البناءة الواعية ، وهذا أمر طالما تلهف إليه المؤمنون .

على أن الذى كنا نشكوه ليس هو فقدان (المنهاج) الذى يؤمن بهذا الاتجاه ، بل فقدان المعلم الذى يصلح لهذا المنهاج . . وليس بعازب عن بالك أن الدين – بخاصة – هو الشىء الوحيد الذى لا ينفع فيه الكلام ، إذا لم تتوافر له القدوة الصالحة التى تترجم (التعريفات الدينية) إلى سلوك

حى . . . وطبيعى أننا مضطرون للاعتراف بفقرنا التام من هذه القدوة فى السلوكية فى أوساط المعلمين إلا من رحم الله ، وقليل ما هم . وهل أنا فى حاجة لأن أحدثك ببعض النماذج من هؤلاء المعلمين الذين يعلمـــون تلاميذهم حكمة الصيام وهم يدخنون فى رمضان ! . .

وهل أذكر لك أن بين المتدبين لتعليم الإسلام فى بعض الثانويات الرسمية ، من بلغ بهم الاستهتار بالإسلام إلى أن يهربوا طلابهم من النوافذ ، ليستريحوا من العمل ، وليسجلوا لأنفسهم – فى صحيفة الصف – أجر العاملين ! . .

الحق أن علينا قبل أن نتكلم عن الدين وأهميته فى حياة الأمة أن نكون المعلم ، الذى فى وسعه أن يعطى الصورة المحببة لهذا الدين . . . وبديهى أن مثل هذا لا يتم بمجرد قرار وزارى أو محاضرة قيمة ! . . .

إن أفضل دعوة للدين فى أوساط الطلاب هى صورة المعلم المتدين ، يرشدهم بسلوكه إلى سمو المفاهيم الدينية ، فإذا عمد إلى تعليمهم الصلاة نقلهم مع درسه إلى المسجد ، وقام فيهم إماما ، وإذا أمرهم بالخير أعطاهم صورة صادقة حية عن جماله فى حياته هو ، وإلا فالأمر كما قال البوصيرى :

أمرتك لـكن ما أئتمـــرت به   ولا استقمت .. فما قولى لك : استقم ! !

ولا جرم أن مثل هذا التناقض بين حياة مدرس الدين ، وبين تعليمه الدين ، إنما هو مصدر الخطر الـكبير على خلق الطالب ، لأنه يمرنه على النفاق . . وهذا ما تلمس نتائجه فى سلوك أطفالنا ، إذ يتهربون من الصلاة بكل الوسائل حتى الكذب . . وما ذلك إلا حصيلة ما يرونه بأعينهم من ذلك التناقض بين أقوال معلميهم وأعمالهم ! . .

أجل . . إن المعلم لا يصلح لأن يكون رائدا أو مرشدا إلا إذا صلح أن يكون قدوة حسنة . وبالتالى يستحيل على المدرسة – أيا كانت – أن تؤدى أية وظيفة اجتماعية فى وسطها . . إذا لم يتوافر لهـا المعلمون الذين يستطيعون صنع العظائم فى الميدان الخلقى . . .

بقى أمر صغير . . هو : كيف تستطيع الوزارة أن تؤمن التوجيه الديني الصحيح وراء جدران المعاهد الخاصة وبخاصة غير الإســلامية ؟ . . أعرف مدرسة خاصة للبنات تفرض على طالباتها الليليات أن يفطرن في رمضان كله . . وقد شكت إلى إحداهن هذا الضغط إذ كنت مدرسا فيها . . ثم هي تضطر تلميذاتها المسلمات في الروضة أن يتمرسن بكل الشعائر غير الإسلامية ، من صلوات ومناجيات واستغاثات ! . . حتى لقد سمعت أمس طفلتين من هؤلاء في الشارع تتحاوران ، فإذا إحداهما تحلف بالعذراء . . فوقفت أسألها عن اسمها ، فاذا هي مسلمة ! . وهناك أمثلة أخرى لا تحصى تؤكد لنا أن من أهداف المدارس الخاصة انتزاع التلميذ المسلم من جوه تماما ليشب غريبا عن دينه ، فلا يبقى له به صلة خارج نطاق الهوية . . وقد علمتم أن الطالب المسلم في هذه المعاهد لا يعرف شيئا بل لا يسمع شيئا عن دينه . . . لأنه لا يقرأ فيه أي درس ، وهو بطبيعة الحال لا يحس أثرا لهذا الإسلام في بيته . . فأي جيل ننتظر من وراء هذه « التركيبة » ! . . وماذا يبقى لنا من الطاقات الروحية في جيل كهذا ينشأ على هذا الفراغ الرهيب !

لقد أطلت أكثر مما كنت أريد . . ولـكنها ملاحظات لا سبيل إلى تقليصها بأشد من هذا الإيجاز . . وأنا لا أطرحها بين يديكم في صيغة اقتراح ، بل هي حقائق ملموسة ، تجعل المفكرين المخلصين يحسون أنهم أمام (مشكلة) لا مندوحة عن التعاون على حلها في حزم ، إذا أردنا حقاً تحقيق (المنهاج) الذي عرضتم خطوطه الكبرى في حديثكم الطيب . .

وقد اكتفيت بأن أعرضها في وضوح لأترك لـكم البحث عن طريقة « الحـــل » الصحيح . .

وغير خفي أن مثلي إذا كان يملك التفكير بهذه الحقائق ، ويملك شعور التصادم بها في طريقه التعليمي ، فهو عاجز أن يفعل بإزائها شيئا ، إلا أن يلفت نظر مثلكم إليها . . ولقد قدحتم بحديثكم الحي عن مخطط الوزارة

زناد الأمل فى نفوس المؤمنين بمستقبل سعيد مجيد . . ليس من شأنه أن يضرب بمثل هذه الحقائق عرض الحائط . . وهذا ما يجعلنى مطمئن القلب إلى أنكم ناظرون إلى هذه السطور بعين غير العيون التى ألفناها من قبل مديريات « المعارف » .

وأخيراً . . إن وراء حديثى هذا لرغبة عميقة صادقة فى أن تنتهى هذه الأمة من عهود المتاجرة بالمعلم ، لتطل على عهد جديد يكون فيه المعلم مربيا من رأسه إلى أخمص قدمه ، يستشعر من لذة الواجب ما ينسيه أو يسمو به فوق مستوى الضرورات التافهة . . ومثل هذه الغاية القصية الرفيعة ليس أجدر بتحقيقها ممن فى يده أزمة الأمر ووسائل التنفيذ(١) » .

ثم توالت الأيام على تلك المناسبة ، وكأنما كانت حلما جميلا ، لم يترك أثرا خارج نطاق الذكرى ! . ولا عجب فى ذلك ما دام المسئولون فى وزارات التربية والتعليم لا يصدرون فى أعمالهم عن مخطط ثابت ، ولا يعملون لهدف معلوم ، وإنما هى نزوات تمليها المناسبات ، فتطلق الألسن بمثل تلك الكلمات . . ثم تنتهى المناسبة لنعود إلى الدوامة التى لا تنتهى(٢) . .

* * *

هـــذه الازدواجية :

فى بعض ديار الإسلام ازدواجية تسيطر على مناهج التعليم ، وتتمثل فى التعليم الدينى بجانب ، والتعليم العام ، أو ما يسميه بعضهم بالتعليم المدنى ، فى الجانب المقابل . . وقد خلت أحاديثى المتلاحقة من الإشارة إليها حتى

---

(١) لابد من الإشارة إلى ظروف المحاضرة ، فقد ألقيت أيام الوحدة ، وفى ظل الخلاف الذى نشب بين « ج . ع . م » وموسكو حين رأى أولو الأمر أن يعلنوا رفضهم للشيوعية على أساس أنها ملحدة ، وأنهم يحكمون أمة مؤمنة . . . . ولا حاجة للتذكير بتغير تلك الظروف . . .

(٢) فى المملكة العربية السعودية حركة جادة لتركيز المناهج التعليمية على أساس حقائق الإسلام . . وحسبى أن أشير من ذلك إلى مقدمات المنهج الإعدادى الجديد ، الذى ربط المواد كلها بروح الإسلام ، مما لا نعلم له مثيلا فى أى منهج تعليمى عربى ، فضاعف الآمال باطراد هذه الخطوات فى سائر الأقسام التعليمية ، حتى تكون الأنموذج الأصيل لكل بلد إسلامى يتطلع إلى السبيل الأقوم . . وقد بقى الرجاء أن يأتى تطبيقها العملى على المستوى المتناسب مع تخطيطها النظرى إن شاء الله .

الآن ، ذلك لأننا فى سورية نكاد ننسى هذه الازدواجية – على خطرها – بسبب طغيان التعليم العام على جميع المناهج ، حتى يوشك أن يستقل وحده بالميدان . . لولا قيام كلية الشريعة بدمشق ، وتشبث بعض المدارس الشرعية بالبقاء ، على الرغم من كل العواصف التى تهددها بالاقتلاع بين يوم وآخر ..

وإنما دفعنى إلى أن أخص بها الحديث وجودى فى المملكة العزيزة ، ولا غرو ، فالمفكر الإسلامى هنا يشعر أنه يواجه المشكلة من بدايتها لا من نهايتها ، فإذا كان ممن سبق له مراقبة تطوراتها فى بلاده وجد فيها ما يسترعى انتباهه ، ويدفعه إلى التساؤل عن المصير الذى ستئول إليه فى خطواتها التالية . .

هذه المشكلة لم تكن من حظ سورية وحدها ، بل مشكلة العالم الإسلامى كله من أقصاه إلى أقصاه ، ولدت منذ بدء الاحتكاك بين بقايا الحضارة الإسلامية وطلائع الحضارة الغربية ، ثم جاء الاستعمار الغربى بأدواته الجبارة ، ففرض التغيير على كل شىء فى عالم المسلمين ، الذى كان أشبه ببقايا جيش مهزوم ، لم يتح له أن يعيد تنظيم نفسه ، فاضطر كل فل منه أن يتدارك أمره بالوسائل الممكنة . . .

وطبيعى أن يكون التعليم فى مقدمة الوسائل التى يستعين بها الاستعمار لتحقيق أغراضه ، ولكنه بدلا من أن يقضى على مناهجه السابقة دفعة واحدة ، عمد إلى التحوير الملزم ، فاذا هو يقيم مؤسسات تعليمية على طريقته الغربية عن مألوف المسلمين ، ثم يقصر أبواب الحياة على خريجيها وحدهم ، فلا يقبل فى الوظائف والمناصب والجيش إلا هؤلاء . . وما هى الا جولة وأخرى حتى كان طلاب العلوم الشرعية فى مؤخرة الصفوف ، لا يكادون يجدون القوت إلا مغموسا بالدم ، فهم محصورون فى نطاق الخدمات الدينية ، كالإمامة والخطابة وتدريس المساجد ، وما إلى ذلك مما أخذ يفقد أهميته شيئا فشيئا ، بانصراف الأجيال الجديدة عن سبيل الدين ، الذى أصبح خدمته – فى بعض بلاد المسلمين – مضرب المثل فى الفقر والإهمال ، وما يستتبعها من عوامل الانحراف والتدهور ! .

وكان هذا كافيا لتقليل المقبلين على التعلم الديني . . حتى البيوتات الدينية التي توارثت خدمة العلم الإسلامي ، وضربت بسهم وافر في نطاق الفقه والحديث خلال التاريخ ، قد آثرت لأبنائها غير طريقها ، فإذا ابن الفقيه مهندس أو طبيب أو مدرس علوم .. أو أي شيء إلا أن يكون فقيها أو إماما أو خطيبا ! . . وقد حدثتك في حلقة سابقة أن قاضيا شرعيا من بيت علم قديم ، قد تخرج له في إحدى السنين ولدان في الثانوية العامة ، فزرته مهنئا مع بعض الإخوان ، وهناك حاولنا إقناعه بتوجيه أحدهما إلى كلية الشريعة حفاظا على مواريث البيت ، وصونا لتلك المكتبة الشرعية الضخمة التي تملأ قاعة كبيرة في داره . . ولكنه أبى في إصرار ، وكان جوابه بالحرف : أنه لا يريد أن يجعل من ابنه شحاذا ! . . وعبثا حاولنا تغيير فكره وتذكيره بقيمة الاجازة الشرعية، ومساواتها لأية اجازة جامعية أخرى ، فما ازداد إلا عنادا واستكبارا ! . . هذا على الرغم من ميل احد ولديه إلى كلية الشريعة ، حتى لقد أنذر أهليه بالانتحار إذا لم يسمحوا له بالانتساب إليها ! . . غير أن تصميم أبيه كان أكبر من إصراره فالتحق مكرها بكلية العلوم . . حتى إذا قدر له التخرج فيها كان قد تجرد نهائيا من صبغته الإسلامية ، وبات مصدر عناء لا يحتمل لأهله ! ؟

ولا حاجة إلى القول بأن حجة هذا القاضي هي حجة كل واحد من الشيوخ أمثاله ، عندما يختارون لأبنائهم الابتعاد عن طريق الدراسة الشرعية ، ليؤمنوا لهم – بزعمهم – الحظ الأوفر من نعيم هذه الدنيا ! . .

ونحن هنا لسنا بصدد النقاش لهذه الأفكار ، وبيان ما فيها من خطأ أو ضعف ، وإنما نريد فقط الإشارة إلى الحوافز التي أدت إلى سلوك هذا الطريق .

لقد أقام الفكر الاستعماري مصالح الناس على أساس التعلم العـام وحده ، فلم يجدوا مناصا من الانسياق في طريقه سعيا وراء هذه المصالح ، ولولا بقية من الإرادة الجبارة في صدور بعض المؤمنين مكنتهم من مقاومة ذلك الإغراء ، فظلوا محافظين على المسلك الشرعي في التعليم ، لأقفر العالم

الإسلامى من الفقهاء والمحدثين والعاملين لاستعادة الوجود الإسلامى فى أرض الإسلام ! .. ولعل هذه الحقيقة أشد ما تكون بروزا فى القارة الهندية ، حيث تغلق أبواب الوظائف والمناصب بوجه العلماء الشرعيين ، ومع ذلك لا يزال الإقبال على الدراسة الشرعية مستمرا ! . ولا ينفك الفقه فى نماء مطرد ، حتى أن الباكستان والهند لتحتفظان اليوم بطائفة من أكبر علماء الإسلام ، وبخاصة فى نطاق الحديث الشريف ، والدراسات الإسلامية العصرية ! . . .

* * *

بين عقليتين :

هذا عرض سريع لمصادر هذه الازدواجية ، وحوافزها وبعض آثارها فى التوجيه الاجتماعى ، فلننتقل خطوة أخرى لتبين نتائجها فى تكوين الأجيال الحديثة من العلماء والشباب المسلمين . .

فنى ما يتعلق بالعلماء نجد أنفسنا أمام فريقين متباينين إلى حد عجيب . .

لقد أنتجت طلائع الاحتكاك بين العقليتين فريقا من الشيوخ ، يرى أكبر واجباته التوكيد على أن الإسلام لا يتناقض مع التفكير الغربى البتة .. فهؤلاء حين يفسرون القرآن العظيم مثلا يجعلون نصب أعينهم التوفيق بين معانيه ومعطيات الثقافة الدخيلة ، حتى إذا وجدوا أنفسهم تلقاء أمر معجز للتفسيرات الغربية ، عمدوا إلى التحوير والتأويل حتى ينتهوا إلى ما يظنونه مصالحة بينهما ، ولو اضطروا فى سبيل ذلك إلى تخطى الإجماع الذى عرف عن الأئمة ، وعلماء السلف فى هذا الشأن ! . . فكأن كل مهمتهم هو إقناع غير المسلمين بأن الإسلام مستعد لتقبل أفكارهم — أيا كانت — بكل سرور ، مقابل أن يفسحوا له مجالا للبقاء مع أفكارهم ! . . .

وهذا اللون من التفكير نلحظه جليا فى بعض التفاسير التى ولدت فى ظل النهضة الثقافية ، التى أنتجها التفاعل مع طلائع الحضارة العربية ، خلال الربعين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، والأول من القرن العشرين ، وبخاصة فى تركية ومصر والهند . . . ولكن هذا الأثر قد جعل يتضاءل بعد

ذلك ، إذ بدأت الشخصية الإسلامية تسترد مقوماتها وتستعيد ثقتها بنفسها ، فتعي ما يراد بها وبدينها ، ويتكشف لأعينها ما فى تلك الافكار الدخيلة من حقائق ومخارق ، فترجع إلى الأصيل تنفض عنه الغبار ، وتعرضه فى الإطار السليم الذى يليق به . . .

ثم يقابل ذلك الفريق (المستغرب) قسم آخر من شيوخ المسلمين ، أدرك بفطرته السليمة ومقاييسه القديمة فساد المنظار الذى يستعمله أولئك . . فى التطلع إلى حقائق الوحى ، فأعلنوها عليهم حـــربا شعواء أعملت فى أقاويلهم ومحاولاتهم معاول الفضح والتجريح .. ولكنهم مع ذلك عجزوا عن أن يحسنوا عرض هذه الحقائق بالأسلوب الذى يفهمه الجيل الجديد ، فظلوا خارج ميدان المعركة ، لا يعرف الناس عنهم إلا أنهم ثائرون بكل العلوم التجريبية التى اكتشفها العقل الحديث ! . فكأن مهمتهم الكبرى هى أن يحبسوا المسلمين فى نطاق أسفارهم الموروثة ، دون أن يسمحوا لهم بإلقاء نظرة إلى خارجها ! . . وقد نسوا التوجيه النبـــوى الحكيم الذى يتجلى فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لهـا دينها . »[1]

ولو هم رجعوا إلى عمل الأئمة والمصلحين من كبار علماء الإسلام ، كابن تيمية وابن القيم والعشرات من إخوانهما ، لرأوا إلى أى مدى بلغ تجديد الإسلام على أيدى هؤلاء الأعلام ، الذين ألموا بكل علوم عصرهم ، وأحاطوا بعقلية جيلهم ، فأقاموا حجة الله على عباده ، بما قربوا إلى أذهانهم من حقائق الكتاب والسنة ، وبذلك جددوا أسلوب العرض للدين الذى شرفهم الله بوظيفة إبلاغه للناس .

ولقد كان لجمود هذا الفريق من الشيوخ أثر كبير فى نفرة الشباب الجديد من الإسلام ، إذ اعتبروهم صورة من الدين الذى يدعون إليه ، فهو إذن دين بائس ضيق الصدر بحرية الفكر والبحث ، يتنكر لـكل تقدم

---

(١) رواه أبو داود والحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى – المشكاة – ورمز له الجامع بالصحة .

عقلى أحرزه الإنسان فى ظل الحضارة الحديثة ، ولو كان ذلك التقدم قائماً على المعادلات الرياضية التى لا تقبل الجدل ! . .

ثم جاءت النتائج الخطرة التى تولدت من هذا الفصل الجديد بين الجيلين ، إذ انصرف أحدهما عن الحياة بما فيها ، ليردد أقوال السابقين ، ويحذر من حوله من (أباطيل) اللاحقين . . على حين انقطع الآخر عن سبيله ، بل عن الدين كله ، ليتولى شئون الدنيا كلها ، فيديرها على أساس لا يمت إلى الإسلام بأى سبب .

ولسنا فى حاجة إلى التبسط فى بيان المخاطر التى جرها هذا الفصل بين العقليتين والطريقتين على المجتمع الإسلامى ، الذى إلى هذه العلة يعود كل ما يعانيه فى واقعه الحاضر من أرزاء وأدواء فى طول الوطن الإسلامى وعرضه . . .

* * *

طـلائع المعركة :

وأعود الآن لأصور انطباعاتى عن جوانب هذه المشكلة كما واجهت مطالعها فى هذا البلد الحبيب .

إن هنا زاوية منفرجة يمضى ضلعاها فى خطين متباعدين . . وكما يبدأ الضلعان من نقطة مشتركة ثم ينفتحان باطراد ، هكذا تنطلق محاولة التعليم من مكمن الرغبة الصادقة فى توعية الشعب وتأهيله للحياة المثلى . . ولـكنها لا تلبث أن تنقسم على نفسها ، فيذهب بعضها من هنا ، ويمضى الآخر من هناك ! . ومرد ذلك اجتهاد مخلص يخيل لـكل من الاتجاهين أنه هو الأصلح دون ريب ! .

هنا مدارس وكليات تقوم على برامج هدفها تكوين الجيل البصير بدينه ، الصالح لحياطته تجاه التيارات الغربية . . ولكنها تكاد تخلو من كل المواد التى تجعل الفرد على علم بما يدور حوله من مشكلات المدنية ، والتى تؤهله فى النهاية للإسهام فى إدارة شئون البلد ، إلا فى حدود ضيقة لا تتجاوز نطاق التعليم الدينى والقضاء إلا قليلا . . .

وهناك مدارس وكليات وجامعات أخرى لها مناهجها الخاصة أيضا ، ولـكنها لا تتلاقى مع تلك إلا فى المراحل الأولى ثم تفترقان .

وكما خلت تلك من الاهتمام بمشكلات الحياة الدنيا ، خلت هذه من الاهتمام بموضوع الحياة الأخرى ، ولـكنها عنيت بكل ما من شأنه تأهيل الفرد للإسهام فى شئون الدولة . .

ولن يحتاج المرء إلى كبير ذكاء حتى يدرك مدى الفجوة بين الجيلين . . وحسبه أن يلاحظ سلوك هؤلاء وسلوك أولئك ، ويسمع رأى كل من الطرفين بصاحبه ، حتى يحيط بالواقع المؤسف بل المخيف ! . .

إن أول ما يلمسه الباحث فى هذا المجال فقدان الثقة . . فكل من الجانبين يسخر من الآخر ، ويراه خطرا على الحياة والمجتمع ، ولا يصدق بأنه يصلح لشىء ! . .

وليس ذلك كله سوى طليعة لم يبلغ ضررها بعد حد الخطر ، ولـكنها طليعة لمعركة جربناهـا فى سورية ، وفى مصر وفى المغرب الكبير ، وفى الهند ، وفى تركية .. معركة هائلة لها غبارها ، ولها أسلحتها ، ولها ضحاياها ، ولهـا عواقبها التى ذهبت بوحدة الأمة ، وفتحت فى حصونهـا الثغرات لأشتات الآفات والنكبات ! . .

وانطلاقا مع طبيعة الأشياء لم يكن بد للجيل (المدنى) من استكمال دراسته فى المواطن التى يستمد منها ثقافته الحديثة . . ومن هنا جاءت ضرورة البعثات الدراسية إلى الخارج كأمريكة وانجلترة وغيرهما من موارد الحضارة الجديدة .

وإذا كان من العسير بل المتعذر تحصين هؤلاء المبتعثين من أوبئة الغـرب ، لذلك كان طبيعيا أن يعودوا محملين بجراثيمها سواء شاءوا أو أبوا ! . . .

وبهذا وذاك تزداد شقة الخلاف اتساعا بين الجيلين ، لا من حيث الثقافة فقط ، بل من حيث أساليب الحياة أيضا . . وهكذا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام المصير نفسه ، الذى انتهت إليه المجتمعات الإسلامية التى سبقت

فى هذا المضمار ! . . وهى نتيجة لا مندوحة من مواجهتها عاجلا أو آجلا . . بل لا سبيل إلى التهرب منها لأنها وليدة الضرورة التى لا قبل لأحد بردها ! . .

* * *

فرص لا تعــوض :

ومثل هذا التطور السريع لا يستطيع المفكر بشئون المسلمين أن يمر به دون اهتمام . . وهو الذى لاحظ عواقبه فى مختلف أقطار المسلمين ، حيث انتهى التباين بالمجتمع إلى كوارث لا نهاية لهـا . . .

أضف إلى ذلك أن القضية بنظر المفكر المسلم ليست قضية ناس وأوطان فقط ، ولـكنها مع هذا وقبل هذا قضية الإسلام الذى لابد للمسلمين من تحديد موقفهم منه ، فإما استمساكا به ، واصطباغا بلونه ، واستظلالا برايته . . وإما انسياقا وراء شياطين الشرق والغرب ، ثم انحدارا مع أولئك الذين قطعوا أنفسهم من حبال السماء ، فهم يخبطون فى الظلمات ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ! . .

ونحن عندما ننظر إلى الموضوع من هذه الزاوية ، وهى النظرة الطبيعية الأصيلة ، فسنرى أن التبعة أكبر مما سبق ، لأن المعركة ستقوم هذه المرة – إن لم تكن قد قامت بالفعل – فى البلد الذى عليه يتوقف مصير الإسلام فى العالم كله . . !

أجل . . إنه البلد الذى منه أشرقت بواكير الوحى ، ومنه انطلقت جحافل النور إلى أنحاء الدنيا ، ففتحت أعين العمى ، وحطمت أغلال المعذبين ، وزلزلت عروش الطاغين ، وردت الإنسانية الضالة إلى ربها . . وإنه البلد الذى انبعثت منه صيحة التوحيد من جديد ، فدوت فى أرجاء العالم الإسلامى ، توقظ النيام ، وتجدد الأفهام ، وتبدد الأوهام ، فتوقد فى هشيم الخرافات والبدع نارا ، لم تزل حتى الساعة تلتهم كل ما أضافه الزائغون إلى دين الله من قشور ، وما نسجه المضللون على وجه الحنيفية السمحة من ستور . . .

لهذا كله يريد المخلصون لإسلامهم أن يبقى لهذا البلد الحبيب لونه الإسلامى الوضىء ، وأن يكون استبقاء هذا اللون هو الهدف الأعلى لكل مسئول عن توجيه مصيره . . .

وطبيعى أن ذلك لا يعنى انتصار الجمود على التجديد ، فذلك أمر مناف لسنة الله فى الوجود ، ولا الإقبال على كل محدث من الأمور ، إقبال حاطب الليل لا يفرق بين العصا والثعبان ، فذلك أقرب السبل إلى التدمير المبيد . . وإنما يعنى تجديد الفكر الدينى ، حتى يعلم صاحبه أن دين الله هو ضابط الحياة البشرية ، ونظامها الأمثل ، فلا يجوز قصره على جانب منها دون جانب ، ولا يجوز حرمان أهله من الإلمام بكل ما جد حولهم من علم له أثر فى توجيه المجتمع الملى أو الإنسانى ! . . .

وإنما يعنى كذلك تعميم الثقافة الإسلامية الحقة ، حتى لا تنفصل مادة دراسية ، أيا كان لونها ومكانها ، عن الارتباط بالمعنى الإلهى ، الذى جعل من دراسة الكون والنفس والحياة أروع مجال لمعرفة الله ، ولشحن القلب بمحبته وخشيته سبحانه . . .

وبتجديد الفكر الدينى ، وتعميم الثقافة الإسلامية النقية ، نتغلب على الكثير من العقبات التى ينثرها التناقض فى طريق التقدم الاجتماعى السليم . . وبهما تتجنب هذه البلاد الغالية الكثير الخطير من الأرزاء ، التى تعرض لها المجتمع الإسلامى فى بقية الأنحاء . . .

ولكن تحقيق هذا الأمل يقتضى الاقتناع أولا بوجود المشكلة وخطرها المتوقع ، ثم يتطلب التعاون على معالجتها بأفضل الوسائل التى تضمن لها أحسن الحلول . . . ولا جرم أن كل تأخير لهذه المقتضيات وكل تهاون فى هذه المتطلبات ، مؤد إلى إضاعة الفرص التى لا تعوض . .

* * *

الأدب الذى نريده :

يوم أمس سجلت على الصفحة الأخيرة من مفكرتى اليومية هذه الكلمات : أنهيت ثلاثمائة صفحة من ديوان أبى تمام . . فماذا وجدت ! . . غزل ونسيب ووصف طلل ، ثم مدح وهجاء وتعريض ورثاء . . ثم انكباب

على الدنيا يخلق من الحبة قبة ، ويفرغ على الممدوح ما ليس من حقه ، ليثير أريحيته فيضعف جائزته !! ..

حقاً أن فى هذا النظم لجهداً جباراً يبدو فى نحت الأفكار البعيدة ، واصطناع الإشارات الجديدة ، إلى تفنن فى الصور والتعابير هو نسيج وحده بين الأساليب . . ولكن الإنسان بعد هذا كله جدير بأن يسأل نفسه : ما حصيلتنا من كل ذلك . وما القيم العليا التى دعا إليها الشاعر ، أو انتزعها من صميم هذه الأمة ، ليعرفنا خصائصها الروحية وملامحها الإنسانية ! . .

الحق أن شيئا من ذلك لم يكن من أغراض الشاعر الرئيسية . . وإذا عرض له فبلمحة لا تعدو أن تكون رقعة لفكرة ، أو وسيلة لتزوير حقيقة ! . وأكاد أقول : إن الشاعر ، فى معظم هذه القصائد ، لم يفعل أكثر مما يعمله أى حاو يستخدم الرقى والدفوف لاستخراج ثعبان من الجحر ! . . إنه ليدهشنا بهذه البراعة ولكنه أبدا لا يستحق احترامنا . .

* * *

ومن خلال هذا التعليق أرانى أقدم للقارئ خلاصة مركزة لرأيى الشخصى فى الأدب وبخاصة الشعر . . إنه فى نظرى أكبر من الغزل والوصف والمدح والهجاء وما إلى ذلك . . إنه سجل الحياة الفكرية والروحية للأمة ، منه يتبين الدارس الخطوط الكبرى لنفسيتها وقيمها ومثلها . . وخصائصها الحية الفاعلة . فإذا قرأنا شعر شاعر وجب أن نقع منه على كل هذه المقومات ، فنتعرف كل مميزات الأمة بالنسبة إلى أية أمة أخرى . . ما تشارك فيه سواها وما تنفرد به دون الشعوب ! .

على أن هذا أمر تسبقه أمور . . أهمها فردى يتجلى فى قدرة الشاعر على تمثيل روح أمته تمثلا يمتزج بكيانه ، حتى إذا صدق فى تصوير ذاته ، كان فى الوقت نفسه صادقا فى تصوير ذات الأمة . ثم اجتماعى يتمثل فى قوة الشخصية الذاتية للأمة ، بصورة تمكنها من فرض إحساسها وتفكيرها وتصورها على إنتاج الفرد . . وهذا متوقف إلى مدى بعيد على شخصية القيم نفسها ، التى تمثل اتجاهاتها الروحية . .

هذه حقيقة نستطيع تبينها فى إنتاج أى واحد من شعراء الأمم ذوات الشخصية : من هوميروس إلى شكسبير وكيبلنغ ودانتى والمعرى وطاغور وإقبال وشوقى والرصافى وحافظ . . ومن سبقهم من شعراء الجاهلية العربية ، الذين كان شعرهم فى معظمه صورة للشخصية المزدوجة ، شخصية الفرد فى ذات الجماعة . .

ولا أنكر أن للفرد ضمن هذه الروح العامة ملامحه الخاصة ، تتجلى فى إنتاج ذاتى يمثل فرديته فى حالات من الانطلاق الشخصى ، يضعف فيها سلطان الجماعة على ذاته ، فيأتينا بما يخالج أى إنسان يمكن أن يعيش قريبا من ذلك الجو . . .

وهذا (الجو الخاص) يتقلص ويتمدد تبعاً لقوة الضابط الاجتماعى . . فقد يتسع حتى يستغرق معظم حياة الشاعر ، كما نرى فى شعر ابن أبى ربيعة ومجان بيئته ، وكما نرى بعد ذلك فى الكثير من شعر بشار ، والأكثر من شعر أبى نواس ثم البحترى والمتنبى ، وبعض ضحايا الأنانية الفردية من شعرائنا المعاصرين . وقد يضيق حتى لا تكاد تلمحه فى إنتاج الشاعر إلا فى الندرة ، كعمرو بن كلثوم وأشباهه من كبار شعراء العربية الاجتماعيين . . وهم جد قليلين . .

* * *

استهتار :

ونحن ، قراء ومدرسين ، من الخير أن نتعرف مختلف الآثار الأدبية فردية أو اجتماعية ، عالية أو دنية ، نواسية أو معرية ، بشرط واحد هو أن يكون لدى القارئ من المناعة الفكرية والخلقية ما يحميه شرور هذا الإقبال المطلق . . فيكون حينئذ أشبه بخبير العقاقير يأخذ منها ما هو بحاجة إليه . . بيد أننا كطلاب لا ينبغى أن نوزع طاقاتنا بين ما ينفع وما لا ينفع . . وما أظن أحدا من أهل العقول يزعم : أن من الخير للطالب العربى أن يعيش أكثر عمره المدرسى بين نصوص الغزل والمديح والهجاء ، ثم يغادر صفوف الشهادة الثانوية ، وكل حصيلته من أدب أمته هو هذا اللغو الذى لا يزوده بأية فضيلة خلقية . . إذا لم نقل أنه يسلبه كل فضيلة خلقية !.؟

ماذا يفيد الطالب المسكين من دراسته لأكثر أماديح المتنبي وأبي تمام والبحتري ومن إليهم . . ممن وقفوا حياتهم كلها على نشدان اللذة الجسدية أو المجد الشخصي ، يشترونهما بماء الوجوه ، ويفنون الأكاذيب التي تجعل من طاغية مصر هدف الخلق ، لم يوجد البشر إلا من أجل لقائه[1] ومن المخربين الذين هدموا مجد العروبة والإسلام جند الله لا عمل لهم إلا نصرة دينه[2] . ومن الصحابي المكافح لإنقاذ الإسلام ملحدا يقود الملحدين فلا يستحق – بعد مقتله – إلا الشماتة الحقيرة[3] . . في حين تجعل من قاتله الطاغية وليا كبيرا كنبي الله نوح ، يدعو فيستجاب له ، ويحارب فتنزل الملائكة لنصرته[4] . . .

ثم ماذا يفيد الطالب المسكين – وهو في أتون المراهقة – من قراءته لقصص العاهر الأكبر ابن أبي ربيعة ، وحلفائه بشار والبحتري وأضرابهما ! . . اللهم إلا أن تحكم عليه حصار الشهوة ، وتعلمه أيسر السبل للاستهتار بالأخلاق والدين والقيم العليا . . إذ تؤكد له أن (عسر النساء إلى مياسرة والصعب يسهل بعدما جمحا) !

يضاف إلى ذلك ما يراه من أن هذا الطراز من الدعارة موضع تقدير الأدباء والمدرسين والمؤلفين محميا برعاية الدولة ، التي تبذل الأموال الطائلة جوائز لمؤلفيه وأجورا لناشريه . . . !

* * *

هـــواة الأضاليـــل :

من آراء الأدباء القدامى أن الشعر مدح وهجاء ، وما عدا ذلك فهو متفرع عن هذا أو ذاك . وقد مثلوا لرأيهم بأن الغزل والعتاب والاعتذار

---

(١) يقول المتنبي في كافــور :

فتى ما سرينـــا في ظهـــور جدودنا إلى عصره إلا نرجـــي التلاقيـــا

(٢) ويقول البحتري في هؤلاء :

أمـــا الموالي فجنـــد الله حملهم أن ينصروك فقد قاموا بما احتملوا

(٣) ويقول جرير موجها خطابه إلى عبد الله بن الزبير الصحابي الشهيد :

دعـــوت الملحـــدين أبـــا خبيب جماحا . . هل شفيت من الجماح !

(٤) ويقول في مدح الحجاج :

دعـــا الحجـــاج مثل دعـــاء نـــوح فأسمع ذا المعـــارج فاســـتجابـــا

والرثاء والفخر ، إنما هى صور من المديح ، لأنها جميعها منبثقة عن منطقة الحب والإعجاب والرضى . . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الهجاء ، فإليه يرجع كل فن ذى صلة بعاطفة البغض أو الاحتقار أو الاشمئزاز . . أما الوصف فهو لحمة النسج الأدبى فى كل من القسمين ، فإذا كان وصفا لمحبوب كان شعبة من المدح ، وإذا كان وصفا لمكروه فهو ألصق بالهجاء . .

ولا شك أن لهذا القول صلة وثيقة بظروف البيئة ، التى راج فيها هذا الضرب من البضاعة ، حتى تحول شعراؤها آلات كاتبة تسجل ما أوحى إليها ، دون أن يكون لها أى حق فى الاختيار . . وأسوأ ما ينتهى إليه الأدب فى أمة أن يصبح كسلعة السوق لا يعنى منها إلا بما يروج لدى (الزبائن) ! . . ولكن العجيب أن يظل هذا الرأى هو المسيطر على عقليتنا الأدبية ، وبخاصة فى أوساط التعليم حتى هذه الساعة . . فنحن قلما نعرف الشاعر إلا من خلال هذا المنظار . . حتى أسئلة الامتحان قلما تتجاوز هذه الدائرة : أبو تمام مداحة نواحة . . والمتنبى مدح فأبدع ، وهجا فأوجع ، وزهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه[1] . . وقديما قيل :

ذهب الفرزدق بالفخار ، وإنما حلو الكلام ومره لجرير
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب وحوى اللهى بمديحه المشهور

وهى نظرة خطرة من شأنها أن تصور لنا الشاعر (تاجر سؤدد يبيع ثمينات المكارم والحمد) ثم تجعله منفصلا تماما عن روح أمته ، يعيش لطبقة من هواة الأكاذيب ، تفصل العطاء على مقدار الهراء . . . ولا تسمح للشاعر بالتعبير عن ذات نفسه إلا ضمن نطاق هذا المقياس . . وإلا كان نصيبه كنصيب أبى النجم العجلى من هشام ، عندما استحسن أن يشبه الكسوف بالحول ، فإذا هشام ينسى كل ما دبجه الشاعر فى جلالته من أضاليل المدح ، ليذكر عينه الحولاء وحدها ، فيأمر بجره إلى الخارج مهاناً ذليلا ! . . وهكذا كان ذلك باعثا على إيجاد الثروة الضخمة من

(١) من الانصاف أن نسجل لمصلحة الامتحانات نزوعها إلى التطور المشكور فى موضوع الأسئلة بعد نشر هذا الفصل . . .

الأكاذيب ، التي تجعل من الممدوح شيئا فوق الناس[١] . وفوق الأنبياء[٢] ، حتى لا ترى له صفة تليق به أقل من الألوهية[٣] . . . ولشد ما ضاق صدر أبي العلاء بهذا الالتواء حتى راح يصب على أصحابه هذه الحمم المحرقة :

بنى الآداب غــرتكم قديما زخارف مثــل زمزمة الذباب

وما شــعراؤكم إلا ذئـــاب تلصص فى المديح أو السباب

أأذهب فيكم أيــام شــيبى كما أذهبت أيــام الشباب !

وما أحسن ما صنع حين انتزع نفسه من وسط هذه الثلة ، المتاجرة بالنفاق ، والداعية إلى النفاق . . والممهدة لـكل ما تقاسيه أجيالنا الراهنة من عقابيل النفاق . . . !

* * *

تخطيط جـديد :

ولا يحسبن القارئ أننى أدعو إلى الإعراض عن دراسة الشعراء المداحين الهجائين أو حذفهم من المنهاج البتة ، كلا . . ولـكننى أدعو إلى أن نحسن التخير فى ما ننتقيه للدراسة من آثارهم ، فلا ننظر إلى إنتاجهم كله من خلال هذه العقلية السوقية ، ناسين أن القوم قد خلفوا لنا تراثا غنيا من الشعر الرفيع ، الذى يزود الطالب العربى بكل ما يعوزه من الإدراك لروح أمته وخصائصها ، فى المواهب والقيم السامية . .

نريد أن نتجه بدراستنا المنهجية فى الأدب إلى العمل البناء ، الذى يمكن لهذه المـادة الرئيسية من أداء مهمتها فى تفتيق مواهب النشء العربى إلى الخير . . وتزويده بالمقومات الروحيــة ، التى تجعله مدركا لدور أمته

---

(١) المتنبى :

إن كان مثلك كان أو هــو كائن فبرئت حينئــذ من الإســلام

(٢) المتنبى :

لـو كان صادف رأس عازر سيفه فى يــوم معــركة لأعيى عيسى

(٣) ابن هانئ :

مـا شئت لا مـا شـاءت الأقـدار فاحكم فأنت الواحـد القهـــار

فى قيادة الإنسانية .. وهذا يقتضى طبعا أن نصله فى عمق بالنصوص الممثلة لهذه الحقائق ، وهى غير قليلة فى أدبنا ولله الحمد ، إذا جهدنا أنفسنا قليلا فى التنقيب عنها ، واستخراجها من تحت هذا الركام المركوم ، من الأدب الفردى أو الطبقى المضلل . . .

نريد أن ندرس من الشعر الجاهلى نماذج كاملة التمثيل لحياة الجاهلية ، تفصل فى وضوح الوضع الاجتماعى الذى كان يسود الجزيرة العربية قبل الإسلام ، سواء من الناحية القبلية أو الخلقية أو الفكرية . . لكى يتعرف الطالب مدى التفاعل ، الذى كانت النفس العربية تتمخض به آنذاك ، ممثلا خصائص البادية العليا ، من الإيثار والحرية والأنفة والوفاء ، وما إلى ذلك من الطباع العربية الأصيلة ، ثم فى تلك النزعات الفكرية متجلية فى شعر طرفة وزهير ، انعكاسا للقلق الذى كان يساور الجزيرة ، ضد مساوئ النظام الجاهلى فى تلك الحقبة الهائجة . . . إلى جانب نفحات من التطلعات الوجدانية لما وراء الطبيعة ، مطلة من كلمات أكثم وقس وبعض الكهان ..

ونريد بعد ذلك أن ندرس من الأدب الإسلامى ، شعره ونثره ، تلك النصوص التى تصور لنا تطور هذه النفسية العربية بتأثير المد الإسلامى ، وما استقرت عليه من اتجاهات عالمية واسعة ، تبين فى وضوح كبير مفهوم القيم الجديدة فى نظرتها إلى الكون والإنسان والحضارة . . ثم ما اعترى هذه النفس من عوامل النكسة التى تسربت إليها من أمراض الأمم ، فأدخلت على مفاهيمها الأصيلة بعض الخلل ، الذى ما لبث أن أثر فى اتجاهها الفكرى نفسه ، فحوله من الإبداع إلى الجمود ، ومن الخصب إلى ما يشبه العقم ! .

وطبيعى أن مثل ذلك العمل يتطلب تخطيطا جديدا فى منهاج الدراسة الأدبية ، يجعل لهذا المنهاج هدفاً تربوياً ، هو تكوين الجيل الصالح لحمل أمانة العروبة المؤمنة . . . تخطيطا يمضى بالطالب فى طريق صاعد ، يبدأ بنصوص مختارة ، لا يرى من خلالها سوى الفضائل التى نهضت بماضى هذه الأمة ، حتى كانت معجزة الإنسانية ، وينتهى بنصوص مختلفة تبين

عوامل الاضطراب الذى اعتور سيرها فيما بعد ، فأهوى بها إلى خاتمة المأساة . . .

وأعود إلى التنبيه بأن هذا لا يعنى أن نتخلى عن أدباء المنهاج ، ولكن يعنى أن نتلمس آثارهم وفق ذلك المخطط . . .

* * *

الغمام وسموم :

هل أتيح لك أن تكون مدرسا أو طالبا فى القسم الثانوى الأول ؟ . . إذن فلا بد أنك قرأت ذلك النص الذى يحمل اسم (الخطبة الشقشقية) منسوبا إلى صهر رسول الله ورابع الخلفاء الراشدين على (رض) ولابد أنك قد وقفت منه مليا أمام هذه الكلمات : (أما والله لقد تقمصها ابن أبى قحافة . . . فصبرت وفى العين قذى ، وفى الحلق شجا . . أرى تراثى نهبا . . . حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده . . لشد ما تشطر أضرعيها ! . فمنى الناس بخبط وشماس ، وتلون واعتراض . . حتى إذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة زعم أنى أحدهم . . فيا لله ! . . متى . . صرت أقرن إلى هذه النظائر ! . . . فصغا رجل منهم لضغنه ، ومال الآخر لصهره ، مع هن وهن .

. . إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع . . إلى أن انتكس فتله ، وأجهز عليه عمله ، وكبت به بطنته ! . .) .

إنها لكلمات ، بل مسبات ، لا يسع قارئا ذا عقل أن يمر بها دون أن يتساءل : كيف يتفق لمثل على أن يتقيأ مثل هذا السفه الذى أول ما يطعن قائله ، إذ يعرضه فى وضع المخلوق الذى أفقده الحسد والحقد والانهيار العصبى كل أثر للأدب والوعى والإنصاف ، فراح يقذف بالسباب على غير هدى ، حتى لا يتورع أن يكذب على التاريخ ، فيزور حقيقة الرجال الذين تعيش الإنسانية حتى الساعة عالة على مآثرهم فى العدالة والنزاهة والتسامى ! . .

فأبو بكر غاصب للخلافة . . . ومتواطئ مع عمر على استثمار منافعها . . .
وعثمان كالحيوان لا هم له إلا بطنه ! . . وكل من هؤلاء متآمر على حقه
فى خلافة هى تراثه وحده ! .. وقد نسى هذا السباب أن البشرية قد أجمعت
على العلم بأن أبا بكر لم ينل من منافع الخلافة إلا قوته الضرورى ، حتى
لم يكن له سوى ثوب واحد ، لا يستطيع مغادرة بيته إذا غسل بانتظار
جفافه ! . وهو الذى وهب لله كل ماله الذى كان ثروة ضخمة فى قريش ...
وأن عمر لم يشبع قط ولا أهل بيته أثناء خلافته ، حتى ليصوم عن الأدام
طوال عام الرمادة ، مؤثرا ألا يأكله وفى الناس محروم منه ! . وأن عثمان
قد جهز بماله الجيوش ، وأنفق فى سبيل أمته من الأموال ما يرفعه فوق
كل شبهة . . فلا يعقل أن يتخلى أخيرا عن كل هذه المآثر ، ليخضم
مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ! . . . وهو الذى أخبرنا رسول الله أن
الملائكة تستحي منه . . وطبيعى أن رجلا يبلغ بشهادة الرسول هذا المقام
لا يمكن أن تتصور البطنة فى حقه ! . .

ثم نسى كذلك أن البشرية كلها قد أصفقت على أن خلافة أبى بكر
كانت مرحلة لابد منها لتثبيت كيان الدولة الجديدة . . التى ما أن غاب عنها
رسول الله حتى أحاط بها المرتدون من كل صوب ، يريدون محوها من
الأرض ، فلم يصمد لهم سوى أبى بكر ، الذى أهاب بالصحابة جميعا :
« والله لو منعونى عقالا لجاهدتهم . . . »

وأن خلافة عمر كانت بركة السماء على هذه الأمة ، بما وسعه لها من
آفاق الفتح ، التى نقلت رسالتها إلى أنحاء الدنيا . . .

وأن خلافة عثمان كانت هى الدعامة الكبرى فى صرح الإسلام ، إذ
أطفأ جذوة الفتنة التى أثارها الشيطان بالاختلاف على ضبط القرآن ،
فكان عمله فى جمع صحفه وجمع الناس على هذه الصحف لا يقل خطراً
عن عمل أبى بكر فى القضاء على حركة الردة ، وعلى أثر عمر فى انسياح
العرب برسالتهم وراء تخوم الجزيرة . . وذلك علاوة على جهوده الجبارة
فى استئناف حركة الفتح ، وفى تنظيم أعمال الدولة .

وهذه كلها حقائق كان على أعلم الناس بها ، وأخلصهم فى تقديرها لإخوانه الراشدين . . فضلا عن أنه كان أدرى الناس بأن هذه الخلافة إنما هى حق الأمة السياسى فى هذه الدولة ، التى أقامها لهم محمد صلى الله عليه وسلم فلا إرث فيها لأحد أبدا . . ولا وصية بها لأى مخلوق . . إلا أن يسمح غبي لنفسه أن يتهم رسول الله بأنه طالب أمته بأجرته مقابل هدايته ، فكانت الأجرة هى هذه الخلافة ! . .

أجل إنه لنص مزور ، قد دسته على على يد مزور ، لا يريد بهذه الأمة خيرا ، وإنما حاول أن يوقع فى أخلاد الجهلة والمغفلين أن صحابة محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا سوى عصابة من المتآمرين المتهالكين على المنافع ! . وقد فاته أن عليا نفسه قد فضحه وأشباهه بمبايعته الصريحة لكل من اخوانه الثلاثة ، ووقوفه معهم لا يضن عليهم بمشورة ولا معونة ولا تأييد حتى آخر لحظة من حياتهم المباركة ! . .

وها هو ذا « نهج البلاغة » نفسه يحمل شهادة على بأخيه أبي بكر حيث يقول : (لله بلاء أبي بكر . . لقد قوم الأود . وداوى العلل . . وأقام السنة . . وذهب نقى الثوب) . وهذا كتابه إلى معاوية يقول فيه عن أبى بكر وعمر : (لعمرى أن كان مكانهما فى الإسلام لعظيما ، وأن المصاب بهما لجرح فى الإسلام شديد . . فرحمهما الله وجزاهما أحسن ما عملا)[1] . .

أما دفاعه عن عثمان يوم الفتنة الكبرى ، وإقامة ابنيه الحسن والحسين على حراسته ضد الثائرين . . فليس بمجهول أو منكور إلا عند ذوى الأحقاد ، الذين أعماهم الهوى عن رؤية الحق ، فأخذوا بالتسليم المطلق لكل ما ورد من مثل هذه النصوص المكذوبة[2] .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج - ١ - ص - ٤٣٩ -

(٢) من هذه النصوص ذلك الكتاب الموضوع على لسان عثمان موجها إلى على ، وفى ختامه :

فان كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

فكأن الموضوع بينهما موضوع آكل ومأكول ، لا موضوع كيان نبوى ينتهك حرمته السفهاء بدسائس اليهودى ابن السوداء . وخير ما قيل فى هذا النص المنحول كلمة ابن العربى فى « العواصم من القواصم » فلتراجع هناك .

ولقد علم أولو العلم أن ليس ثمة من عظيم — بعد رسول الله — قد نسب إليه من الكلام المكذوب مثل الذى نسب إلى على . . حتى أصبح مفهوما أن بين نصوص (نهج البلاغة) ما لم يروه أحد قط عن على قبل جامعه .[1] ومع هذا كله فإن شيئا من ذلك لم ينته بعد إلى أذهان مؤلفى (الأدب العربى ونصوصه) للصف الأول الثانوى بسورية ، لذلك رأيناهم يتحفون الطلاب بهذه الشقشقية كأنها تنزيل من العزيز الحكيم لا ريب فى نسبها . . ولا شك فى حقيقتها ! . . .

وقد يكون من حق هؤلاء أن يسألوا المؤلفين المخلصين ، عن السر الذى وقف بهم على هذا النص دون سواه من موضوعات (نهج البلاغة) . . وفيه الكثير من كنوز العلوم ومغذيات الفهوم ! . . ونحن إذ نعرض لهذا النص المسموم الملغوم ، لا نريد أن نناقش المؤلفين بأفكارهم الشخصية ،

---

(١) لا يتسع المقام هنا للبحث فى قيمة « النهج » ولكن لا بد من التذكير بأنه لا يعدو كونه مجموعة من الوثائق التاريخية لا يمكن القطع بثبوتها إلا على أساس الرواية الموثقة ، مهما تكن منزلة قائلها فى عالم الأدب والدين . وقد تناول النقاد قديما وحديثا ، وفيهم علماء الجرح والتعديل ، النهج وصاحبه ، فكان فيهما مجال للكلام طويل . . ومن شاء التوسع فى ذلك فليرجع إلى ميزان الاعتدال للذهبى ففيه من ذلك ما يكشف الأستار عن محجوب الأسرار . . على أن من الخير أن يذكر القارئ ببعضها فى أوثق المصادر فيقرأ وليتدبر : روى مسلم فى مقدمة الصحيح عن . . ابن أبى مليكة قال : (كتبت إلى ابن عباس أسأله . قال : فدعا بقضاء على فجعل يكتب منه أشياء ويمر به الشىء فيقول : والله ما قضى بهذا على إلا أن يكون ضل) . وعن حجير عن طاووس قال : (أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء على فمحاه الأقدر — وأشار سفيان بن عيينة بذراعه — يريد الأقدر ذراع . .) وعن الأعمش عن أبى اسحق قال : (لما أحدثوا تلك الأشياء بعد على قال رجل من أصحاب على : قاتلهم الله . . أى علم أفسدوا !) وعن . . . ابن عباس قال : سمعت المغيرة يقول : (لم يكن يصدق على على فى الحديث عنه الا من أصحاب عبد الله بن مسعود)

فى هذه الاسانيد الصحيحة توكيد لأمر خطير هو أن الكذب على على (رض) سبق عهد الرضى بزمان . . ولا غرابة أن يكذب على على وهو الذى أثر فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يهلك فيه اثنان : محب غال ، ومبغض قال ! . . .

وبهذه المناسبة نسجل للمسئولين فى معارف مصر وسورية حسن تقديرهم للحقيقة ، واستجابتهم لملاحظاتنا عن ذلك الكتاب الملغوم ، إذ ألغوه كله أيامئذ وبذلك انتهى أمر الشقشقية وما وراءها من الشقاق . . .

ولا بمعلوماتهم الأدبية . وإنما نقصـــد إلى توكيد ما ذهبنا إليه ، من أن في طريقة اختيار النصوص الأدبية اضطرابا ، لا يمكن أن يتوافر معه الانسجام السليم ، مع منهاج يستهدف تكوين الجيل السليم .

* * *

حقائق على الهـــامش :

ولـكى يتصور القارئ مدى الاضطراب فى حشد النصوص الأدبية لهذا الفصل نفسه . . . نذكر أن ثمة خطبا عدة عرضت فى نفس الكتاب وعقيب « الشقشقية » . . . تتضارب نتيجتها إلى حد بعيد مع روح هذا النص . فهناك خطبة لأبى حمزة الخارجى ، وأخرى لعمر بن الخطاب ، وثالثة لعبد الله بن الزبير . . . وكلها تنبع من المصدر نفسه الذى تنبثق منه القيم العليا المميزة لشخصية هذه الأمة .

اقرأ معى هذه الكلمات :

(. . . يا أيها الناس . . انى داع فأمنوا : اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق . . وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك . . . من غير ظلم منى لهم . . اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف ، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة . . واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة . . . اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين) .

هذه نفحات يسيرة من خطبة لا يفوت قارئا أن يحس من خلالهـا الروح العمرى ، والجديد فيها بالنسبة للأدب العربى فى جاهلية وإسلام ، أنها تصور نفس حاكم يحاسب يده على ما كسبت ، وقلبه على ما نوى ، فيتعاظم تقديره لتلاميذ محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين جعلوا سياسة البشرية ضربا من العبادة ، لا يبتغون من ورائه إلا وجه الله والدار الآخرة . ثم هى كلمات على قلتها تضع أمام القارئ مخططا واضحا لفلسفة الحكم فى نظرتنا المثالية الأصيلة . . فالخلافة فى ضوء هذا المقياس ليست ميراثا شخصيا ، ولا حطاما دنيوياً ، ولا منصباً فخرياً يتنافس عليه طالبوا الجاه والأبهة العابرة . وإنما هو جهاد فى سبيل الخير العام ، توزع فيه العدالة

بميزان الحق ، فتكون شدة وغلظة على الظالمين ، ولينا وخفضا للجناح أمام الصالحين !.

ولا جرم أن مثل هذه النفس التى ارتفعت فوق ضرورات المـادة ، حتى صارت أنموذجا يمثل أسمى خصائص الإسلام . . لا توصف عند منصف بأن الناس قد منوا بها بخبط وشماس . . . !

ونحن لا نريد من مؤلف مدرسى سوى أن يقف عند أشباه هذه النصوص فى فترة الدراسة الثانوية جميعا ، اعتقادا منا أنها خير وسيلة لتركيز مفاهيمنا الأصيلة فى تلك القلوب الغضة ، وأفضل سلاح نزود به الطالب فى معركة التيارات الفكرية التى تهاجمه من كل حدب وصوب . وقد جربت بنفسى أثر كل من النصين المعروضين فى عقلية طلابى . . فرأيت الانسجام والاعتزاز بعض ثمرات هذه النفحات العمرية ، ورأيت النفور والاشمئزاز والاضطراب واندفاعات التعصب الأحمق بعض ردود الفعل لتلك الشتائم الحاقدة المنسوبة كذبا وظلما إلى أبى الحسن عليه السلام .

هذا ولا بأس أن يعلم القارئ بعد ذلك أن مؤلفى النصوص – المجهولين – قد أعطوا من جهدهم المشبوه عشر صفحات شرحا وتحليلا للشقشقية . . . فى حين عرضوا خطبة عمر هذه بين نماذج أخرى للدراسة غفلا من أى تعليق !!! .

ومرة أخرى نؤكد أننا لا نتهم ولا نرتاب . . ولـكن نتساءل : أى الطريقين أسلم عاقبة ، وأهدى سبيلا ، وأقرب إلى الصواب ! .

* * *

أباطيـــل وحقائق :

والآن تعال معى نتساءل عن الخير الذى يتاح للطالب أن يجنيه من دراسته لمثل هذا الشعر [1]

هو البحر . . من أى النواحى أتيته فلجته المعروف ، والجود ساحله

(١) من قصيدة معروفة لأبى تمام فى مدح المعتصم . . .

تعـود بسط الكف حتى لونـه ثناها لقبض لم تطعـه أناملـه
ولو لم يكن فى كفـه غير روحـه لجـاد بها ، فليتق الله سـائله

قصارى ما نفيده من هذا الكلام هو أننا تلقاء رجل لا وجود له إلا فى خيال الشاعر .. وكل ما هنالك عبث لفظى ، يجهد به نفسه ليؤلف منه الصور العجيبة المدهشة ! . فللمدوح كف مرنت على الانبساط زمنا طويلا حتى باتت غير طبيعية ، فهى كأذرع فقراء الهند ، مدت عشرات السنين حتى تعطلت قدرتها على الحركة ، وهو طراز جديد من المجانين ، لأنه مستعد دائماً أن يقدم روحه – ينتحر – لكل طالب ، إذا لم يكن فى يده ما يعطيه ! ! . . .

ولكنه على كل حال لغو جميل ، يبرهن على قوة بهلوانية لدى الشاعر.. غير أنه لغو لا فائدة منه ، الا إذا كان من أغراضنا التربوية إعداد جيل يحسن مثل هذا التدجيل ! . . .

وإلى جانب هذا الأنموذج نطل على ضرب آخر من المديح ، يوجهه الشاعر نفسه إلى المعتصم يوم عمورية ، فإذا نحن تلقاء معان جديدة ، تسجل للأجيال صورة خالدة من روح هذه الأمة المجاهدة ، مجلوة فى أهداف مثالية ، تستخف بكل حطام الدنيا فى سبيل الحـرية والكرامة وإعلاء كلمة الله . . .

إنك لترى فى هذه الملحمة طائفة رائعة من مفاهيم الجهاد والإعداد ، والعزة والفناء فى الحق ، فى صور لم يهمل فيها الشاعر التناظر بين أهدافنا وأهداف أعدائنا ، ونظرتهم إلى الدنيا ونظرتنا . . ولا ريب أن مبعث السمو فى هذه القصيدة الضخمة عائد بالدرجة الأولى إلى انفعال الشاعر بروح الجماعة ، التى تنبهت مشاعرها أمام الخطر الرومى بسقوط (زبطرة) . فلما زحف المعتصم فى حملة الثأر ، زحف مزودا من وراء الجيوش بالقلوب ، التى ما كانت لترى فى هذا الزحف إلا عين ماصوره أبو تمام ...

وأحب أن تتأمل معى فى هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها حبيب قريبه أبا سعيد محمد بن يوسف لمناسبة ظفره بأصحاب (بابك) :

لله أيامك اللائى أغرت بها ضفر الهدى، وقديمان كان قد مرجا [1]

كانت على الدين كالساعات من قصر وعدها بابك من طولها حججا [2]

. . . عادت كتائبه لما قصدت لها ضحاضحا ، ولقد كانت ترى لججا

لما أبوا حجج القرآن واضحة كانت سيوفك فى هاماتهم حججا [3]

فالشاعر يصور لك بطولة رجل أنقذ الأمة من فتنة حطمت العديد من الحملات ، وأودت بالعديد من كبار الأبطال ، ونشرت الذعر فى ربوع الدولة . . فتنة كفر أصحابها بمبادئ هذه الأمة وجمعوا الأشرار على تعاليم مجوسية مزدكية لا مسوغ لها سوى النقمة من الإسلام . . . فكان من حق هذا المنقذ أن يسمع مثل هذا الإطراء ، الذى لم يكن فى حقيقته سوى تمجيد للروح التى تختلج فى أعماق الجميع فهى حرب لم يرد بها الممدوح سوى وجه الله ، لذلك رد بانتصاره إلى الدين هيبته التى كانت قد تضعضعت ، فيا لفرح الدين وأهله إذن ! . . ويا لشقاء بابك وأعوانه بهذه الملحمة ! . . لقد كان هؤلاء الأعداء سيلا مخيفا لا يدفع فى وهم الناس ، فإذا الممدوح يحطم هذه الأسطورة ، فيكشفهم على حقيقتهم كشىء تافه ضحضاح . . وهو لم يظلم هؤلاء بما لقوا على يديه ، إذ دعاهم للاحتكام إلى القرآن ، فأبوا إلا أن يركبوا رؤوسهم ، فكان لابد من استئصال هذه الرؤوس ! .

ألا ترى معى إلى هذا الطراز من الجمال المترقرق فى هذه الأبيات ! . لقد تعاون جمال التعبير مع جمال الإيمان ، مع جمال المناقب ، على تأليف هذا السحر ، ففعل فى نفسى ونفسك ما كان جديرا أن يفعله ، قول يحمل إلى قلبينا هذه النفحات المنعشة من حقيقتنا . . . من نظرتنا المقدسة إلى هذه المعانى . . . .

وهكذا القول فى معظم ملاحم المتنبى التى يصف فيها معارك سيف الدولة مع الروم ، فهناك نفحات تهب عليك من لهب الوقائع ، فتشعر من

---

(١) أغار الحبل : شد فتله . . والضفر : الشدة والإحكام . . .

(٢) جمع حجة - بالكسر - السنة . . .

(٣) جمع حجة - بالضم - البرهان . . .

خلالها بروح أمتك تتمثل فى روح الأمير ، الذى يمثل بحروبه المستمرة أهداف هذه الأمة نفسها ، من دفع للطغيان وحفاظ على الحرية ، وحراسة لا تعرف الغفلة لحدود هذا الوطن المهدد !. وأى ضمير مؤمن لا يهتز طربا لصورة هذا البطل فى عراكه ، الذى لا ينقطع مع أعـــداء هذه الأمة فى الخارج وأعدائها فى الداخل :

أنت طـــول الحيـــاة للروم غـــاز — فمتى الوعـــد أن يكون القفول !
وسوى الروم خلف ظهـــرك روم — فعلى أى جانبيك تميـــل ! . . .

وهل أروع من موقف هذا العملاق ، وقد أخذ على عاتقه حماية الوطن ، الذى لولا حزمه وعزمه لتدفقت عليه سيول الروم فأغرقت مصر والعراق ، دون أن تجد يومئذ قوة تصدها ، لأن أمراء البلاد قد شغلهم عن بناء الأمجاد (شرب المدامة والأوتار والنغم) :

لو تحرفت عن طـــريق الأعـادى — ربط السدر خيلهم والنخيـــل
. . . ما الذى عنده تـــدار المنايـــا — كالذى عنـــده تدار الشمـــول

. . هذه قطع حية من تاريخ الجهاد الإسلامى ، تتلاقى فيها إلى حد بعيد أكرم شيم العروبة الأصيلة ، مع روائع الخلق الربانى فى آفاقه الرحيبة . . .

وأنا لا أفهم كيف نعدل عن هذه الطريقة النقية فى تدريس أدبنا ، إلى مثل هاتيك الطريقة الحشوية الأخرى التى لا تفيد أحداً سوى مؤلفى الكتب ، إذ يتخذونها وسيلة لاستكثار الأجور بإكثار السطور ، فيحشدون لها ما هب ودب من النصوص ، دون هدف سوى ما يسمونه (تاريخ الأدب).. كأن من حق هذا التاريخ علينا أن لا يكون لنا أى غرض من وراء المناهج ، حتى تكون أشبه بهذه الصحف التجارية تجمع بين بحث قيم فى الصحة إلى جانبه إعلان مغر بالخمور . . عدوة كل صحة . . . !

* * *

اطوحـــوا هـــذا الفجور :

لقد شحنا رؤوس أبنائنا بأهاجى الفرزدق وجرير وغيرهما ، فماذا جنينا من ذلك إلا أن نعلمهم كيف يؤلفون بطريقة فنية أنواعا من السفه

والفجور يسمعونها كل يوم فى أزقتهم . . ولـكن بطرائق غير فنية ! . .

وما أدرى لماذا لا نكتفى من شعر جرير مثلا بدراسة مراثيه الروحية ، ومقدماته الغزلية ، التى تهيج الأشواق النظيفة فى قلب العربى ، إذ تذكره بتراث أمته ، الذى يعتبر العفة والتسامى عناصر طبيعية فى كيانها الأصيل ! .

ولـكن وا أسفاه ! . . إننا لنصف جريرا للطلاب بأنه ذو السلوك الشخصى النقى ، وأنه الشاعر المطبوع بصبغة الإسلام ، ثم نقدم إليهم من هجائه المشبع بالفجور والاختلاق ما يجعل مفهوم الإسلام لديهم شيئا مضحكا ! .

بلى . . ان الجديد الذى نريد إدخاله على منهاجنا الأدبى هو أن يستبعد منه تلك السموم المحطمة للأخلاق وللخصائص العربية ، والتى لا تعطى مردودا سوى زيادة المنحلين والمهرجين والمنافقين فى صفوف هذه الأمة المجاهدة .

وليغضب دعاة الفوضى ما شاء لهم الهوى ، وليسخطوا ما طاب لهم ، على هذا التحرر من تعاليمهم المستهترة المستخفة بكل هدف كريم . . فنحن لا نطلب لمناهجنا ولأبنائنا أكثر مما يطلبه العقلاء من حكوماتهم ، حين يسألونها أن تحميهم من السفهاء والمحتكرين والمتاجرين بالأعراض والأخلاق .

كل الناس متفقون أن على الدولة واجب مطاردة المهربين للمخدرات ، وإخضاع تجارة المتفجرات للمراقبة الصارمة ، حتى لا تتسرب إلى الأيدى الجاهلة والمجرمة . . ونحن لا نريد من حكوماتنا ما يتجاوز هذا الواجب : واجب المراقبة الدقيقة لمواد الدراسة ولمدرسيها ، حتى لا يتسرب إلى القلوب الغضة ما يفسد فطرتها ويستأصل أمنها ، ويدفعها إلى مخالب الإباحية والفوضى دفعا . . . وقد علم أولو العلم أن من الكلام سموما دونها السموم ، ومنها المتفجرات التى لا تنسف الصخور والمنازل ، ولـكن تحطم الأخلاق والفضائل .. وهيهات أن تنفعنا صحة الأجسام إذا فقدنا صحة الأرواح ! . . والويل لنا حين يستحوذ علينا المستهترون ، فتجعل مناهجنا التربوية كبرامج (ما يطلبه المستمعون) . . أو كحقول الصحف التى فسدت ذمم أصحابها ،

فأقاموا من أنفسهم منفذين لخطط الأعداء فى تهديم رجولة الشباب ، وبث سموم الرذيلة بغير حساب .

صحف تنفث السموم ، فما تحمل الا النفاق والتدجيلا
عبثت بالعقول حتى غدا المنطق لغوا فى شرعها وفضولا
فاذا الحق باطل ، والأباطيل حقوق ، والإفك أقوم قيلا

ونحن هنا لا نجادل هؤلاء السفهاء الذين خربت ضمائرهم ، فلا يهمهم سوى المال الحرام ، يتصيدونه من أى سبيل .. ولكننا نخاطب الرجال الذين وضع القدر فى أيمانهم مستقبل هذه الأمة ، والذين أعلنوا أنهم يستهدفون من التربية والتعليم تكوين الجيل الجدير بحمل الأمانة ، التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان .. وقد علموا أنها مهمة ضخمة ، لا تصلح للنهوض بها النفوس الفاجرة ، ولا السواعد الرخوة الخائرة . . .

* * *

من هنــا الطريق :

أنا أعلم أن كثيرين من زملائى مدرسى العربية لن يؤيدوا اتجاهى الغريب هذا .. وسيجدون فيه تهجما على طرائقهم التى آمنوا بها ، فلا يحبون أن يتحولوا عنها إلى سواها .. وهؤلاء لا ألومهم ، فلهم دينهم الذى تلقفوه من دعاة (الاستغراب) .. الذين يرون أن لا خير إلا فى مناهج الغرب أدب الغرب ورطانة الغرب . . ولنا ديننا الذى يملؤنا شعورا بالمسئولية نحو أمتنا وإنسانيتنا . . ومن هنا نفترق ، فيغربون ونشرق ، ويزعمون أن (الفن للفن) . ونجزم أن الفن للخير وللحق . .

هؤلاء يقولون : إنك تدعو لتجميد الأدب ، إذ تريده خطبا وحكما كمواعظ المعابد ، وقد نسيت أنه صورة الحياة التى فيها الخير والشر والفضيلة الرذيلة ! .

ونحن نقول : كلا . . لا نريد تجميد الأدب على الموعظة والإرشاد . . ولا نريده مقطوعا عن الحياة كتسابيح سكان الصوامع . . ولكننا

نختلف وإياكم على مفهوم الحياة ، فأنتم تطلبون من الأديب أن يأخذ الحياة كما هى على طريقة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

أما نحن فنريد من الأديب أن يكشف الحياة ، فيكون رائد قومه إلى الخير ، يهيب بالتائهين : أن الطريق من هنا لا من هناك . . وأن فى الحياة مناطق مشرقة بالضياء . . غير التى فيها يتخبطون . !

إنكم تريدون أدبا غوغائيا يقول كل ما يوحى به الهوى ، كالحمار لا يجد حرجا أن ينهق حيث يشاء . . ونريده أدبا مهذبا يسمو بالنوع الإنسانى إلى المكان الذى رشحته إليه حكمة الله . . . لذلك نقول لأصحاب الأقلام : مهلا . . ضعوا أيديكم على ضمائركم . . تذكروا فداحة التبعة الملقاة على أعناقكم . . . ثم اكتبوا . . . وانظموا . .

ثم قد نجد بين هؤلاء الزملاء طرازا آخر ، لا يخالفنا فى أن للأديب امتيازا يرفعه عن الانسياق الأعمى فى تيار المجتمع . . وأن له رسالة لا يكون أديبا إلا بها ، ولو سمته المؤتمرات المشبوهة أديبا كبيرا . . غير أنه سرعان ما يفارقنا فى مدلول هذه الرسالة . . إذ هو يراها جاهلية المنزع ، تشحن الرؤوس بدوى لا مفهوم له ، سوى أنه كلام عن عروبة عجيبة تعيش بغير قلب ولا ذاكرة . . تنطلق إلى الأمام كالقاطرة العمياء ، لا تدرى من أين ولا إلى أين ! . . وشتان بين عروبة كهذه صنعها الهوى تمثالا لا حياة فيه ، وعروبة أنشأها خلقا سويا ، فهى حية واعية مؤمنة ، تعرف ماذا أراد لها خالقها ، وماذا ينبغى أن تريد ! . . والاختلاف فى مفهوم كل من العروبتين إنما هو فى الواقع اختلاف جذرى له أثره البعيد فى كل جوانب الحياة . .

* * *

تطــور ناقص :

على أن بعض التعديل قد طرأ على منهاج الأدب فى فصل الشهادة الثانوية ، إذ أصبح – كما هو فى سورية – مقصورا على دراسة الأدب الحديث ، لا يتناول خارج حدوده إلا قليلا من عصور الدول المتتابعة ، كمقدمة لرصد التطور الأدبى .

وقد لوحظ تذمر واسع بين مدرسي هذه السنة بإزاء الخطوة الجديدة ، إذ نقلتهم طفرة من منهج يدرس فيه الطالب مجموعة من العصور الأدبية ، إلى آخر يقف بهم عند عصرهم الحديث وحده . . بل يكاد يجتزئ من ألوان هذا العصر بواحد هو الأدب التحريري . . الذى يمثل حركة النضال فى بناء النهضة الحديثة .. وربما كنت أنا بين القليلين من المدرسين الذين هللوا لهذه النقلة وكبروا ، ذلك أنني وجدت فيها ضربا من التعبئة المدرسية ، يجعل للمنهاج الأدبي هدفاً عقلياً واجتماعيا لم يكن للمناهج السابقة عهد بمثله قط . بل من خطأ الرأى أن يقارن بينه وبينها . . . وهى التى لم تكن أكثر من عرض مرتجل لنصوص لا تستهدف أى غرض سوى ما يسمونه بالثقافة العامة ، أشبه شيء بكشكول الشحاذين امتزج فيه الحلو بالحامض بالحريف، على شكل يمجه كل ذوق سليم ! . .

ولقد رددت تذمر المتذمرين يومئذ إلى أسباب . . منها تعرض المناهج للهزات المتتابعة فى كل عام . . ثم إيثارهم للراحة التى توفرها لهم تحضيراتهم السابقة للمناهج القديمة ، على القيام بتحضيرات جديدة يتطلبها استيفاء البحوث فى أدباء ونصوص لا يغنى فيها المؤلف المدرسى عن الرجوع إلى أمهات المصادر . . الأمر الذى يقتضيهم مجهودا كانوا فى غنى عنه لو ظلوا حيث هم ، أو لو جاء الكتاب الجديد وافياً بغرضه ، مجزئا عن العودة إلى عشرات المراجع ! .

على أن هذا التطور الصاعد فى موضوع المنهاج لا يمنع القول بأنه لا يزال ينقصه الكثير . . وأول ما نلاحظه من ذلك حاجته إلى مضاعفة التركيز فى ناحية المثل . . فنحن ندرس هناك طائفة من أكبر أدباء العصر فى الوطن والمهجر ، ونعرض من آثارهم لنماذج رفيعة . . ولكن الذى نفتقده فى هذه النماذج مركزية القيم ، والقدرة على تجديد فلسفتنا الجماعية – لا الفردية – فى نظرتها إلى الكون والإنسان والمجتمع والأخلاق والحرية . .

ولنضرب لذلك مثلا عمليا : ففى نماذج أبى ماضى ما يعطى صورة مقبولة عن تأملاته الشخصية فى كثير من مشاكل الحياة ، وصلة الإنسان

بالكون ، ولكن على طريقته الخاصة التى كانت فى بعضها انطباعا بروح (البراغماتيزم) الأمريكية . . وفى بعضها الآخر كرد فعل ضد هذه المادية الأمريكية نفسها . .

وفى نماذج جبران الكثير من الصور الوجدانية التى تمثل نقده الاجتماعى وانطلاقاته الإنسانية . .

وفى نماذج الكواكبى والأفغانى ومحمد عبده وبقية أدباء المنهاج شواهد متفاوتة ، تصور مهمة الأدب الفعالة فى حياة العصر ومشاكله جميعا من ناحيتيه السلبية والإيجابية . . ولكن هذا وذاك وأولئك كلها لا تعطى الجواب الشافى لمثل هذا السؤال : ما مدى تصوير هذه النزعات والتأملات والفلسفات لروحنا الأصيل ، الذى يجب أن يكون المحور الذى تدور حوله كل دراساتنا المنهجية لمختلف العصور ! !

لقد حددت هذه النصوص موضوع الـ (أنا) تحديدا شبه تام . . ولكن بقى أن نتساءل : أين هى النصوص التى تستطيع تجديد موضوع الـ (نحن) فى كل هذا المنهاج . . !

* * *

دفـــاع عن شوقى

حدث ذلك قبل سنوات . . وكنا مجموعة من مدرسى العربية جىء بنا لتدقيق امتحان الشهادة الثانوية فى مادة الأدب . وقد تحلقنا للبحث حول سلم الوزارة فى توزيع أجزاء السؤال ودرجاته . وكان أمير الشعراء هو موضوع السؤال . فقال قائل : إن سلم الوزارة يفترض وجود خطوط ثابتة فى شعر شوقى ، وهو الشاعر الفارغ من كل ميزة إلا التقليد ! . . فعلى أى أساس نحاسب الطالب فيما كتب عنه ! . .

وانطلق زميل آخر يقول : إنه الشاعر الذى لا رسالة له ! . .

وساد الصمت قليلا . . وتحركت بعض الرؤوس بإشارة الموافقة . . وكنت فى غمرة من الدهشة ، أرقب وجوه الأساتذة لأرى عدد المخالفين لما يقال . . وما أذكر أنى لمحت أثرا لذلك ، فلم أتمالك أن قلت : « إن

عناصر البحث فى سلم الوزارة منبثقة من دراسة صحيحة دقيقة لشوقى ، فلا يعقل أن يخلو شعره منها . . ثم مضيت فى تبيان وجهة نظرى عن الموضوع ، وأخيرا انتهينا إلى الأسس الواجب علاجها من قبل الطالب . ولـكن ظل كل شىء على شأنه بالنسبة إلى أولئك الزملاء . . فشوقى مقلد لا شخصية له ، ولا أثر من عبقرية ، وشعره خال من كل أثر للأهداف العليا ! !. »

وهنا ذكرت قول شوقى رحمه الله :

ومن النقد والجـدال كلام يشبه البغى والخنـا والفضولا

وسمع ذلك منى زميل قريب فقال : رائع . . ولمن هذا ؟

قلت : للشاعر الذى لا عبقرية له ولا رسالة ! .

واشتركنا فى تدقيق بعض الأوراق لتقريب المقاييس . . وكان هناك مدرسة لا تكاد تسمع عبارة فاسدة حتى تشبهها بشعر شوقى ! . .

ولم يفتنى السر فى هـذه الحملة على شوقى . . أنهـا دوافع العصبية التى حددت أهداف الأدب بما يختلف عن فهم الشاعر ، فهـى لذلك تنكر عليه الفهم والفكر والشخصية ، ولو استطاعت لأنكرت وجوده كله ! . ولولا هاتيك الاعتبارات الخاصة لما تعذر على أولئك الأساتذة أن يستخلصوا أهدافه الكبرى من خلال الكثير من إنتاجه الأدبى . . وبخاصة شعره الإسلامى ومسرحياته التى تضعه فى طليعة المفكرين الاجتماعيين فى أدبنا الحديث .

لقد عرف كل قارئ لمسرحيات شوقى أنها دروس مستمدة من خصائص أمته وحاجاتها ، فى السياسة والوطنية والأخلاق ، فهنالك الإباء الوطنى الذى يجعل الموت أيسر قبولا من الهوان . . كما فى (كليوباترة) . . وهناك الإثارة الملهبة لروح الكفاح ضد المحتل ، ممثلة فى (قمبيز) . . ثم هناك عزة الفروسية ، وسمو الحب يمثلان أنبل الخصائص العربية فى عنترة ومجنون ليـلى .

ومثل هذا يقال فى سائر مآسيه التى لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولكنه التصميم البناء الحكيم ، الذى لا غرض له سوى تكوين العزائم الصالحة لتخطيط المستقبل . .

قد يكون شوقى فى هذا الفن مقلدا لكورنارى . . ولا عيب فى ذلك إذ كان الشعر التمثيلى فى العربية طفلا يحبو حتى نهض على يدى شوقى . . فهو إنما يقلد الوسيلة دون الغاية . . ولو وقع ذلك لمن هو دون شوقى إحساسا بتاريخ أمته وروحها لآثر غير هذه الموضوعات ، كما نرى لأكثر المعاصرين . .

أما شعره الإسلامى فسجل « مهيب » لمرحلة من النضال الجماعى لا سبيل إلى حذفها من التاريخ ، ولا خير فى تجاهلها فى نطاق الأدب ، لأنها هى التى مهدت للتيارات الحديثة . . وقد رأينا شوقيا – وبخاصة بعد المنفى – يقتحم ساحة النضال الاجتماعى فى تصميم مركز ، يرمى من ورائه إلى غمز الإباء فى صدور العرب حتى (. . تلظت أنوف الأسد واضطرم المدق . .)

وضج من الشكيمة كل حــر أبى . . . من أمية فيه عتق

وهكذا وسع شوقى مساحات كفاحه ، فكانت متعددة الساحات ، متحدة الهدف ، تريك إياه فى جواء التاريخ الفرعونى حينا ، والإسلامى حينا آخر ، يثير المشاعر ويوقظ الضمائر ، لاسترداد المجد السليب . . ومرة فى أوساط العمال يذكرهم مكانتهم فى ميزان الحياة ، ويحضهم على تحقيق مثل أمتهم من الإتقان فى العمل والدأب عليه . . وحينا فى مدارس الأطفال يمدهم بالأناشيد التعليمية ، التى تعدهم لأعباء المستقبل رجالا لاتصرفهم البهارج عن المعارج . وآنا على منابر الجهاد خطيبا ينفخ بوطنياته روح التمرد ضد الغاصبين ، محذرا المجاهدين من ألاعيب المستعمرين ، مصورا جلال الحرية فى القمة التى لا يبلغها غير الأفذاذ من المناضلين . . وطورا فى غمرات الروح يعرج على أجنحة الإيمان إلى مسابح النور . فيخص صاحب الرسالة الأعظم ، وأخاه السيد المسيح ، بمدائح تمثل أصالة الروح العربى ، الذى لا يجد قرارا إلا فى ظل الملأ الأعلى . . غاسلا بأشواقه أوضار الماضى الذى

طالما شغله عن هذه الحقائق . وما أدرى بعد هذا كله كيف يسأل سائل : أين عبقرية شوقى وأين رسالته ! ! . فكأن عارا على شاعر أن يكون له بعض التقليد . . وقد علم كل ذى فهم أن الشاعر يبدأ مقلدا مقرزما ، حتى تتكون له القوى التى تميزه عن سواه . . شأن فحول العربية كلهم دون استثناء .

أما أن يكون لشوقى مباذله كأى شاعر . . فتلك بدوات الفردية التى لا يسلم منها إلا من رحم الله . وليس من عار على شوقى أن يسجل بها خواطره الخاصة ، ولكن الخطأ أن تتخذ من هذه الفلتات أساسا لدراسة الشاعر ، فننسى بذلك المبدأ السليم الذى يجعل الغرض من دراسة الأدب تقصى الروح العامة ، فى مسالك الشاعر دون الوقوف على الهفوات التى لا شأن بها للمجتمع ! .

وفى اعتقادى أن مثل قول أبى نواس :

يا كبير الذنب . . عفو الله من ذنبك أكبر !

أو قوله الآخــر :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم — وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
ولقيت ما يلقى امرؤ بزمانـه — فإذا عصارة كل ذاك أثـام !

هو فى ميزان التحليل أرجح دلالة على حقيقة هذا الفاسق من كل فلتاته الإباحية ، ذلك لأنه صوت الفطرة المحبوس ، ينطلق من أعماق النفس المؤمنة . . ليسجل احتجاجها على ذلك الانحراف المريض ! .

ومهما يكن من أمر فإن تعديل رأى أولئك الزملاء فى شوقى يقتضى أولا تصحيح الاتجاه الفكرى فى رؤوسهم ، ليتاح لهم أن يروا شوقيا على حقيقته . . ويومئذ سيعلمون أن اتساع الأفق الفكرى فى نظره لا يجرح من قيمته . . ما دام فى الأمة العربية من يؤمن مثله أن للعروبة ميدانا هو أوسع من بلاد العرب . . هو الشرق الإسلامى ، الذى جعلها القدر منه فى مرتبة القيادة .

وحسب شوقى خلودا أنه ترك للعرب ثروة من المعانى الحية ، لا تفتأ ترددها فى مختلف المناسبات القومية . . وما أحسب شاعرا استطاع أن يرسم للحرية صورة أجمل مما فى قوله :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ولا صورة للمستعمر أنجح من قوله :

وللمستعمرين ، وإن ألانوا قلوب كالحجارة لا ترق

ولا رسما لطبيعة الطغيان أشد هولا من قوله :

ودعوى القوى كدعوى السباع من الظفر والناب برهانها

وما أعرف شاعرا استطاع أن يصف الحياة بأروع وأصدق من قوله :

فإن الحياة تفل الحديد إذا لبسته وتفنى الحجر

أو يحدد أهمية القدوة فى ميدان التربية والتعليم بأدق من قوله :

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر حولا

وأخيرا لم يعرف العصر الحديث شاعرا وصف مأساة العرب فى نهاية أولى الحربين الكبريين بأحكم وأفجع من قوله :

قد رجونا من الغنيمة حظا ووردنا الوغى فكنا الغنائم

فليرحم الله شوقيا . . . وليرع بالتخليد ذكراه .

* * *

أدبنا المعاصر :

لا تزال معقولة تلك الكلمة التى تقول : (وراء كل تطور اجتماعى كبير حركة أدبية كبيرة) وذلك لأن من طبيعة المجتمعات البشرية أنها تنسجم مع أوضاعها المألوفة صاعدة أو هابطة ، فلا تكاد تحس ما بها من شذوذ ، حتى يتاح لها المفكر الذى يلم بهذا الواقع ، ويستشعر ما فيه من انحراف ، فإذا هو ثائر به ، متمرد عليه ، ثم لا تستقر نفسه حتى يرى لثورته أثرها المباشر فى تفتيح العيون . . وإيقاظ الغافلين . . ومن هنا تبدأ المعركة بين الواقع الذى يتشبث بالبقاء ، والتطور الذى يريد أن يزحزحه

تلك المعركة الإنسانية الخالدة التى قادها الأنبياء ، وتعهدها الحكماء ، ولا يزال وراءها المفكرون والأدباء . .

وليست الأمة العربية بمعزل عن ذلك القانون الطبيعى ، بل إنها فى واقع الأمر أكبر مثل على صحته ، وهذه اندفاعاتها الكبرى ، منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، سلسلة متصلة الحلقات من الحركات الفكرية ، تتوهج حتى يلف لهبها القمم ، وتتضاءل حتى يحسبها الناظر قد شارفت الانطفاء . .

وقد أتى على هذه الأمة حين من الدهر تأخرت فيه عن ركب الإنسانية ، فسادها ركود فكرى خيل لناظريه أنه النهاية ، ثم تحركت الأيام فإذا هى تنتفض فيزول القبر والكفن ، وتعود من جديدة إلى معركة الصراع الأولى معبأة القوى ، مرهفة العزيمة ، تزداد كل صباح إيمانا بنفسها ومستقبلها وإمكاناتها ، على كثرة المثبطات وتتابع الصدمات . ولقد يكون وراء هذا الانتفاض عوامل لا تكاد تحصى من (ديناميكية) الزمن وجبرية التاريخ ، ولكن مما لا خلاف فيه أن الأدب واحد من أهم هذه العوامل ، إن لم يكن أهمها . . .

إن مؤرخ النهضة العربية الحديثة فى مختلف خطوطها العامة ، دينية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، ليس بوسعه أن يتجاهل أفكار الأفغانى ومدرسته التى أشعلت فتيل المواهب ، وأطلقت كمين الطاقات ، فأحدثت فى الشرق الإسلامى كله مثل الزلزال الذى أكره الناس على إعادة النظر فى أوضاعهم المألوفة ، ومفاهيمهم المقلوبة .. وقد بلغت ثورة هذه المدرسة من النضج والقوة أنها – منذ خطواتها الأولى – قد عنيت بإصلاح كل فاسد من واقع هذا المجتمع ، لا تفرق فى عملها بين الدين والدنيا ، بل تفسح لكل مهم جانبا من مخططها العام ، فكما تدعو إلى تطهير الدين من زيف البدع ، وتكشف عن مقاتل الحكم الاستبدادى ، وتمكن فى الضمائر لمفاهيم الشورى ، هكذا كانت عنايتها فى الأدب واللغة ، حتى أنك لترى محمد عبده ، وهو أشهر تلاميذ هذه المدرسة ، يجعل فهم الدين على طريقة

السلف[1] ، ثم تحرير الفكر من قيود التقليد ، وإنقاذ الأساليب الأدبية من أغلال التكلف ، أهم الأركان فى رسالته الإصلاحية . ونحن حين نتذكر واقع أمتنا فى أواخر القرن الغابر ، وما كانت عليه أيامذاك من جمود وتقهقر وانقلاب فى المفاهيم ، ثم نقارن ذلك بما انتهينا إليه اليوم من نهضة شاملة ، وتقدم فكرى مطرد ، حين نفعل ذلك لا يسعنا إلا أن نقدر لأولئك المصلحين فضلهم فى ما وصلنا إليه من خير ، ونستلهم مبادئهم فى مواصلة الإصلاح لما يواجهنا من انحرافات عن طريقهم السوى . وما أحسب فى الأمة العربية مثقفا يجهل أثر الإنتاج الأدبى الضخم ، الذى حققه محمد عبده وشكيب أرسلان ورشيد رضا ومصطفى كامل ، والبارودى وشوقى وحافظ والرصافى . . وعشرات الأدباء المتأثرين بمدرسة الأفغانى ، فى هذا التفتح العام الذى سجلته — حتى اليوم — حركة البناء فى جميع الميادين دون استثناء . .

والأدب فى نظرى ذو مظهرين أحدهما يعرض واقع الأمة من خلال ذات الأديب ، فيرينا فضائلها ورذائلها ، ومواطن ضعفها وقوتها ، فنتفاعل به ونعيش معه ، فيوقظ بنا عن هذا الطريق غير المباشر نزعة النقد والتأهب للتطور . . أما الثانى فذو مهمة تثقيفية يناقش ذلك الواقع بطريقة موضوعية ، ويحمل إلينا ثمرات الفكر العالمى والنهضات البشرية ، وبذلك وهذا نندفع فى طريق التقدم على بصيرة وخبرة .

وإن أدبنا المعاصر ليحمل هذا الطابع الثنائى فى قوة ، إذا لم تكن كاملة فقريبة من الكمال ، وفى وسعنا أن نشير إلى شعراء وكتاب وخطباء وصحفيين كان لهم أكبر الأثر فى إثارتنا والإطلال بنا على واقعنا ، فى إنتاج ذاتى ألهب المشاعر ، وجلى البصائر ، فلا كارثة إلا ولها على ألسنتهم دوى ، ولا حادثة إلا ولها فى جوانحهم هزة ، وبأقلامهم صدى . . إلى أدباء آخرين أمدوا الملايين من القراء بمادة البحث الموضوعى ، وأشرفوا بهم

---

(١) هذا على الرغم من بعض الشذوذ الذى يؤخذ عليه والذى نرجو أن يكون قد عاد عنه أخيرا .

على تيارات الفكر العالمى ، من خلال إنتاج وفير تناول جوانب النهضات الفكرية فى العالم أجمع ، فلا علم إلا ولهم فيه جولات ، ولا فن إلا نقلوا منه أطيب الثمرات . وكل ذلك فى أدب أصيل تحرر من كل عائق مصنوع ، وانطلق محلقا فى جواء سامية من التعبير الفحل المطبوع ، الذى عرفته العربية فى أزهر عهودها الذهبية . ولعمرى إنه لدور ضخم يؤديه هؤلاء الأدباء فى معركتنا الراهنة ، التى كان عليها أن تبدأ أولا فى أوساط الكبار من رجال الفكر وحملة الأقلام ، قبل أن تنتهى إلى سواد الشعب . .

وطبيعى أن الاعتراف بدور أدبنا فى البناء العام لا يراد به وصفه بالكمال ، ولا الرضى عن كل ما تزخر به السوق من إنتاج الأقلام ، فالأدب الذى نتحدث عنه إنما هو أدب العمالقة الذين مثلوا عبقرية هذه الأمة فى الوطن والمهجر . فلا شأن بحديثنا إذن لأولئك الأقزام الذين يسمون أنفسهم أو تسميهم بعض الهيئات المشبوهة أدباء ! . وكذلك لا ننكر أن فى أدبنا ، على جلاله ، قصورا ملموسا إذا قيس ببعض آثار الأمم المعاصرة . ولكن علينا أن نتذكر حقيقة مهمة وهى أن الأدب صورة من الحياة العامة ، وحسبه فضلا أن يفى بحاجتها وفق سنة التطور ، وإذا كان ضروريا أن يسبق خطواتها أحيانا فإلى القصد الذى يصور تطلع الضمير الجماعى إلى المدى البعيد من الكمال المنشود ، دون أن يقطع صلته بواقعها الراهن . . .

وعلى ضوء هذا القياس نسجل لأدبنا المعاصر وفاءه بحاجة النهضة ضمن حدودها الواقعة ، وأبعد إلى المدى الطبيعى المعقول . . .

على أن ثمة جانبا من النقص لا مندوحة عن التذكير به هنا ، لأنه يسجل مدى التباعد بين أدبنا المعاصر والكثرة الكاثرة من سواد الأمة . .

فالأدب إنما يحقق رسالته كاملة بمقدار ما يحقق من التجاوب بينه وبين السواد الأعظم .

وقد عرف أدبنا العربى عصورا كان التجاوب فيها على أشده بين الأدب والجماعات ، ثم ضربت الأحداث ضربتها فإذا هناك هوة سحيقة بينهما ، وإذا الأديب منقطع بواقع لغته وتفكيره إلى طبقة خاصة لا تمثل

مجموع الأمة ، وإذا السواد الغالب مشغول عنه كذلك بواقعه ، الذى لم يلبث أن وفر لنفسه لغته وتفكيره الملائم . . ثم يستيقظ الأدب الحديث على جمهور حرم ضياء المعرفة ، إلى جانب حرمانه مفاهيم اللغة ، فأصبح متعذرا أن يصل صوت الأدب إلى أسماع هؤلاء إلا من وراء ألف حجاب ! .

وهكذا وجد الأديب نفسه معزولا عن سواد أمته ، مقصور التفكير على الطبقة المتعلمة وحدها ، تلك التى تعمل بوسائلها الخاصة لنقل أفكار الأديب إلى من يليها من المجموع . .

وهذا واقع مزعج من شأنه أن يضعف قدرة الأديب على استكمال رسالته فى البناء الجماعى . وفى اعتقادى أن هذا النقص سيظل مرافقا عملنا الأدبى ، حتى نوفق للقضاء على آخر معقل للأمية فى هذه الأمة ، وحتى نرفع من سوية سوادنا الثقافية إلى الحد الذى يمكنه من تذوق صحيح البيان ، والاعتزاز بلغة القرآن .

* * *

من أجـــل الفصحى :

وإذا كانت اللغة هى رباط الأمة ، وسبيل التفاهم العقلى والوجدانى بين أجزائها ، فجدير بالمفكرين أن يستنفدوا وسعهم فى التنقيب عن خير الوسائل لتأمين حق الأفراد والجماعات فى فهم الفصحى ، والتمرس بها إلى أبعد حدود الإمكان . .

ومن أجل ذلك سأتناول بطرف من القول هذه اللغة ، وما تواجهه من العثرات فى أوساطنا التعليمية بوجه خاص ، لأننى أعتقد أن المدرسة هى المنطلق الذى فى جوه يجب أن تبدأ كل محاولة إصلاحية ، تستهدف فرض سلطان الفصحى على سائر الأوساط .

. . . سئل كونفوشيوس عن أفضل الوسائل إلى تصحيح الأفكار فأجاب : « تصحيح الألفاظ . » وفى اعتقادى أن فى هاتين الكلمتين جواب كل سؤال عن كل إصلاح ، فما لم يتمكن الإنسان من استعمال اللغة

فى مدلولاتها الصحيحة لم يتمكن من تحديد أفكاره ، وبالتالى سلوكه ، ومن ثم تعذر عليه أن يفهم أو يفهم ، وكفى بذلك اضطرابا وبلبلة !

هذه كلمة عجلى أحببت أن أركز فيها الكثير مما فى نفسى عن العربية ، ثم عن حاجتنا نحن العرب مدرسين وطلابا ، وعلماء وأدباء ، إلى الاهتمام جدياً بهذه اللغة .

كل شىء من حولنا يتحرك بسرعة ذرية ، حتى عقولنا ومفاهيمنا تعيش فى دوامة لا تعرف قرارا ، وطبيعى أن مثل هذا الوضع المتقلقل من شأنه أن يجمد إلى حد بعيد مقاييسنا الجمالية ، فلا نهب لها سوى الجزء اليسير جداً من عنايتنا . . وهكذا وجدنا أنفسنا فجأة وبالنسبة إلى لغتنا أمام مأساة . . ليست فقط فى المدرسة بل فى كل مكان ، وفى كل شىء ، على أن حظ المدرسة من هذه الأشياء كان أكبر من سواه .

أجل . . إن فى حياتنا المدرسية مشكلة ، لم نتفق بعد على طريقة لحلها ، وهى ليست محلية تخص إقليما دون آخر من ديار العرب ، بل إنك لتسمع المشتغلين بأمر هذه اللغة يجأرون بشكواهم فى كل قطر عربى . . وكثيرا ما تقرأ المقالات الطوال فى بحث هذه المشكلة ، وكثيرا ما تعقد المؤتمرات لمعالجتها . . . ولكن شيئاً من هذا أو ذاك لم يدلنا على الحل الناجع فى تدارك ما نشكوه ، ذلك لأن الموضوع لم ينل بعد دراسة جذرية كاملة ، لذلك كانت الحلول المعروضة بشأنه تشكو بدورها الارتجال ! .

أنا لا أقول أن لغتنا فى تأخر ، ولا أزعم أن إقبالنا عليها فاتر ، بل العكس هو الصحيح ، ذلك لأنا خرجنا بهذه اللغة من ظلمات عصور الانحطاط ، فرددنا إليها الكثير من بهائها المفقود ، وكشفنا الكثير من جمالها المطموس ، وقد أسعفتنا وسائل عديدة لتقريبها من أذهان الجماهير ، كالصحافة والإذاعة والمؤسسات الثقافية ، فلم تعد غريبة عن أسماعهم ، كما كانت إلى عهد غير بعيد ، ولكن لا يسعنا مع ذلك إلا أن نجهر بأن الوسط المدرسى بخاصة لا يبرح يستشعر جفاء غير يسير نحو هذه اللغة ، إذ نرى الطالب يهب من جهده لكل مادة أكثر مما يهب لهذه اللغة ، فلا

يتمالك مدرس العربية أن يغص بالألم حين يرى إلى جهوده تتبخر بين الحين والحين ، حتى لا يبقى من أثرها فى حياة طلابه سوى النزر القليل ! . .

ويتساءل المدرسون ، ويتساءل المفكرون : ما السبب فى كل ذلك ! .

هنـاك ظن كاذب يستحوذ على أوهام الطـلاب ، فيوحى إليهم أن فى هذه اللغة صعوبة لا تذلل ، وأن فى الاهتمام بها جهدا مهدورا لا مردود له ! .. وأنا لا أعلم من أين دخل الشيطان على نفوس الطلاب بهذه الأكذوبة.. ولـكنها عقدة واقعية رهيبة لا سبيل إلى تجاهلها ، وما لم نتغلب عليها فنمحها من صدور طلابنا فلن يكون لدينا أى أمل بالنجاح .

بقى أن نتساءل عن الوسيلة الفضلى لتحقيق هذه الغاية ، غاية تصحيح مفهوم الطالب عن هذه اللغة . . وعندى أن الوسيلة — على بعدها — غير مجهولة ، وغير متعددة . إنها فى تكوين الجو الصالح ، الملائم لشيوع الفصحى فى مجموع الوسط المدرسى .

ولإيضاح الفكرة أقول : إن علينا إذا شئنا حقاً توثيق الثقة بجمال هذه اللغة ويسرها فى الوسط التعليمى ، أن نوثق صلة الطالب بهذا الوسط ، فنزيل من نفسه الاعتقاد المألوف ، الذى يريه صلته بالمدرسة شيئا موقتا ، لا يتجاوز حدود الدوام . . وهذا يعنى أن نجعل من المدرسة مجال نشاط عام ، يستهوى الطالب فى معظم أوقاته ، إذ يجد من المدرسة جوا حيا ، فيه إلى جانب الدروس كل وسائل التثقيف النفسى والمتعة المهذبة . .

هذا أولا . . أما بعد ذلك فعلينا أن نكون تعاونا تاما فى جهاز التدريس ، يستهدف اعتبار الفصحى هى القدر المشترك فى مجموع مواد المنهاج دون تفريق . . فلا يسمح مدرس لنفسه أن يتكلم ، أو يقبل كلاما بغيرها — ما دام ذلك ممكنا ! —[1]وفى هذه الحال نوفر للطالب الغذاء اليومى الذى

---

(١) يؤسفنا أن نشير ولو من بعيد إلى قصور الكثيرين من المدرسين فى هذا الواجب ، ولا سيما فى المراحل السابقة للجامعة ، حتى رأينا غير قليل منهم أصبحوا موضع التندر فى أوساط طلابهم بسبب استعمالهم لهجاتهم المحلية ، أو بسبب كتابتهم على السبورة العبارات الملحونة . . . وإلى القارئ هذا الانموذج العجيب بقلم معلم إلى زميل له يعتذر عن غياب ولده : =

لابد منه لتكوين ملكة البيان الصحيح فى نفسه ، وبهذا وذاك فقط نزيل عن هذه اللغة وحشة الغربة ، التى تجعل الطالب يراها شيئا لا علاقة له بنفسه إلا فى درسها الخاص . .

ولا شك أن تحقيق مثل هذه المطالب أمر عسير ، ولكنه واجب لامندوحة عنه ، إذا كنا حقاً راغبين فى تصحيح أوضاعنا الثقافية ، وتكوين الجيل المؤمن بجمال هذا التراث العظيم .

وهنا أذكر فقرات صغيرة كتبتها ذات يوم فى إحدى نشراتنا المدرسية ، أرى من الخير أن أنهى بها هذا البحث السريع :

« . . من الخطأ الشائع فى أوساط الطلاب أنهم ينظرون إلى اللغة العربية كمادة تقاس بالدرجات ، فهم لا يعطونها من عنايتهم إلا بمقدار ما يؤمن لهم استكمال (المعدل) !. وهى نظرة خطرة ، سببها اتجاه الطالب إلى اعتبار دراسته جميعها معبرا إلى الشهادة ، دون التفات إلى صلة هذه الدراسة بوجوده كإنسان وكمواطن ! . ولذلك رأينا الكثيرين ممن نجحوا فى امتحانات الشهادات سرعان ما يسقطون فى امتحان الحياة ! . .

ومن أجل تصحيح نظرنا إلى لغتنا يجب أن نؤمن بما يلى :

١ – أن هذه اللغة هى الصلة الوثقى التى تربطنا بماضى أمتنا وتراثنا الإسلامى . .

= المكرم الأستاذ فلان . . .

بعد صباح الخير . . .

أخى الأستاذ الذى نعرفكم أن لابن ربيع لم حضر فى يوم الخميس وكان معذور مريض ، ولم استطاع المجىء إلى المدرسة فنرجو السماح عنه وانشاء الله ربنا يوفقكم لما فيه الخير .

أخيك

الأستاذ . . . . . .

ولولا ضيق المقام لحشدت عشرات النماذج الأخرى من هذا الطراز الحنكشى الذى يضحك ويبكى . . .

٢ ـ أنها الأداة الوحيدة للتعبير عن إحساسنا بالحياة ، وفهمنا لحقائقها . . .

٣ ـ أن كل كلمة نتعلمها من هذه اللغة ، وكل تعبير سليم نقتبسه من روائعها ، يضيف إلى شخصيتنا جزءا من الثروة العقلية التي تميز الإنسـان .

وأخيرا علينا أن نتذكر دائماً أن فى كل كلمة فكرة ، فبمقدار ما نملك من الكلمات نملك من الأفكار . » . . .

هـذا وبالله التوفيـق

الفهـــرس

صفحة

صفحة